عبد الباقي مفتاح

ختم القرآن

محيي الدين محمد بن العربي

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة

التصوف الإسلامي الأصيل الذي هو التعبير العملي عن مقام الإحسان في الدّين عرف في كل عصر مجدّدين يواصلون تثبيت أصوله في عين ماء الحياة القرآنية والسنة المحمدية , ويكيّفون منهاجه حسب تطور الزمان واستعدادات النفوس. ولا شك عند كل باحث منصف أن أعظم ترجمان عن معارف الصوفية كيفا وكمًّا هو الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن العربي (560 - 638 هـ). وقد تناقضت مواقف الناس منه بين مدح التقديس وقدح التنقيص، فرموه بالإلحاد أو الكفر أو الزندقة، وزعموا أنه يقول برفع التكليف الشرعي والإباحية، وقيل إنه رائد فلسفة وحدة الوجود، وقيل أنه ظاهري المذهب في العبادات وباطني في المعتقدات، وقيل إنه من أعلام اللغة العربية نثرا و شعرا، وقيل إنّه أعرف بكل فن من أهل كل فن، وقيل إنه من أعظم أولياء الإسلام وإنه الفرد الأكبر وقطب المقرّبين ومربّي العارفين، وقيل إنّه خاتم الولاية المحمدية الخاصة، فله أعلى مقام بعد الأنبياء والصحابة عليهم الصلاة والسلام. وأما مكتوباته – وفي مقدمتها (الفتوحات) و(الفصوص)– فقال عنها المنكرون إنها مشحونة بالإلحاد والعقائد الضالة، وقال عنها المناصرون إنها البحار الدافقة بأنفس جواهر الحقائق. وتوسط آخرون فقالوا إن منها ما هو مفيد وممتع، ومنها ما قد يضر بالمبتدئين وينفع أهل الفهم السليم. وتوقف آخرون في شأن الشيخ وكتبه.

ولكن الملاحظ هو أن أكثر المادحين والقادحين لم يطلعوا على سيرته ولا طالعوا تآليفه الكثيرة الغزيرة بجديّة وعمق، ومواقفهم ناتجة عن تقليد للمحيط الثقافي والعَقَديِ الذي تأثروا به، والباحث المنصف لا يكون موضوعيا في حكمه إلا إذ توفرت فيه شروط من أهمها:

- الصدق والإخلاص في طلب الحق.
- التجرد من كل موقف مسبق والنزاهة في البحث.

- الكفاءة في المستوى العلمي والمستوى الروحي اللائقين بكتب الشيخ، وهذا الشرط بالأخص قليل الوجود.
- الاطلاع على جل كتب الشيخ، وقد قيل إنها نحو:400كتاب منها الموسوعة الكثيفة الكبرى (الفتوحات المكية) التي تستلزم أوقاتا طويلة لمطالعتها وتأملها فضلا عن فهمها الفهم العميق الصحيح، وقليل جدا هم الباحثون– حتى المتخصصون منهم – من قرأها كلها بدقة وبفهم كاف.
- الاطلاع على سيرة الشيخ وعلاقاته مع محيطه ورجال عصره، فلا يحكم على شخص من خلال بعض أقواله فقط بل أيضا من خلال أعماله وأخلاقه ومواقفه وصلته بالناس، بل لا تفهم حقيقة الأقوال في كثير من الأحوال إلا في إطار تلك الأعمال والأخلاق والمواقف أي في إطار السيرة الكلية للشخص.

ومساهمة في توضيح معالم من سيرة وشخصية الشيخ الأكبر، تجرأتُ فكتبتُ هذا الكتاب، أقول: تجرأتُ لأني لست أهلا لهذا الميدان، وما دفعني إليه إلا حسن ظنّ أحد الإخوان الذي طلب مني كتابته، والهدف منه هو بيان الحقيقة القرآنية المحمدية الأصيلة للشيخ محيْ الدين فسيرته – مع شهادات معاصريه من العلماء والصالحين والملوك – تظهِر أنه كان نموذجا كاملا للرجل القرآني الذي اتّحد عشقه في التطبيق العملي والوجداني قلبا وقالبا للسنة المحمدية. وجُلّ من حظي بالقرب من دائرته – من أفراد أسرته والشيوخ والعلماء والأولياء الذين صحبهم والتلاميذ والمريدين الذي صحبوه والحكام والملوك الذين طلبوا مشورته في المشرق والمغرب – ربّاهم على التحقق بالقرآن والتخلق بالشمائل المحمدية، فسرى فيهم حاله ودخلوا في زمرة من قال عنهم رسول الله ε وكفى بذلك فضلا:" أهل القرآن هم أهل الله وخاصته".

وقد كتبت في السنوات الأخيرة تآليف جيدة عموما في سيرة الشيخ محي الدّين، منها:

*بالعربية:

- « الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي – ترجمة حياته من كلامه» للأستاذ محمود محمود الغراب طبع بدمشق سنة 1403 هـ.
-« ترجمة الشيخ الأكبر » للشيخ محمد إبراهيم محمد سالم -مصر-
-« شمس المغرب»للأستاذ محمد علي حاج يوسف-حلب 1427هـ-

*وبالفرنسية:
-«ختم الأولياء» لميشال شودكيفيكز –باريس- 1986
-«ابن عربي أو البحث عن الكبريت الأحمر» لكلود عداس-باريس 1989-
- «محيط بلا ساحل، ابن عربي الكتاب والسنة» لميشال شودكيفيكز-باريس -1995

*وبالانجليزية:
-«الرحمة المطلقة ، الحياة الروحية والفكرية لابن العربي»-لستيفن هرتتشتاين-أكسفورد 1999-

ιοοοοοπ

رموز المراجع هي كالتالي:

I, II, III, IV المجلد الأوّل أو الثاني أو الثالث أو الرابع لكتاب (الفتوحات المكية) للشيخ، طبعة دار صادر بيروت وكلما قلت باب كذا فأعني به الباب المذكور من الفتوحات.

- **ر**: كتاب (روح القدس في محاسبة النفس) للشيخ، مطبعة العلم دمشق 1970م.
- **دي**: ديوان الشيخ، دار الكتب العلمية بيروت 1416هـ/1996م.
- **م**: (محاضرة الأبرار) للشيخ.
- **S**: كتاب بالفرنسية"les soufis d'Andalousie"، ترجمه من الانجليزية Gérard Lecomte وهو كتاب (الدرة الفاخرة) للشيخ، دار السندباد 1979 باريس.
- A: كتاب " Ibn Arabî ou la quête du soufre rouge " بالفرنسية لـ: كلود عدّاس .Editions Gallimard 1989
- R,G: كتاب عثمان يحي حول تصانيف الشيخ وعنوانه بالفرنسية:
(Histoire et Classification de l'œuvre d'Ibn Arabî) Répertoire général.
نشره المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1964.
- هذه المراجع مذكورة في النص متبوعة برقم الصفحة و بين قوسين.

الفـــــصل الأول

أســــــرة الـشيـــــــخ

والد الشيخ مع رجال صالحين

مجزوء الرجز

وإنني ابن حاتم بيت السماح والكرم

(626II)

في العهد الأول من الفتح الإسلامي للأندلس، هاجرت بيوتات من عرب بني طي من اليمن إلى الأندلس، واستقر بعضها بجنوب مرسية. ومن إحدى أسرها ذات المكانة الاجتماعية المرموقة – لأصالتها العربية وتميّز رجال منهم بالعلم والصلاح، ونفوذ بعضهم في الأوساط الحاكمة – ظهر والد الشيخ وهو علي بن محمد العربي بن عبد الله من ولد عبد الله بن حاتم أخي الصحابي الأمير عدي (ت:68 هـ) بن حاتم المشهور بكرمه (ت: قبل الهجرة ب17 سنة). وكان للوالد علي مسؤولية عالية في جيش حاكم مرسية أبي عبد الله محمد بن سعيد بن مردنيش الذي صارع و قاوم الموحّدين مدة نحو 15 سنة. وفي النهاية تغلبوا على جيشه عام مولد الشيخ سنة 560 وحاصروه بمرسية مدّة سبع سنوات. ولما مات في رجب عام 567 ذهب أبناؤه مع كبراء مرسية إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي تولى الخلافة إثر وفاة والده عام 558 (1162م) وبايعوه فقلّدهم مسؤوليات. وهكذا انتقل علي بن محمد العربي مع أسرته إلى اشبيلية عام 568 ليستقر عاملا في الشؤون العسكرية بديوان السلطان طيلة خلافة أبي يعقوب يوسف (ت: 580) ومدة خلافة ابنه أبي يوسف يعقوب المنصور (ت:594).

كان الوالد علي مع اشتغاله بالعسكر والسياسة مهتما بالعلم ومجالسا لأهله فكان صديقا للفقيه قاضي قرطبة الفيلسوف ابن رشد الذي كان طبيبا لأبي يعقوب يوسف.

وكان تقيا ورعا محبا للصالحين، تاليا للقرآن حسبما يظهر من قصّة ذكرها الشيخ وقعت له وعمره حوالي 12 سنة. يقول: (VI: 648، طبعة 1293): " مرضت فغشي عليّ في مرضي بحيث أني كنت معدودا في الموتى. فرأيت قوما كريهي المنظر يريدون إذايتي. ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنّي حتى قهرهم؛ فقلت له: من أنت؟ قال: أنا سورة **[يس]** أدفع عنك. فأفقت من غشيتي تلك، وإذا بأبي رحمه الله عند رأسي يبكي وهو يقرأ سورة **[يس]**، وقد ختمها فأخبرته بما شهدته". لكن الوالد عليّا لما رأى ابنه محمدا – وهو في سن المراهقة – يتجرد لسلوك طريق الصالحين ولا يجد راحة إلا في الخلوة مع الزهد المطلق في أحوال أهل الدنيا ونفور من أوساط السلطان، لم يشجعه ولم يعارضه. وكأنه بقى مترددا بين جاذبين متعاكسين: جاذب التخوف عليه لخروجه عن الدائرة الاجتماعية المرموقة للأسرة ومزاياها المادية والنفسية، وجاذب الإعجاب به لتميزه بمحاسن الأخلاق وبفيضان علوم عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل. ومع تقدّم السن تغلب عليه هذا الجانب الثاني و تولّد في قلبه إقبال على الحق تعالى لأنّ الابن محمّدا أحاط والده باطنياً وتدريجيا بهمّة مريبة غير مباشرة لكن عازمة على إلحاقه بدوائر الصالحين. وفي هذا الإطار جمع بينه وبين أولياء ذوي أحوال مؤثرة.منهم أبو محمد عبد الله القطان الذي وصفه الشيخ بما خلاصته (ر: 107): " كان مفتوحا عليه في القرآن و لا يتكلم إلا به ولا يرى غيره. زاهدا، لم يجمع درهمين، يصدع بالحق والنهي عن المنكر حتى عرض نفسه للقتل؛ قاصما للجبارين، ما تفوته غزوة قط في الروم راجلا. صاحبته وكان يحبني كثيرا. استدعيته ليلة ليبيت عندي، فلما أخذ مجلسه جاء والدي رحمه الله، وكان من أصحاب السلطان، فلما دخل سلم عليه وكان والدي قد شاب. فلما صلينا العشاء قدمت له الطعام وقعدت آكل، وانضمّ والدي يغتنم بركته، فردّ إليه وجهه وقال: يا شيبة منحوسة، أما آن لك أن تستحي من الله ؟ إلى متى تصحب هؤلاء الظلمة ؟ ما أقلّ حياءك **!** أأمنت من

الموت أن يأتيك وأنت على شر حالك ؟ أما لك في ابنك هذا – وأشار إليّ – موعظة ؟ شاب صغير في شهوته قمع هواه وطرد شيطانه و عدل إلى الله تعالى فصاحب أهل الله . وأنت شيخ سوء على شفى حفرة من النار. فبكى والدي واعترف وأنا في ذلك كله أتعجب. وأخباره كثيرة. جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي بقرطبة ومشينا معه إلى منزله رضي الله عنه". وصفات هذا المجاهد الصالح هي صفات الحواري الذي قال عنه الشيخ:" إنّه رآه سنة 586 ولا يكون في كل زمان إلا واحدا كالزبير بن العوام رضي الله عنه في زمان رسول الله ε. وأهّم ميزة فيه جمعه في نصرة الدّين بين السيف و الحجة فأعطى العلم و العبارة مع الشجاعة والإقدام ومقاومة التحدي " (8: II).

وفي قرطبة أيضا خلال سنة 586، حمل الشيخ والده إلى وليّ كبير هو أبو محمد مخلوف القبائلي (ر:115) الذي يقول عنه ما خلاصته: " سكن قرطبة حتى مات عن إذن رسول الله ε . حملت إليه والدي فدعا له، وكان مجاب الدعوة. إذا دخلتَ بيته أخذك الحال قبل أن تراه. فإذا رأيته رأيت منظرا عظيما. لا يفتر عن الفكر والذكر، سريع العبرة، يعمّ بدعائه كل الخلق. في الليلة التي زرته، رأيت في المنام جميع النبيين من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام قد نزلوا. قال لي هود: جئنا عُوادا زائرين أبا محمد. ولما استيقظت وجدته قد مرض من تلك الليلة فلبث أياما ومات".

وبعد هذه الواقعة بأقل من أربع سنوات، أي في عام 590، عرّف الشيخ والده بأحد كبار الشيوخ من خلفاء الشيخ أبي مدين في تونس وهو عبد العزيز المهدوي الذي سنعود لذكره فيما بعد.

وهكذا رقّى الشيخ والده إلى أن أصبح من رجال نَفَس الرحمن (انظر أوصافهم في الأبواب من الفتوحات: (15 – 24 – 34 – 35 – 49) قال عنه: وكان أبي كثيرا ما تنشد:

ألحمد لله ليس الرزق بالطلب ولا العطايا على فهم ولا أدب
إن قدّر الله شيئا كنت نائله وليس ينفعني حرصي ولا نسبي

وما مات إلا وعينه قريرة بحصوله على الفتح الكبير كما يظهر من النّص الذي ختم الشيخ به الباب 35 في معرفة الشخص المحقق في منزل الأنفاس وأسراره بعد موته: " ومن صفات صاحب هذا المقام في موته، إذا نظر الناظر إلى وجهه وهو ميت يقول فيه حي. وإذا نظر إلى مجس عروقه يقول فيه ميت، فيحار الناظر فيه، فإنّ الله جمع له بين الحياة و الموت في حال حياته وموته. وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله يكاد أنّا ما دفناه إلا على شك ممّا كان عليه في وجهه من صورة الأحياء، وممّا كان من سكون عروقه وانقطاع نفَسه من صورة الأموات.وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرني بموته وأنّه يموت يوم الأربعاء. وكذلك كان. فلما كان يوم موته و كان مريضا شديد المرض، استوى قاعدا غير مستند، وقال لي:" يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء" فقلتُ له: " جزاك الله يا ولدي عني خيرا. كل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه، وربّما كنت أنكر بعضه، هو ذا أنا أشهده". ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء لها نور يتلألأ، فشعر بها الوالد، ثم إنّ تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه، فقبّلته ووادعته وخرجت من عنده وقلت له:" أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك". فقال لي: "رح ولا تترك أحدًا يدخل عليّ ". وجمع أهله وبناته، فلمّا جاء الظهر جاءني نعيه. فجئت إليه، فوجدته على حال يشك الناظر فيه بين الحياة والموت. وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم. فسبحان من يختص برحمته من يشاء".

هكذا توفي والد الشيخ عام 590 في اشبيلية في نفس السنة التي سافر فيها إلى تونس، وعمر الشيخ حينذاك 30 عاما.

]]]]]]

أمّ الشيخ مع نساء صالحات

الكامل

إني امرؤ من جملة الأنصار فإذا مدحتهم مدحت نجاري

(I، 267)

في هذا البيت عبّر الشيخ عن قوله قبله: " وكانت أمّي تنسب إلى الأنصار". فيبدو أنّ أمّه –واسمها نور– من أسرة عربية أنصارية اندمجت بالمصاهرة مع قبيلة صنهاجة البربرية في نواحي الغرب الجزائري وتلمسان، وانتقل أفراد منها للأندلس.

كان الشيخ عظيم البر بأمه حنونا عليها، لا يسافر إلا بإذنها ولا يفعل شيئا تعلمه إلا برضاها. فتراه وهو في الثلاثين من عمره يستأذنها في سفر لزيارة أحد الأولياء (ر:111).

وكما ربّى الشيخ والده إلى أن مات مفتوحا عليه، كذلك فعل بأمه رباها روحيا، فكان يحملها معه لزيارة صالحات عارفات، منهنّ نونه فاطمة بنت ابن المثنى التي يصفها الشيخ بما خلاصته:

[أبوها من قرطبة. دخلت الطريق وهي شابة، ثم تزوجت رجلا تقيا أصيب بالجُذَام، فخدمته 24 سنة إلى أن مات. فتجردت للعبادة زاهدة فيما سوى الله؛ عرض الله تعالى عليها ملكة فلم تقف مع شيء منه. كانت محبة عارفة والهة في الله. من رآها يقول عنها: "حمقاء". فتقول: " الأحمق من لا يعرف ربّه" دائمة الذكر والفرح بالله. ويحضر مجلسها مُؤمِنُو الجن. كانت قليلة الأكل جدا. صحبتها وانتفعت بها في اشبيلية ورأيت لها كرامات، منها أنها تدعو الله بفاتحة الكتاب في أي مطلب فيجيبها في الحين، فكانت رحمة للعالمين. عرفتُها وعمرها نحو 95 سنة وتحسبها بنت أربع عشر سنة من لطافتها. خدمتها سنين وبنيت لها بيت من قصب على قدر قامتها، فما زالت تعبد الله فيه إلى أن درجت . كانت تقول لي:« أنا أمّك الإلهية ونور أمّك الترابية » وإذا جاءت والدتي إلى زيارتها تقول لها: " يا نور، هذا ولدي وهو أبوك فبرّيه و لا تعقّيه". وكانت تقول مخاطبة مجالسيها:" ما منكم أحد يدخل عليّ إلا ببعضه ويترك بعضه في أغراضه من داره وأهله، إلا محمد بن العربي ولدي وقرة عيني، فإذا دخل عليّ دخل بكله، وإذا قام قام بكله، وإذا قعد قعد بكله، لا يترك خلفه من نفسه شيئا. وهكذا ينبغي أن يكون الطريق". (در: 126 / 135:II ، 347 ،621،/ III: 523). فقولها لأمه عنه: هو أبوك، إشارة لتربيته الروحية لها].

ومن العارفات اللواتي صحبهنّ الشيخ وهو في العشرينات من عمره ياسمينة شمس أم الفقراء التي يقول عنها ما خلاصته (در: 126 / III :35)

" عرفتها أوّل مرة وعمرها 80 سنة، واختلفت إليها مرارا بمرشانة الزيتون غير بعيد عن اشبيلية مع عبد الله المورورى. كانت صالحة أوّاهة الغالب عليها الخوف مع الرضى. ما لقيت قي الرجال مثلها في الحمل على نفسها. كبيرة الشأن في المعاملات والمكاشفات. اختبرتها مرارا في باب الكشف فوجدتها متمكنة فيه، كانت تستر أحوالها جدا، ورأيت لها بركات كثيرة".

ومن الصالحات اللواتي لقيهنّ الشيخ في اشبيلية ثم في مكة وسافرا معاً من مكة إلى القدس زينب القلعية التي يقول عنها (174:S) ما ملخصه: " أصلها من قلعة بني حماد. كانت من أهل القرآن وأزهد أهل زمانها. فرغم جمالها الرائع وثروتها الكبيرة، تجردت من الدنيا وجاورت مكة: صحبت شيوخا كبارا منهم ابن قسوم، والشبربولي، وميمون القرمزي، والمحدث الزاهد أبو الحسين ابن الصائغ، وأبو الصبر أيوب الفهري. لم أر أشد منها محافظة على أوقات الصلاة، وكانت من أذكى الناس. إذا ذكرت الله ترتفع في الهواء عاليةً، ولا تعود للأرض إلا بعد الانتهاء من الذكر".

ومن الصالحات اللواتي عشن بجوار مكة ولقيهن الشيخ (174:S) أَمَةُ أمير المؤمنين التي وصفها الشيخ بما خلاصته:

"كانت واحدة زمانها في أخلاق الفتوة وخدمة الفقراء والصدق في الطريق. شديدة المجاهدة لنفسها وتعظيم ربها. تواصل الصيام، قويّة الحال، ونالت مقام طيّ الأرض، فكانت تقطع المسافات البعيدة في أسرع وقت".

ومنهن أيضا تلك التي قال عنها (524:II):" ورأيت المرأة الصالحة بمكة فاطمة بنت التاج. ضربها أبوها ضربا مبرحا من غير جناية، فما أحسّت بذلك، وكانت تحسّ

بشيء يحول بين ظهرها ومواقع السياط (...) وقد جرى لنا مثل هذا في بدايتنا في حكاية طويلة ".

وماتت نور أم الشيخ وكل منهما قرير العين بالآخر.ماتت بعد وفاة أبيه، زوجها، بأشهر وعمر الشيخ حوالي 30 سنة.

وواصل الشيخ برّه بوالده بعد وفاته. فكان يُهدي له ولأمّه وأجدادهما ثواب بعض القُربات، حتى إنه لم ينس وصل رحم مهجورة عند أكثر الناس، إذ قال في الباب 454 من الفتوحات (IV: 69):

[إثبات النسب بطريقتين: طريق أرفعُ نسبي (أي نسب الله هو التقوى)، وطريق الرحم شجنة من الرحمن، وهو قوله: الولد سر أبيه. فكم بين رجل يأتي يوم القيامة عارفا بنسبه، مدل بقرابته، متوسلا إلى الرحمن برحمه، وبين من يأتي جاهلا بهذا كله، يعتقد الأجنبية وبُعد المناسبة. وإن علم بالخير فيكون عنده بمنزلة كون أبيه آدم منه وهو ابن آدم، فيجعل هذا مثل ذلك. فإن هذا النسب لا يعطي السعادة عنده، وهو غالط بل يعطي و يعطي. ولقد رأيت ذلك ذوقا بمكة في عمرة اعتمرتُها عن أبينا آدم υ فظهر لي ذلك في مبشرة رآها بعض الناس لنا وللجماعة التي أمرتها في تلك الليلة بالاعتمار معي عن أبينا آدم. رأى فيها من التقريب الإلهي وفتح أبواب السماء وعروج تلك الجماعة وتلقاهم الملأ الأعلى بالتأهيل والسهل و الترحيب إلى أن بهت وذهل مما رأى. فإن رحم آدم مقطوعة عند أكثر الناس من أهل الله، فكيف حال العامة في ذلك. ولقد وصلتها بحمد الله، ووُصِلت بسببي جرى فيها على سنتي. وكان عن توفيق إلهي، ولم أر لأحد في ذلك قدما أمشى على أثرها فيها.فحمدت الله على الإنعام، وما اهتديت إلى ذلك، إلا بالنسب الإلهي...].

وكثيرٌ هم الذين اقتدوا بالشيخ في مثل هذا العمل. وقد ذكر الفقيه المحدث الأديب الصوفي أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العيّاشي المغربي

(ت:1090هـ) في رحلته (ماء الموائد) أن شيخه الملا إبراهيم بن الحسن الكوراني خليفة الشيخ الأكبري صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي (ت: 1071هـ) أمره خلال صحبته له بالحرمين الشريفين بالاعتمار عن آدم υ، وقال له: إن الشيخ محيي الدين أرشد أصحابه لذلك لما جرى بينهم الحديث الذي فيه قول الله جل جلاله لآدم υ :" أخرج بعث النار". فقال لهم: تعالوا نهدي لأبينا هدية نتخذ بها عنده يدا حتى لا يخرجنا فيمن يخرج، وخرجوا جميعا للتنعيم واعتمروا.

كذلك نجد الشيخ أبا عبد الله الكنسوسي المغربي (ت: 1294هـ)، - وهو من خلفاء الشيخ أحمد التجاني (ت:1230هـ) – في رسالة بعثها لبعض أتباعه يذكر لهم كلام الشيخ محي الدين السابق ثم ينصحهم بإهداء ثواب بعض أذكراهم للأبوين آدم وحواء عليهما السلام.

عمّ الشيخ وخالاه

البسيط

الله أشأ من طيّ وحُولان جسمي فعدّلني خلْقا وسوّاني

(456:III)

الطويل

فأخْوالنا حُولان والعمّ طيّء بُناة العُلى في كل عال وسافل

(د:252)

وحُولان قبيلة عربية تنسب إلى حمير، كانت تسكن بين صنعاء ومأرب باليمن.

يقول الشيخ عن عمه ما خلاصته (د — ر: 96 – 98 / 85:I):" وهو شقيق والدي أبو محمد عبد الله من أهل الله وخاصته. دخل الطريق وهو في الثمانين من عمره قبل موته بثلاثة أعوام على يد صبي صغير من أهل الله ,ومن المحتمل أن يكون هذا الصبي هو الشيخ محي الدّين نفسه عندما كان صغيرا ، وعظه فنهض إلى الله تعالى ملازما المجهادة والخلوة والسواحل. كانت له ختمة قرآن لازمة في كل يوم يهب نصفها لذلك الصبي، أدرك مقاما عاليا في الولاية، فكان من أصحاب القلوب المتعشقة بأنفاس الرحمان. يعرف طلوع الفجر وهو في بيته بطريق الشم. وكان يخبرنا بعجائب، منها تحديده ليوم موته بأربعة وأربعين يوما بعد وفاة ابن له. فمات كما قال وهو يذكر الله مستقبل القبلة بعد صلاة العشاء. شاهدنا ذلك منه قبل رجوعنا إلى الطريق" أي و الشيخ مازال صبيا.

ويتكلم الشيخ عن خاله الأول، فيقول ما خلاصته (II:17-18):" كان خالنا أبو مسلم الخولاني من أكابر العبّاد.كان يقوم الليل.فإذا أدركه العياء، ضرب رجليه بقضبان كانت عنده قائلا لها: أنتما أحق بالضرب من دابتي. أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يفوزوا به دوننا؟ والله لأزاحمنّهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالا. والعبّاد هم صلحاء الظاهر والباطن، قائمون بالفرائض، قد عصموا من الغل والحسد والحرص المذموم:[**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**] (16)

عاملوا الحق بالإجلال وتخلقوا بأوصاف الرحمن: [**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**] (63) لقينا منهم جماعة كثيرة ذكرناهم في كتبنا، ورأينا من أحوالهم ما تضيق الكتب عنها".

أما خاله الثاني فيقول الشيخ عنه ما خلاصته (18:II):" ومن الأولياء الزهاد وهم الذين آثروا الحق على الخلق و على أنفسهم، فكل أمر الله فيه رضى قاموا به. تركوا الدنيا عن قدرة. كان منهم خالي يحي بن يغان. وكان قد ملك مدينة تلمسان. وكان في زمانه فقيه عابد منقطع هو أبو عبد الله التونسي، فبينما هو يمشي بتلمسان إذْ لقيه خالنا في خوله وحشمه وفاخر ثيابه، فسلم عليه وسأله: " هذه الثياب التي أنا لابسها تجوز لي الصلاة فيها؟ فضحك الشيخ. فقال له مما ممّ تضحك ؟" قال: " من سخف عقلك وجهلك بنفسك وحالك.مالك تشبيه عندي إلا بالكلب يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذراتها، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول. أنت وعاء مليء حراما وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقك". فبكى الملك ونزل عن دابته و خرج عن ملكه من حينه ولزم خدمة الشيخ. فمسكه الشيخ ثلاثة أيام ثم جاءه بحبل فقال له:" أيها الملك قد فرغت أيام الضيافة قم فاحتطب". فكان يأتي بالحطب على رأسه ويدخل السوق والناس ينظرون إليه ويبكون، فيبيع ويأخذ قوته ويتصدق بالباقي.

فكان الشيخ إذا جاءه الناس يطلبون أن يدعو لهم يقول لهم :" التمسوا الدعاء من يحي بن يغان، فإنه ملك فزهد، ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربما لم أزهد". ولم يزل في بلده ذلك حتى درج ودفن خارج تربة الشيخ وقبراهما يزاران ".

وقد ترجم التادلي (ت:617) في كتابه (التشوف إلى رجال التصوف) لخال الشيخ هذا وسماه: أبو زكرياء بن يوغان من أمراء صنهاجة وشيخه أبو محمد عبد السلام التونسي. وقال عنه أنه لما مات شيخه انتقل إلى الصحراء ومعه ناقتان. وبعد مدة قدم وقال:" رأيت في النوم شيخي يقول لي: لا إله إلا الله. يا يحي هجرتنا فلا تزورنا ؟ فعلمت أن الله أراد قبض روحي بهذه الأرض". فمكث شهرين ومات عام 537 ودُفن في روضة شيخه بالعبّاد في ضاحية تلمسان، حيث دفن بجوارها بعد

ذلك أبومدين (ت:589). وحدثوا عنه أن أهل تلمسان قحطوا فاستسقوا به فسقوا.

شقيقتا الشيخ

الوافر

ألا حيّ القبور وساكنيها وحيّ شمسها أمّ العلاء
بكيت وكيف لا أبكي عليها سمية بنت خير الأنبياء

هذا مطلع قصيدة نظمها الشيخ في رثاء أخته فاطمة أم العلاء (كتاب الكتب ص 35 من مجموع الرسائل).

المراجع لا تذكر أنّ للشيخ إخوة سوى شقيقتين، الكبرى أمّ السعد والصغرى أمّ العلاء.

ومات والدهم ولم تتزوجا بعد، ذكرهما الشيخ في كتابه (الدرة الفاخرة) خلال حديثه عن أحد الشيوخ الذين صحبهم في بداية سلوكه الطريق فقال عنه ما خلاصته:(I:206/II:15/III:488/در:82 – 83): " وهو صالح العدوي البربري. كان بالله عارفا و للقرآن في جميع أوقاته تاليا.لا يتكلم إلا نادرا ولا يدخر شيئا لغد البتة. يعمل على مقام السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب. حالته تشبه حالة أويس القرني. ساح متعبدا أربعين سنة ولزم بإشبيلية مسجد الرطند أربعين سنة على التجريد، فكان من أكبر المنقطعين إلى الله. ما رأيت على قدمه مثله. وكان من الرجال الذين هم في كل زمان خمسة وهم رجال الاشتياق، فالأشواق تقلقهم في عين المشاهدة، وهم من ملوك أهل طريق الله. كل رجل منهم مختص بحقيقة صلاة من الفرائض، بهم يحفظ الله وجود العالم.آيتهم: **[حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ**

وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)]. فكان لا يفتر عن صلاة في ليل ولا نهار، وكان من أكابر الملامية المسمين بالأقطاب المدبّرين الذين بأيديهم علم التدبير والتفصيل من الآية: (يدبّر الأمر يفصّل الآيات) لهم في كل شيء آية , ولهم حقيقة ليلة القدر وكشفها وسرّها ومعناها، وهي حظهم من الزمان، فانظر ما أشرفهم. كان صالح يفتقد أيام الحج ويشهد مع الحجاج بمكة، تطوى له الأرض. كان له بنا تعلق وصحبته 13 سنة وانتفعت به. وأخبرني بأمور تقع في المستقبل فرأيتها كلها. سألني مرة عن أختي فأجبته بأنّ كبراهنّ موعودة بالزواج مع الأمير أبي العلاء بن غازون. فقال لي:" لن يقع هذا الزواج لأن هذا الأمير وأباك سيموتان وستتكفل بأختيك وأمك ، وسيحاول أقاربك حينئذ أن تترك التجرد إلى الطريق، فإياك أن تذوق الخل بعد العسل". وتحقق كل ما ذكره، فمات الأمير قبل نهاية السنة دون أن يتزوج بأختي. وماتت أمي بعد ذلك بست سنوات – بعد وفاة الوالد – واقترح عليّ أمير المؤمنين أن ألتحق بديوانه وأن يُزوج أُخْتَايَ. فرفضت وسافرت بهما مع أهلي وابن عمّ لي إلى فاس وزوجتهما بفاس".

حدث ذلك كله في بداية عام 593 وعمر الشيخ 33 سنة، وأمير المؤمنين المذكور هو الخليفة الموحدي المشهور أبو يوسف يعقوب المنصور(ت:594). وهكذا صرف الشيخ أختيه عن أوساط السلاطين إلى دائرة الصالحين بفاس. وكانت الأختان في مستوى رفيع من التقوى و العلم والأدب وبينهما وبين أخيهما محي الدّين حب وحنان كبير. يظهر ذلك من رسالة تعزية بليغة طويلة بعثها الشيخ لأم سعّد عند وفاة أمّ العلاء و فيها يقول:

" إلى محل الوالدة الأخت المكرمة أمّ السعد، بلغ الله بها حيث اسمها، وقوّى صبرها وربط على قلبها وأعظم أجرها ويدعو لها، وقد اتصل به الأمر الذي لا بد منه ولا محيص لمخلوق عنه: وفاة البنت الشهيدة الأخت الطيبة السعيدة الدرة البيضاء سمية فاطمة الزهراء، المرجو لها الغفران والروح و الريحان في دار الكرامة والرضوان إلخ..."

وكان من عادة الشيخ – كما يفعل كثير من الصالحين – أن يذكر على المتوفّى سبعين ألف مرة: لا إله إلا الله بنية عتقه من النار. ففي باب الوصايا الأخير من الفتوحات(474:IV) يقول ناصحا:

" والذي أوصيك به أن تحافظ على أن تشتري نفسك من الله بعتق رقبتك من النار بأن تقول: لا إله إلا الله سبعين ألف مرة. فإن الله يعتق رقبتك من النار أو رقبة من تقولها عنه من الناس. ورد ذلك في خبر نبوي". ولقد أخبرني أبو العباس أحمد بن علي بن ميمون بن آب التوزري عرف بالقسطلاني بمصر قال في هذا الأمر:" إنّ الشيخ أبا الربيع الكفيف المالقي كان على مائدة طعام، وكان قد ذكر هذا الذكر و ما وهبه لأحد. وكان معهم على المائدة شاب صغير من أهل الكشف من الصالحين. فعندها مدّ يده إلى الطعام بكى فقال له الحاضرون: ما شأنك تبكي؟ فقال: هذه جهنم أراها وأرى أمي فيها. وامتنع من الطعام فأخذ في البكاء. قال الشيخ أبو الربيع فقلت في نفسي: " اللهم إنك تعلم أنّي قد هللتُ بهذه السبعين ألفا وقد جعلتها عتق أمّ هذا الصبي من النار. هذا كله في نفسي". فقال الصبي: " الحمد لله، أرى أمي قد خرجت من النار وما أدري ما سبب خروجها " وجعل الصبي يبتهج سرورا وأكل مع الجماعة. قال أبو الربيع: فصحّ عندي هذا الخبر النبوي بكشف هذا الصبي، وصحّ عندي كشف الصبي بالخبر. وقد عملتُ أنا على هذا الحديث ورأيت له بركة في زوجتي لما ماتت".وذكر الشيخ عبد الغفار القوصي (ت:708) في كتابه (الوحيد في سلوك أهل التوحيد): إنّ الشيخ كان يقوم بهذا الذكر حتى لمن كانوا يعادونه ويؤذونه، شَفَاعَةً عند الله تعالى بأن يغفر لهم وعتقا لهم من النار. وكان أحيانا يقسّم السبعين ألفا من لا إله إلا الله مع بعض أصحابه، وسار على سنته هذه تلميذه صدر الدّين القونوي(318:A-319)".واستمرت هذه السنة عند جل أهل الطرق الصوفية إلى اليوم.

روى جلال الدين السيوطي في كتابه (تنبيه الغبي) في الدفاع عن الشيخ ابن العربي : (أن رجلا من دمشق فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشرا ، فلما مات هذا الرجل حضر ابن العربي جنازته ثم رجع فجلس ببيته وتوجه للقبلة . فلم جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل ، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء ، ثم التفت مسرورا وطلب العشاء وأكل . فقيل له في ذلك ، فقال : التزمت مع الله أن لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي يلعنني ، وذكرت له سبعين آلف " لا إله إلا الله " ، فغفر الله له) .

وفي هذا السياق ما نجده في نهاية كتابه الفتوحات المكية ، فقد ختمه بدعاء طويل شامل ثم سأل الله أن يجعل مثل ذلك لكل المسلمين والمسلمات " ... ومن عرفني وسمع بذكري أو لم يعرفني ... ومن ظن بي خيرا ومن لم يظن بي خيرا " . ثم قال : " اللهم إني قد تصدقت بعرضي ودمي ومالي على عبادك فلا أطالبهم بشيء من ذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة وأنت الشاهد علي بذلك " ، وختم بالصلاة على النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

مكانة المرأة عند الشيخ – زوجات الشيخ وأولاده

الكامل

إنّ النساء شقائق الذكران في عالم الأرواح والأبدان

(87:III)

مجزوء الرجز

سرّ لنا وكن له وجود خلق مستمر

(يعني سر النكاح)

لولا النتائج لم يكن للسر معنى في البشر
(114:III)

كثيرا ما فصّل الشيخ مكانة ودور المرأة و النكاح في الوجود، وذلك بكيفية متميزة لم يماثله فيها كتاب (مثلا:I: ب11 – ب22ص180/II:ب78 ب 108-ب178-198 فصل 35 – ب 270 / III: ب 324-7 ب 356 ص 256 – ب 382 – ب 389 / IV:84 – 454) (فصوص ب1/ ب 27)

فمكانتها عنده تُضاهي حقيقة الحقائق أو أمّ الكتاب مفتاح الوجود من حيث احتضان رحمها لأكمل واجمع صورة أي الإنسان. وهي تضاهي النّفس الكلية أي اللوح المحفوظ المنفعل عن القلم الأعلى انفعال حواء عن آدم عليهما السلام والقابل لماء مداده الدافق. وهي تُضاهي الطبيعة الكلية المنفعلة للأمر الإلهي لإظهار صور الوجود. ولهذا فشهود الحق فيها هو أكمل شهود. ومع أنّ للرجل عليهنّ درجة لكونه هو الأصل، فقوتهنّ أعظم قوة. يقول الشيخ ما خلاصته:

" صورة رجوع العبد إلى الله في محبة النساء أن يرى أنّ الكل أحبّ بعضه وحنّ إليه، فما أحب سوى نفسه، لأنّ المرأة في الأصل خلقت من الرجل من ضلعه القصير. فينزلها من نفسه منزلة الصورة التي خلق الله الإنسان الكامل عليها وهي صورة الحق. فجعلها الحق مجلى له. وإذا كان الشيء مجلى للناظر فلا يرى الناظر في تلك الصورة إلا نفسه. فإذا رأى في هذه المرأة نفسه، اشتدّ حبّه فيها لأنها صورته التي هي صورة الحق. فما رأى إلا الحق، ولكن بشهوة حب والتذاذ وصلة يفنى فيها فناء حق بحب صدق، وقابلها بذاته مقابلة مثلية، ولذلك فني فيها بكله، فأمر بالاغتسال من النكاح ليرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه. فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهودا في منفعل. وإذا شاهده في نفسه شاهدة في فاعل. وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تَكَوَّنَ عنه – أي المرأة– كان شهوده

في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في المرأة أتم و أكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل. فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء لكمال شهوده الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا. فإنه غني عن العالمين. وإذا كان الأمر من وجه هذا الغنى ممتنعا، فشهود الحق في النساء أعظم شهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح وهو نظير التوجه الإلهي على من خلقه على صورته ليخلقه فيرى نفسه.أمّا الطريقة الأخرى في حبّ النساء فإنهن محال الانفعال والتكوين بظهور أعيان الأمثال في كل نوع. ولا شك أنّ الله ما أحبّ أعيان العالم في حال عدم العالم إلا لكون تلك الأعيان محال الانفعال. فلما توجه عليها من كونه مريدا قال لها: "كن".فكانت. فظهر ملكه بها في الوجود، وأعطت تلك الأعيان لله حقه في ألوهيته، فكان إلها، فعبدته تعالى بجميع الأسماء. فما حُبّب للنبي ρ النساء إلا بالمرتبة وأنهنّ محل الانفعال، فهنّ له كالطبيعة للحق التي فتح فيها صور العالم بالتوجه الإرادي والأمر الإلهي. فإذا أحبّ المرأة لما ذكرناه فقد ردّه حبه إلى الله تعالى فأحبه الله تعالى برجعته إليه ...النساء جعلهن الله زهرة حيث كنّ، وهنّ فتنة يستخرج الحق بهنّ ما خفي عناّ فينا، مما هو به عالم، ولا نعلمه من نفوسنا، فتقوم به الحجة لنا وعلينا، وهذا المقام أعطانيه الحق بمدينة فاس سنة 593، قبل ذلك ما كان لي... فالنكاح أفضل نوافل الخيرات. والقطب يعلم من تجلي النكاح ما يحرضه على طلبه، فإنه لا يتحقق له و لا لغيره من العارفين عبوديته أكثر مما يتحقق له في النكاح، إذ هو التجلي الأعظم الذي خفي عن الثقلين إلا من اختصه الله به. ويشترك الرجال و النساء في جميع المراتب حتى في القطبية. ولا يحجبك قول رسول الله ρ:" لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". فنحن نتكلم في تولية الله لا في تولية الناس، والحديث جاء فيمن ولاه الناس. ولو لم يرد قوله ρ :" إنّ

النساء شقائق الرجال". لكان فيه غُنْيَةٌ. أي كل ما يصح أن يناله الرجل من المقامات والمراتب والصفات يمكن أن يكون لمن شاء الله من النساء".

قوله عن إمكانية نيل المرأة القطبية يعني بها القطبية الجزئية لدائرة من دوائر الولاية أو مقاماتها، و لا يعني به قطبية الخلافة العظمى التي لا يكون فيها في كل زمان ومكان إلا فرد واحد يسمىّ بالغوث. لأنه من الثابت المجمع عليه عند أهل الحق أنه لم تكن امرأة قط نبية أو رسولة أو قطبة مفردة لجميع أهل زمانها. واستثنى بعضهم فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فقيل أنها ورثت القطبانية من أبيها ρ فمكثت فيها طيلة الأشهر التي عاشتها بعده. ولكن مقامها في الحقيقة أجل وأوسع وأشرف، وسورتها هي التي اختص بها أبوها دون سائر المرسلين، أي أمّ الكتاب وكما روي عن أحد الأئمة: لا يقاس أحد من العالمين بآل البيت الأقربين. وقد أجْمَعَ أهل الحق على أن الصحابي أفضل من القطب الذي هو أفضل أهل زمانه. فكيف بفاطمة بضعة رسول الله ρ التي وصفها أبوها أنّها سيدة نساء العالمين.

أمّا عن علاقات الشيخ الشخصية بالمرأة فلنسمعه وهو يقول(IV:84-85):

" كنت من أكره خلق الله تعالى في النساء وفي الجماع في أول دخولي في هذا الطريق. وبقيت على نحو ذلك نحوا من ثماني عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام – يعني سرّ النكاح المحمدي – وكان قد تقدم عندي خوف المقت. لذلك لما وقفت على الخبر النبوي أن الله حبّب النساء لنبيه ρ فأحبّهن بتحبيب الله إليه. فلما صدقت مع الله في التوجه في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حببّه الله لنبيه، أزال عني ذلك بحمد الله، وحبّبهن إليّ، فأنا أعظم الخلق شفقة عليهنّ وأرْعى لحقهن، لأني في ذلك على بصيرة، وهو عن تحبّب لا عن حب طبيعي. ولا

يعلم قدر النساء إلا من علم وفهم عن الله ما قاله في حق زوجتيْ رسول الله ρ عندما تعاونتا عليه وخرجتا عليه كما ذكر في سورة التحريم. وجعل في مقابلة هاتين المرأتين في التعاون عليه من يعاون رسول الله ρ وينصره وهو الله وجبريل وصالح المؤمنين ثم الملائكة بعد ذلك...".

لكن متى وأين تزوج الشيخ أوّل مرة ؟ من المحتمل أن يكون ذلك بإشبيلية؛ لكن من المستبعد أن تكون زوجته سافرت معه للمشرق عام 598.ومن المحتمل أنه كان له منذ بلوغه جارية واحدة أو أكثر من ملك اليمين إنّ الثَّابِتَ هو أن الشيخ تزوج بعدة نساء في فترات مختلفة من عمره. منهن التي يقول عنها (235:III/278:I):

" حدثتني المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمان البجائي قالت: رأيت في منامي شخصا كان يتعاهدني في وقائعي وما رأيت له شخصا قط في عالم الحس.فقال لها: تقصدين الطريق.قالت: فقلت له: أي والله أقصد الطريق ولكن لا أدري بماذا. قالت: فقال لي: بخمسة وهي التوكل واليقين والصبر والعزيمة والصدق. فعرضت رؤياها عليّ، فقلت لها: هذا مذهب القوم". وقال أيضا عنها: إن لها بالتحقق بالتوحيد أوفر حظ وأعظم نصيب (417:II). فزوجته هاته كانت من الصالحات، رقاها الشيخ في مدارج الولاية و المعرفة، وعاشرته جُلّ عمره وفي جلّ أسفاره مؤنسة وخادمة له. وربما عاشت بعد وفاته، فاسمها مذكور في سماع مؤرخ في عام 630 بحلب في آخر كتاب (نظم الفتوح المكي) (112:A). وذكرها مرتين في الفتوحات ولم يتبع اسمها بالترحم عليها كعادته عند ذكره للأموات. وهذا دليل على أنها كانت حية وقت كتابته الأخيرة للفتوحات التي أتمها نحو السنتين قبل وفاته. وقد عرّف الشيخ شروط الصلاح الذي وصف به زوجته بقوله (123:IV):" فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال و القول والعمل،

ولا يكون هذا إلا لأهل الشهود الدائم والعارفين بالمواطن و المقامات والآداب، فيحكمون نفوسهم، فيمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط مستقيم".

وتزوج الشيخ أيضا بفاطمة بنت يونس بن يوسف أمير الحرمين. وهي أمّ ابنه عماد الدين محمد الكبير الذي وقف عليه النسخة الأولى من الفتوحات المكية التي انتهى من كتابتها عام 629. ذكرها الشيخ في آخر هذه النسخة بدون ترحّم. أي أنها كانت حية مع الشيخ حتى أواخر عمره وربما عاشت بعده. وقد توفي عماد الدين بدمشق عام 667 ودفن حذو والده.

وفي كتابه (محاضرة الأبرار) (II:57-58) يقول:" وكان لنا أهل تقر العين بها ففرق الدهر بيني وبينها فتذكرتها ومنزلها بالحلة من بغداد". فمن هي هذه الزوجة البغدادية؟ يبقى السؤل مطروحا.

وتقول بعض المصادر (A: 269-270) إنّه تزوج بالأناضول أمّ صدر الدّين القونوي بعد وفاة أبيه زوجها الأول مجد الدّين إسحاق الرومي، وعمر الشيخ حوالي 55 سنة. فهل هي خاتون أم جنان التي ذكرها الشيخ في رؤيا شفاعته لكل من أدركه بصره يوم القيامة (كتاب المبشرات) ؟ وهل هي أم ابنه الثاني محمد سعد الدين المولود بملطية عام 618 أم أُمُّه غيرها؟ وكان ابنه هذا عارفا صالحا شاعرا مجيدا له ديوان وتوفي بدمشق عام 656 ودفن حذو والده. وفي تلك الرؤيا ذكر الشيخ أنّ له زوجة اسمها أم عبد الرحمان. فهل هي فاطمة بنت يونس أَمْ مريم بنت محمد أو غيرهما؟

وفي كتابه (نتائج الأذكار) يذكر الشيخ أنّ من أصحابه صهره محمد بن سعد الدين بن مردنوش بن قمر الدمشقي. فما قرابته من زوجة الشيخ الدمشقية ؟ كل هذه الأسئلة تبقى مطروحة.

ومراجع أخرى تذكر أن الشيخ تزوج في دمشق بنت قاضي المالكية زين الدين عبد السلام الزواوي (ت: 681) الذي قدمت أسرته من بجاية. لكن هذا الخبر بعيد عن الثبوت، وربّما اختلط بما ذكر عن زواجه ببنت زكي، حيث أنّ مراجع أخرى أوثق تقول إنّه تزوج في دمشق بنت قاضي قضاة دمشق زكي الدين طاهر بن زكي (ت: 617) (301:A)؛ وفي ديوانه نجد أبياتا يجيز فيها بنت زكي في الطريق وإلْبَاسِ خرقة الصوفية لمن يستحقها يقول فيها:

البسيط

ألبستُ بنت زكي الدين خرقتنا من بعد صحبتها إياي بالأدب
تخلّقت فَصَفَتْ منها مواردها وقدّست ذاتها عن أكثر الريب
لما حويت علوما أتت أكثرها أخذتها عن مُربّ صادق وأب
فلتلبس البنت من شاءته خرقتنا بعد التحقق بالأسماء والنسب
لكل إنس وجن بعد صحبتهم على الشروط التي أودعتها كتبي

وفي نفس السياق، نجد أبياتا أخرى فيها أسماء لنساء ألبسهنّ الشيخ الخرقة كرمز لتربيته الروحية لهن، وأشار لأسمائهن بفاطمة وصفية وبدر وست العيش ودنيا وشرف ست العابدين وأمّ محمّد وزمرّد وزينب وجميلة وعُلية وهند وسفرى وأميمة التي لما منحها لباس خرقة الطريق خاطبها بهذه الأبيات:

هذا عبدتُ الله فيه مدة وسجدت فيه للإله سجودا
ونثرت فيه للعلوم لآلئا ونظمتُ فيه فرائدا وعقودا
فلتلبسيه فإنه من أمرنا واستلزمي لله فيه عهودا

واضربي به وجه الزمان فإنه في مثل هذا لو علمت حسودا
واقصدي به قرب الإله فإنه في مثل هذا لم يزل مقصودا
لما رأيت أُميمتي أهلا لماَ أوليتُها ألبستُها التمجيدا

و من اللواتي أخذن عنه أيضا أم دلال وأم رسلان بنتا أحمد بن مسعود المقري الموصلي. فاسماهما موجودان مع من سمع أبوابا من الفتوحات على الشيخ في دمشق عامي 636 و 637.وأبوهما سمع عنه كتاب (روح القدس) في عام 601 بالموصل، كما أخذ الشيخ عنه أحاديث وأخباراً ذكرها في (محاضرة الأبرار) (A: 266).

وأخير فالشيخ يذكر أنّ له بنتا ماتت صغيرة اسمها زينب، يقول عنها وهو يتكلم على من أوتي الحكمة صبيا كيحي وعيس عليهما السلام (17:III/117:IV): وقد نطق في المهد جماعة، أعنى في حال الرضاعة، وقد رأينا أعظم من هذا.رأينا من تكلم في بطن أمه وأدّى واجبا. وذلك أنّ أمه عطست وهي حامل به، فحمدت الله فقال لها في بطنها: يرحمك الله، بكلام سمعه الحاضرون. وأما ما يناسب الكلام، فإنّ ابنتي سألتها كالملاعب لها وهي في سن الرضاعة، وكان عمرها في ذلك الوقت سنة أو قريبا منها، فقلت لها بحضور أمها وجدّتها: يا بنية ما تقولين في الرجل يجامع أهله ولا ينزل؟ فقالت: يجب عليه الغسل. فتعجب الحاضرون من ذلك. وفارقت هذه البنت في تلك السنة وتركتها عند أمّها وغبت عنها وأذنت لأمها بالحج في تلك السنة، ومشيت أنا من العراق إلى مكة. فلما جئنا المعرف، خرجت في جماعة معي أطلب أهلي في الركب الشامي، فرأتني وهي ترضع ثدي أمها. فقالت: يا أميّ، هذا أبي قد جاء. فنظرت الأمّ حتى رأتني مقبلا على بعد

وهي تقول: هذا أبي هذا أبي. فناداني خالها فأقبلت. فعندما رأتني، ضحكت ورمت بنفسها عليّ وصارت تقول لي: يا أبت يا أبت.

ومما يناسب هذا الفصل واقعة أوردها الشيخ في ديوانه (ص: 241) وفيها

ذكر بَيْتَيْنِ يصفان حال كثير من الرجال مع زوجاتهنّ. وهما للفكاهة أقرب. يقول:" رأيت في الواقعة عزّ الدين ابن عبد السلام (ت:660) الفقيه الشافعي، وهو على مصطبة كالمدرسة يعلم الناس المذهب، فقعدت إلى جانبه. فرأيت إنسانا قد أتى إليه يسأل عن كرم الله تعالى، فكان ينشده بيتا في عموم كرم الله تعالى بعباده، فكنت أقول له: إنّ لي في هذا المعنى بيتا من قصيدة. فكلما جهدت أن أتذكرهُ لم أتذكره في ذلك الوقت، فكنت أقول له: إنّ الله تعالى قد أجرى على لساني في هذا الوقت في هذا المعنى ما أقوله.فقال لي : قل، وهو يبتسم، فينطقني الله تعالى بأبيات لم تطرق سمعي قبل ذلك، وهي:

البسيط

الله أكرمُ أن يحظى بنعمته الطائعون ويشقى المجرم العاصي

وإن شقي فكآلام يصيبُ بها المؤمنين فمن دانٍ ومن قاصي

لكنهم عالم بالله مستند إليه مفلسهم ورب أوقاص

فكان يبتسم. فبينما نحن كذلك إذ مرّ القاضي شمس الدين الشيرازي (أحد قضاة الشام أمضى وقته في التدريس والرواية (ت: 636) رضي الله تعالى عنه). فلما أبصرني، نزل عن بغلته وجاء فقعد إلى جانب العِزَّ بن عبد السلام، ثم أقبل عليّ وقال: أريد أن تقبّلني في فمي. فضمّني وقبلته في فمه. فقال العِزُّ بن عبد السلام:

ما هذا؟ فقلت له: إنّا في رؤيا. والتقبيل قبول يطلبه مني، فإنّه شخص قد حسن ظنه بي، وقد خطر له قِصر أمله وقبيح عمله واقتراب أجله.

ثمّ قمت فعضدته حتى ركب وانصرف. ثم قال لي العز بالإيماء والتلويح لا بالتصريح: كيف حالك مع أهلك ؟ فكنت أنشده بيتين ما طرقا سمعي قبل ذلك، بل كان الله ينطقني في ذلك الوقت بهما وهما:

البسيط

إذا رأى أهل بيتي الكيس ممتلئا تبسّمت ودنت منّي تمازحني
وإن رأته خليّا من دراهمه تكرّهتْ وانثنت عني تقابحني

فكان يقول لي في إشارته: كلنا مع الأهل ذلك الرجل، والله لقد صدقت. وههنا انتهت المبشرة والله الواقي". وهذه الرؤيا تشير إلى صلة الود والاحترام المتبادل بين الشيخ والإمام العز بن عبد السلام خلال إقامتهما بدمشق. وسنعود إلى ذكر الصلة بينهما لاحقا.

والملاحظ أن كثيرا من الجامدين على الفهم السطحي لم يفهموا حقيقة كلام الشيخ عن الحبّ والمرأة والأهمية المركزية للنكاح الايجادي، فبالغوا في الإنكار عليه حتى اتهمه بعضهم بالإباحية. وقد ردّ هو نفسه عليهم في كتاب (الياء) خلال حديثه عن سر النكاح فقال:

[وكان ممن تحقق في هذا المقام سيدنا محمد ρ لتمكنه فيه، وكذلك الأكابر من سادات هذا الطريق. وأكثر أهل الطريق عمي عليهم هذا المقام وتخيلوا أنه من

مراتب النفس. وهيهات وسر الوجود مرتبط به. فكيف يكون حجابا عنه؟ وإنما العوائد تحجب وكذلك مشاركة الأنقص في الصورة. وما أنكره
إلا من وقف مع الصورة والشهوة البهيمية، ولو وقف مع حكمة الإيجاد وسرعة زوال تلك اللذة كمشاهدة الذات ومنزلها من الأنوار كالبرق، عرف قدر ما هام فيه وما طلب. وعالم الصور كامل في نفسه، وإنّما ينظر في الأشياء بما هي الحقائق عليه، وهو عزيز جدا. ولقد تمنّيت أن يحصل بيدي من يترك النظر في الأشياء بحكم الغرض و الوضع وينظر فيها بما قلناه وما وجدناه حتى الآن. وأنا لا أزال متعوبا بما برد عليّ ولا أجد محلا أضعه فيه، فلا فهم ثاقب ولا تسليم كامل. وهذه نفثه مصدور].

الشيخ مع الحبّ والجمال الإلهي

الطويل

ولما رأيت الحب يعظم قدره ... ومالي به حتى الممات يدان
تعشقت حب الحبّ دهري ولم أقل ... كفاني الذي قد نلت منه كفاني
فأبدى لي المحبوب شمس اتصاله ... أضاء بها كوني وعين جناني
وذاب فؤادي خيفة من جلاله ... فوقّع لي في الحين خط أمان
ونزهني في روض أنس جماله ... فغبت عن الأرواح والثقلان
وأحضرني والسّر من غائب ... وغيبني والأمر مني داني

(322:II)

خصّص الشيخ في (الفتوحات) الباب 178 لمعرفة مقام المحّبة وهو من أطول وأروع أبواب (الفتوحات)، ولا أعلم أنّ أحدا كتب مثله في موضوعه أبدا. وضمنه أكثر من 130 بيتا من نظمه، وختمه بنحو 44 وصلا بما سماه " مجالي الحق للعارفين المحبين في منصات الأعراس لإعطاء نعوت المحبين في المحبة".

وفي هذا الباب فصّل التمييز بين الحب الإلهي و الحبّ الروحاني و الحبّ الطبيعي و الحبّ العنصري. وللشيخ عشرات القصائد في هذا المقام. لكن جميع ما كتبه فيه شعرا ونثرا إنّما يتعلق بالحبّ الإلهي المحمدي الشرعي. واستعمل أحيانا عبارات الغزل و الحبّ العنصري بصورة الحسّية كرمز وسلّم لذلك الحبّ الإلهي المقدّس الذي منه تسمىّ سّيدنا محمد ρ بحبيب الله ومنه قال:" حُبِّب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة". فقرن النساء بالصلاة وكلاهما قرة عين له ρ لأنّ عينه لا تستقر إلا في أكمل مشهد للحق تعالى، وهو سيّد الأئمة الذين أخبر الله عن دعائهم:[**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**]الفرقان 74.

يقول الشيخ في هذا الباب:" وألْطفُ ما في الحبّ ما وجدته، وهو أن تجد عشقا مفرطا وهوى وشوقا مقلقا وغراما ونُحولا وامتناع نوم ولذة بطعام، ولا يدري فيمن ولا بمن، ولا يتعيّن لك محبوبك، وهذا ألطف ما وجدته ذوقا. ثم بعد ذلك بالاتفاق إمّا يبدو لك تجل في كشف فيتعلق ذلك الحب به أو ترى شخصا فيتعلق ذلك الوجد الذي تجده به عند رؤيته، فتعلم أنّ ذلك كان محبوبك وأنت لا تشعر، أو يذكر شخص فتجد الميل إليه بذلك الهوى الذي عندك، فتعلم أنّه صاحبك، وهذا من أخفى استشراف النفوس على الأشياء من خلف حجاب الغيب (...) ولما ذقنا هذا المقام قلنا فيه:

الطويل

علقت بمن أهواه عشرين حجة ولم أدر من أهوى ولم أعرف الصبرا

ولا نظرت عيني إلى حسن وجهها ولا سمعت أذناي قط لها ذكرا

إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى فنعّمني يوما وعذّبني دهرا

ولنا أيضا في هذا المعنى ذوقا،فإنا لا نعبّر إلا عمّا ذقناه:

الطويل

علقت بمن أهواه من حيث لا أدري ولا أدري من هذا الذي قال لا أدري

ولنا في هذا المعنى ذوقا في أوّل دخولي إلى الشام (أوّل دخوله لفلسطين كان عام 598 وهو متوجه للحج. وأوّل دخوله لسوريا كان عام 602 وهو متوجه من العراق إلى الأناضول)، وجدت ميلا مجهولا مدة طويلة في قصة طويلة إلهية متخيلة في صورة جسدية، فقلنا نخاطبها في ذلك بالحال ولسانه:

الطويل

أقول وعندي من هواك الذي عندي مقالة من قال الحبيب له قل لي

ولمّا دخلت الشام خولطت في عقلي فلم أر قبلي في الهوى عاشقا مثلي

عشقت وما أدري الذي قد عشقته أخالقي المحبوب أم هو من شكلي

(...)

فنادى منادي الحبّ من بين أضلعي لقد غصت يا مسكين في أبحر الجهل

ألا فاستمع قولي وخذ سر حكمتي فإني من أهل التعليم والفضل

بسبع وعشر ثم خمسين بعدها إذا أنت حصلت اثْنَتَيْنِ على

يقوم لكم شكل بديع مربع تماما على الوصل الذي فيه والفصل

كمثل اسمه الله بيانا محققا فكان اسم محبوبي على صورة الأصل

يشير الشيخ في الأبيات الأخيرة إلى اسم: زينب الذي أعداد حروفه بحساب الجمل كما ذكرها 7+10+50+2=69. وقد صرّح بذلك بعد ذلك بصفحات حيث يقول:"... من قصيدة لنا في مجلى حقيقة تجلت لنا في حضرة شهودية وهي:

المتقارب

تعجبتُ من زينب في الهوى وليس لنا غيرها مذهب..."

والملاحظ أنّ لفظة: زينب يمكن تقسيمها هكذا: زَيٌّ نَبيٍ، أو زَيْن ب أي جمال الباء أوّل حروف البسملة ورمز لنور الحقيقة المحمدية. تلك هي قرة عين الشيخ التي ألف فيها كتاب الباء عام 602 هـ بالقدس، وله مجموعة قصائد في جزء عنوانه (الزينبيات) (119:III). وفي هذا الباب أيضا، يقول في واقعة: [رأيت الحق قيها يخاطبني بمعنى ما في هذه الأبيات وسماني باسم ما سمعت به قط إلا منه تعالى في تلك الواقعة وهو: نرديار، فسألته تعالى عن تفسير هذا اللفظ فقال: ممسوك الدار]، ثم ذكر الشيخ أبياتا من قصيدة توجد بتمامها في الباب 71 المخصوص بالصوم تتضّمن 23 بيتا (321:II/640:I) وفيها يقول:

الطويل

مسكتك في داري لإظهار صورتي فسبحانكم مجلى وسبحان سبحان

فما نظرت عيناك مثلي كاملا ولا نظرت عين كمثلك إنسانا

(...)

لأنك مخصوص بصورة حضرتي وأكمل مني ما يكون فقد بانا

والملاحظ أنّ عدد كلمة (ممسوك الدار) – باعتبار تضعيف الدّال – هو 406 الذي هو مجموع أعداد الحروف العشرة المشكلة للبسملة (بسم ال هـ رح ن ي = 2+60+40+1+30+5+200+8+50+10=406) وهو مجموع الأعداد الثمانية والعشرين الأولى(انظر دلالات هذا العدد الأخرى في كتابنا (مفاتيح فصوص الحكم). والعدد 28 هو عدد منازل الفلك وعدد الحروف وعدد مراتب الوجود كما فصّلها الشيخ في الباب 198 من (الفتوحات)، فهو رمز للعالم بأسره الذي هو مجلى جمال الحق تعالى. وقد فصّل الشيخ هذا المعنى بعبارات رائعة في الباب 372 من (الفتوحات) المتعلق بمنزل سورة يوسف حيث يقول باختصار:

" ورد في الخبر الصحيح في صحيح مسلم عن رسول الله ρ أنّه قال:" إنّ الله جميل يحبّ الجمال ". وهو تعالى صانع العالم وأوجده على صورته، فالعالم كله في غاية الجمال. فليس في الإمكان أجمل ولا أبدع من العالم، لأنّ الحسن الإلهي قد حازه وظهر به، فإنّه كما قال تعالى:(أعطى كل شيء خلقه) فهو جماله إذْ لو نقص منه شيء لنزل عن درجة كمال خلقه فكان قبيحا، ثم هدى أي بيّن ذَلك لنا. ولهذا هام فيه العارفون وتحقق بمحبته المتحققون، لأنّه مرآة الحق وهو سبحانه الجميل، والجمال محبوب لذاته والهيبة له في قلوب الناظرين إليه ذاتية، فأورث المحبة والهيبة، فهو المتجلي في كل وجه، والمطلوب من كل آية، والمنظور إليه بكل عين. فجميع العالم له مصل وإليه ساجد وبحمده مسبّح. فلا ينكر على العارف ما يهيم فيه من العالم. ولولا أنّ هذا الأمر كما ذكرناه ما أحبّ نبيّ ولا رسول أهلا ولا ولداً، ولا آثر على أحد أحدا، وذلك لتفاضل الآيات، وتقلب العالم هو عين الآيات، وليست غير شؤون الحق التي هو فيها. أمّا أهل الجمال العرضي والحبّ العرضي، فظل زائل وغرض ماثل وجدار مائل..." وفي كلام الشيخ هذا أبلغ ردّ على من

رأى في أشعاره حبّا ماديا خصوصا في ديوانه (ترجمان الأشواق). وقد شرحه في (ذخائر الإغلاق)، وفيه ترجم عن حبّه الإلهي لمن سمّاها بالنظام، والمتجسدة في فتاة عارفة كاملة لقيها عند الكعبة وفيها يقول ما خلاصته:

" لما نزلت مكة سنة 598، ألفيت بها جماعة من الفضلاء. ولم أر فيهم مع فضلهم مشغولا بنفسه مثل الإمام مكين الدّين الأصفهاني (ت: 609) وأخته شيخة الحجاز بنت رستم. فأما الشيخ، فسمعنا عليه كتاب الترمذي في الحديث وكثيرا من الأجزاء. وأجازني هو وأخته في جميع مسموعاتهما. وكان لهذا الشيخ بنت تسمّى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهاء، من العابدات والعالمات السائحات الزاهدات، شيخة الحرمين وتربية البلد الأمين بِلاَمَيْنٍ. فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكنى. ولم أزل فيما نظمته على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية جرياً على طريقتنا المثلى، فإنّ الآخرة خير لنا من الأولى. ولعلمها رضي الله عنها بما إليه أشير. والله يعصم قاريءَ هذا الديوان من سبق خواطره إلى ما لا يليق بالهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية. وكان سبب شرحي لهذه الأبيات أنّ الولدين بدر الحبشي وإسماعيل بن سودكين سألاني في ذلك، وهو أنّهما سمعا بعض فقهاء حلب ينكر أن هذا من الأسرار الإلهية. فشرعت في شرحها. وقرأ عليّ بعضه القاضي ابن عديم بحضرة جماعة فقهاء. فلما سمعه ذلك المنكر تاب ورجع عن الإنكار على الفقراء وما يأتون به في أقاويلهم من الغزل والتشبيب، ويقصدون في ذلك الأسرار الإلهية. فاستخرت الله تعالى تقييد هذه الأوراق، وشرحت ما نظمته بمكة المشرفة في حال اعتماري في رجب وشعبان ورمضان، أشير بها إلى معارف ربانية وأنوار إلهية وتنبيهات شرعية. وجعلت العبارة

بلسان الغزل لتعشق النفوس بهذه العبارات فتصغي إليها، وهو لسان كل أديب روحاني لطيف:

الرمل

كلما أذكره من طلل أو ربوع أو معان كلما
أو نساء كاعبات نُهّد طالعات كشموس أو دمى
كلما أذكره ممّا جرى ذكرهُ أو مثلهُ أن تَفْهَماَ
منه أسرارا وأنواراً جلت أو عَلت جاء بها ربّ السما
لفؤاد أو فؤاد من لـه مثلُ ما لي من شروط العلما
صفة قدسية علوية أعلمت أنّ لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلما

كتب الشيخ (ترجمان الأشواق) كما ذكره في رجب وشعبان ورمضان بمكة سنة 611، أي 13 سنة بعد لقائه الأول بالنظام عام 598، وشرحَه في حلب من نفس السنة 611 (A:251).

والملاحظ أنّ عبارات ترجمان الأشواق الشعرية مُمَاثلة في معانيها لكتاب نثري مسجوع كتبه الشيخ فيما جرى بينه وبين الكعبة المشرفة، وعنوانه (تاج الرسائل و منهاج الوسائل)، كتبه بمكة عام 600(I: 700)، فعين الشمس كالكعبة هما عند الشيخ مثلان متميزان في عالم الإنسان وعالم الجماد لتجلي الكمال الإلهي في عين حقيقة الإنسان الكامل أو الفتى القرآني الذي لقيه الشيخ في الطواف وعنه أخذ علوم الفتوحات كما فصّل ذلك في الباب الأول منه فهو قرة العين. يقول الشيخ:

المنسرح

يا بيت ربّي يا نور قلبي يا قرة العين يافؤادي

ويقول:

السريع

ما كعبة الله سوى ذاتنا ذات ستارات التُقى المعلمة

وإذا علمنا أنّ حقيقة الإنسان الكامل سيدنا محمد ρ ماهي إلا روح القرآن العظيم، فما النظام عين الشمس والبَهَاء إلا رمز ومثل ومظهر لتلك الروح. والملاحظ أنّ عدد لفظة (النظام) هو 1022، ولهذا العدد – 1021 – دلالات أساسية عند الشيخ، فهو يمثل نظام الوجود بجماله الإلهي اللامتناهي. فهو عدد أقسام فلك المنازل، وهو عدد أقسام مخارج الحروف في عالم الحيوان والإنسان(باب فلك المنازل في عقله المستوفز)، وهو عدد الصّور في إزار العظمة (40:II): وبإضافة العدد 6 إليه وهو عدد الحروف الستة في لفظة النظام يكون العدد 1028 الذي هو عدد مواقع النجوم، أي أقسام فلك المنازل مع الكواكب الجواري السبعة (1021+7=1028): وهو عدد البسملة بحساب الجمل المغربي الكبير، باعتبار ألف المدّ في الله والرحمان. وعدد (النّظام) – باعتبار تضعيف النون – بالجزم الصغير هو 28 عدد الحروف وعدد منازل الفلك وعدد مراتب الوجود كما فصّلها الشيخ في الباب 198 من الفتوحات.

فجميع غزليات الشيخ ماهي في الحقيقة إلاّ تعبيرٌ عن عشقه اللامتناهي للقرآن أي الحقيقة الأحمدية، مجلى الكمال الإلهي والتي يقول فيها:" إنّ أعظم

الرؤية وأتـمَّها وأصـدقها رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية" (129:IV-203).

وقد صرّح الشيخ بهذا في قوله عند وصفه للمحب الصادق (346:II):

" لا يتكلم إلا بكلامه. هم المسمون بحملة القرآن كما كان المحبون جامعين جميع الصفات، كانوا عين القرآن كما قالت عائشة وقد سئلت عن خلق رسول الله ρ ، فقالت: كان خلقه القرآن. لم تجب بغير هذا (...). لقد أعطانا الله منها الحظ الوافر إلاّ أنّه قوانا عليه. إني لأجد من الحب ما لو وضع في ظني على السماء لانفطرت وعلى النجوم لانكدرت وعلى الجبال لسيّرت. هذا ذوقي لها، لكن قوّاني الحق فيها قوة من ورثته وهو رأس المحبين. إني رأيت فيها في نفسي من العجائب ما لا يبلغه وصف واصف. والحبّ على قدر التجلي والتجلي على قدر المعرفة..."

ويصف الشيخ بعض أحواله في الحبّ في بداياته فيقول (325:II):

" لقد بلغ بي قوة الخيال أن كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج عيني كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ρ ، فلا أقدر أنظر إليه، ويخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه. ولقد تركني أياما لا أسيغ طعاما، كلما قدمت لي المائدة يقف على حرفها وينظر إليّ ويقول لي بلسان أسمعه بأذني: تأكل وأنت تشهادني ! فأمتنع من الطعام ولا أجد جوعا وأمتلئ منه حتى سمنت وعبلت من نظري إليه، فقام لي مقام الغذاء. وكان أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من سمني مع عدم الغذاء، لأني كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقا ولا أجد جوعا ولا عطشا، لكنه لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي و حركتي وسكوني".

وحال الشيخ هذه تذكّر بتجربة أخرى ذاقها الشيخ من ميراثه المحمدي في قوله عن الوصال في الصيام:" إني لست كهيئتكم، إنّي أبيت يطعمني ربي ويسقيني".

وقال عنها (638:I): " فإنا قد وجدناه ذوقا من نفوسنا في وصال، فبتنا في حال الوصال، فأطعمنا ربنا وسقانا في مبيتنا ليلة وصالنا، فأصبحنا أقوياء لا نشتهي طعاما، ورائحة الطعام الذي أكلناه الذي أطعمنا ربّنا يشم منا، ويتعجب الناس من رائحته. فسألونا: من أين لك هذه الرائحة في هذا الذي طعمت فما رأينا مثلها ؟ فمنهم من أخبرته بالحال ومنهم من سكت عنه، فلو كان هذا خصوصا برسول الله ρ ما نلناه ".

ويتكلم الشيخ عن حدّ الحبّ فيقول (II: 325): " واختلف الناس في حدّه، فما رأيت أحدًا حدّه بالحد الذاتي، بل لا يتصور ذلك. فما حدّه من حدّه إلا بنتائجه وآثاره ولوازمه، ولا سيّما وقد اتصف به الجناب العزيز وهو الله. وأحسن ما سمعت فيه ما حدثنا به غير واحد عن أبي العباس ابن العريف الصنهاجي. قالوا: سمعناه يقول وقد سئل عن المحبة، فقال: الغيرة من الصفات المحبة و الغيرة تأبى إلا الستر فلا تُحدّ".

ويحكي الشيخ عن إحدى وقائعه في كتمان أسرار المحبوب فيقول (II: 348): " ولقد منحني الله سرا من أسراره بمدينة فاس سنة 594 فأذعتُه، فإنّي ما علمتُ أنّه من الأسرار التي لا تذاع. فعوتبت فيه من المحبوب. فلم يكن لي جواب إلا السكوت، إلا أني قلت له: تول أنت أمر ذلك فيمن أودعتُهُ إياه، إن كانت لك غيرة عليه فإنك تقدر ولا أقدر. وكنت قد أودعته نحوا من ثمانية عشر رجلا. فقال لي: أنا أتولى ذلك. ثم اخبرني أنّه سله من صدورهم وسلبهم إياه وأنا بسبتة، فقلت لصاحبي عبد الله الخادم: إنّ الله أخبرني أنه فعل كذا وكذا، فقم بنا نسافر إلى مدينة فاس حتى نرى ما ذكر لي في ذلك، فسافرت. فلما جاءتني تلك الجماعة وجدت

الله قد سلبهم ذلك، وانتزعه من صدورهم. فسألوني عنه فسكت عنهم. وهذا من أعجب ما جرى لي في هذا الباب، فلله الحمد حيث لم يعاقبني بالوحشة..."

وفي الباب 398 (562:III)، وضح الشيخ عذر أهل الله في استعمالهم التشبيب والمديح في أشعارهم، فقال ما خلاصته:

(لا ينبغي لواعظ أن يخرج من وعظه عن الكتاب والسنة. ولا يدخل في هذا الطوام، فينقل عن اليهود والنصارى والمفسرين الذين ينقلون ما لا يليق بجناب الله و لا بمنزلة الرسل عليهم السلام. ولا ينبغي لواعظ أن ينشد إلا الشعر الذي قصد فيه ذكر الله بلسان التغزل أو بغيره، فإنه من الكلام الذي يقوله أهل الله. فهو حلال قولا وسماعا فإنه مما ذكر اسم الله عليه. ولا ينبغي أن ينشد في حق الله شعرا قصد به قائله في أول وضعه غير الله، فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة. فإن القول في المحدث حدث بلا شك، فإن للنية أثرا في الأشياء، ولقد كتب إلي شخص من إخواني بكتاب يعظمني فيه، بحيث أن لقبني فيه بثلاثة وستين لقبا. فكتبت له: [**سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** (19)] وأن رسول الله ρ قال:" لا أزكي على الله أحدا، ولكن يقول: أحسبه كذا وأظنه كذا ". ويقول الله تعالى [**فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** (32)] وكل ما نذكره في أشعارنا من صور كونية مختلفة من تشبيب ومديح، كلها معارف إلهية وعلوم ربانية.).

وقد عاد الشيخ إلى مثل هذا التنبيه في مقدمة ديوانه الكبير الذي نجد فيه آلاف الأبيات من تلك الأشعار، وختمه بأزيد من 560 مقطوعة في الغزل والتشبيب، كل مقطوعة تتألف من بضعة أبيات، ومن ضمنها قصائد ديوانه (ترجمان الأشواق). وافتتح كل قطعة بعنوان يدعو إلى التأمل العميق. وعناوين المقطوعات الـ 132

الأولى فيها وصف للروح والخاطر. وعناوين المقطوعات الأخرى فيها زيادة على ذلك وصف للسماع، كقوله:

- الروح ريحاني و والخاطر قدسي.
- الروح تذكرة والخاطر تبصرة.
- الروح إكسير والخاطر إعلام بحسن تدبير والسماع وزير.
- الروح أعياد والخاطر غصن ميَّاد والسماع اعتماد.
- الروح ندا والخاطر دعا والسماع إجابة.

الفصل الثاني

التكوين القرآني و الشرعي والعلمي للشيخ ومواقفه من مختلف الطوائف

طفولة الشيخ وحفظه للقرآن

فهذه سور القرآن أجمعها جمعت أسماءها لرغبتي فيه

(دي 295)

وُلد الشيخ بمرسية ليلة الاثنين سابع عشر من رمضان 560 (27 جويلية 1165).وقيل يوم 27 رمضان (6 غشت) والتاريخ الأول هو الراجح، حسبما ذكره المقري في

كتابه (نفح الطيب II: ص A/163: 35) عن رواية المؤرخ ابن نجار عن الشيخ ابن العربي الذي لقيه بدمشق. فسمّاه والده باسم أبيه محمّد. فهو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله العربي الحاتمي الطائي وكنّى بأبي بكر ولقب بمحيي الدين ويعرف بالحاتمي. في السنة التي وُلد فيها الشيخ حاصر جيش الموحدين مرسية للقضاء على حكم حاكمها محمد بن سعد بن مردنيش سلطان شرقي الأندلس. ودام الحصار سبع سنوات انتهى بموت ابن مردنيش ودخول مرسية تحت حكم الخليفة الموحدي المستقر بأشبيلية. فانتقل والد الشيخ بأسرته إليها للإلحاق بمسؤولياته الجديدة في الجيش وعمر محيي الدين ثماني سنوات. وهكذا نشأ الشيخ باشبيلية في أسرة غنية وعريقة في عروبتها وشهيرة برجالها. وكان وقته وهو طفل مقسّما إلى شطرين: شطر في حفظ القرآن وتعلم العلوم الشرعية واللغوية، وشطر في اللهو مع أبناء نبلاء المعسكر يمارس الفروسية والصيد والسماع.وقد عاصر في صباه بالأندلس خلافة كل من المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن محمد ، ثم ابنه المستغني بالله الحسن، ثم الناصر لدين الله أبي العباس أحمد الذي بويع له في 25 ذي القعدة سنة 575 هـ. وقد أعطى الشيخ لمحات عن الوسط الذي كان يمرح فيه وهو طفل، فيقول في بداية كتابه (روح القدس):

" فإذا كان آخر الليل، أنام أنا والجماعة السوء مثلي، وقد تعبنا من كثرة ما رقصنا. فلا نلحق ننام إلا والصبح قد قام، فنقوم نتوضأ أقلّ ما ينطبق عليه اسم الوضوء، ثم أجيءُ إلى المسجد؛ هذا إذا وُفقت، وإلا فالأغلب على من هذه حالته أن يصلي في داره بإنا أعطيناك الكوثر وسورة الفاتحة كيفما كانت. والقنوت ليس بواجب فأتركه. وأنقرها مخففة جدا، ثم اضطجع إلى وقت الضحى لأستريح".

ولعل أول حادثة أخرجته عن حاله هذا هي مرضه الذي وقع له وعمره نحو 12 سنة، حتى أغمي عليه مشرفا على الموت، وأنقَذَهُ الله منه بقراءة والده سورة [**يس** (1)] كما سبق ذكره.وهكذا بدأت إرهاصات يقظة الروح عنده ببركة قلب القرآن يس. فبقى نحو العامين وظاهره لا يزال لاهيا مع أقرانه، ولكن طاقاته الروحية الكامنة بدأت تطفو أحيانا في خواطر وعيه المتوثب حيوية تنبعث أشعتها الثاقبة من عينين مُلاحظتين لما حولهما بدقة، وفي مشاعر قلبه المشدوه حيرة في الوجود. كل ذلك قبل أن يظهر على ظاهره سرّ قول الله تعالى: [**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** (39)] طه، الآية: 39 . أي في الفترة التي يسميها الشيخ: زمن جاهليتي كما في نصّه التالي (540:IV): " وإذا أردت أن لا تخاف أحدا فلا تُخف أحدا تَأْمَنْ من كل شيء إذا أمن منك كل شيء. مررت في سفري في زمن جاهليتي ومعي والدي وأنا ما بين قرمونة وبلمة من بلاد الأندلس، وإذا بقطيع حمر وحش ترعى، وكنت مولعا بصيدها، وكان غلماني على بعد مني، ففكرت في نفسي وجعلت في قلبي أن لا أوذي واحداً منها بصيد. وعندما أبصرها الحصان الذي أنا راكبه هشّ إليها فمسكته عنها ورمحي بيدي إلى أن وصلتُ إليها ودخلت بينها، وربما مرّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي في المرعى، فوالله ما رفعت رؤوسها حتى جزتها. ثم أعقبني الغلمان ففرّت الحمر أمامهم، وما علمت سبب ذلك إلى أن رجعت إلى هذا الطريق أعني طريق الله، فحينئذ علمت من نظري في المعاملة ما كان السبب وهو ما ذكرناه. فسرى الأمان في نفوسهم الذي كان في نفسي لهم. فكُف عن ظلمك واعدل في حكمك ينصرك الحق ويطيعك الخلق وتصفو لك النعم وترتفع عنك التُّهَم..." وفي هذه الفترة من طفولته كان يتلقى دروسا بالعربية وعلومها، وسرعان ما تمكن منها وتفجرت فصاحتها على

لسانه وبنانه، وأهِّلَ لوظيفة كاتب الديوان الملكي. وفي هذه المدّة أيضا، أتقن حفظ القرآن على يد رجل صالح يقول الشيخ عنه ما خلاصته (ر:93-94):

"كنت أقرأ القرآن وأنا صغير على جار لنا هو أبو عبد الله محمد الخياط. كان شديد البرّ لوالدته. يغلب عليه الخوف، سريع الدمعة. إذا صلى سمع لقلبه دوي. طويل الصمت، كثير الفكرة، ما رأيت قط أخشع منه. نصوح لا تأخذه في الله لومة لائم، ابتلي بالفقر والضراء فصبر، يحتمل الأذى، صدوق الرؤيا، قائم ليله صائم نهاره. يحب العلم وأهله ويخدم الفقراء. رأيت له كرامات كالرزق من الغيب. ما تمنيت مِن كل مَن رأيته أن أكون مثله إلا هو. آخيته لما رجعتُ إلى هذه الطريقة وفرح بي ولازمته وانتفعت به. كنا قد اجتمعنا أربعة، أنا وهو وأخوه ورابع لنا على السواء في كل ما يفتح به علينا، فلم أر أياما قط في عمري أحسن من تلك الأيام. وأمّا أخوه أحمد، فقد جمع الفضائل وقوة المجاهدة، وكان كثير المكاشفة. لزم خدمة أخيه محمد فنال بركته. صحبتهما بإشبيلية إلى عام 590، حين خرجا للحج، فجاور أحمد بمكة سنة وخرج إلى مصر ودخل طريق الملامية. وأماّ محمد فجاور بمكة خمسة أعوام ثم لحق أخاه بمصر. زرتهما هناك عام 598 خلال سفري نحو الحج، فصمت معهما رمضان ثم ودعتهما وفي قلبي من فراقهما لهيب".

ففي هذا النصّ يذكر أنّه كان يطمح وهو صبي أن يكون تقيا مثل معلّمه الصالح. ومن الصالحين أهل القرآن الذين عرفهم الشيخ في فترة صباه أيضا عمّه عبد الله — السابق ذكره — الذي كان صديقا لأحد الأولياء الذين عدّهم الشيخ من شيوخه في الطريق، والذي يقول عنه ما خلاصته (ر:96):

" ومنهم أبو علي حسن الشكاز من إشبيلية. خدم شيخنا صالح العدوي حتى مات. كنت أبيت معه فأجد أثر دموعه على حصيره. كان يعيش من عمل يده. دائم الصيام كثير القيام ويمزح فلا يقول إلا حقا. رأيت له كرامات وبركات كثيرة. أخبرنا بموته قبل موته بخمسة أيام محدّدا يوم وفاته. فتحقق ما قاله. عاشرته من وقت دخولي في هذه الطريقة حتى مات".

وقد أتقن الشيخ حفظ القرآن بمختلف قراآته السبع وغيرها. كما رسخت قريحته في علومه النقلية. وفي إجازاته للملك المظفر، ذكر بعض شيوخه في

قراآت القرآن منهم:

- محمد بن خلف بن صاف اللخمي (ت: 585)، قرأ عليه القراءات السبع عام 578 وروى عنه أحاديث. وذلك بإشبيلية.
- أبو القاسم عبد الرحمان بن غالب الشراط (ت: 586) من أهل قرطبة،
- القاضي أبو محمد عبد الله التادلي قاضي فاس (ت:597).
- القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن جمرة (ت: 599).

وكثيرا ما كرر الشيخ أنّ القرآن هو أعظم ما يهبه الله تعالى لعبده، وأنّ أهل القرآن هم أهل الله و خاصته العليا. وأنّ العبد يترقى في معارج الولاية ومدارج الجنان ومناظر الرؤية المحمدية للحق بمقدار تحققه بآيات القرآن. يقول مثلا عن حضرة الاسم المهيمن (206:IV):" من هذه الحضرة نزل هذا الكتاب المسمى قرآنا، خاصة دون سائر الكتب والصحف المنزّلة. وما خلق الله من أمة من نبي أو رسول من هذه الحضرة إلا هذه الأمة المحمدية، وهي خير أمة أخرجت للناس. ولهذا أنزل الله في القرآن في حق هذه الأمة:[**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** (143)]، فنأتي يوم القيامة يقدمنا القرآن. ونحن نقدم سائر أهل

الموقف. ويقدم القراء منا من ليس له من القرآن مثله. فأكثرنا قرآنا أسبقنا في التقدم و الرقي في المعراج المظهر الفضل بين الناس يوم القيامة. فإنّ للقراء منابر، لكل منبر درج على عدد آي القرآن ، يصعد الناس فيه بقدر ما حفظوا منه في صدورهم، ولهم منابر أخر لها درج على عدد آي القرآن يرقى فيها العاملون بما حققوه من القرآن، فمن عمل بمقتضى كل آية بقدر ما تعطيه في أي شيء نزلت، رقى إليها عملا، وما من آية إلا ولها عمل في كل شخص لمن تدبّر القرآن.وفي القيامة منابر على عدد كلمات القرآن، ومنابر على عدد حروفه يرقي فيها العلماء بالله العاملون بما أعطاهم الله من العلم بذلك، فيظهرون على معارج حروف القرآن وكلماته بصور تلك الحروف والكلمات والآيات والسور والحروف الصغار منه ، وبه يتميزون على أهل الموقف في هذه الأمة، لأن أناجيلهم في صدورهم. فيا فرحة القرآن بهؤلاء، فإنهم محل تجليه وظهوره. فإذا تلا الحق على أهل السعادة من الخلق سورة [طه]، تلاها عليهم كلاما وتجلى لهم فيها عند تلاوته صورة، فيشهدون ويسمعون.

فكل شخص حفظها من الأمة، يتحلى بها هنالك كما تحلى بها في الدنيا (...) فلا يمرّ على أهل النظر ساعة أعظم في اللذة منها. فمن استظهر القرآن هنا بجميع رواياته حفظا وعلما وعملا، فقد فاز بما أنزل الله له القرآن، وصحت له الإمامة، وكان على الصورة الإلهية الجامعة. فمن استعمله القرآن هنا، استعمل القرآن هناك، ومن تركه هنا تركه هناك: [**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** (126)] (...). وقالت عائشة في خُلق النبي ρ :"كان خلقه القرآن". وليس إلا ما ذكرناه من الاتصاف به و التحلي على حدّ ما ذكرناه".

ويؤكد الشيخ على أنّ أفضل الأذكار والأدعية هي أذكار القرآن وأدعيته وتلاوته، وحتى في الذكر المجرد، ينبغي للذاكر أن يستحضر أنها كلام الله، لينال أجر التلاوة مع أجر الذكر. يقول (461:IV):

" عليك بتلاوة القرآن وتدبّره، وانظر في تلاوتك إلى حدّ ما فيه من النعوت والصفات التي وصف الله بها من أحبّه من عباده فاتصف بها، وما ذّم الله في القرآن من النعوت والصفات التي اتصف من مقته الله فاجتنبنها، فإنّ الله ما ذكرها لك وأنزلها في كتابه عليك وعرفك بها إلا لتعمل بذلك. فإذا قرأت القرآن فكن أنت القرآن لما في القرآن . واجتهد أن تحفظه بالعمل كما تحفظه بالتلاوة (...)

فإنّ كلام الله لا يضاهيه شيء من كل كلام مقرب إلى الله. فينبغي للذاكر إذا ذكر الله متى ذكره أن يحضر في ذكره ذلك ذكرا من الأذكار الواردة في القرآن، فيذكر الله به ليكون قارئا في الذكر. وإذا كان قارئا فيكون حاكيا للذكر الذي ذكر الله به نفسه. وإذا كان كذلك فقد أنزل نفسه منزلة ربّه منه وهو قوله:[**فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ** (6)] (...) ويقال للقارئ يوم القيامة: اقرأ وارق. ورقيه في الدنيا في أيام التكليف في قراءته أن يرقى من تلاوته إلى تلاوته، بأن يكون الحق هو الذي يتلو على لسان عبده، كما يكون سمعه الذي به يسمع وبصره الذي ينطق ويتكلم. فلا يحمد الله ولا يسبحه ولا يهلله إلا بما ورد في القرآن عن استحضار منه لذلك، فيرقى من قراءته بنفسه إلى قراءته بربه، فيكون الحق هو الذي يتلو كتابه فيرتفع يوم القيامة في الآية التي ينتهي من قراءته ويقف عندها إلى الدرجة التي تليق بتلك الآية التي يكون الحق هو التالي لها بلسان هذا العبد عن حضور هذا العبد التالي لذلك. فإنّ أفضل كلام كلام الله الخاص المعروف في العرف".

ولهذا نجد الشيخ يرشد أحد أمراء المغرب لإقامة مجالس لتلاوة القرآن لا تفتر ليلا و نهارا. يقول في ذلك وهو يتكلم على الملائكة السيّاحين الطالبين مجالس الذكر (334:III):

" فإذا وجدوا أهل الذكر وهم أهل القرآن الذاكرون القرآن، فلا يقدّمون عليهم أحدا من مجالس الذاكرين بغير القرآن. فإذا لم يجدوا ذلك ووجدوا الذاكرين الله لا من كونهم تالين، قعدوا إليهم ونادوا بعضهم بعضا: هلمّوا إلى بغيتكم. فذلك رزقهم الذي يعيشون به وفيه حياتهم. فإذا علم الإمام ذلك لم يزل يقيم جماعة يتلون آيات الله آناء الليل والنهار. وقد كنا بفاس من بلاد المغرب قد سلكنا هذا المسلك لمواقفة أصحاب موفقين كانوا لنا سامعين وطائعين، وفقدناهم لفقدهم هذا العمل الخالص، وهو أشرف الأرزاق وأعلاها. فأخذنا لمّا فقدنا مثل هؤلاء في بث العلم من أجل الأرواح الذين غذاؤهم العلم، ورأينا أنْ لا نورد شيئاً منه إلا من أصل هو مطلوب لهذا الصنف الروحاني وهو القرآن..."

وفي الباب 334 المتعلق بسورة [ق]، فصَّل ببيان بديع التناسب بين أوصاف عرش قلب تالي القرآن وأوصاف القرآن كما وردت في القرآن، فقال ما خلاصته: (إن القرآن مجدد الإنزال على قلوب التالين له دائما أبدا، وهي له عرش يستوي عليها. واعلم أن الله نعت العرش بما نعت به القرآن، فالقرآن المطلق للعرش المطلق، والدرجات الرفيعة لذي العرش كالآيات والسور للقرآن. والعرش مقيد بما قيد به القرآن: فقرآن عظيم لعرش عظيم، وقرآن كريم لعرش كريم، وقرآن مجيد لعرش مجيد. ويحدث إنزاله تارة من الرب الناظر إلى التالي خاصة، وتارة من الرحمن المستوي على العرش المحيط مطلقا، وتارة من الاسم الله الجامع لوجوه الربوبية وإحاطة الرحمن، فإذا كان نزوله بصفة العظمة، أثر في القلب هيبة وجلالا وحياء ومراقبة

وحضورا وإخباتا وانكسارا وذلة وافتقار وحفظا ومراعاة وتعظيما لشعار الله. وإذا كشف الله تعالى للتالي عن شرف نفسه وفضلها ووسع قلبه وقبوله للترقي في معارج العلم والقرب وتسخير العالم له، فهو من استواء القرآن المجيد على عرش قلب مجيد. وإذا كشف سبحانه للتالي عن مكارم الأخلاق وتحلي بها، فعمَّ العالم رحمة وكرما ورأفة، فذلك القرآن الكريم المنزل على عرش قلب كريم).

الشيخ والقرآن

لكل شخص من القرآن سورته وسورتي من كتاب الله تنزيل

(ف: III:181)

أتقن الشيخ حفظ القرآن وهو صبي. ولما فاجأه الفتح الإلهي عند البلوغ، تحقق ذوقا بحقيقة الآية: [**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**] الأنعام، 38 ، وتيقن أن السعادة كلها والولاية كلها و العِلم كله في العمل بالقرآن. فكرّس كيانه كله، حتى أنفاسه وخواطره ظاهرا وباطنا للقرآن استمداد وإمدادا. وما حياة الشيخ كلها إلا معارج في منازل ومنازلات القرآن. فكما تعلّمه حفظا وهو صبي، تحققه وجدانا بالتنزيل على قلبه ذوقا بعد فتحه. يقول في الباب 366 المتعلق بسورة [الكهف]:

" فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه. أعطيت مفتاح الفهم فيه والإمداد منه، وهذا كله حتى لا نخرج عنه، فإنّه أرفع ما يُمنح. ولا يعرف قدرهُ إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه، وكلمه به الحق في سره. فإنّ الحق إذا كان هو المكلم عبده في سره بارتفاع الوسائط، فإنّ الفهم

يستصحب كلامه منك، فيكون عين الكلام منه عين الفهم منك لا يتأخر عنه، فإن تأخر عنه، فليس هو كلام الله. ومن لم يجد هذا فليس عنده علم بكلام الله عباده".

وفي الباب 325 المتعلق بسورة الحشر وعنوانه" معرفة منزل القرآن من الحضرة المحمدية " يتكلم عن تنزل القرآن جمعا والفرقان تفصيلا على قلوب الأولياء فيقول: " وما كل تال يحسّ بنزوله لشغل روحه بطبيعته، فينزل عليه من خلف حجاب الطبع فلا يؤثر فيه التذاذا، وهو قوله ρ في حق قوم من التالين: إنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. فهذا القرآن منزل على الألسنة لا على الأفئدة. وقال في الذوق: [**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** (193)**عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** (194)]. فذلك هو الذي يجد لنزوله عليه حلاوة لا يقدر قدرها، تفوق كل لذة. فإذا وجدها فذلك الذي نزل عليه القرآن الجديد الذي لا يبلى. والفارق بين النزولين أنّ الذي ينزل القرآن على قلبه ينزل بالفهم فيعرف ما يقرأ وإن كان بغير لسانه ويعرف معاني ما يقرأ وإن كانت تلك الألفاظ لا يعرف معانيها في غير القرآن لأنها ليست بلغته، ويعرفها في تلاوته إذا كان ممن ينزل القرآن على قلبه عند التلاوة. وإذا كان مقام القرآن ومنزله على ما ذكرناه، وجد كل موجود فيه ما يريد، ولذلك كان الشيخ أبو مدين يقول: " لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد".

ويواصل الشيخ تفصيله ثم يقول ما خلاصته مبينا الفرق بين التنزل على النبي والولي:

" فالقرآن والإنسان الكامل أخوان وليس ذلك إلا من أنزل عليه القرآن من جميع جهاته ونِسَبِه.وما سواه من ورثته إنّما أنزل عليه من بين كتفيه فاستقر في صدره عن

ظهر غيب وهي الوارثة الكاملة. حكي عن أبي يزيد أنّه ما مات حتى استظهر القرآن، وقال ρ في الذي أوتي القرآن بأنّ النبوة أدرجت بين جنبيه. وهذا هو الفرق بين الأنبياء والأولياء الأتباع. لكن من أدرجت النبوة بين جنبيه وجاءه القرآن عن ظهر غيب، أعطى الرؤية من خلفه كما أعطيها من أمامه، إذ كان القرآن لا ينزل إلا مواجهة. ولّما ذقنا ذلك، لم نر لأنفسنا تمييز جهة من غيرها، وجاءنا بغتة فما عرفنا الأمر كيف هو إلا بعد ذلك. فمن وقف مع القرآن من حيث هو قرآن، كان ذا عين واحدة أحدية الجمع. ومن وقف معه من حيث هو مجموع، كان في حقه فرقانا فشاهد الظهر والبطن والحدّ المطلع. ولما ذقنا هذا التنزل الفرقاني، قلنا هذا حلال وهذا حرام وهذا مباح، وتنوعت المشارب وتميزت المراتب وظهرت الأسماء الإلهية والآثار الكونية".

وكمثال لرسوخ الشيخ في حقائق القرآن، لنسمعه وهو يتكلم على أحد تآليفه فيه. يقول في فهرسته:

" فمن ذلك كتاب (الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل)، أكملت منه إلى قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ (60) (الكهف 60). وجاء بديعا في شأنه ما أظن على البسيطة من نزع في القرآن ذلك المنزع. وذلك أني رتبت الكلام فيه على كل آية على ثلاثة مقامات: مقام الجلال أوّلا، ثم مقام الجمال، ثم مقام الاعتدال، وهو برزخ من حيث الوِرث الكامل المحمدي فهو مقام الكمال، فآخذ الآية في مقام الجلال والهيبة فأتكلم عليها حتى أردها إلى ذلك المقام بألطف إشارة وأحسن عبارة. ثم آخذها بعينها وأتكلم عليها من مقام الجمال، وهو يقابل المقام الأول، حتى أردها كأنها إنما أنزلت في ذلك المقام خاصة. ثم آخذ تلك الآية بعينها وأتكلم عليها من مقام الكمال بكلام لا يشبه الوجهين المتقدمين. وفي هذا المقام

أتكلم على ما فيها من أسرار الحروف والكلمات والحروف الصغار التي هي الحركات والسكون الحي والسكون الميت إن كان فيها من ذلك شيء والنسب والإضافات والإشارات وما أشبه ذلك. فإذا فرغت من ذلك انتقلت إلى الآية التي تجاورها وما فيه كلمة لأحد أصلا إلا إن كان استشهادا وهو قليل".

وهذا التفسير يقع في نحو 64 مجلدا ولا يزال إلى اليوم مفقودا. ويجب التأكيد في هذا الموضوع على أنّ التفسير الإشاري للشيخ ولغيره من الصوفية لا يعني أبدا إهمال أو إغفال التفسير التقليدي المشهور، بل يرى أنه هو الأصل والمرجع. وكل معنى يعارض ظاهر الآية مرفوض قطعًا. وينكر الشيخ أشد الإنكار على الذين أقحموا في تفسير القرآن إسرائيليات وأخبارا غير ثابتة، خصوصا تلك التي لا تليق بمقامات الأنبياء وعصمتهم عليهم السلام (II:256/III:454-455...). ولا ينبغي أن ينحصر كلام الله تعالى في مفهوم واحد فقط، بل قد يفتح الله على أوليائه في قرآنه من لطائف الأسرار ما يليق بحال ومقام عبده. والأهم عند أهل الله هو فهم ما ورد في القرآن من قصص وأمثال وحكم وأحكام فهمًا يجعلها متوجهة لنفس الإنسان، إذ كل ما يظهر في الآفاق له ما يضاهيه في النفس. وما فائدة معرفة قصة آدم وإبليس أو موسى وفرعون مثلا إذا لم يشهد عبرة كل ذلك في نفسه؟ وفي هذا المعنى يقول الشيخ في كتابه (عنقاء المغرب):" فليس غرضي في كل ما أصنف في هذا الفن معرفة ما ظهر من الكون، وإنما الغرض تنبيه الغافل على ما وجد في هذا العين الإنساني والشخص الآدمي (...) لا فائدة في معرفة ما خرج عن ذاتك إلا ما يتعلق بسبيل نجاتك".

ويبين الشيخ سبب استعمال أهل الله من الصوفية الإشارات في كلامهم فيقول (278:I):" إنّ الإشارة عند أهل الله تؤذن بالبعد أو حضور الغير... وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذين منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه. فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام. ولّما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم كما ذكرناه، عدل أصحابنا إلى الإشارات، كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة. فكلامهم رضي الله عنهم في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة، ورَدِّ ذلك كله إلى نفوسهم مع تقريره إياه في العموم وفيما نزل فيه كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل ذلك الكتاب بلسانهم، فعمّ به سبحانه عندهم الوجهين، كما قال تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ (فصلت 53)، يعني الآيات المنزلة في الآفاق وفي أنفسهم.فكل آية منزلة لها وجهان:

وجه يرونه في نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة". وفي بعض كتبه يصرح الشيخ بمصدرها القرآني، وفي بعض الآخر يترك مفتاح فهمها القرآني خفيا:

فمن كتبه التي صرّح بمصدرها القرآني عدّة تفاسير للبسملة والفاتحة وآيات أخرى كالاثنين والتسعين بابا من الفصل السادس في (الفتوحات)، لكل باب آية، وكتفاسيره لآية الكرسي وغيرها من الآيات المشحونة بها كتبه كلها.فهو مثلا خلال كلامه على الآية: « وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا »(74)، يقول عنها : كل ما ذكرناه في كتابنا " مواقع النجوم " فإنّه بعض ما يعطيه هذا

الذكر (IV: 169) وله كتاب (القسَم الإلهي) فصّل فيه أنواع قسَم الله بالربوبية، كتبه في القدس عام 601.و في نفس السنة كتب في الموصل كتاب: (الجمال و الجلال) في يوم واحد بيّن فيه أنّ فيه أنّ لكل آية جمالية آية جلالية تقابلها. وفي عام 602 كتب بالقدس (إشارات القرآن في عالم الإنسان)، تتبع فيه إشارات آيات من السور حسب ترتيبها النزولي. وقد ذكر عثمان يحي كتبا أخرى للشيخ في التفسير منها:

- الغايات في ما ورد من الغيب في تفسير الآيات.
- كتاب الكتب فيه شرح لنعوت القرآن وأوصافه.
- المقصد الأسمى في الإشارات في ما وقع في القرآن من الكنايات.
- المثلثات القرآنية، أي الآيات ذات الوجوه الثلاثة.
- المسبعات القرآنية أي الآيات المتعلقة بالعدد سبعة.
- مفتاح الباب المقفل لفهم الكتاب المنزل كمدخل للتفسير الإشاري.

وله تآليف أخرى حول دلالات فواتح السّور، وقصائد حولها وحول السور وبعض الآيات. ففي ديوانه الكبير الكثير منها. ومن بينها مجموعة نجد فيها لكل سورة عدة أبيات تتراوح بين 3 و18 ومجموعها يزيد على 820. وله قصيدة في 44 بيتا ربط فيها كل سور القرآن حسب ترتيبها بسلسلة محكمة من لطيف المعاني وختمها بقوله:

البسيط

فهذه سُور القرآن أجمعها جمعت أسماءها لرغبتي فيه

وقد جمع الشيخ محمود محمود الغراب طرفا من كلام الشيخ في تفسيره الظاهري لبعض الآيات في كتاب من أربعة أجزاء كبيرة عنوانه «رحمة من الرحمن في تفسير

وإشارات القرآن من كلام الشيخ الأكبر » ورتبه حسب تسلسل السور في المصحف؛ وطبع سنة 1410هـ.

وأمّا كتبه التي لم يصرح بمفاتيحها القرآنية وإنّما يشير إليها تلويحا فكثيرة، ذكرنا بعضها في كتاب (مفاتيح فصوص الحكم) منها:

- كتاب التجليات مرجعة لسورة البقرة، فيه 109 فصلا لكل آية منها أو آيات تجل خاص.
- كتاب الفناء في المشاهدة مرجعه لسورة البينة.
- كتاب منزل القطب والإمامين مرجعه للمعوذتين.
- كتاب التراجم يحتوي على مقدمة و69 بابا، لكل باب آيات من سورة معيّنة، وترتيب الأبواب حسب ترتيب السور بدءا من سورة الحاقة (ترجمة القهر) وانتهاء بالبقرة(ترجمة الحجاب) والفاتحة (ترجمة الرداء).
- كتاب الشاهد يحتوي على27 بابا مشابهة جدا لبعض أبواب كتاب التراجم، لكل باب سورة.
- كتاب منزل المنازل المطابق للباب 22 من الفتوحات ، صنّف فيه السور إلى 19 صنفا حسب فواتحها، لكل صنف مميّزاته وعلومه ورجاله.
- كتاب مشاهد الأسرار القدسية المؤلف من 14 بابا، وقد بيّنا في كتاب خاص أن كل باب يتعلق بسور إحدى الفواتح الـ:14، من الحروف المقطعة وسورها.
- كتاب فصوص الحكم بأبوابه الـ: 27، وقد كتبنا تأليفا خاصا فيه بيان السورة المناسبة لكل باب، وهو جزء من كتابنا (مفاتيح فصوص الحكم).
- أبواب الفصل الرابع من الفتوحات: 114 بابا لكل باب سورة صعودا (من الناس) وانتهاء بالفاتحة حسب ترتيب المصحف، وفي كل باب يذكر عددا من

علـوم آيات السـورة بحيـث يكـون عـدد العلـوم الـتي ذكـر الشـيخ أسماءهـا في الفتوحات حول القرآن يصل إلى بضعة آلاف علم.

- أبواب الفصلين الأول و الخامس – أي أزيد من 150 بابا – من الفتوحات، كل باب يتناسب مع سورة أو آية معينة.
- كتـاب العظمـة في بعـض أسـرار وإشـارات حـروف الفاتحـة، لكـل آيـة مـن آياتها السبع فصل، بدءا من البسملة.

الشيخ في بعض مشاهده القرآنية

الطويل

ولي في كتاب الله من كل سورة نصيب وجُلّ الخير من سورة العصر

(ديوان: 312)

ليس القرآن عند الشيخ كلمات تُردّد أو معاني تتدبّر فحسب، بل آياته وكلماته وحروفه مطالع تجليات ومشاهد أسرار وعلوم ومظاهر عظمة لا نهاية لها .وعندما يصف منازل القرآن، إنّما يصف أحواله هو وأذواقه ومشاهده. وفي فصول هذا الكتاب أمثلة لذلك، ولنذكر أمثلة أخرى في هذا الفصل:

في الباب 272 المخصوص بسورة **الإخـــلاص**، يصف الشيخ منزلها فيقول: (581:II) " فاعلم أنّ هذا المنزل وإن كان يطلب الأحدية والتنزيه من جميع الوجوه، فإنّه يظهر في الكشف الصوري المقيد بالمظاهر كالبيت القائم على خمسة أعمدة، عليها سقف مرفوع محيط به حيطان لا باب فيها مفتوح. فليس لأحد فيه دخول بوجه من الوجوه. لكن خارج البيت عمود قائم ملصق إلى حائط البيت يتمسّح به

أهل الكشف، كما يقبلون و يتمسحون بالحجر الأسود الذي جعله الله خارج البيت، وجعله يمينا له وأضافه إليه لا إلى البيت، كذلك هذا العمود لا يضاف إلى هذا المنزل وإن كان منه، إلا أنّه ليس هو خاصا به، فإنه موجود في كل منزل إلهي، وكأنّه ترجمان بيننا وبين ما تعطيه المنازل من المعارف. وقد نبّه على ذلك ابن مسرة الجبلي في كتاب الحروف له، وهذا العمود له لسان فصيح يعبّر لنا عمّا تحويه المنازل، فنستفيد منه علم ذلك. ومن المنازل ما ندخل فيه ونمشي في زواياه، فنجد الأمر على حدّ ما عرفناه فيه. ومن المنازل ما لا سبيل لنا إلى الدخول فيه مثل هذا المنزل. فنأخذ من هذا العمود التعريف بحكم التسليم، فإنّه قد قام الدليل لنا على عصمته فيما يخاطبنا به في علم الكشف كالرسول في علم الحس، فهو لسان الحق. ومن الناس من يلحقه بأعمدة البيت. فإن بعض الحائط عليه ولا يظهر لنا منه إلا وجه واحد وسائره مستور في الحائط. فيقول بعض المكاشفين: إنّ البيت قائم على ستة أعمدة. فلا تناقص بين مثبتي الخمسة والستة في قيام البيت عليها. فقد بينا لك ذلك حتى لا تتخيّل أنّ الحق في أحد القولين ومع إحدى الطائفتين. فكل طائفة منها صادقة. فلهذا أخبرتك بكيفية ذلك. وهكذا جميع ما يظهر للناس أنّهم اختلفوا فيه. فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به، بل هم في شغلهم أصح وأحق من أهل الحس فيما يدركونه بحواسهم".

فالبيت هو سورة **الإخلاص**، وأعمدته الخمسة هي آياتها الخمس. والعمود السادس ترجمان المعارف هو البسملة، فبعضهم يعتبرها آية من كل سورة، وبعضهم يعتبرها آية مستقلة تفصل بين كل سورة وأخرى. وبسملة كل سورة عند العارفين بأسرار القرآن تنطوي على كل أسرار تلك السورة. وقد كرر هذا المعنى في آخر منزل سورة المسد في الباب 273، حيث يصف البسملة في مشهد آخر على هيئة دهليز البيت

فيقول": فهذا قد ذكرنا جميع ما يحويه هذا المنزل من خزائن العلوم. قال تعالى [**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** (21)]. غير أنّي تركت عند الدخول إلى هذا المنزل بيتا واحدا في دهليز هذا المنزل لا يفتح لكل أحد. وقد فتح لي و دخلته وعرفت ما فيه وهو يتضمّن ويخزن فيه جميع مفاتيح الخزائن كلها التي تتضمّنها هذه المنازل التي في هذا الكتاب. وهو يحوي على أمور جليلة، وللعارف به تحقق في إيجاد الكائنات عنه". يشير الشيخ إلى ما ذكره في مواقع أخرى أنّ البسملة للعارف الناطق بالله بمثابة "كن" للحق تعالى.

وأمّا كون بيت سورة **الإخلاص** لا باب له ولا سبيل للدخول فيه، فلأنها لا تحتوي إلا على أسماء التنزيه التي لا سبيل إلى التخلق بها. وما يتمسّح به من عمود البسملة هو عبارة عن التخلق بالاسم الرحيم.

وفي الباب 273 المخصوص بسورة المسد، فصّل تفصيلا وافيا بيوت منزلها وخزائن كل بيت وأقفالها ومفاتيحها. فالمنزل هو السورة. وبيوته هي آياتها، وخزائنها كلمات الآيات، وأقفالها حروفها، ومفاتيحها حركات الحروف ونقطها، وحركات كل مفتاح على عدد ذلك الحرف بحساب الجمل المعروف، وأمّهات العلوم التي تظهر للعارف من كل حرف على عدد ذلك الحرف. ففي اسم (الله) مثلا 66 من أمّهات العلوم الإلهية. وفي أوّل هذا الباب بيّن الشيخ أنّ كل حضرة كونية تستمدّ من كلمة أو آية قرآنية. فأشار إلى موقع العقل الأوّل في بسملة فاتحة الكتاب قائلا: " وصدر عن أمّ الكتاب الذي عنده حضرة تسمّى أمّ الجمع أدخلني الحق إياها فرأيتها ورأيت ظاهرها وباطنها، وعاينت مكان هذا العقل منها نكتة سوداء مستورة نقية ما بين حمرة وصفرة، وعاينت الرقيقة التي بين المكانة، وهذا المكان المعين. ورأيت موسى وهارون ويوسف عليهم السلام ناظرين إلى هذا العقل. وفرّع

سبحانه من هذه الحضرة الجامعة التي اختصها لنفسه حضرات لا يعلم عددها إلا الله في السماء والأرض وما بينها وما تحت الثرى إلى حدّ الاستواء (...) و شخص سبحانه مقام الصدق والصفاء وعيّن فيه اثنتين وسبعين مرقاة، كل مرقاة منها تعطي علوما لمن يرقى فيها للصفاء الذي استلزمته هذه الصورة، فهي علوم كشف، إلى أن ينتهي إلى ذروتها، فتقابله حضرة الأمّ بذاتها...". أشار الشيخ بأمّ الكتاب وأمّ الجمع إلى الفاتحة وبسملتها وبالمراقي الـ: 72 إلى حروف سورة **الإخلاص** التي تسبق سورة **المسد**. كأنّه أشار بنكتة العقل إلى نقطة باء البسملة (انظر علاقة الباء بالموجود الأوّل: 102:I). وأشار بذكر موسى وهارون ويوسف عليهم السلام إلى التوراة التي أوّل حروفها الباء. قال الشيخ (83:I): " قال لنا بعض الإسرائيليين من أحبارهم: ما لكم في التوحيد حظ، لأنّ سور كتابكم بالباء. فأجبته: ولا أنتم، فإنّ أول التوراة باء، فأفحم".

وفي مواضع أخرى، يتكلم الشيخ على اجتماع العارف بأرواح الأنبياء والأولياء في حضرات آيات القرآن والأسماء الحسنى، وذكر أمثلة لاجتماعه هو ببعضهم في كتابه (التجليات) المستمدّ من سورة **البقرة** كما بيّناه في بحث خاص.

ومثال هذا أيضا ما نجده في الباب 278 المخصوص بسورة قريش حيث يقول:" واعلم أنّ هذا المنزل إذا دخلته تجتمع فيه مع جماعة من الرسل صلوات الله عليهم فتستفيد من ذوقهم الخاص بهم، علوما لم تكن عندك، فتكون لك كشفا كما كانت لهم ذوقا"(II: 605).

وفي الباب 279 المخصوص بسورة الفيل يشير إلى تحققه بفاتحتها [**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ (1)**] فيقول (608:II): " ... ومن علوم هذا المنزل وجود العلم عن النظرة (...). ,أمّا النظرة، فما رويتها عن أحد ولا سمعتها عن أحد، لكني رأيتها من نفسي

نظرت نظرة، فعلمت ما تضمنته من العلوم، وأعطيت نظرة فنظرت بها فعلمت بها من نظرت إليه من جميع ما تضمنته تلك النظرة من العلوم. وهذا هو علم الأذواق، ومن هنا يعلم قول من قال يسمع بما به يبصر بما به يتكلم". ومن هذه الخوارق التي حصلت للشيخ قوله عن تحققه بالآية: [**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**] 44 الإسراء (I: 382): " وقد سمعنا بحمد الله في بدء

أمرنا تسبيح حجر و نطقه بذكر الله". ويقول أيضا: " ومن هنا نعرف أيضا تعرف النشأة الآخرة (...) فإنّ الروحانية على نشأة الآخرة أغلب من الحسّية. وقد ذقناه في هذه الدار الدنيا مع كثافة هذه النشأة، فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة. وأمّا عامة الناس، فيدركون ذلك في المنام" (318:I). وإنّما تمكن الشيخ من مقام التحوّل في الصور عند تحقّقه بمنزل سورة القارعة الذي خصص له باب 283 (620:II) حيث يقول:

" اعلم أنّه لما وصلت إلى هذا المنزل في وقت معراجي الذي عرج بي ليريني من آياته سبحانه ما شاء ومعي الملك، قرعت بابه، (يشير الشيخ إلى كلمة القارعة) فسمعت خلف الباب قائلا يقول: " من ذا الذي يقرع باب هذا المنزل المجهول الذي لا يعرف إلا بتعريف الله ؟" (يشير الشيخ إلى الآية [**الْقَارِعَةُ (1)مَا الْقَارِعَةُ (2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)**]، فقال الملك: " عبد الحضرة عبدك محمد بن نور" ففتح فدخلت فيه، فعرفني الحق جميع ما فيه، ولكن بعد سنين من شهودي إياه. فكان ذلك شهودا صوريا من غير تعريف , ثم بعد ذلك وقع التعريف به. ولّما عرفني بأنّه منزل مجهول، قصم ظهري. ولمّا وقع التعريف به، رأيته كله قواصم إلا أن يعصم الله ممّا رأيت، فخفت فسكن الله روعي، بما جلى لي، فرأيت في هذا المنزل تحوّل الصور الحسّية في الصور الجسمية كما يتشكل الروحانيون في الصّور. فتخيلت

أنّ تلك الصور الأول ذهبت، فحققت النظر فيها فلم أدركها حتى أعطيت القوة عليها، فتحوّلت فأدركت المطلوب..." ثم فصّل الشيخ ذلك بإسهاب طويل، وكل ذلك مرجعه الآيتين: [**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)**].

* وكل ذلك مرجعه لسرّ التكوين من كلمة "كن" التي تجلت شمسها للشيخ وعمره ثلاثون سنة فقال (439:II): " والكاف كافان، كاف كن وهي كاف الإثبات، وكاف لم يكن، وهي كاف النفي. وفي هذا الكاف طلعت لنا الشمس سنة تسعين وخمسمائة، فأثبتنا نفي التشبيه بطلوع الشمس في لم يكن، ومن لم تطلع له فيه شمس قال بالتعطيل والشمس طالعة". وما هذه الشمس إلا شمس سورة البينة التي خصّص الشيخ لها كتاب الفناء في المشاهدة والباب 286 من الفتوحات حيث يقول (633:II):" ولما دخلت هذا المنزل، وقع لي فيه التجلي في النور الذي لا شعاع له، فرأيته علما، ورأيت نفسي به، ورأيت جميع الأشياء بنفسي وبما تحمله الأشياء في ذواتها من الأنوار التي تعطيها حقائقهم، لا من نور زائد على ذلك. فرأيت مشهدا عظيما حسيا لا عقليا وصورة حقية لا معنى . ظهر في هذا التجلي اتساع الصغير لدخول الكبير فيه، مع بقاء الصغير على صغره، والكبير على كبره، كالجمل يلج سمّ الخياط. يشاهد ذلك حسا لا خيالا وقد وسعه، ولا تدري كيف، ولا تنكر ما تراه. فسبحان من تعالى عن إدراك ما تكيّفه العقول، وفضّل إدراك البصر عليها، لا إله إلا هو العزيز الحكيم".

وفي الباب 293 المخصوص بسورة **الشمس**، عاد الشيخ إلى ذكر دلالات التجلي الشمسي والقمري ثم قال: " واعلم يأخي أنّه ليلة تقييدي لبقية هذا المنزل

،من بركاته رأيت رسول الله ρ وقد استلقى على ظهره وهو يقول:" ينبغي للعبد أن يرى عظمة الله في كل شيء حتى في المسح على الخفين ولباس القفازين". وكنت أرى في رجليه ρ نعلين أسودين جديدين وفي يديه قفازين وكأنّه يشير إلي مسرورا بما وضعته في هذا المنزل من العلم بما يستحقه جلال الله ثم يقول:" ما دام البدر طالعا فالنفوس في البساتين نائمة وفي جواسقها آمنة.فإذا كان الظلام ولم يطلع البدر، خيف اللصوص. فينبغي أن يدخل الإنسان المدينة حذرا من اللصوص..." ثم شرح الشيخ هذا الكلام (669:II).

قصة أخرى عجيبة وقعت للشيخ في منزل سورة البروج الذي خصّص له باب 269 ويقول عنها (693:II)

"... فقرأت: [**إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** (102)]. فطلبت معنى ذلك، فأقيم لي شخص كنت أعرفه، وكان قد افترى عليّ فقيل لي: " هذا مأخوذ بك، أي بسببك (...) ". استدعيت بالشخص وقلت له: "ما رأيت؟ " فتأفف عليّ وأظهر التوبة وخرج عنّي وهو على حالة من الفرية، فلم يكمل الشهر حتى قتله الله بحجر شدخ رأسه..." وفصّل الشيخ قصة قتله.

وفي منزل سورة **الحاقة** التي خصّص لها باب (315)، يذكر واقعة أخرى عجيبة خلال إشاراته للآية 19 منها: [**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** (19)]:

[... وأمّا في زماننا، فاتفق لامرأة أنها رأت في المنام كأنّ القيامة قد قامت وأعطاها الله ورقة شجرة فيها مكتوب عتقها من النار. فمسكتها في يدها، واتفق أنها استيقظت من نومها والورقة قد انقبضت عليها يدها، ولا تقدر على فتح يدها، وتحسّ بالورقة في كفها. واشتد قبض يدها عليها بحيث أنّه كان يؤلمها، فاجتمع

الناس عليها وطمعوا أن يقدروا على فتح يدها. فما استطاع أحد على فتح يدها من أشد ما يمكن من الرجال، فسألوا عن ذلك أهل طريقنا، فما منهم من عرف سرّ ذلك. وأمّا علماء الرسم من الفقهاء فلا علم لهم بذلك. وأمّا الأطباء فجعلوا ذلك لخلط قوي انصبّ إلى ذلك العضو، فأثر فيه ما أثر. فقال بعض الناس: " لو سألنا فلانا (يريدون إياي بذلك) ربما وجدنا عنده علما بذلك" فجاءوني بالمرأة وكانت عجوزا ويدها مقبوضة قبضا يؤلمها. فسألتها عن رؤياها، فأخبرتني كما أخبرت الناس. فعرفت السبب الموجب لقبض يدها عليها، فجئت إلى أذنها وساررتها فقلت لها: " قربي يدك من فمك وانو مع الله أنك تبتلعين تلك الورقة التي تحسين بها في كفك، فإنك إن نويت ذلك وعلم الله صدقك في ذلك فإنّ يدك تنفتح". فقرّبت المرأة يدها من فيها وألزقته، وفتحت فاها ونوت مع الله ابتلاع الورقة. فانفتحت يدها وحصلت الورقة من فمها فابتلعتها، وانفتحت يدها فتعجب الحاضرون من ذلك (...) ثم ذكر الشيخ قصة تشبهها وقعت مع مالك بن انس إمام دار الهجرة رضي الله عنه.

وفي منزل سورة **الحجر** التي خصّص لها الباب 369، شهد خزائن سور القرآن كلها في آيتها: (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) وذكر منها خزائن السور الثلاثة والعشرين الأولى – من الناس إلى الليل – ، جعل لكل سورة منها وصلا. وفي خزانة سورة **الكافرون** شهد واقعة وصفها بقوله(376:III): [رأيت عينا من لبن حليب ما رأيت لبنا مثله في البياض. والطيب في جرمه دخلت فيه حتى بلغ ثديي وهو يندفق، فتعجبت لذلك، وسمعت كلاما غريبا إلهيا يقول:" من سجد لغير الله عن أمر الله قربة إلى الله طاعة لله فقد سعد ونجا. ومن سجد لغير الله عن غير أمر

الله قربة إلى الله فقد شقيَ". فإنّ الله عزّ وجل: يقول: [**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** (18)] فإنّ الله مع الخلق لا الخلق مع الله لأنّه يعْلَمهم فهو معهم...]

* وفي منزل سورة **يونس** يتحقق، بالاسم الرقيب من آيتها 61: [**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**] فيقول (174:IV):

[هذا هجير لزمته سنين كثيرة حتى ما كنت أسمّى إلا به، وممّا كنت مستهترا به متّحدا، ورأيت له بركات لا أحصيها. وهو الذي اطلعت منه على المراقبة، فكنت رقيبا على نفسي نيابة عن الله حين أمرها أن تكون على وصف خاص معلوم في الشرع المطهر المنزل على لسان المعصوم ρ ورقيبا على آثار ربّي فيما يورده على قلبي، وفي جميع حركاتي و سكناتي، ورقيبا أيضا على ربي بموازنة حدّه المشروع في عباده...]

* كذلك الآية 24 من التوبة، فني الشيخ فيها عمره 26 سنة فيقول عنها (156:IV):

[**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ." فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ]** (...) هذه آية جاءت إلينا يوم جمعة بعد الصلاة في المقابر بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة، فبقيت فيها سكرانا ما لي تلاوة في صلاة ولا يقظة ولا نوم إلا بها ثلاث سنين متوالية، أجد لها حلاوة ولذة لا يقدر قدرها...]

* وكذلك يقول عن الآية 188 من آل عمران(ولا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم تفعلوا) (194:IV): [إنّي التزمت هذا الذكر أيضا سنين متعددة حتى كنت أسمىّ به في بلدي. كما كنتُ أسمى أيضا بغيره من الأذكار ورأيت له بركات ظاهرة].

* وأحيانا تتجسد للشيخ بعض معاني الآيات بكيفية تكاد تكون حسّية كالآية 144 من البقرة التي تجلّت له من خلال كتابته لفصل " الجمعة بعرفة" من باب الحج في (الفتوحات) فيقول (I: 714):

[واقعة وقعت لنا في ليلة كتابتي هذا الوجه، وهي مناسبة لهذا الباب. كنت أرى فيما يراه النائم شخصا من الملائكة قد ناولني قطعة من أرض متراصة الأجزاء ما لها غبار في عرض شبر وطول شبر وعمق لا نهاية له. فعندما تحصل في يدي أجدها قوله تعالى: [**وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ**] ... إلى قوله:[**وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**] فكنت أتعجب ما كنت أقدر أن أنكر أنها عين هذه الآيات، ولا أنكر أنها قطعة أرض. وقيل لي هكذا أنزل القرآن وأنزلت على محمد ρ .فكنت أرى رسول الله ρ ويقول لي :" هكذا أنزلت عليّ فخذها ذوقا وهكذا هو الأمر فهل تقدر على إنكار ما تجده من ذلك؟ " قلت: لا (...) فقلت: هذا كشف مطابق للجمعة التي جاء بها جبريل υ إلى رسول الله ρ في صورة مرآة مجلوة وفيها نكتة وقال له: " يا رسول الله هذه الجمعة وهذه النكتة الساعة التي فيها..." و الحديث مشهور، فانظر مأعجب الأمور الإلهية وتجليها في القوالب الحسّية].

وفي كتابه (مشاهد الأسرار)، وصف الشيخ العديد من أمثال هذه التجليات. وقد بينّا في كتاب خاص بالمشاهد أنّ مرجعها للسوّر المفتتحة بالحروف المقطعة والله أعلم.

ممّا سبق يظهر أنّ حياة الشيخ لم تكن إلا سلسلة من مشاهد القرآن وأذواق الفرقان.

الشيخ مع السّيرة النبوية والحديث الشريف والفقه

لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنباء عن الله

(فII:364)

يذكر الشيخ سبب ابتداء شغفه بالحديث النبوي في كتابه (المبشرات) فيقول: [كان جملة من أصحابنا قبل أن أعرف العلم قد رغبوا وقصدوني محرضين على قراءة كتب الرأي، وأنا لا علم لي بذلك ولا بالحديث. فرأيت نفسي في المنام وكأني في فضاء واسع وجماعة بأيديهم سلاح يريدون قتلي، ولا ملجأ معي آوي إليه. فرأيت أمامي ربوة رسول الله ρ عليها واقف، فلجأت إليه. فألقى ذراعه عليّ وضمّني ضما عظيما وقال لي:" يا حبيبي استمسك بي لتسلم". فنظرت إلى أولئك الأعداء، فلم أر منهم على وجه الأرض أحدا. فمن ذلك الوقت اشتغلت بالحديث].

إذن امتثل الشيخ الأمر فأصبح مغرما بالحديث والسيرة النبوية، إذ هما الشرح والتطبيق العملي للقرآن الكريم. وبقي الشيخ طوال عمره طالبا ودارسا مدرّسا لهما. ويبدو أنّه بدأ يتخصّص في هذا العلم خلال الفترة التي فصلت خروجه من خلوته

الأولى ودخُوله في طريق السلوك وصحبة الشيوخ، أي بين الخامسة عشر والعشرين من عمره.

ويقيّم الشيخ المذاهب الفقهية حسب مدى صلتها بالحديث فيقول في رسالة المبشّرات: [رأيت مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة في المنام وعليه ثوب أبيض يجر منه في الأرض اثني عشر ذراعا، وهو على باب يقال له باب الفتح، فقلت له: " يا مالك، ما أقرأ؟" فقال: " تُحب أن تقرأ كتب الرأي". فكنت أرى شخصا كان يشتغل بكتب الرأي وهو ينظر في مزبلة معرضا عن مالك مقبلا على المزبلة فقلت:" يا مالك أخاف أن تقودني كتب الرأي إلى ما قادت إليه هذا الشخص". فتبسّم مالك – رضي الله عنه – وقال:" صدقت، عليك يا بني بتقييد الحديث و العمل به". ومن شرف علم الحديث ما حدثنا به العالم أبو العباس أحمد بن داود بن علي بن ثابت بن منصور الحزيري الحلفاوي رحمه الله بمدينة تونس بدار الشيخ الصالح العارف عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي. قال أبو العباس: " كان لي اعتقاد كبير في الإمام أبي حنيفة لحسن رأيه وجودة ذهنه، وكنت أميل إليه من دون الأئمة: فرأيت رسول الله ρ في النوم، فلم يكلمني وهبت أن أسأله، وكان أبو بكر خلفه، فقلت: " يا أبا بكر كيف مراتب الأئمة عندكم ؟ " فقال: " اللاحق بنا أحمد بن حنبل ثم الشافعي ثم مالك ثم أبو حنيفة". قال: فتعجبت وعلمت أنّ النحاة في متابعة الحديث. ولقد أخبرت بهذه الحكاية القاضي عبد الوهاب الأزدي الإسكندراني بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فقال:" هو الصحيح". وأنا أخبرك بما يقوي ما رآه أبو العباس. فقلت له: " أخبرني"، ونحن تجاه الركن اليماني عند باب الحزورة، فقال: "كان عندنا رجل صالح فيه خير وله سمْتٌ حسن، فمات فرآه بعض الصالحين من أصحابنا في المنام فقال له الرائي: " يا

فلان، كيف تكون الأرض إذ جاءك الملكان؟" فقال:" إنها تصير كالماء، كلما اخترقت فيها لم تمتنع عليك كما تخترق الماء". قال الرائي:" فقلت له: ما رأيت؟" قال:" رأيت كتبا مرفوعة و كتبا في الأرض موضوعة، فسألت عنها فقيل لي: أمّا المرفوعة فكتب الحديث، وإما الموضوعة فكتب الرأي حتى يسأل عنها أصحابها".

فمذهب الشيخ في الفقه هو مذهب رجال الحديث. وهو مجتهد مطلق يؤيد نقله الصحيح بكشفه الصريح. وهو مع ترجيحه الوقوف مع ظواهر النصوص الشرعية الثابتة بلا قياس ولا تأويل ولا زيادة و لا نقصان يعذر كل المجتهدين إن كانوا مخلصين في اجتهادهم مؤدين حق النظر غاية وسعهم. وقد فصّل الشيخ موقفه في كيفية الاجتهاد الشرعي في الباب 88 من (الفتوحات) وهو نفيس جدا. فلنلخص بعض ما ورد فيه:

[أصول أحكام الشرع المتفق عليها ثلاثة، الكتاب والسنة والإجماع. واختُلف في القياس، فمن قائل به ومن قائل بمنعه. والإجماع لا بدّ أن يستند إلى نصّ وإن لم ينطق به، فهو فرع من الأصلين الكتاب والسنة. وأماّ القياس ففي مواضع تظهر قوة الأخذ به على تركه وفي مواضع لا يظهر ذلك، ومع هذا فما هو دليل مقطوع به فأشبه خبر الآحاد، فإن الاتفاق على الأخذ به مع كونه لا يفيد العلم ، وهو أصل من أصول إثبات الأحكام فليكن القياس مثله إذا كان جليا لا يرتاب فيه. وعندنا وإن لم نقل به في حقي فإنّي أجيز الحكم به لمن أداه اجتهاده إلى إثباته، أخطأ في ذلك أو أصاب، فإن الشارع أثبت حكم المجتهد وإن أخطأ وإنّه مأجور. فلولا أن المجتهد استند إلى دليل في إثبات القياس من كتاب أو سنة أو إجماع أو من كل أصل منها لما حل له أن يحكم به. بل ربّما يكون في حكم النظر عند المنصف القياس الجليّ أقوى في الدلالة على الحكم من خبر الواحد الصحيح، فإنا إنمّا

نأخذه بحسن الظن برواته ولا نزكّيه علما على الله، فإنّ الشرع منعنا أن نزكي على الله أحدًا، ولنقل أظنه كذا وأحسبه كذا.

والقياس الجلي يشاركنا فيه النظر الصحيح العقلي الذي يقيس المسكوت عنه على المنطوق به لعلة معقولة لا يبعد أن تكون مقصودة للشارع تجمع بينهما في مواضع الضرورة، إذا لم يوجد فيها نص معيّن. فكل من خَطَّأَ مثبت القياس أصلا أو خطأ مجتهدا في فرع كان أو في أصل، فقد أساء الأدب على الشارع، حيث أثبت حكمه والشارع لا يثبت الباطل. وهذه طريقة انفردنا بها في علمنا، مع أنّا لا نقول بالقياس بالنظر إلينا، ونقول به بالنظر لمن أدّاه إليه اجتهاده لكون الشارع أثبته. ومن أصول الأحكام أنّه إذا تعارض آيتان أو خبران صحيحان أمكن الجمع بينهما واستعمالهما معا، فلا نعدل عن استعمالهما. فإن لم يمكن استعمالهما معا بحيث أن يكون في أحدهما استثناء، فيجب أن يؤخذ بالذي فيه الاستثناء. وإن كان في أحدهما زيادة أخذت الزيادة وعمل بها. فإن لم يوجد شيء من ذلك وتعارضا مع جميع الوجوه فينظر إلى التاريخ، فيؤخذ بالمتأخر منهما. فإن جهل التاريخ وعسر العلم به فلينظر إلى أقربهما إلى رفع الحرج في الدّين فليعمل به لأنّه يعضده [**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**]. فإن تساويا في رفع الحرج فلا يسقطان وتكون مخيرا فيهما تعمل بأيّ الخبرين شئت أو الآيتين. وإذا تعارض آية وخبر صحيح من جميع الوجوه من أخبار الآحاد وجهل التاريخ أخذ بالآية وترك الخبر. فإن كان الخبر متواترا كالآية وجهل التاريخ ولم يمكن الجمع بينهما كان الحكم التخيير فيهما، إلا أن يكون أحدهما فيه رفع الحرج فيقدم الأخذ به. وكل خبرين أو آيتين تعارضا أو آية وخبر صحيح متواتر وفي أحدهما زيادة حكم، قبلت الزيادة وعمل بها وترجّح الأخذ

بحديث الزيادة على معارضته. ولا يؤخذ من الحديث إلا ما صحّ. وإن عارضه قول صاحب أو إمام فلا سبيل إلى العدول عن الحديث. ويترك قول ذلك الإمام و الصاحب للخبر. فإن كان ذلك الخبر مرسلا أو موقوفا ، فلا يعول عليه إلا إذا علم من التابع أنّه لا يرسل الحديث إلا عن صاحب لا غير. وإن لم يعين ذلك الصاحب، فيؤخذ بالمرسل فإنه في حكم المسند. وإذا وردت الآية أو خبر عن قوم لم يتكلم فيهم بجرح ولا تعديل وجب الأخذ بروايتهم. فإن جرح واحد منهم بجرحة تؤثر في صدقه ترك حديثه، وإن كانت الجرحة لا تتعلق بنقله وجب الأخذ به. وما أوجب الله علينا الأخذ بقول أحد غير رسول الله ρ لا غير، وما عدا عصرهم فليس بإجماع يحكم به. وإنّما امتنعنا نحن عن الأخذ بالقياس، لأنّه زيادة في الحكم، وفهمنا من الشارع أنّه يريد التخفيف عن هذه الأمة، فكان يكره المسائل خوفا أن ينزل عليهم في ذلك حكم فلا يقومون به. وكل مسكوت عنه فلا حكم فيه إلا الإباحة الأصلية. وكل عمل مقيد بوقت. وأفعال النبي ρ ليست للوجوب، إلا فعل بَيَّنَ به أمرا تعبّدنا به، فذلك الفعل واجب كقوله: " صلوا كما رأيتموني أصلي"].

والشيخ ينكر أشدّ الإنكار على طائفتين: طائفة الباطنية أو الفلاسفة الذين يؤولون النصوص الشرعية حسب هواهم بإخراجها عن دلالاتها الظاهرة، أو الذين يعتقدون أنها جعلت لسياسة العامة لا الخاصة، وطائفة المتعصبين من أهل الفقه الذين يرجّحون التقليد أو الرأي على الحديث الصحيح الثابت (I:499-500)، أو يُحابون الحكّام بتحريف أحكام الشرع. كما ينكر على المولعين بالإسرائيليات وغرائب الأخبار غير الثابتة، خصوصا إذا أقحموا ذلك في تفسير القرآن العزيز (II:256) (III:562). وإليك بعض نصوصه في هذا الموضوع. يقول في الباب 318 المتعلق

بسورة التحريم وعنوانه:" في معرفة منزل نسخ الشريعة المحمدية وغير المحمدية بالأغراض النفسية عافانا الله وإياكم من ذلك بمنه" ما خلاصته:

[اعلم أنّ الشريعة هي المحجة البيضاء وطريق السعادة، من مشى عليها نجا ومن تركها هلك. ولما غلبت الأهواء على النفوس، وطلبت العلماء المراتب عند الملوك، وتركوا المحجة البيضاء، وجنحوا إلى التأويلات البعيدة، ليمشوا أغراض الملوك فيما لهم فيه هوى نفس، ليستندوا في ذلك إلى أمر شرعي، مع كون الفقيه ربما لا يعتقد بذلك ويفتي به. ولقد رأينا منهم جماعة على هذا من قضاتهم وفقهائهم. ولقد أخبرني الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب وقد وقع بيني وبينه في مثل هذا الكلام، فنادى بمملوك وقال: جئني بالحرمدان. وقال: أنت تنكر عليّ ما يجري في بلدي ومملكتي من المنكرات والظلم، وأنا والله أعتقد مثل ما تعتقد أنت فيه من أنّ ذلك كله منكر،ولكن والله ياسيدي ما منه منكر إلا بفتوى فقيه وخط يده عندي بجواز ذلك (...) ولقد أفتاني فقيه وهو فلان، وعيّن لي أفضل فقيه عنده في بلده في الدّين و التقشف، بأنه لا يجب عليّ صوم شهر رمضان هذا بعينه، بل الواجب عليّ شهر في السنة، والاختيار لي فيه أيّ شهر شئت من شهور السنة. قال السلطان: فلعنته في باطني ولم أظهر له ذلك، وهو فلان، سماه لي , رحمهم الله جميعا]. ثم ذكر الشيخ أمثلة عن التعصّب المذهبي الممقوت.

ويقول في المبشرات: [... اتفق لرجل من الصالحين أنه رأى فقهاء البلد الذي كان فيه قد اجتمعوا ودفنوا النبي ρ وقد مات بينهم. فاستيقظ الرجل فسأل، فوجدهم في مسألة من الحج قد بيّنت لهم الأحاديث الصحيحة التي لا مطعن فيها، فَأبوا قبولها وحكموا في المسألة بالرأي؛ وقالوا: مذاهب قد استقرت، يريد هذا المنازع أن يردّها بهذه الأحاديث. وتعصبوا عليه، فنعوذ بالله من الخذلان. ولقد رأيت النبي ρ في المنام ميتا وقد دفن في موضع من المسجد الجامع بإشبيلية، فسألت عن ذلك

الموضع فإذا به مغصوب أخذ من صاحبه ولم يعط حقه. ورأيت رسول ρ في المنام وأنا بمكة وكان إبراهيم بن همام الإشبيلي قد اعتنى بضبط الحديث والعمل به، وعليه قام هؤلاء الفقهاء الذين دفنوا النبي ρ كما ذكرنا. فرأيت النبي ρ يقبّل إبراهيم بن همام ويضمه إليه ضمّ مودّة ويُعرّفه بأنَّه يحبّه. ورأيت في النوم رسول الله ρ يعانق الإمام المحدث أبا محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي صاحب المحلى، وكان إماما في الحديث عالما به عاملا، وقد غشى النور ذات رسول الله ρ وذات ابن حزم وقد انضماّ حتى كأنهما جسد واحد. فهذا من بركة الحديث].

وهكذا فأحبّ العلماء إلى الشيخ هم أهل القرآن ورجال الحديث العاملون به الذين يسمّيهم الشيخ رُسُل رسول الله ρ . ويردّ على القائلين عنه إنّه ظاهري مقلّد لابن حزم فيقول في ديوانه:

الخفيف

نسبوني إلى ابن حزم وإنّي لست ممّن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإنّ مقالي قال نصّ الكتاب ذلك علمي
أو يقول الرسول لو أجمع الخلق على ما أقول ذلك حكمي

وكثيرا ما يؤكد الشيخ أنّ كشف الأولياء لا يكون إلا مطابقا للشريعة المحمدية فيقول (437:I):

[إن الإنسان إذا زهد في غرضه ورغب عن نفسه وآثر ربّه، أقام له الحق عوضا عن صورة نفسه صورة هداية حقا من عند حق، حتى يرفل في غلائل النور، وهي شريعة نبيّه ورسالة رسوله، فيلقي إليه من ربّه ما يكون فيه سعادته. فمن الناس من يراها على صورة نبيه، ومنهم من يراها على صورة حاله. فإذا تجلت له صورة نبيه، فليكن عين فهمه فيما تلقي إليه تلك الصورة لا غير، فإن الشيطان لا يتمثل على صورة

نبي أصلا. فتلك حقيقة ذلك النبي وروحه أو صورة ملك مثله، عالم من الله بشريعته، فما قال فهو ذاك. ونحن قد أخذنا عن مثل هذه الصورة أمورا كثيرة من الأحكام الشرعية لم نكن نعرفها من جهة العلماء ولا من الكتب , فلما عرضت ما خاطبتني به تلك الصورة من الأحكام الشرعية على بعض علماء بلادنا ممّن جمع بين الحديث والمذاهب، فأخبرني بجميع ما أخبرته به أنه روي في الصحيح عن النبي ρ ما غادر حرفا واحدا. وكان يتعجب من، ذلك حتى أنّه من جملة ذلك رفع اليدين في الصلاة في كل خفض ورفع، ولا يقول بذلك أهل بلادنا جملة واحدة، وليس عندنا من يفعل ذلك ولا رأيته. فلما عرضته على محمد بن علي بن الحاج وكان من المحدثين روى لي فيه حديثا صحيحا (...).

وأمّا إذا ظهرت على غير صورة رسوله، فتلك الصورة راجعة إلى حاله لابدّ من ذلك، أو إلى منزلة الشرع في ذلك الوقت في ذلك الموضع الذي رآه فيه مثل الرؤيا سواء. إلا أنّ هذا الإنسان يراها في اليقظة، والعامة ترى ذلك في النوم، فلا يأخذ من تلك الصورة إذا تجلت بهذه المثابة شيئًا من الأحكام المشروعة، وكل ما أتى به من العلوم والأسرار ممّا عدا التحليل والتحريم فلا تحجر عليه فيما أخذ منها].

وتكلم الشيخ في أبواب من الفتوحات – مثل البابين 14 و36 على تصحيحه الأحاديث مباشرة من رسول الله ρ فيقول مثلا:(ومن تلك الطريق نصحّح الأحاديث النبوية ونردّها أيضا، إذا علمنا أنّها واهية الطرق غير صحيحة عن رسول الله ρ ، إن قرر الشارع حكم المجتهد وإن أخطأ. ولكن أهل هذه الطريقة مَا يأخذون إلا بما حكم به رسول الله ρ].

ويقول: [وربّ حديث يكون صحيحا من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر، فسأل النبي ρ عن هذا الحديث الصحيح، فأنكره وقال له:

لم أقله ولا حكمت به، فيعلم ضعفه فيترك العمل به عن بيّنة من ربّه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه وهو في نفس الأمر ليس كذلك. وقد ذكر مثل هذا مسلم في صدر كتابه الصحيح، وقد يعرف هذا المكاشف من وضع ذلك الحديث الصحيح طريقه في زعمهم إمّا أن يسمى له أو تقام له صورة الشخص].

ومن الأحاديث الشريفة التي صحّت عند الشيخ كشفا قوله صلى الله عليه وسلم:

*" إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العالمون بالله، فإن نطقوا به لم ينكره عليهم إلا أهل الغرّة بالله" (أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، وابن شاهين، وأبو عبد الرحمن السلمي)(II:114/III:48-244).

*" ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع"(أخرجه الطبراني وله عدّة شواهد قريبة منه) (I: 187/IV:411).

* قوله صلى الله عليه وسلم عن ثياب أهل الجنة: "إنها تشقّق عنها ثمر الجنّة"(أخرجه أحمد بلفظ قريب)(II: 655/III:434).

*دعاؤه صلى الله عليه وسلم: "اللهم زدني فيك تحيرا"(I:271/II:153/III:329/IV:407...).

*" بين كل أذانين صلاة" (أخرجه البخاري ومسلم)(I:491)

* سئل صلى الله عليه وسلم عن الكسوف فقال: "ما تجلى الله لشيء إلا خشع له" (أخرجه البزار وعند أحمد وابن ماجه بمعناه) (I:488/III:107..)

*"لولا تزييد في حديثكم، وتمريج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع" (أخرجه بلفظ قريب أحمد وابن جرير الطبري) (I: 147/III: 13، 131)

*"خلق الله آدم على صورة الرحمن" (أخرجه الطبراني والحاكم وابن عساكر) (وورد في الفتوحات أكثر من 40 مرة).

*" إن إسرافيل يتضائل في كل يوم سبعين مرّة حتى يكون كالوضع" (ذكره القرطبي في التفسير، وذكر نحوه ابن المبارك والغزالي في الإحياء) (615،339:II)

* الحديث القدسي: "كنت كنزا مخفيا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني " وفي رواية "فبي عرفوني"(I: 112/III:132/IV:256..)

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه في حديثه عن الكعبة " أنها بين واحد من أربعة عشر بيتا ، وأن في كل أرض من السبع الأرضين خلقا مثلنا، حتى أن فيهم ابن عباس مثلي"(أخرجه بمعناه الطبري في التفسير وذكره السيوطي في الدرّ المنثور) (127:I).

*" من عرف نفسه عرف ربه "(لم يصرح الشيخ بوضوح تصحيحه لهذا الحديث كشفا، لكن يُستشعر منه ذلك حيث أورده عشرات المرات في الفتوحات وغيره).

وقد ذكر الشيخ أمثلة عن بعض الأحكام الشرعية التي أخذها عن النبي ρ واختلف فيها الفقهاء كمسألة من قال لزوجته: " أنت طالق ثلاثا" فهي ثلاث، كما قال لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره. ومنها أنّ كلمة قروء تعني الحيض لا الطهر في الآية [**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**] (552:IV): ومن ذلك قوله:(599:I): [ولقد رأيت رسول الله ρ وأنا بمكة في المنام و هو يقول ويشير للكعبة: يا ساكني هذا البيت، لا تمنعوا أحدا طاف في هذا البيت في أيّ وقت كان من الليل أو نهار أن يصلي في أي وقت شاء من ليل أو نهار، فإنّ الله يخلق له من صلاته ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة]. ومن ذلك الوقت، قال الشيخ بجواز الطواف بعد صلاتي الصبح والعصر (706:I). ومن ذلك رخصة حمل الهميان للمحرم (744:I). ومن ذلك أيضا قوله (II: 253): [رأيت في هذه الليلة

رسول الله ρ وهو يكره إدخال الجنازة في المسجد، ويكره أيضا أن يستر الميت من الذكران بثوب زائد على كفنه، وأمر أن يسلب عنه ويترك على نعشه في كفنه، وأن لا يستر في تابوت أصلا. وأمرني إذا كان البرد أن أسخن الماء للغسل من الجنابة ولا أصبح على جنَابة. ورأيته يشكر الجماع و يستحسن ذلك من فاعله]. وإثر هذه الرؤيا، يقول: (I: 537): [فما صلّيت بعد ذلك على جنازة في المسجد،فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول:من رآني فقد رآني فإنّ الشيطان لا يتكونّني].ومن ذلك أيضا قوله: [رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤيا مبشرة فأمرني أن أرفع يديّ عند تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع] (I:437).

وذكر الشيخ حكاية تبيّن مدى تعلقه بالتطبيق الحرفي للحديث الشريف وهي ملخصة (IV:503):

[وعليك باستعمال الحبة السوداء وهو الشونيز، فإنها شفاء من كل داء إلا السام الموت، ولقد ابتلي عندنا رجل من أعيان الناس بالجذام ويئس الأطباء من دوائه. فرآه رجل من أهل الحديث من بني عفير من أهل لبلة يقال له سعد السعود فقال: عليّ بالحبة السوداء التي قال عنها النبي ρ إنها شفاء من كل داء. فخلطها بالعسل وطلى بهما بدنه كله ورأسه ووجهه إلى رجليه، وألعقه من ذلك وتركه ساعة. ثم إنّه غسل ذلك عنه، فانسلخ من جلده ونبت له جلد آخر، ونبت ما كان قد سقط من شعره، وبرئ وعاد إلى ما كان عليه في حال عافيته. فتعجب الأطباء و الناس من قوة إيمانه بالحديث النبوي. وكان رحمه الله يستعمل الحبة السوداء في كل داء يصيبه حتى إذا رمدت عينه اكتحل بها، فيبرأ من ساعته].

ومن النصوص السابقة، يتبين أنّ الله تعالى وهب الشيخ منذ فتحه الأول وهو صبي الصحبة والمشاهدة الدائمة الروحية لرسول الله ρ. فكان يأخذ منه العلم والعمل

مباشرة. ثم وفقه لتعلم السنة من رجالها ليجمع بين النقل الظاهر والكشف الباطن. ولقد كان على صلة وطيدة مع رجال الحديث في عصره شرقا وغربا. وفي إجازته للملك المظفر وفي كتابه (محاضرة الأبرار) وفي (الفتوحات)، ذكر بعض شيوخه في الحديث وإجازاتهم له، وفي (محاضر الأبرار) وحده عدّد نحو الخمسين من أسانيده المسلسلة. وبعض شيوخه في الحديث كانوا صوفية أيضا ومن أشهرهم في المغرب:

- القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأنصاري (ت:586).
- أبو زيد عبد الرحمن السهيلي (ت: 581).
- أبو محمد عبد الله التادلي (ت:597).
- عبد الجليل بن موسى(ت: 608).
- قاضي مرسية أبو بكر بن الحسن.
- أبو الصبر ايوب الفهري (ت:609) (334:III).
- أبو عبد الله محمد بن عبيد الله الحجري (ت:591) (334:III/32:I).
- ابن أبي جَمْرَةَ (ت: 599).
- أبو الوائل بن العربي (32:I).
- محمد بن أحمد بن العاص الباجي (400:I).

-القاضي المحدث الفقيه الشاعر عبد المؤمن بن محمد بن فارس الخزرجي (ت:597).

- عبد الحق الأزدي الإشبيلي بن الخراط (ت:581) مؤلف الأحكام الكبرى والوسطى والصغرى، وكان على صلة وطيدة مع إمام صوفية عصره الشيخ أبي مدين (649:I/II: 302).
- أحمد بن محمد بن مقدام الرعياني (ت: 604) (649:I).

- يحي بن محمد بن الصائغ الأنصاري (ت:600)(II:528/III:334/IV:489).
- عبد الودود بن سمحون (ت:608).
- جابر بن أيوب الحضرمي (ت: 587).
- محمد بن قاسم الفاسي (ت:603) (I:244/IV:503-549).
- يحي بن أبي علي الزواوي (ت:611) (II:21-637).

وله في المشرق شيوخ كثيرون آخرون , منهم ابن شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني (ت:609) والبرهان بن نصر الحضرمي ومحمد بن الوليد بن أحمد بن محمد بن شبل وأبو عبد الله بن غَلبُون وأبو سعيد عبد الله بن عمر الصفار وأبو الثناء محمود اللبان ومحمد بن محمد البكري وشيخ شيوخ بغداد ضياء الدّين عبد الوهاب بن سكينة (ت:608) وأبو بكر بن أبي الفتح السجستاني وغيرهم كثير... وألف الشيخ كتبا في السيرة والحديث منها:

- مختصر صحيح مسلم – مختصر صحيح البخاري.
- مختصر مصنف الترمذي – المصباح في الجمع بين الصحاح.
- مختصر المحلي لابن حزم – الأربعين المتقابلة في الحديث.
- الأربعين حديثا قدسيا أو مشكاة الأنوار.
- الأربعين حديثا في الطوالات.
- العوالي في أسانيد الأحاديث.
- كتاب الأبرار فيما روي عن النبي ρ من سني الأحوال.
- اختصار السيرة النبوية.

وقد جمع الشيخ محمود محمود الغراب بعض ما جاء في كتب الشيخ الأكبر من أحاديث وشروحه عليها في كتاب عنوانه (الحديث في شرح الحديث من كلام

الشيخ الأكبر)، وطبع في جزأين سنة 1428 هـ وهو يشتمل على 1447 حديثا ، أخرج منها البخاري 485 حديثا وأخرج مسلم منها 564 حديثا.

وفي (الفتوحات) أبواب وفقرات كثيرة توضح خصوصيات النبي ρ وكمالاته، منها الأبواب الآتية:

337/14/12/6 منزل سورة **محمد** ρ / 338 منزل سورة **الأحقاف**/346 منزل سورة **ص** / 360 منزل سورة **النور**/ 361 منزل سورة **المومنون**/ 371 منزل سورة **الرعد** / 379 منزل سورة **المائدة** / إلخ... ومن أجوبته على أسئلة الترمذي في الباب 73 الأجوبة:

155/154/151/150/148/145/144/79/78/77/76/74/73/...إلخ.

وأمّا في الفقه، فله كتاب (المحجة البيضاء في أحكام الشريعة) كتبه عام 600 بمكة والموجود منه كتاب الطهارة وكتاب الصلاة (R.G.392) وكله في الأحاديث الشريفة المعتمدة ، وله في الفقه أيضا الأبواب: 72/71/70/69/68 من (الفتوحات) (وهي حول قواعد الإسلام الخمس)، ومنها يظهر تبحر الشيخ في الفقه، حيث يذكر لكل مسألة كل أقوال الفقهاء حولها، وأحيانا يرجّح أحد الأقوال، وأكثر ترجيحاته تميل إلى رفع الحرج والتسيير، ثم يذكر اعتبار مختلف الأقوال في الباطن، وفي ذلك يقول (334:I):

[فاعلم أنّ الله خاطب الإنسان بجملته وما خصّ ظاهره من باطنه، ولا باطنه من ظاهره، فتوفرت دواعي الناس أكثرهم إلى معرفة أحكام الشرع في ظواهرهم، وغفلوا عن الأحكام المشروعة في بواطنهم إلا القليل وهم أهل طريق الله (...) ونبغت طائفة ثالثة ضلّت، فأخذت الأحكام الشرعية وصرفتها في بواطنهم، وما تركت من

حكم الشريعة في الظواهر شيئاً، تسمّى الباطنية، وهم في ذلك على مذاهب مختلفة قد ذكر الإمام أبو حامد (الغزالي) في كتاب المستظهري له في الرد عليهم شيئاً من مذاهبهم، وبيّن خطأهم فيها. والسعادة إنّما هي مع أهل الظاهر وهم في الطرف والنقيض من أهل الباطن، والسعادة كل السعادة مع الطائفة التي جمعت بين الظاهر والباطن، وهم العلماء بالله وبأحكامه. وكان في نفسي – إن أخر الله في عمري – أن أضع كتابا كبيرا أقرّر فيه مسائل الشرع كلّها كما وردت في أماكنها الظاهرة وأقررها، فإذا استوفينا المسألة المشروعة في ظاهر الحكم، جعلنا إلى جانبها حكمها في باطن الإنسان، فيسري حكم الشرع في الظاهر والباطن، فإنّ أهل طريق الله وإن كان هذا غرضهم و مقصدهم، ولكن ما كل أحد يفتح الله له في الفهم حتى يعرف ميزان ذلك الحكم في باطنه].

وفي السنوات الأخيرة جمع الشيخ محمود محمود الغراب الدمشقي المواقف الفقهية للشيخ في كتاب عنوانه: (الفقه عند الشيخ محي الدين بن العربي).

ولا تحصى نصوص الشيخ في وجوب الالتزام المطلق ظاهرا وباطنا، عقيدة وعملا وقولا بالشريعة. وآخر مكتوباته – وهو باب الوصايا – أي الباب الأخير من (الفتوحات) – كأولها – ككتاب (مواقع النجوم) – كلها مشحونة بذلك. مثلا يقول في الباب 146 (232:II):

[فحقيقة الفتوة أن يؤثر الإنسان العلم المشروع الوارد من الله على ألسنة الرسل على هوى نفسه وعلى أدلة عقله وما حكم به فكره ونظره إذا خالف علم الشارع المقرر له. هذا هو الفتى، فيكون بين يدي العلم المشروع كالميت بين يدي الغاسل (...) فقف عند تقييده. فما أوجب عليك مما هو له أن تنسبه إلى نفسك أو إلى مخلوق من المخلوقات سوى الله، فمن الفتوة أن تنسبه إلى ذلك لا إلى الله حقيقة،

كما أمرك، وإن دلَّك على خلاف ذلك عقلك، فارم به وكن مع العلم المشروع. وما أوجب أن تنسب إليه سبحانه فانسبه إليه تعالى، وما خيرك فيه فإن شئت أن تقف ولا تعين، وإن شئت نظرت بما يتعلق بالمخبر فيه من حمد فانسبه إليه، وما تعلق به من ذم فانسبه إلى نفسك أدبا مع الله. فإن الأدب عبارة عن جماع الخير (...) فما يلزم من الأمر الذي لله منه حكم أن يُطلق عليه منه اسم، فأسماؤه من حيث إطلاقها عليه موقوفة على ورودها منه. فلا يُسمى إلا بما سمى به نفسه. وإن عُلم فيه مدلول ذلك الاسم فالتوقيف في الإطلاق أولى.وما فعل هذا سبحانه كله إلا ليعلم الخلق الأدب معه، إذ وقد علم أن من أهل الله من له شطحات ليتأدبوا فلا يشطحوا. فإن الشطح نقص بالإنسان. فيلحقه الشطح بالجهل بالله وبنفسه. وقد وقع من الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة النقص. وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم، فإنهم رعاع بالنظر إلى هؤلاء السادة].

فالصوفي الحق عند الشيخ هو الملتزم باطنا وظاهرا في جميع أحواله وأقواله بالسنة المحمدية. يقول مثلا في جوابه عن السؤال 58 من أسئلة الحكيم الترمذي (II:80): [فإنه لا يرث أحدا نبيا على الكمال (...) قال بعض السادة من رجال الله: جعلك الله محدثا صوفيا ولا جعلك صوفيا محدثا، فإن الغالب أن تكون بحكم الأصل المتقدم إلا أن يعصم الله].

ولهذا نجد أن الورعين من المنكرين على الشيخ مشربه العرفاني يعترفون له بالتمسك التام بالسنة الشريفة. وَعَبَّرَ عن هذا أحدهم وهو العلامة محمد الذهبي (ت:748هـ) تلميذ ابن تيمية، فقال عنه في كتابه (ميزان الاعتدال في نقد الرجال):

[...كان عالما بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم. وقولي أنا فيه: يجوز أن يكون من أولياء الله الذين اجتذبهم الحق إلى جنابه عند الموت وختم له بالحسنى. (ترجمة رقم 7984- ص 659 – دار المعرفة بيروت).

تكوين الشيخ اللغوي و الأدبي

قبل دخوله للطريق وهو على عتبة البلوغ، فُتح على الشيخ بثلاثة فتوح. الأوّل الاستقامة، فكان محافظا على الصلوات في أوقاتها منذ صباه. الثاني: فتح إتقان حفظ القرآن. والثالث: فتح ما يسميه الشيخ بفتوح العبارة أي الرسوخ في سهولة التعبير بأحسن بيان، والإفصاح بطلاقة تامة عماّ يختلج في البواطن. وهذا يستلزم تمكنا مطلقا في اللغة العربية وعلومها وآدابها. وقد أجمع المنكرون والمحبّون للشيخ بأنه أحد أعلام العربية، تشهد بذلك تآليفه التي تعد بالمئات، وفيها كل أشكال البلاغة والبيان والبديع نثرا وسجعا ونظما. ويوضح الشيخ معنى الفتوح فيقول ما خلاصته:

[الفتوح ثلاثة أنواع:الأوّل فتوح العبارة في الظاهر. وسببه إخلاص القصد، وقد ذقته، ومنه إعجاز القرآن. فلا تخبر إلا عن صدق وأمر واقع من غير زيادة حرف أو تزوير في نفسك فيكون كلامك معجزا. وفتوح العبارة لا يكون إلا للمحمدي الكامل من الرجال. ولا يمكن لصاحبه أن يصوّر كلاما في نفسه ويرتبه بفكره ثم ينطق به بعد ذلك، بل زمان تصوره زمان قيام المعنى بنفسه و النطق به. وليس لغير

صاحب هذا الفتح هذا الوصف. ويكون التنزل على صاحب هذا الفتح من المرتبة التي نزل فيها القرآن خاصة من كونه قرآنا لا من كونه فرقانا...].

وقد صرّح الشيخ بأنّ جميع تآليفه نثرا ونظما بارزة من هذا النوع من الفتوح. ثم يواصل الشيخ بيانه فيقول باختصار: [ومن علامة صاحب هذا الفتح استصحاب الخشوع وتوالي الاقشعرار عليه في جسده، بحيث أنّه يحسّ بأجزائه قد تفرقت. فإن لم يجد ذلك في نفسه، فيعلم أنّه ليس صاحب هذا الفتح. وهذا الفتح ما رأيت له في عمري فيمن لقيته من رجال الله أثرا في أحد. وقد يكون في الزمان رجال لهم هذا الفتح ولم ألقهم، غير أنّي منهم بلا شك عندي ولا ريب، فلله الحمد على ذلك.

والنوع الثاني من الفتوح هو فتح الحلاوة في الباطن، وهو سبب جذب الحق بأعطافه، وتلك الحلاوة وإن كانت معنوية، فأثرها محسوس رغم أنّها لا يشبهها لذة محسوسة، كما لا تشبه حلاوة حصول العلوم المعشوقة، بل هي أعلى وأجلّ وأثرها في الحسّ أعظم. ولّما سمّاني الحق عبدا بأسمائه وفتح لي في هذه الحلاوة، وما رأيت أشد أثرا منها لّما ناداني بيا عبد العزيز، لأنّ العزة تقتضي ذلك. ومن أشد حلاوة من هذا الفتح مرّ علي لمّا تلي علي : [**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**]، فلم أجد لذّة أعظم من لذّة [**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**]. فهذه أعظم بشرى وردت عليّ. فإذا عطف الحق على عبده بهذه الحلاوة فجذبه إليه بها منحه زيادة علم، فإن لم يجد علما فليس بجذب ولا حلاوة فتح.

وأمّا النوع الثالث من الفتوح فهو فتوح المكاشفة بالحق، وهو سبب المعرفة بالحق، فيُرى الحق في الأشياء قبلها أو بعدها. وأعظمه كشف العالم من رؤية الحق] انتهى.

أي أنّ فتوح المكاشفة هو التحقق بقوله: [**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**] الآية 115 من البقرة . وفتوح الحلاوة هو التحقق بقوله:

[**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**] الآية 65 من الكهف. وفتوح العبارة هو ميراث قوله تعالى: [**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**]الآيتان 3 – 4 النجم.وقوله ρ : " أوتيت جوامع الكلم".

وقد طالع الشيخ كتب اللغة وعلومها وآدابها وحفظ الكثير من الشعر العربي، وكانت له علاقات مع أدباء عصره غربا وشرقا. يظهر ذلك مثلا في كتابه (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار)، حيث يذكر في مقدمته نحو أربعين كتابا، اقتبس منها فقرات كتابه الذي يُعَرِّف موضوعه بقوله ما خلاصته:

[أودعت هذا الكتاب ضروريا من الآداب وفنونا من المواعظ والأمثال والحكايات النادرة والأخبار السائرة وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والأمم، وأخبار ملوك العرب والعجم، ومكارم الأخلاق وعجائب الاتفاق، وما رويناه من الأحاديث النبوية في انتشاء العالم و تربيته وما أودع الله فيه من عجائب الصنع وبديع الحكمة، وسردت فيه نبذا من الأنساب، وفنونا من مكارم ذوي الأحساب، وحكايات مضحكة مسلية ما لم تكن للدّين مفسدة، ممّا تستريح النفوس إليها]. كتب الشيخ هذا الكتاب، فيما يبدو، بين السنتين 611 و 627 . وقد زيدت فيه من بعض النساخ فقرات لم يكتبها الشيخ تذكر حوادث وأشخاصا عاشوا بعد وفاة الشيخ بمدّة طويلة (A:122-123).

ومن أدباء وكتاب عصره في الأندلس الذين كانوا على صلة به وذكرهم في هذا الكتاب (A:369–370):

- أبو بكر الحافظ بن زهر (ت: 595) من عائلة ابن زهر المشهورة بأطبّائها. ذكر الشيخ أحدهم وهو أبو العلاء بن زهر ووصفه بأنه كان من أعلم الناس بالطب ولاسيما علم الحشائش، وذكر قصة طريفة له مع ابن باجة (II: 442-443)، صحب الشيخ أبا بكر هذا في قرطبة.

- على بن محمد بن خروف الإشبيلي (ت:603) أديب لغوي نحوي متكلم صحبه الشيخ في قرطبة.

- أبو ذر الخشيني بن أبي ركاب (ت:604)، شاعر لغوي فقيه وخطيب بإشبيلية ثم قاضٍ بها، صحبه الشيخ باشبيلية وكان يجلّه.

- أحمد بن يحي الوزاعي (ت:610) أديب شاعر لقيه الشيخ بقرطبة.

- أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت:614)، الأديب الكاتب مؤلف الرحلة المشهورة باسمه (رحلة ابن جبير)، لقيه الشيخ بقرطبة (I: 154).

- أحمد بن إبراهيم بن فرقد (ت: 624)، أديب شاعر تولى القضاء في غرناطة وغيرها.

- محمد بن أحمد بن محرز (ت:655)، نحوي مؤرخ محدّث عرفه الشيخ في قرطبة.

ولقي الشاعر أبا العباس المقراني الذي قال الشيخ عنه (II: 112): " وأنشدني لنفسه – وكان من المحبيّن: الحبّ أملك للنفوس من العقل" . وفي فاس صحب الشيخ الشاعر الأديب المحدث النحوي عبد العزيز بن علي بن زيدان (ت:624) (514:II)، وفي تلمسان الشاعر المتصوف أبا زيد عبد الرحمان الفزازي (ت: 627) (379:I)، كما لقي الشيخ أيضا الأديب الشاعر الطيب عبد المنعم بن حسان الجلياني وذكر أنّ له مختصرا عنوانه: (غاية النجابة) (ت: 602 دمشق) (II: 129).

هذا وإن الإنسان ليعجب من كثرة ما كتب الشيخ رغم كثرة أسفاره وأشغاله، إذ قد كتب عشرات الآلاف من الأوراق بلا ملل وهو شيخ تجاوز الستين خلال استقراره بدمشق. وهذه الموهبة الخارقة في الكتابة هي من إرثه لأوّل شيوخه في الطريق عيسىU قطب سماء الكاتب التي يستمدّ منها الكُتّاب و الخطباء حسبما ذكره الشيخ في العديد من نصوصه. وأمّا فتوح عبارته، فمن إرثه المحمدي الكامل كما سبق ذكره. وأما موهبته الشعرية فمن إرثه اليوسفي، حيث أنّ يوسف هو قطب سماء الزهرة التي منها يستمد الشعراء.

والملاحظ أنّ مكتوبات الشيخ النثرية والشعرية، وبالخصوص تلك التي كتبها بعد استقراره بدمشق عام 620 ، خالية من كل حشو، فلكل كلمة دلالاتها الدقيقة. وقد عبّر هو نفسه عن هذا المعنى خلال كلامه على ألفاظ أهل الله، فقال في بداية كتابه (شرح خلع النعلين لابن قسّي): [فلا يقصد إلى كلمة دون غيرها إلا لحكمة يراها ومشهد يكون فيه يقتضي له مساق تلك الكلمة دون غيره] ويقول عن نفسه (I: 391): [فإنّ مذهبي في كل ما أورده أنيّ لا أقصد لفظة بعينها دون غيرها ممّا يدّل على معناها إلا لمعنى، فما في كلامي بالنظر إلى قصدي حشو، وإن تخيّله الناظر فالغلط عنده في قصدي لا عندي].

ويبين الشيخ دوافع تأليفه الكتب فيقول في فهرسته: [... وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف. وإنما كانت تَرِدُ عليّ من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني. فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها. فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد. ومنها ما ألفته عن أمر إلهي أمرني به الحق في نوم أو مكاشفة].

وبالفعل، ففي العديد من كتبه يظهر طابع صدق الإلهام الرباني فيها، وفي آخرها يقول الشيخ مثلا –كما في (مواقع النجوم) – : [انتهى الإلقاء الإلهي والإلهام الرباني و الروحاني...].

– وفي الباب 88 في معرفة أسرار أصول أحكام الشرع (163:II) يقول عن موضع هذا الباب: [وكان الأوْلى تقديم هذا الباب في أوّل العبادات (أي قبل الباب 68) قبل الشروع فيها. ولكن هكذا وقع. فإنّا ما قصدنا هذا الترتيب عن اختيار. ولو كان عن نظر فكري لم يكن هذا موضعه في ترتيب الحكمة (...)، فالله تعالى رتب على يدنا هذا الترتيب، فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا. فالله يملي على القلوب بالإلهام جميع ما يسطره العالم في الوجود، فإنّ العالم كتاب مسطور إلهي].

– وفي الباب 126 يعطي مثلا آخر. فيقول (209:II):

[واعلموا أنّ الله تعالى أطلعني في ليلة تقييدي هذا الباب على أمر لم يكن عندي في واقعة وقعت لي برزخية، قيل لي فيها:" ألم تسمع أنّ الدنيا أمّ رقوب؟" قلت: " نعم". قيل لي: " فاجعل لها فصلا في هذا الباب" فاستخرت الله على ذلك].

– وفي الباب 373 المتعلق بسورة **هود**، يقول عن كتاب الفتوحات: [فوالله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلهي وإلقاء رباني او نفث روحاني في روع كياني. هذا جملة الأمر، مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء مكلفين (456:III). وفي مقدمة فصله السادس يقول عنه: [إذ بنيت كتابي هذا، بل بناه لا أنا، على إفادة الخلق، فكان فتح من الله تعالى] (74:IV) .

الشيخ والشعر

الشعر بين محمود و مذموم لذا أتى ربنا فيه بتقسيم

في كل واد تراه جائلا أبدا يهيم فيه لإيصال وتفهيم
لو يعلم الناس ما القرآن جاء به فيه لقالوا به في كل منظوم
(دي: 140)

من فتوح العبارة تدفق الشعر غزيرا فياضا من روح الشيخ على لسانه فنظم أزيد من أربعين ألف بيت. وفي الفتوحات وحدها نحو 7100 بيت. وله مجموعات شعرية مستقلة كديوان (ترجمان الأشواق) وجزء الزينبيات (119:III) وديوان: (إنزال الغيوب على سرائر القلوب).

وتنسب له تائيتان في بضع مئات من الأبيات، واحدة منها تتألف من 436 بيتا (R.G:757)، وأخرى في ألف بيت (R.G.100)ولكن صحّة نسبتهما له غير ثابتة. وقبل وفاته بنحو أربع سنوات، جمع الشيخ جل أشعاره في ديوان ضخم واحد عنوانه (ديوان المعارف الإلهية واللطائف الروحانية في بعض ما لنا من النظم)، وجعل له مقدمة رائعة يذكر فيها سبب نظمه للشعر، ويبدؤها بقوله:

[الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان وأنزل المقادير و الأوزان وأبدع الأرواح وخلق الأبدان ورتب الأمور في جميع الأكوان على أحسن نظام وأبدع إتقان، عطف بآخره على أوله، وألحق أبده في نفي النهاية بأزله، وجعله متجانس الصور متماثل السور، فكأنه قريض على رُويّ التوحيد، ينطق بلسان التحميد، فهو كلماته التي لا تنفد، وسلطانه الذي لا يبعد، جعل الوجود سبحانه كبيت الشعر في التركيب والنظم، وخصه بما خص به الشعر من الحكم، فجعله قائما على سببين، محفوظا بوتدين: سبب خفيف وهو عالم الأرواح، وسبب ثقيل وهو عالم الأشباح، ووتد مجموع وهو حال التركيب والإنشاء، ووتد مفروق وهو حال تحلل الأجزاء، فمدار جميع الخلائق على هذه الحقائق (...) النظم هو الجوهر الثابت، و النثر هو الفرع النابت، لا يظهر نثر إلا في عالم الكون، لا في حضرة العين، وإذا

حُقق هذا الأمر، فما ثم نثر؛ أليس الشعر عين المقادير والأوزان ؟ فانظر فيه تجده في وجود الأعيان. أين أنت من قوله [وَوَضَعَ الْمِيزَان]، [وَمَا نُنَزِلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ]، [وَكُلّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار] (...) وما منع النبي ρ من الشعر لهوانه، ولا لانحطاط مكانته ومكانه، لكن لما كان مبنيا على الإشارات و الرموز، فإنه من الشعور، والمطلوب من الرسول البيان للكافة بأوضح العبارات. لهذا لم يجيء به الرسول. فما قال تعالى: [وَمَا عَلّمْنَاهُ الشّعْرَ] إلا لأجل قولهم إنه شاعر، فأخبر الله تعالى أن الذي جاء به من عند الله وعلمه، إنما هو ذكر وقرآن مبين، ما هو شعر كما زعمتم، وما في هذا ذم للشعر ولا حمد، وإنما جاء ليبين ما أرسل به فهو إنباء وحقيقة.

وكان سبب تلفظي بالشعر أني رأيت في الواقعة ملكا جاءني بقطعة نور بيضاء كأنها قطعة نور الشمس فقلت: ما هذا ؟ فقيل لي: سورة **الشعراء** . فابتلعتها، فأحسست بشعرة انبعثت من صدري إلى حلقي إلى فمي حيوانا لها رأس ولسان و عينان وشفتان، فامتدت من فمي إلى أن ضربت برأسها الأفقين، أفق المشرق والمغرب، ثم انقبضت ورجعت إلى صدري. فعلمت أن كلامي يبلغ المشرق والمغرب، ورجعت إلى حسي وأنا أتلفظ بالشعر من غير روية ولا فكرة ومازال الإمداد علي هلم جرا. فلأجل هذا المشهد الأسنى، قيدت ما تيسر على ذكري في هذا الديوان، والذي فاتني أكثر، فكل ما فيه بحمد الله إنما هو إلقاء إلهي ونفث قدسي روحي، وورث علوي وإحساني. فالمشكور خالقه لا كاسبه، والعبد الضعيف مقيده وكاتبه (...) وربما يقع في هذا النظم ذكر قوم من العارفين وغيرهم على طريق المدح والتزكية والغزل والتشبيب، وليس المراد الشخص المذكور وإنما المراد اسم ذلك الشخص من الأسماء الإلهية المحجوبة بحُجب الأنوار كعبد العزيز وهو حال العبد في مشهد العزة الإلهية وشبه هذا، (...) قال تعالى: [**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**] (...) فإذا أثنيت فإنما أثني على الحال والمقام الذي لا يقبل

التعبير، فإن الكلام على المقامات وما تعطيه هو شأن المحققين، ليس الكلام في الناس من شانهم. وكذلك إذا وقع في ديواني هذا ما يتعلق بالغزل والتشبيب والخمور ومجالس الأنس و النساء وأسمائهن والغلمان، فليس المقصود بذكري ما يذهب إليه الشعراء من الغزل في أعيان المذكورين، وإنما قصدي علوما إلهية وأسرارا ربانية. وقد شرحت بعض ما ذكرته في جزء لنا سميناه (الذخائر والأعلاق)، شرحنا به ما قصدناه بالغزل في جزء لنا فيه يسمى (ترجمان الأشواق) (...) وليس في كلامي كله منثورة ومنظومة واو ولا كلمة ولا حرف زائد ولا حشو أصلا، فما أقصد منه حرفا ولا ترتيبا خاصا إلا لمعنى. وإني لا أرى المنطقَ إلا الله ولا يفعل شيئا عبثا ولا أمرا لغير حكمة. وإن لم يفهم ذلك الغير فلا أبالي. وإذا سُئلت عن شيء من ذلك بينتُه. وقد سُئلت وأبنت عن ذلك غير مرة، ولا يعطى طريقنا غير هذا. وبهذا يزيد أهل الله عن كل من عبّر عن شيء، وإلا فبماذا يتميز عن عامة الناس؟ و[**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**]. وقد حصلت له هذه الواقعة في خلوة دخلها حسبما ذكره في الباب 358 من الفتوحات (22:I) المتعلق بسورة الشعراء والذي افتتحه بقوله (262:III):

البسيط

[إنّ المقادير أوزان منظمة تأتي بها ظلل من فوقها ظلل
من الغمام ومن غير الغمام يُرى عند التنزل في أعجازها كلل
تحوي على كل معنى ليس يظهره إلا الخطابة والأشعار والمثُل
فمنه ما هو محمود فمرتفع ومنه ما هو مذموم فمنسفل
ومن ينازعني فيما أفوه به فالناس كلهم أعداء ما جهلوا]

وما تلك الشمس التي اقتبس من شعاعها شعرة الشعر إلا شمس فتوح العبارة من المقام المحمدي الذي ورثه وعبّر عنه في خطبة الفتوحات. حيث خاطبه رسول الله ρ قائلا: [فإنّ فيك شعرة مني لا صبر لها عنّي، هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلاّ بكليتك، ولابدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد]. وهذا هو مقام خاتم الولاية المحمدية الذي نبّه الشيخ على صلته بتلك الشعرة في قوله عنه (514:III): [ومنزلته من رسول الله ρ منزلة شعرة واحدة من جسده ρ .

ولهذا يشعر به إجمالا، ولا يُعلم به تفصيلا إلا من أعلمه الله به أو صدّقه إن عرّفه بنفسه في دعواه ذلك].

ذكر الشيخ هذا في الباب 382 المتعلق بسورة البقرة التي هي خاتمة القرآن وفيها آية الكرسي سيدة آي القرآن. فلمناسبة ختمية وسيادة الخاتم المحمدي ذكر ذلك في منزلها، وإليها يشير بقوله في هذا الباب: [ولّما وصلت في جماعة الواصلين من أهل زماني إلى هذا الباب الإلهي، وجدته مفتوحا ما عليه حاجب ولا بواب، فوقفت عنده إلى أن خُلع عليّ خلعة الوراثة النبوية. ورأيت خوخة مغلقة، فأردت قرعها، فقيل لي: لا تقرع فإنها لا تفتح. فقلت: فلأي شيء وُضعت ؟ قيل لي: هذه الخوخة التي اختص بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولّما أكمل الدّين أغلقت، ومن هذا الباب كانت تخلع على الأنبياء خلع الشرائع. ثم إني التفت إلى الباب، فرأيته جسما شفافا يكشف ما وراءه. فرأيت ذلك الكشف عين الفهم الذي للورثة في الشرائع وما يؤدي إليه اجتهاد المجتهدين في الأحكام. فلازمت تلك الخوخة و النظر فيما وراء ذلك الباب، فجليت لي صور المعلومات على ما هي عليه، فذلك عين الفتح الذي يجده العلماء في بواطنهم، ولا يعلمون من أين حصل لهم، إلا إن كوشفوا على ما كشف لنا]. فانظر كيف قرن الشيخ وصول الواصلين بتحققهم بخاتمة سور القرآن.

وفي غالب الأحيان، يقول الشيخ بأنّ قصائده تنساب على لسانه من غير فكر ولا روية يقظة أو مناما، كالقصيدة التي نظمها في مدح الأنصار بأمر النبي ρ (267:I)، أو كالأبيات الأربعة التي افتتح بها الباب 132 في معرفة مقام الاستقامة (216:II) وقال عنها: [جاءت هذه الأبيات لزوم ما لا يلزم من غير قصد، وكذلك أمثالها، فإنّما أنطق بما يجريه الله فينا من غير تعمل و لا روية]. وفي واقعة أخرى يقول (628:I):

[... كل نفس مطلوبة من الحق في نفسها، لا تجزي نفس عن نفس شيئا، وإن تقلب الإنسان في العبادة من وجه بذاته ومن وجه بربّه، ليس لغيره فيه مساغ ولا دخول. وأراني ذلك في واقعة، فاستيقظت من منامي وأنا أحرّك شفتي بهذه الأبيات التي ما سمعتها قبل هذا لا مني ولا من غيري وهي هذه:

المنسرح

[قال لي الحق في منامي ولم يكن ذاك من كلامي
وقتا أناديك في عبادي وقتا أناجيك في مقامي
وأنت في الحالتين عندي في كنف الصون والذمام]

إلى آخر الأبيات.

كذلك في الباب 353 المتعلق بسورة لقمان، يذكر واقعة علمية يقول إثرها (III: 238) [ولما فرغ هذا الإلقاء الإلهي والتعريف الرباني وسكن عندي ما كنت أجده من ألم هذا التجلي في هذه الصورة وسُرّي عني، نظمت نظم إلهام لا نظم رويّة ما أذكره:

البسيط

لنا حبيب نزيه لا أسميه وهو الحبيب الذي حار الورى فيه

إلى آخر الأبيات...

وقد عبّر الشيخ بالشعر عن الحقائق و المشاعر والأذواق والإشارات التي لا يسمح النثر بها، فاستعمل كل أنواع البحور والموشحات بمختلف أشكالها. يؤكد هذا المعنى في الباب 273 المتعلق بسورة **الشمس** (665:II)، فيقول عن القصيدة التي افتتح بها الباب: [اعلم أيدنا الله وإياك أنّ هذه القصيدة وكل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها إجمال ما يأتي مفصّلا في نثر الباب والكلام عليه، بل الشعر في نفسه من جملة شرح ذلك الباب، فلا تكرر في الكلام الذي يأتي بعد الشعر . فلينظر الشعر في شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه. ففي الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس في الكلام عليه بطريق النثر، وهي مسائل مفردات تستقل كل مسألة في الغالب بنفسها، إلا أن يكون بين المسألتين رابط فيطلب بعضها بعضا]. والقصيدة التي افتتح بها هذا الباب المتعلق بسورة **الشمس** تحتوى على 56 بيتا. بينما عدد كلمات السورة بلا بسملة 58. فجاء عدد الأبيات وسطا بينهما من حيث اعتبار البسملة كآية من السورة أو عدم اعتبارها. واختار في تلك القصيدة قافية (ها)، إشارة إلى الحرف الذي تنتهي به آيات السورة. فلكل كلمة عند الشيخ دلالات دقيقة. وحتى عدد أبيات القصيدة، وأحيانا حتى عدد كلماتها وحروفها، له دلالات. لكن هذا الجانب يدخل ضمن الخفي من تلويحات الشيخ. فمثلا نجده يفتتح الباب 69 من الفتوحات الخاص بالصلاة بـ: 17 بيتا، لأنّ 17 هو عدد الركعات المفروضة يوميا. ويفتح الباب 70 الخاص بالزكاة بسبعة أبيات إشارة إلى بركة الزكاة المذكورة في الآية 261 من سورة البقرة: [**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**].

مثال آخر:بعد أن أنهى الشيخ الباب 415 من الفتوحات بكلمته المعتادة [**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**]، أضاف جملة هي :[واجعل بالك في كل

منظوم في أول كل باب من أبواب هذا الكتاب، فإنّه يتضمن من علوم ذلك الباب على قدر ما أردت أن أنبّه فيه عليها، تجد في النظم ما ليس في الكلام في ذلك الباب، فتزيد علما بما هو عليه ما ذكرته في النظم وعلى الله قصد السبيل] ثم يدخل في الباب التالي 416 الذي عنوانه (في معرفة منازلة عين القلب) وهو راجع لسورة **الإسراء** حسب الترتب الخفي لأبواب الفصل الخامس من الفتوحات. ومعلوم أنّ عين القلب هي واسطة الرؤية أو الرؤيا. فيفتح الشيخ هذا الباب بستة أبيات مؤلفة من ستين كلمة. والملاحظ أنّ الآية 60 من الإسراء هي التي تتكلم عن الرؤيا: [**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**]. كما أن كلمة " لنريه " في آياتها الأولى ترد بعد نحو ستين حرفا من بدايتها.

وفي كتابه الكبير حول ذي النون المصري (ت:266هـ) وعنوانه:(الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري)، نظم الشيخ قصيدة في مدح ذي النون تتألف من 38 بيتا. فلماذا اختار لها هذا العدد ؟ الجواب هو أن العدد 38 هم مجموع أعداد حروف (ذو النون) بحساب الجمل الصغير وباعتبار تضعيف النون الأولى. كما نجد في ديوانه الكبير قصيدة رثاء ومدح للشيخ أبي مدين (ت: 589هـ)، تتألف من 51 بيتا، لأن هذا العدد هو مجموع أعداد حروف لقبه واسمه، (أبي النجا شعيب أبي مدين = 4+18+11+4+14=51). وقد ذكر الشيخ في الباب 24 (184:I) أن لقب أبي مدين هو: (أبو النجا).

ونظرا لعلاقة الشعر بالخيال، فقد خصّص الشيخ فقرة رمزية خيالية حول الشعر في الباب الثامن من الفتوحات الذي يصف عوالم المثال والبرزخ والخيال في أرض الحقيقة أو السمسمة التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم υ فقال(129:I):

[ورأيت في هذه الأرض بحرا من تراب يجري مثل ما يجري الماء. ورأيت حجارة صغارا وكبارا يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، وليس في قوته أن يمتنع. فإذا ترك وطبعه جرت بعضه على بعض على مقدار من المساحة

مخصوص، فتنضم هذه الحجارة بعضها على بعض، فينشأ منها صورة سفينة. ورأيت منها مركبا صغيرا وشينبين، فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة، رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون] إلى آخر ما وصفه... فأشار ببحر التراب إلى بحور الشعر، وأشار بالحجارة إلى الكلمات و الحروف، وأشار بالسفينة إلى القصيدة. وكما قارن الشيخ في مقدمة ديوانه الكبير بين بُنية بيت الكون، كذلك قارن بينها وبين بُنية الإنسان. فهو يقول: إن السالك العارج بروحه في السماوات يكشف في كل سماء عن أنواع من العلوم. والشعر مخصوص بالسماء الثالثة التي لها كوكب الزهرة وقطبها يوسف υ ، فهي سماء الحسن والجمال. ويقول في ذلك ما خلاصته (II:275/باب 167): [من علوم هذه السماء علم التعبير للمرائي والتمثل والخيال وأرض السمسمة التي خلقها الله من بقية طينة آدم υ – وخصص لها الشيخ الباب الثامن من الفتوحات – وسوق الجنة، وعلوم الإتقان والحسن والترتيب الحكيم. ومن هذه السماء يكون الإمداد للشعراء والنظم والصور الهندسية في الأجسام. ومنها ظهرت في هذه النشأة الجسمية الأخلاط الأربعة على النظم الأحسن فجعل مما يلي النفس المدبرة الصفراء، ثم يليها الدم، ويليه البلغم و يليه السوداء، كما ظهرت الأربعة الأصول التي يقوم عليها بيت الشعر كما قام الجسد على الأربعة الأخلاط. فالوتد المفروق يعطي التحليل، والوتد المجموع يعطي التركيب، والسبب الخفيف يعطي الروح، و السبب الثقيل يعطي الجسم، و بالمجموع يكون الإنسان (...) وكذلك السماع الطبيعي مبناه على أربعة أمور محققة. فإن الطبيعة مربعة معقولة من فاعلين – يعني الحرارة والبرودة – ومنفعلين – يعني اليبوسة والرطوبة – . فأظهرت الأركان الأربعة، أي النار والهواء والماء والتراب. ولكل خلط من أخلاط الجسم الأربعة نغمة مخصوصة تحركه وهو علم الألحان والأوزان بالبمّ و الزير والمثنى والمثلث كل واحد من هذه يحرك خلطا ما بين حركة فرح وحركة بكاء وأنواع الحركات...].

الشيخ وعلم الكلام

إذ جاءت الأسماء يقدمها الله فعظمه بالذكر وقل هو الله

(دي: 194)

تطرق الشيخ في العديد من كتبه إلى مسائل علم الكلام وأدلّته المتكلمين في العقائد. وهو يُجِلّ العلماء الصادقين منهم لدفاعهم عن العقائد الشرعية بالحجج المنطقية، لكّنه يرى أنّ البقاء على الفطرة الإسلامية بالأخذ المباشر من القرآن أسلم وأنفع. فيقول باختصار (I:34-35): [عقائد العوام سليمة وهم مسلمون مع عدم مطالعتهم لعلم الكلام لبقائهم على صحة الفطرة وهو العلم بوجود الله تعالى ومعرفته وتنزيهه الوارد في ظاهر القرآن، وهم فيه على صحة ما لم يتطرق أحد منهم إلى التأويل فإن تطرّق أحد منهم إلى التأويل خرج عن حكم العامة و التحق بصنف ما من أصناف أهل النظر والتأويل، فإما مصيب أو مخطئ بالنظر إلى ما يناقض ظاهر ما جاء به الشرع؛ وفي القرآن للعاقل غنية كبيرة ولصاحب الداء العضال، دواء وشفاء ومقنع لمن عزم على طريق النجاة و رغب في سموّ الدرجات وترك ما يورد الشكوك والشبه].

فعقيدة عوام المسلمين عند الشيخ سليمة لخلوها من التأويل. وفي هذا المعنى يقول (I:507): [" أخبرني الرشيد الفرغاني رحمه الله عن فخر الدين شيخه ابن خطيب الريّ عالم زمانه أنّ السلطان حبسه و عزم على قتله وما له شفيع عنده مقبول. قال: فطمعت أن أجمع همّي على الله في أمري ليخلصني من يد السلطان لمّا انقطعت بي الأسباب وحصل اليأس من كل ما سوى الله، فما تخلص لي ذلك لما يرد عليّ من الشُبهة النظرية في إثبات الله الذي ربطت معتقدي به إلى أن جمعت

همتي وكليتي على الإله الذي تعتقده العامّة، ورميت من نفسي نظري وأدلتي، ولم أجد في نفسي شبهة تقدح عندي فيه، وأخلصت إليه التوجه بكلي، ودعوته في التخلص. فما أصبح إلا وقد أفرج الله عني وأخرجني من السجن"]. وأخطر خطإ وقع فيه كثير من علماء الكلام، في رأي الشيخ، هو التكلم في ذات الله تعالى بطريق الفكر لا بطريق الوحي، فيقول (467:III): [نهى رسول الله ρ عن التفكر في ذات الله. وقد غفل الناس عن هذا القدر. فما منهم من سلم من التفكير فيها والحكم عليها من حيث الفكر. وليس لأبي حامد الغزالي عندنا زلة بحمد الله أكبر من هذه ، فإنّه تكلم في ذات الله من حيث النظر الفكري في المضْنون به على غير أهله وفي غيره، ولذلك أخطأ في كل ما قاله وما أصاب، وجاء أبو حامد وأمثاله في ذلك بأقصى غايات الجهل وأبلغ مناقضة لما أعلمنا الله من ذلك. واحتاجوا لما أعطاهم الفكر خلاف ما وقع به الإعلام الإلهي إلى تأويل بعيد لينصروا جانب الفكر على جانب إعلام الله عن نفسه ما ينبغي أن ينسب إليه و كيف ينبغي أن ينسب إليه تعالى. فما رأيت أحدا وقف موقف أدب في ذلك إلا خاض فيه على عماية إلا قليل من أهل الله لما سمعوا ما جاءت به رسله صلوات الله عليهم فيما وصف به نفسه، وكّلوا علم ذلك إليه ولم يتأوّلوا حتى أعطاهم الله الفهم فيه بإعلام آخر أنزله في قلوبهم. فكانت المسألة منه تعالى وشرحها منه تعالى فعرفوه به لا بنظرهم]. فالشيخ يرفض التأويل النظري للنصوص الشرعية الثابتة، ويؤكد على أنّه لا ينبغي أن يسمّى الحق تعالى إلا بما سمّى به نفسه بلا زيادة ولا تأويل، جمعا بين التنزيه و التشبيه في قوله تعالى :

[**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**]. ونقد الشيخ الغزالي (ت:505) لا يعني بأنّه لا يجلّه، بل يذكره في كثير من الأحيان بإجلال كبير، وكان يدرس مع مريديه كتابه (إحياء علوم الدّين). ولما فُتِح على الغزالي في آخر عمره القصير بعد

صحبته لأهل الله، رجع عمّا أنكره عليه الشيخ، وندم على صدوره منه .[انظر ما ذكره الشيخ عن الغزالي:

I:4-45-160-259-552-643-681/ II:3-19-103-262-289-321-345-496-569-622-645/ IV:89-106-260...]

ويذكر الشيخ باحترام أئمة المتكلمين المتأدبين كأبي الحسن الأشعري (ت:324) وأبي إسحاق الإسفراييني (ت:418) (I:204/II:134-289) وإمام الحرمين (ت: 505) (I:162/II:289/IV:52) ويفرق بينهم وبين المتأخرين، فيقول مثلا وهو يتكلم على دلالات التوحيد (II:289): [قال تعالى: [**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**] .وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده. فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحدا ما صح وجود العالم. هذا دليل الحق فيه على أحديته وطابق الدليل العقلي في ذلك. ولو كان غير هذا من الأدلة أدل منه عليه لعدل إليه وجاء به وما عرفّنا بهذا ولا بالطريق إليه في الدلالة عليه. وقد تكلف قوم الدلالة عليه بطريق آخر، وقدحوا في هذه الأدلة، فجمعوا بين الجهل فيما نصبه الحق دليلا على أحديته و بين سوء الأدب (...) وما ذهب إلى هذا إلا المتأخرون من المتكلمين الناظرين في هذا الشأن. وأمّا المتقدّمون كأبي حامد وإمام الحرمين وأبي إسحاق الإسفراييني والشيخ أبي الحسن، فما عرّجوا عن هذه الدلالة وسعوا في تقريرها وأبانوا عن استقامتها أدبا مع الله تعالى وعلما بموضع الدلالة منها].

والشيخ لا يوافق المتكلمين الذين يخرجون نصوص الشرع عن ظواهرها بالتأويل، فيقول ما ملخصه (III: ب 322 منزل سورة الجمعة – ب 315 منزل سورة الحاقة / ب 387 ص 536 – IV/537:ب473 ص106):

[المراد بتوحيد الله الذي أمرنا به في قوله تعالى: [**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**] هو توحيد الألوهية. وقال إنه [**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**]. ولم يتعرض الحق سبحانه إلى تعريف عباده بما خاضوا فيه بعقولهم، ولا أمرهم الله في كتابه بالنظر الفكري إلا

ليستدلوا بذلك على أنه إله واحد. فزادوا في النظر وخرجوا عن المقصود الذي كلفوه، فأثبتوا له صفات لم يثبتها لنفسه، ونفت عنه طائفة أخرى تلك الصفات ولم يَنفها عن نفسه. ومنهم من أطلق عليه ما لم يطلق على نفسه، وإن كان اسم تنزيه، ولكنه فضول من القائل به الخائض فيه. ثم أخذوا يتكلمون في ذاته، وقد نهاهم الشرع عن التفكر في ذاته جل وتعالى. فانضاف إلى فضولهم عصيان الشرع بالخوض فيما نُهوا عنه. فمن قائل هو جسم، ومن قائل ليس بجسم. ومن قائل هو جوهر، ومن قائل ليس بجوهر. ومن قائل هو في جهة، ومن قائل ليس في جهة. وما أمر الله أحدا من خلقه بالخوض في ذلك جملة واحدة، لا النافي ولا المثبت. ولو سُئلوا عن التحقيق معرفة ذات واحدة من العالم، أو كيفية تدبير النفس للبدن ما عرفوها. فالعاقل يشغل نفسه بالنظر في الأوجب عليه لا يتعداه، فإن المدة يسيرة والأنفاس نفائس، وما مضى منها لا يعود. فاعلم أن الله إله واحد، لا إله إلا هو. ولا تتعرض للخوض في الماهية و الكمية والكيفية. والزم طريقة الإيمان، والعمل بما فرض الله عليك، واذكر ربك بالغدو والآصال بالذكر الذي شرعه لك، واتق الله. فإن شاء الله الحق أن يهبك من العلم به، فذلك هو النور النافع الذي يحيي به قلبك وتأمن فيه من ظلم الشبه و الشكوك التي تنتجها الأفكار. وعلوم المتكلمين في ذات الله ليست أنوارا لتعرضها للشبه، فيما يظنه هذا حقا هو شبهة عند الآخر. وجميع الرسل والأنبياء وأهل الكشف المتقين من أتباع الرسل ما اختلفوا في علمهم بالله، لأنها أنوار من نبع واحد **[وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا...]** فالعاقل الحازم يقف ذليلا مشدود الوسط في خدمة الشرع، قابلا لكل ما يخبر به عن ربه سبحانه، مما يكون عليه ومنه. فكان مما أخبر الحق عن نفسه أنه يُؤْذي ويغضب ويفرح بتوبة عبده، ويتعجب من الشاب الذي ليست له صبوة، وأنه يضحك ويتبشبش ويكره لعباده الكفر، ويرضى لهم الشكر والإيمان، إلى غير ذلك كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا. فهذا كله واجب

على كل مسلم الإيمان به، ولا يقول العقل هنا كيف ولِم ؟ بل يسلم ويستسلم و يصدق ولا يكيف. وأدرك الفضول عقولا تأولت هذه الأمور، فنحن نسلم لهم حالهم، ولا نشاركهم في ذلك التأويل. فإنا لا ندري هل ذلك مراد الله بما قاله، فنعتمد عليه، أو ليس بمراده فنرده. فلهذا التزمنا التسليم. فإذا سئلنا عن مثل هذا، قلنا إنا مؤمنون بما جاء من عند الله على مراد الله به. وإنا مؤمنون بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسله عليهم السلام على مرد رسول الله صلى الله عليه و سلم ومراد رُسله عليهم السلام. ونكل العلم في كل ذلك إليه سبحانه وإليهم. وهذه كانت طريقة السلف، جعلنا الله لهم خلفا بمنه].

وقد تفاوض وتراسل الشيخ مع بعض أئمة علم الكلام في عصره مثل ابن الكتاني (ت:597)؛ لقيه في فاس، ومثل ابن جنيد الذي قال عنه (I:182/III:45) وهو يتكلم عن التخلق بالاسم القيوم: [...واختلف أصحابنا هل يتخلق به أم لا. ولقيت أبا عبد الله بن جنيد من شيوخ الطائفة من أهل قبرفيق من أعمال رندة، وكان معتزلي المذهب ، فرأيته يمنع من التخلق بالقومية. فرددته عن ذلك من مذهبه، فإنّه كان يقول بخلق الأفعال للعباد. فلما رجع إلى قولنا وأبنت له معنى قوله تعالى [**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**] ، فقد أثبت لهم درجة في القيومية، وكان قد أتى إلى زيارتنا. فلما رجع إلى بلده، مشيت إلى زيارته في بلده، فرددته وجميع أصحابه عن مذهبه في خلق الأفعال: (I: 177/II:66-204-604-681-/III:84-211-IV/303:33-34-129) .

وللشيخ رسالة بعثها للإمام الأشعري الكبير فخر الدّين الرازي (ت: 606)، يفاوضه فيها في إمكانية معرفة الله تعالى المعرفة الكاملة بطريق الفكر والعقل،و وممّا ورد فيها: [وقد علم وليي وفقه الله تعالى أنّ حسن اللطيفة الإنسانية إنّما يكون بما تحمله من المعارف الإلهية وقبحها بضد ذلك. وينبغي للعالي الهمة أن يسرح نفسه من سلطان فكره، فإن الفكر يعلم مأخذه، والحق المطلوب ليس ذلك. وأن العلم

بالله خلاف العلم بوجود الله. فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجودا، ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات. وهذا خلاف الجماعة من العقلاء و المتكلمين إلا سيّدنا أبا حامد قدّس الله روحه، فإنّه معنا في هذه القضية، ويجل الله سبحانه وتعالى أن يعرفه العقل بفكره ونظره. فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة، وينبغي للعالي الهمّة أن لا يكون تلقيه عند هذا من عالم الخيال، وهي الأنوار المتجسدة الدالة على معان وراءها، فإنّ الخيال ينزل المعاني العقلية في القوالب الحسيّة كالعلم في صورة اللبن والقرآن في صورة الحبل و الدين في صورة القيد. وينبغي للعالي الهمة أن لا يكون معلمه وشاهده مؤنثا متعلقا بالأخذ من النفس الكلية. كما لا ينبغي له أن يتعلق بالأخذ من فقير أصلا، وكل ما لا كمال له بغير فهو فقير، فهذا حال كل ما سوى الله تعالى.فارفع الهمّة في أن لا تأخذ علما إلا من الله تعالى على الكشف. فإنّ عند المحققين أن لا فاعل إلا الله. فإذن لا يأخذون إلا عن الله لكن عقدا لا كشفا. وما فاز أهل الله إلا بالوصول إلى عين اليقين أنفة من البقاء مع علم اليقين (...) ولقد أخبرني من أثق به من إخوانك وممن له فيك نية حسنة جميلة أنّه رآك وقد بكيت يوما، فسألك هو ومن حضر عن بكائك فقلت: مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين سنة، تبيّن لي في الساعة بدليل لاح لي أنّ الأمر على خلاف ما كان عندي. فبكيت وقلت: ولعل الذي لاح لي أيضا يكون مثل الأول، فهذا قولك. ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح ولاسيما في معرفة الله تعالى. ومن المحال أن يعرف ماهيته بطريق النظر. فما لك يا أخي تبقى في هذه الورطة ولا تدخل طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ρ ، فتنال ما نال من قال فيه سبحانه وتعالى: [**عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا**] ومثلك من يتعرض لهذه الخطة الشريفة و المرتبة العظيمة المنيفة].

وفي أكثر الأحوال، لا ينتصر الشيخ لموقف معيّن من مواقف مختلف طوائف المتكلمين، بل يبيّن وجهة نظر واجتهاد كل طائفة. وهو يعذر كل مجتهد، حتى وإن أخطأ، إذا بلغ غاية جهده في الاجتهاد ولم يناقض نصّا شرعيا ثابتا. فنجده مثلا في مسألة إمكانية رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة وفي الجنة يوافق الأشاعرة المثبتين لها تبعا للنصوص الصحيحة، ويوافق أيضا المعتزلة النافين لها من حيث أن العبد لا يرى الله تعالى إلا على قدر استعداد، فما تجلى له إلا به فما وصلت الرؤية إلا إليه (IV:245–246).

وقد بيّن الشيخ في العديد من مكتوباته أسباب الشقاوة المدخلة للنار وأسباب السعادة المدخلة للجنة بإذن الله تعالى. فخصّص في الفتوحات الأبواب 61–62-63-64-65 لمعرفة الجنة و النار و البرزخ و يوم القيامة وأحوال الناس في تلك المواطن. وذكر أنّ أهل النار على أربعة طوائف لا يخرجون منها أبدا، وهم المتكبرون على الله كفرعون ونمرود وغيرهما، و المشركون الذين يجعلون مع الله إلها آخر، و المعطلة الذين نفوا وجود الإله، والمنافقون الذين أظهروا الإسلام من إحدى هؤلاء الطوائف الثلاث خوفا من القهر. وطوائف الجنة أيضا الأربعة: المؤمنون والأولياء والأنبياء والرسل. وكذلك في كتابه (التنزلات الموصلية) في فصل يوم الاثنين، فصّل بإسهاب أنواع أشقياء النار وسعداء الجنة وعقائدهم وأعمالهم التي آلت بهم إلى ديارهم الأبدية. وفي الباب الرابع عشر الأخير من كتابه (مشاهد الأسرار)، يصف إحدى مشاهده التي تظهر فيها مراتب مختلف الطوائف. فيرى أنهم اثنتا عشر طائفة، الناجية واحدة وهم أتباع الأنبياء، وأقبحهم صورة كفرة الروحانيين، أي الباطنية الذين يزعمون التحقيق ولا يعملون بالشريعة فيقول:

[أشهدني الحق بمشهد نور الحجاج وطلوع نجم العدل. فرأيت الساهرة قد مُدّت. والأرض قد ألقت ما فيها وتخلت. وقال لي: يا عبدي، تأمّل ما أصنع بأهل المراء و الجدل والأهواء والبدع وأنا القاهر. فرأيت سرادقا مضروب عموده من نار وأرجاءوه

وأطنابه من قطران (...) ثم قال لي: يا عبدي، إذا دخل المتناظرون في هذا السرادق، فانظر فريقك فسر معه، فإن نجوا نجوت وإن هلكوا هلكت (...) فإذا النداء: أين ذوو العقول بزعمهم؟ وجيءَ بالفلاسفة ومن تبعهم وأدخلوا في السرادق، فسئلوا: فيم صرفتم عقولكم؟ قالوا: فيما يرضيك قال: ومن أين علمتم ذلك ؟ أبمجرد العقل أم بالاتباع والاقتداء؟ قالوا: بمجرد عقولنا.فقال: لا عقلتم ولا فلحتم، ولكنكم تحكمتم، يا نار تحكّمي فيهم. فسمعت ضجيجهم من أطباق النيران بالويل، فقلت: من يعذبهم ؟ قال لي: عقلهم، فهو كان معبودهم، ما سألهم سواهم ولا عذّبهم غيرهم. ثم قيل: أين الطبيعيون؟ فأتى بهم. فرأيت أربعة أملاك غلاظ شداد بأيدهم مقامع ، فقالوا لهم : يا ملائكة الله، ما تبغون منا ؟ قالوا: نهلككم و نعذبكم. فقالوا : ولأي شيء ؟ قالوا: كنتم في الدنيا تزعمون أنّا آلهتكم وكنتم تعبدوننا من دون الله وترون الأفعال منّا، إنّ الله سلطانا عليكم نعذبكم في نار جهنّم، فكبكبوا فيها. ثم قيل: أين الدّهرية ؟ فأتى بهم. فقيل لهم: أنتم القائلون: [**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**] (الجاثية :24) هل حدثتم أنفسكم أنكم ستردون على هذا المقام ؟ فقالوا: لا يا ربنا، فقال: ألم تأتكم الرسل بالبينات فكذبتم وقلتم: [**مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ**] (الملك:19). اخسأوا، فلا حجة لكم. فكبوا على وجوههم في نار جهنم. ثم قيل: أين المعتزلة الذين اعتزلوا عن الصراط المستقيم ؟ فأتى بهم جميعا، فقيل لهم: ادعيتم الربوبية تقولون ما شئنا فعلنا. فسحبوا على وجوههم في نار جهنم. ثم قيل: أين الروحانيون ؟ فأتى بهم. فرأيتهم أقبح الناس صورا، وأشمت الناس حالا، إلا طائفة واحدة عُزلت عنهم في كنف النبيين والصّديقين تحت سرادق الأمن. فقال لي: انتظم معهم إن أردت النجاة واسلك سبيلهم (...) ورأيت السبعة أحزاب من الروحانيين قد سئلوا وصاروا محجوبين، قد لعبت بهم الأهواء واستهواهم الشيطان. فاستعاذ جميع الطوائف منهم ومن عذابهم وحصلوا بين أطباق النيران ثم قيل لهم: [**هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**] (يعني

الشيخ تكذيبهم الجزاء الحسّي). أين لاهوتكم يشفع في ناسوتكم (...)؟ فدخلت الجنان مع الحزب الثامن (...) فتجلى لهم في صورة العلم فتفاضلت الرؤية (...)[**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**] (الأنعام: 149).]

ولكن الشيخ يرى أنّ أهل النار بعد أن يلبثوا أحقابا في العذاب الأليم الحسي والمعنوي تعمهم الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء مع خلودهم في دار جهنم أبد الآبدين (حول تلك الأحقاب الجهنمية ينظر الباب 20 من ف: I:169). ويرى أيضا أنّ من بذل وسعه في النظر وأخطأ معذور، خلافا لمن قلد فلم يجتهد في طلب الحق ولم يبذل وسعه في الاجتهاد فيقول (III:94):

[... ولهذا قال: [**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**] وهذه رحمة من الله، فمن لاحت له شبهة في إثبات الكثرة، فاعتقد أنها برهان بأنّ الله يتجاوز عنه، فإنه يبذل وسعه في النظر وما أعطته قوته غير ذلك، فليس للمشركين عن نظر أرجى في عفو الله من هذه الآية].

وذكر الشيخ (I: 297–299) أنّه رأى في كشفه جهنم على صورة جاموس ثم قال ما خلاصته: [في هذه الرؤية، رأيتُ اعتماد الماء على الهواء، وعلمت أن الألطف أقوى من الأكثف، ورأيت دركات أهل النار ومهالكها. ثم زُجّ بي في الماء علوا فاخترقته، وقد رأيت عجبا، وعلمت أنّ خصام أهل الجحيم هو نفس عذابهم في تلك الحال، وأنّ عذابهم ما هو من جهنم، وإنما جهنم دار سكناهم وسجنهم، والله يخلق الآلام فيهم متى شاء. فرأيت الرحمة كلها في التسليم والتلقي من النبوة والوقوف عند الكتاب والسنّة].

الشيخ والعقائد

مجزوء الخفيف

يا سائلي عن عقيدتي أحسن الله ظنّه
علم الله أنـها شـهد الله أنّه

يعني الآية 18 من آل عمران : [**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**]. يبيّن الشيخ عقيدته وعمّن أخذها فيقول ما ملخصه (323:III): [لقد آمنا بالله وبرسوله وما جاء به مجملا ومفصلا مما وصل إلينا من تفصيله وما لم يصل إلينا. فنحن مؤمنون بكل ما جاء به في نفس الأمر. أخذت ذلك عن أبوي تقليدا، ولم يخطر لي ما حكم النظر العقلي فيه من جواز وإحالة ووجوب. فعملت على إيماني بذلك حتى علمت من أين آمنت وبماذا آمنت. وكشف الله عن بصري وبصيرتي وخيالي فصار الأمر لي مشهودا، و الحكم المتخيل المتوهم بالتقليد موجودا، فعلمت قَدْرَ من اتبعته وهو محمد ρ، وشاهدت جميع الأنبياء كلهم، واطلعت على جميع ما آمنت به مجملا، فما زحزحني علم ما رأيته وعاينته عن إيماني، فلم أزل أقول وأعمل لقول النبي ρ لا لعلمي ولا لعيني ولا لشهودي. فواخيت بين الإيمان والعيان، وهذا عزيز الوجود في الأتباع].

فالشيخ أخذ مسائل العقيدة كما أخذ مسائل الفقه مباشرة من روح النبي ρ ، فكان يسأله حتى عن العقائد الفرعية فضلا عن الأصول، كفضل الملائكة على البشر، وهل للحيوانات حشر ونشر أم لا (المبشرات)، وكيف أنّ أوّل الأوتار في العدد هو الثلاثة (215:II)، وكمسألة ليلة القدر التي يقول عنها (658:I): [واختلف الناس في ليلة القدر، أعني في زمانها. فمنهم من قال هي في السنة كلها تدور وبه أقول، فإني رأيتها في شعبان وفي شهر ربيع وفي شهر رمضان، وأكثر ما رأيتها في شهر رمضان وفي العشر الأواخر منه. ورأيتها مرة في العشر الوسط من رمضان في غير ليلة وتر، وفي الليلة الوتر منها...] وفي ديوانه نظم أبياتا حولها لما رآها ليلة الجمعة التاسع عشر من ربيع الأوّل سنة 631. والشيخ مع اطلاعه النقلي على مختلف العقائد، كان من الذين قال عنهم(398:III – 402): " وأهل الكشف

لهم الاطلاع على جميع المذاهب كلها و النحل والملل والمقالات في الله اطلاعا عامّا لا يجهلون منها شيئا" فكان الشيخ في غاية الاطلاع على عقائد مختلف الملل والنحل. فخلال إشارته لأمهات الطوائف الثلاث المذكورة في آخر فاتحة الكتاب أهل الصراط المستقيم و المغضوب عليهم والضالين يقول في الباب 383 المتعلق بالفاتحة (III: 523): [... ما أعرف منزلا ولا نحلة و لا ملة إلا رأيت قائلا بها ومعتقدا لها ومتصفا بها باعترافه من نفسه. فما أحكي مذهبا ولا نحلة إلا عن أهلها القائلين بها. وإن كنا قد علمناها من الله بطريق خاص. ولكن لابد أن يرينا الله قائلا بها لنعلم فضل الله عليّ وعنايته بي. حتى أني أعلمت أنّ في العالم من يقول بانتهاء علم الله في خلقه، وأنّ الممكنات متناهية، وأنّ الأمر لابد أن يلحق بالعدم والدثور، ويبقى الحق حقا لنفسه ولا عالم. فرأيت بمكة من يقول بهذا القول، وصرّح لي به معتقدا له من أهل السوس من بلاد المغرب الأقصى، حجّ معنا وخَدمنا وكان يصّر على هذا المذهب حتى صرح به عندنا. وما قَدِرْتُ على رده عنه. ولا أدري بعد فراقه إيانا هل رجع عن ذلك أو مات عليه. وكان لديه علوم جمة وفضل، إلا انه لم يكن له دين، وإنّما كان يقيمه صورة عصمة لدمه. هذا قوله لي ويعطيه مذهبه وليس في مراتب الجهل أعظم من هذا الجهل]. ومن أولئك رجل رآه الشيخ بالموصل كان يعبد العناصر الطبيعية (I:720). وفي يونان رأى طائفة الشمسية أي عبّاد الشمس واستضافه أحد علمائهم وقال له: ما عبدتها لكونها إلها بل الله إله واحد، ولكن الله ربط منافع العالم بها (I:513–514) وهي أعظم مظهر لنوره تعالى (I:706)... ويذكر الشيخ أيضا أنّ الله تعالى أطلعه في منزل سورة المسد على علوم البراهمة والحكماء والمتكلمين وعلى ما تؤدي إليه من الهلاك الدائم والمؤقت (II:584) (III: 418).

وكثيرا ما ينكر الشيخ أشد الإنكار على كل الطوائف التي تخرج نصوص الشريعة عن العمل بظاهرها حتى وإن وعملوا بها تقية وعصمة لدمهم، فيقول مثلا ما

ملخصه (234:II): [وقد وقعنا بقوم يرجحون كشفهم و فهمهم مما يبطل حكم الشرع فيعتمدون عليه في حق نفوسهم ويسلّمون ذلك الحكم المقرر في الظاهر للغير، وهذا ليس بشيء عندنا ولا عند أهل الله، وكل من عول عليه فقد لحق بالأخسرين أعمالا. وربّما يبقى صاحب الكشف على العمل بظاهر ذلك الحكم ولا يعتقده في حق نفسه، ويقول إنّي قد اطلعت على سره، فحكمه على سرّي خلاف حكمه على ظاهري، فلا يعتقده في سره عند العمل به، فمن عمل على هذا حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين، ولحق بمن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم. فتحفظوا يا إخواننا من مكر هذا الكشف فقد نصحتكم]. ويقول أيضا ردًا على من يفرق بين الشريعة والحقيقة (563:II): [... فما ثم حقيقة تخالف شريعة، لأنّ الشريعة من جملة الحقائق... فالشريعة هي الحقيقة].

ويقول أيضا (II: 233): [والعالم بالله المكمل هو الذي يحمي نفسه أن يجعل لله عليه حجة بوجه من الوجوه. ومن أراد أن يسلم من ذلك، فليقف عند الأمر والنهي، ليرتقب الموت ويلزم الصمت إلا عن ذكر الله من القرآن خاصة. فمن فعل ذلك فلم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا وقد استبرأ لنفسه...].

ولهذا فإنّ أجهل الناس عند الشيخ هم الباطنية الذين يصفهم بقوله(240:II): [... إما أن يكون باطنيا محضا وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالا وفعلا، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرع كالباطنية، والعدل عما أراد الشارع بها، وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة دينية مشروعه فهو مذموم بالإطلاق عند كل مؤمن...].

ويبيّن خطر الغلوّ في التأويل فيقول (II: 494) [وليس في الحجب أكثف ولا أقوى من حجاب التزّين، لأنّ من زُيِّن له جهله، فمن المحال طلب الحاصل في زعمه، لأنّه حاصل عنده وليس بحاصل في نفس الأمر. فمن أراد أن يعتصم من التزّين، فليقف عند ظاهر الكتاب والسنة ولا يزيد على الظاهر، فإنّ التأويل قد يكون من

التزين، فما أعطاه الظاهر جرى عليه وما تشابه وكّل علمه إلى الله وآمن به، فهذا متبع ليس للتزين عليه سبيل...].

وينكر الشيخ أيضا على الذين لا يسمون الله تعالى بالأسماء التي سمّى الله بها نفسه بدعوى التنزيه، كبعض المعتزلة و الباطنية فيقول(273:III): [... فلا بد في كل مفاضلة في الوجود من جامع يجمع بينهما، أي يجتمع فيه جميع من في الوجود. ولهذا فرت الباطنية في الباري إذ قيل لها إنه موجود إلى ليس بمعدوم. وما علمت أنها وقعت في عين ما فرت منه، فإنّه أيضا كما ينطلق على الوجود الحادث لفظة موجود، ينطلق عليه اسم ليس بمعدوم. فقد وقعت الشركة في أنّه ليس بمعدوم، وكذا جميع ما يسأل عنه الباطني. ولهذا كانوا أجهل الناس بالحقائق].ينظر تفصيل هذا الموضوع في الباب 322 المتعلق بمنزل سورة الجمعة (81:III).

وقد فصّل الشيخ مسائل العقيدة في كتبه ككتاب (المسائل) الذي أورد فيه نحو 53 مسالة، وهي مماثلة للمسائل التي أوردها في مقدّمة الفتوحات وعددها أزيد من 100 مسألة. وفي هذه المقدمة أطنب الشيخ في إيضاح عقيدته القرآنية المحمدية، ورتبها على ثلاثة مستويات حسب الرسوخ في إدراك الحقائق. ولخص الشيخ عبد الوهاب الشعراني (ت:973) أهمّ مسائل العقيدة عند الشيخ وغيره من علماء أهل السنة في كتاب كبير ممتاز عنوانه: (اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر)، يقول عنه في مقدمته:[حاولت فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتي (...) وقد ألف كل من الطائفتين كتبا لأهل دائرته. فربما ظن من لا غوص له في الشريعة أن كلام إحدى الدائرتين مخالف للأخرى. فقصدت في هذا الكتاب بيان وجه الجمع بينهما ليتأكد كلام أهل كل دائرة بالأخرى].

فإن قيل: لماذا أخفى الشيخ ما يسمّيه بعقيدة خلاصة الخاصة في ثنايا الفتوحات كما صرّح هو بقوله في المقدّمة:[وأمّا التصريح بعقيدة الخلاصة، فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض. لكن جئت بها مبدّدة في أبواب هذا الكتاب،

مستوفاة مبيّنة، لكنها كما ذكرنا متفرقة. فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميّزها عن غيرها، فإنّه العلم الحق و القول الصدق]. فالجواب: إنّما بدّد الشيخ تلك المسائل لغموضها كما قال ،لا لمناقضتها لظاهر العقيدة العامة عند جميع المسلمين من أهل السنة. بل هي مؤكدة لها تماما حسب قاعدته المذكورة سابقا أنّ ظاهر الشريعة هو عين الحقيقة. لكن فهم تلك المسائل الغامضة يستلزم مستوى عاليا من الرسوخ في الشريعة مع فتح البصيرة و الذوق العرفاني الصافي. وهذا ما جعل الشيخ جلال الدّين السيوطي (ت:911) يقول في رسالته التي عنوانها: (تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي):

" الأفضل عندي في ابن عربي (...) اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه إلا الراسخون في العلم". وينبغي التأكيد هنا أنّ الشيخ برئ تماما من قول الحلول والاتحاد ووحدة الوجود بالمفهوم الفلسفي الذي يتوهم أنّ العالم أو المخلوق هو عين الخالق. ونصوصه في إبطال هذه الأوهام كثيرة جداً نكتفي بهذه الجمل التي نقلها الشعراني من الفتوحات:

[ما قال بالإتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول. فمن فصل نفسه عن الحق فنعم ما فعَل... إياك أن تقول: أنا هو وتغالط، فإنك لو كنتَ هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه... أنت أنت وهو هو. فإياك أن تقول كما قال العاشق: " أنا من أهوى ومن أهوى أنا". فهل قدر هذا أن يردّ العين واحدة ؟ لا والله ما استطاع. فإنّه جهل والجهل لا يتعقل حقا... ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكره (...) وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ولا حلّ فيه الحق، إذ لو كان عين الحق أو حل فيه الحق لما كان تعالى قديما ولا بديعا]. وأورد الشعراني العديد من أمثال هذه النصوص من الفتوحات في الأبواب الأولى من كتابه المذكور ثم قال: [ولعمري إذا كان عباد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا: [**نَعْبُدُهُمْ إِلَّا**

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى] ، فكيف بأولياء الله تعالى أنّهم يدّعون الاتحاد بالحق على حدّ ما تتعلقه العقول الضعيفة ؟ هذا كله محال في حقهم رضي الله تعالى عنهم، إذ ما من ولي إلا ويعلم أنّ حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، لأنّ الله بكل شيء محيط].

فإن قيل: ما معنى وحدة الوجود التي قيل إن الشيخ هو إمام القائلين بها ؟ فالجواب: معناها التحقق بقول الله تعالى لرسوله ρ : [فاعلم أنّه لا إله لا الله] (19 محمد)، أي توحيد الأفعال والأسماء والذات.

فتوحيد الأفعال في التحقق بآياته كقوله تعالى: [**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ**] (فاطر:3) [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)] (الصافات:96) [وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى] (الأنفال:17) [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم] (الأنفال: 17)... [ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها] (هود:56).
وتوحيد الأسماء والصفات في التحقق بآياته كقوله تعالى: [هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم] (الحديد:3) [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] (الشورى:11)[وما تشاؤون إلا أن يشاء الله] (الإنسان:30) [وإليه يُرجع الأمر كله] (هود:123). وتوحيد الذات في التحقق بآياته كقوله تعالى: [كل شيء هالك إلا وجهه] (القصص:88)[فأينما تولوا فثم وجه الله] (البقرة:115) [ونحن أقرب إليه من حبل الوريد] (ق:16). وقوله ρ " كان الله ولا شيء معه". وقوله في توحيد الصفات في الحديث القدسي المشهور عن المتقرب إلى الله بالنوافل: "كُنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها".
هذا وقد أساء قوم قديما وحديثا بذمّهم الشيخ، زاعمين أنّ عقيدته فاسدة، وقصدهم الدفاع عن العقيدة الصحيحة حسب فهمهم. وهؤلاء لم يفهموا كلام

الشيخ على حقيقته. وقد بيّن خطأهم كثير ممّن انتصروا للشيخ، ومن أواخرهم الشيخ محمود محمود الغراب الدمشقي خصوصا في كتابه القيّم: (الردّ على ابن تيمية ت: 728) وشرح كلمات الصوفية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي)، حيث أورد كلام ابن تيمية في الشيخ. ثم أتى بنصوص الشيخ الصريحة الكثيرة المناقضة تماما لمزاعم ابن تيمية رحم الله جميعهم، فكلهم مجتهدون مأجورون إن شاء الله تعالى.

وقد لخّص الشيخ موقفه في العلم بالله تعالى في بيتين قال عنهما (751:I): [واقعة: قيل لي فيها (...) ما يُعلم من الله و ما يُجهل ؟ فقلت:

البسيط

العلم بالله ديني إذ أدين به والجهل بالعين إيماني وتوحيدي

فقيل لي : صدقت هذا قوله تعالى: [ويحذركم الله نفسه] فما عندك في تجليه ؟ فقلت:

البسيط

في كل مجلى أراه حين أشهده ما بين صورة تنزيه وتحديد

فقيل لي: سبحان من تنزه عن التنزيه بالتشبيه و عن التشبيه بالتنزيه]، أراد الشيخ بالعين في البيت الأوّل ذات الحق تعالى.

ولخص الشيخ موقفه في علاقة الحق بالخلق – وهي التي تاه فيها أهل الفكر من المتكلمين والفلاسفة – فيقول (32:III باب منزل سورة الإنسان/ 58:III باب منزل سورة الحاقة):

[وأرفع المنازل عند الله أن يحفظ الله على عبده مشاهدة عبوديته دائما، سواء خلع عليه من الخلع الربانية شيئا أو لم يخلع. فهذه أشرف منزلة تعطى للعبد، وهو قوله

تعالى: [واصطنعتك لنفسي]، وقوله سبحانه [سبحان الذي أسرى بعبده] فقرن معه تنزيهه... فطوبى لمن راقب ربه، وخاف ذنبه، وعمر بذكر الله قلبه، وأخلص لله حبه].

الشيخ والحكمة والفلسفة

إذا كانت الأشياء صنع حكيم فحكمته فيها لكل عليم

(دي:142)

ألا إنّ الرسالة برزخيه ولا يحتاج صاحبها لنيه

وإنّ الاختصاص بها منوط كما دلت عليه الأشعرية

وهذا الحق ليس به خفاء فدع أحكام كتب فلسفيه

(595:II)

التصوف ليس فلسفة، وإنّما هو التحقق بمقام الإحسان في الدّين. والدليل على هذا أنّ جُلّ الأولياء وشيوخ التصوف وأئمة الطريق لم يتعلّموا الفلسفة، لأنّ التصوف عندهم ما هو إلا أخلاق قرآنية وشمائل محمدية، ومنهاجه الإيمان والتقوى والذكر والصفاء. وأمّا منهج الفلسفة فيعتمد على النظر الفكري بالمنطق. والشيخ هو أيضا لم يهتم بالفلسفة ولا سعى لمطالعة كتبها، وإنّما اطلع على بعض أقوال الفلاسفة من خلال مطالعته في كتب الشريعة و التصوف والكلام، خصوصا كتب الغزالي وابن مسرة الجبلي وابن السيِّد مؤلف (كتاب الدوائر). وأمّا رسائل إخوان الصفا — والراجح أنّهم من الباطنية الإسماعيلية — فيبدوا أنّ الشيخ طالعها، رغم إنكاره الشديد على الباطنية —كما سبق ذكره — وعلى غلاة الروافض، إذ نجد صدى لبعض ما هو مفصّل في رسائلهم وموافق لقدماء الحكماء في مسائل فلكية وطبيعية وعلاقتها بالنفس الكلية و العقل الأوّل. فالشغل الشاغل للشيخ طيلة عمره لم يكن أبدا الخوض في مسائل الفلسفة والكلام، بل مدارسة القرآن والحديث الشريف.

ويسمّى الشيخ الفلاسفة بأهل الفكر والنظر وبالعقلاء، وكثيرا ما يذكر تصريحا أو تلويحا المقولات العشر المشهورة عندهم. ويحذّر الشيخ من الخلط بين التصوف و الفلسفة فيقول (32:I): [ولا يحجبنك أيها الناظر في هذا الصنف من العلم الذي هو العلم النبوي الموروث منهم صلوات الله عليهم إذا وقفت على مسألة من مسائلهم قد ذكرها فيلسوف أو متكلم أو صاحب نظر في أي علم كان، فتقول في هذا القائل الذي هو الصوفي المحقق إنه فيلسوف لكون ذلك الفيلسوف ذكر تلك المسألة وقال بها واعتقدها، وأنّه نقلها منهم أو أنه لا دين له، فإنّ الفيلسوف قد قال بها ولا دين له. فلا تفعل يا أخي، فهذا القول قول من لا تحصيل له. إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلا، فعسى أن تكون تلك المسالة فيما عنده من الحق ولاسيما إن وجدنا الرسول ρ قد قال بها، ولاسيما فيما وضعوه من الحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما تنطوي عليه من سوء الضمائر (...) وأمّا قولك إن قلت سمعها من فيلسوف أو طالعها في كتبهم، فإنك ربما تقع في الكذب والجهل.أمّا الكذب فقولك سمعها أو طالعها وأنت لم تُشاهد ذلك منه، وأمّا الجهل فكونك لا تفرق بين الحق في تلك المسألة والباطل. وأمّا قولك عن الفيلسوف لا دين له، فلا يدُلّ كونه لا دين له على أنّ كل ما عنده باطل. وهذا مدرك بأوّل العقل عند كل عاقل. فقد خرجت باعتراضك على الصوفي في مثل هذه المسألة عن العلم و الصدق والدّين، وانخرطت في سلك أهل الجهل والكذب والبهتان ونقص العقل والدين وفساد النظر والانحراف].

والشيخ يرى أنّ الإلهيات لا تدرك إلا بالوحي أو الكشف الرباني، ولا بالفكر الذي غايته معرفة وجود الله. وفي هذا المعنى يقول (523:II):

[... ونمنع من الفكر جملة واحدة، لأنّه يورث صاحبه التلبيس وعدم الصدق. وما ثم شيء إلا ويجوز أن ينال العلم به من طريق الكشف والوجود. والاشتغال بالفكر حجاب. وغيرنا يمنع هذا . ولكن لا يمنعه أحد من أهل طريق الله، بل مانعه إنّما

هو من أهل النظر والاستدلال من علماء الرسوم الذين لا ذوق لهم في الأحوال. فإن كان لهم ذوق في الأحوال كأفلاطون الإلهي من الحكماء، فذلك نادر في القوم، وتجد نَفَسه يخرج مخرج نَفَس أهل الكشف والوجود، وما كرهه من كرهه من أهل الإسلام إلا لنسبته إلى الفلسفة لجهلهم بمدلول هذه اللفظة. والحكماء هم على الحقيقة العلماء بالله وبكل شيء ومنزلة ذلك الشيء المعلوم (...) والفيلسوف معناه محب الحكمة، لأنّ سوفيا باللسان اليوناني هي الحكمة وقيل هي المحبة. فالفلسفة معناها حب الحكمة، وكل عاقل يحب الحكمة. غير أنّ أهل الفكر خطأهم في الإلهيات أكثر من إصابتهم، سواء كان فيلسوفا أو معتزليا أو أشعريا أو ما كان من أصناف أهل النظر. فما ذمّت الفلاسفة لمجرد هذا الاسم ، وإنما ذموا لما أخطئوا فيه من العلم الإلهي، ممّا يعارض ما جاءت به الرسل عليهم السّلام بحكمهم في نظره. بما أعطاهم الفكر الفاسد في أصل النبوة و الرسالة و لماذا تستند، فتشوش عليهم الأمر. فلو طلبوا الحكمة حين أحبوها من الله لا من طريق الفكر أصابوا في كل شيء. وأما الفلاسفة من أهل النظر من المسلمين كالمعتزلة والأشاعرة، فإنّ الإسلام سبق لهم وحكم عليهم، ثم شرعوا في أن يذبّوا عنه بحسب ما فهموا منه، فهُم مصيبون بالأصالة مخطئون في بعض الفروع بما يتأولونه] .

فالشيخ يميّز بين ثلاثة أصناف من الحكماء و الفلاسفة:

الصنفّ الأوّل: الحكماء الإلهيون المتبعون للأنبياء الراسخون في العلوم الإلهية والمنطقية و الرياضية والطبيعية. ومن هؤلاء الحكماء الستة الذين ذكرهم الشيخ في الباب 15 من الفتوحات وقال عنهم إنهم خلفاء مداوي الكلوم. ومداوي الكلوم هو إدريس υ . فهو النبي إمام الحكماء، إذ منه ظهرت علومهم من فلك وكيمياء وأسرار الحروف وغيرها... ومن هؤلاء من لم تبلغهم دعوة رسول، كأفلاطون ربّما، لكن هداهم الله لتوحيده وتقرّبوا إليه بالتوجه الصادق ورياضة النفس ومكارم الأخلاق، حتى أنّ منهم من يلتحق بالأولياء الأفراد، وبعض أكابرهم ينال مقام

القربة، ويمكن لبعضهم أن تحصل له كشوفات، وتنطبع في مرايا بواطنهم بعض حقائق الوجود ويأخذون من الأرواح الملكية ويرتقي سابقوهم إلى الأخذ من النفس الكلية، ولكن لا يلحقون مراتب تُبّاع الرسل المتقربين إلى الله تعالى بشرعه. ففيض أولئك الحكماء روحاني وفيض أهل الله روحاني وإلهي، لأنهم سلكوا على الشرع الإلهي (162:II). وقد خصّص الشيخ الباب الطويل النفيس – 167 من الفتوحات – الذي يتلو الباب 166 المخصوص بمقام الحكمة والحكماء للمقارنة بين معراج السالك التابع للرسول ومعراج صاحب الفكر عبر مراتب الوجود. فكانت غاية هذا الأخير في كل مرتبة إدراك العلوم الطبيعية المتعلقة بها و التنزيه في الجناب الإلهي. وأما كشف التابع فجامع للجانبين الطبيعي و الروحاني الإلهي مع الفتح في فهم نصوص الوحي الدالة على الكمالات والأسماء الإلهية تنزيها وتشبيها.

الصنف الثاني: الفلاسفة غير المتبعين للشرع رغم بلوغ الدعوة لهم، وهم درجات: الملاحدة الكافرون بالمصدر الإلهي للشرائع، أو المعتقدون أنّ الشرائع وضعت لسياسة العامّة وصلاح المجتمع و ينكرون الجزاء الأخروي. ويذكر الشيخ أحدهم فيقول (178:III): [... ولقد رأيت بعض أهل الفكر في كتاب سماه (المدينة الفاضلة)، رأيته بيد شخص بمرشانة الزيتون ولم أكن رأيته من قبل ذلك، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه. فأوّل شيء وقعت عيناي عليه قوله: وأنا أريد في هذا الفصل أن ننظر كيف نضع إليها في العالم ولم يقل الله. فتعجبت من ذلك ورميت بالكتاب إلى صاحبه، وإلى هذا الوقت ما وقفت على ذلك الكتاب]. وفي كلام الشيخ هذا يظهر عدم عنايته بكتب الفلسفة، فبين رؤيته لكتاب (المدينة الفاضلة) وكتابته لهذا النص أكثر من ثلاثين سنة. ولهذا لا نجد عند الشيخ ذكرا لمشاهير الفلاسفة لا الإسلاميين ولا اليونانيين، ما عدا ابن رشد الذي سنذكره في الصنف الثالث وابن السيد (ت: 521) الذي قال عنه (III: 358): [وما نبّه على هذه المسألة إلا السِّيد البطلوسي، فإنَّه قال فيما وقفنا عليه من كلامه: إنّ الإنسان كلما

علا قدره في العالم قلّت علومه، وكلما نزل عن هذه الرتبة الشريفة اتسعت علومه، وأعني العلم بالأفعال وأعني بالقلة العلم بالذات من طريق الشهود. وكان رأيه في علم التوحيد رأي الفيثاغوريين، وهم القوم الذين أثبتوا التوحيد بالعدد، وجعلوه دليلا على أحدية الحق، وعلى ذلك جماعة من العقلاء].

وفي كتاب (محاضرة الأبرار) يورد الشيخ القصيدة المنسوبة لابن سينا في الرّوح:

الكامل

[هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع]

لكنّه لا يذكر ناظمها. كما لا نجد ذكرا لمعاصره الفيلسوف الإشراقي المقتول السهروردي ولا ابن طفيل الأندلسي (494-581) . وفي (محاضرة الأبرار) يذكر قولا لكل من أفلاطون وسقراط وأرسطو وينكر عليهم مقولة إنّ الله تعالى علّة العلل، لأنّ الله يخلق العلل وليس بعلة، ولو كان تعالى علة لارتبط، ولو ارتبط لم يصح له الكمال، وهو الغني عن العالمين (كتاب التجليات: تجلي العلة). وينكر أيضا على قول بعضهم: إنّ الله لا يعلم الجزئيات، فعلمه كلّي لا تفصيلي (6:IV/536:III/146:II) ويلمحّ للبراهين السوفسطائية (525:III/170:II): كما يذكر الكاب المشهور في عصره (سرّ الأسرار) في كتابه (التدبيرات الإلهية)، ويلّمح لكتاب إبواقراط خلال كلامه عن الأركان الطبيعية الأربعة وأصلها الخامس فيقول: (56:I): [... ثم موجود خامس هو أصل لهذه الأركان، وفي هذا خلاف بين أصحاب علم الطبائع عن النظر، ذكره الحكيم في الأسطقسات ولم يأت فيه بشيء يقف الناظر عنده. ولم أعرف هذا من حيث قراءتي علم الطبائع على أهله، وإنّما دخل به عليّ صاحب لي وهو في يده، وكان يشتغل بتحصيل علم الطب. فسألني أن أمشيه له من جهة علمنا بهذه الأشياء من جهة الكشف لا من جهة القراءة و

النظر.فقرأه علينا فوقفت منه على هذا الخلاف الذي أشرت إليه، فمن هناك علمته، ولو لا ذلك ما عرفت هل خالف فيه أحد أو لا، فإنّه ما عندنا فيه إلاّ الشيء الحق الذي هو عليه، وما عندنا خلاف، فإنّ الحق تعالى الذي نأخذ العلوم عنه بخلّو القلب عن الفكر والاستعداد لقبول الواردات هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة، فنعرف الحقائق على ما هي عليه].

ومن ضلال بعض الفلاسفة أنهم لا يأخذون من الشريعة إلا ما وافق نظرهم، وهم الذين قال عنهم (94:IV): [فإنّ جماعة من العقلاء جعلوا الشريعة بمعزل فيما زعموا (...) فما أخذت من الشريعة إلا ما وافق نظرها، وما عدا ذلك رمت به أو جعلته خطابا للعامة (...) وقال تعالى [أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض] .] وقد اجتمع الشيخ ببعض هؤلاء وفاوضهم فتابوا. ففي آخر الباب 167 (284:II) الذي قارن فيه بين المعراج الفكري لأهل النظر والمعراج الروحي لتابع الرسول، يقرّر أنّ العلم الحقيقي في الإيمان بما جاء به الرسول، وأن الجهل الحقيقي والشقاء الأبدي لمن أعرض عنه وقلّد فكره، معرضا عن وحي ربّه ثم يقول: [واتفق لي في هذه المسالة عجبا، وذلك أنّ بعض علماء الفلاسفة سمع منّي هذه المقالة فربّما أحالها في نفسه أو استخف عقلي في ذلك، فأطلعه الله بكشف لا يشك فيه في نفسه، بحيث تحقق أن الأمر على ما قلناه، فدخل عليّ باكيا على نفسه وتفريطه، وكانت لي معه صحبة، فذكر لي الأمر وأناب واستدرك الفائت وآمن وقال لي: ما رأيت أشد منها حسرة وتحقق قوله تعالى[إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين ...]].

فيلسوف آخر لقيه الشيخ وتاب من إنكاره معجزات الأنبياء ويقول عنه(371:II): [اتفق لنا في مجلس حضرنا فيه سنة 586 وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون، وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد، وأنّ الحقائق لا تتبدل، وكان زمان البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم

يشتعل نارا. فقال المنكر المكذب: إنّ العامة تقول إنّ إبراهيم υ ألقي في النار فلم تحرقه، والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للاحتراق. وإنّما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه وحنقه، فهي نار الغضب، وكونه ألقي فيها لأنّ الغضب كان عليه، وكونها لم تحرقه أي لم يؤثر عليه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار، وأنها لو كانت آلهة ما أفلت، فركب له من ذلك دليلا. فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين ممّن كان له هذا المقام (أي مقام ترك الكرامات إلا في حالة إقامة الدليل على صدق الشارع): فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالى في النار أنها لم تحرق إبراهيم υ وأنّ الله جعلها عليه كما قال: بردا وسلاما، وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام في الذب عنه لا أنّ ذلك كرامة في حقي ؟ فقال المنكر: هذا لا يكون. فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة ؟ قال نعم. قال: تراها في نفسك. ثم ألقى النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده. فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردّها إلى المنقل ثم قال له: قرّب يدك أيضا منها. فقرّب يده فأحرقته. فقال له: هكذا كان الأمر وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك، والله تعالى الفاعل لما يشاء. فأسلم ذلك المنكر واعترف].ومن المحتمل أن يكون صاحب هذه الكرامة هو الشيخ محي الدين نفسه، ولم ينسبها لنفسه تسترا.

ويتكلم الشيخ على الكرامات فيقول ما خلاصته (369:II): [الكرامة من الحق على قسمين: حسية و معنوية. فالعامة ما تعرف من الكرامة إلا الحسية مثل خوارق العادات. وأمّا الكرامة المعنوية، فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله، وهي حفظ آداب الشريعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الواجبات مطلقا في أوقاتها، و المسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق

الله في نفسه وفي الأشياء، وتفقد آثار ربّه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في دخولها وخروجها، فيتلقاها بالأدب ويخرجها بالحضور. فهذه هي الكرامات التي لا يدخلها مكر ولا استدراج، ولا يشارك فيها إلا الملائكة المقربون وأهل الله المصطفون الذين إذا ظهر عليهم شيء من كرامات العامة ضجوا إلى الله منها، وسألوه سترها بالعوائد، لئلا يتميزوا عن العامة بأمر يشار إليهم فيه، ما عدا العلم، لأنّ العلم هو المطلوب، وبه تقع المنفعة، فهو أسنى الكرامات].

الصنف الثالث من أهل الحكمة والفلسفة هم المعظمون للرسل، والمؤمنون بشرائعهم الإلهية، و العاملون بها ظاهرا وباطنا. فهؤلاء أهل لكل احترام وقبول عند الشيخ. وقد وصف أحوالهم وما هم عليه من السياسة الحكمية في الباب 66 من الفتوحات (I:324–325) الذي يقول في آخره: [... ولا أعني بالعقلاء المتكلمين اليوم في الحكمة، وإنّما أعني بالعقلاء من كان على طريقتهم من الشغل بنفسه، والرياضات، والمجاهدات والخلوات، والتهيؤ لواردات ما يأتيهم في قلوبهم عند صفائها من العلم العلوي الموحى في السموات العلى. فهؤلاء أعني بالعقلاء. فإنّ أصحاب اللقلقة والكلام والجدل الذين استعملوا أفكارهم في مواد الألفاظ التي صدرت عن الأوائل وغابوا عن الأمر الذي أخذها عنه أولئك الرجال. وأمّا أمثال هؤلاء الذين عندنا اليوم لا قدر لهم عند كل عاقل، فإنّهم يستهزئون بالدين ويستخفون بعباد الله ولا يعظم عندهم إلا من هو معهم على مدرجتهم، وقد استولى على قلوبهم حبّ الدنيا وطلب الجاه والرياسة، فأذلهم الله كما أذلوا العلم وحقرهم وصغرهم وألجأهم إلى أبواب الملوك والولاة من الجهال، فأذلتهم الملوك والولاة. فأمثال هؤلاء لا يعتبر قولهم، فإنّ قلوبهم قد ختم الله عليها وأصمّهم وأعمى أبصارهم مع الدعوى العريضة أنهم أفضل العالم عند نفوسهم. فالفقيه المفتي في دين الله مع قلة ورعه بكل وجه أحسن حالا من هؤلاء. فإنّ صاحب الإيمان مع كونه أخذ تقليدا هو أحسن حالا من هؤلاء العقلاء على زعمهم. وحاشا العاقل أن يكون بمثل هذه الصفة. وقد

أدركنا ممّن كان على حالهم قليلا وكانوا أعرف الناس بمقدار الرسل، ومن أعظمهم تبعا لسنن الرسول ρ وأشدّهم محافظة على سننه، عارفين بما ينبغي لجلال الحق من التعظيم، عالمين بما خصّ الله عباده من النبيين وأتباعهم من الأولياء من العلم بالله من جهة الفيض الإلهي الاختصاصي الخارج عن التعلم المعتاد من الدرس والاجتهاد، ما لا يقدر العقل من حيث فكره أن يصل إليه. ولقد سمعت واحدا من أكابرهم وقد رأى مما فتح الله به عليّ من العلم به سبحانه من غير نظر ولا قراءة بل من خلوة خلوت بها مع الله ولم أكن من أهل الطلب فقال: [الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما. فالله يختص من يشاء برحمته والله ذو الفضل العظيم].

هذا الواحد الذي هو من أكابر العقلاء الفضلاء هو ابن رشد (ت: 595) الذي وصف لقاءه به في الباب 15 من الفتوحات الذي ذكر فيه خطبة ألقاها مداوي الكلوم – أي إدريس υ - . ومن جملة ما ورد فيها قوله: [اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين. هذا ما كان من وصيته لبنية، وهذه مسالة عظيمة رمزها وراح فمن عرفها استراح]. يشير إلى مسألة أنّ البعث و النشور و الجزاء في الآخرة هو حسّي ومعنوي و مادي وروحاني كما هو في الدنيا لكن في نشأة أخرى، وهو ما ينكره كثير من الفلاسفة الذين لا يقولون بالجزاء الحسي (حول هذه المسألة أنظر تهافت الفلاسفة للغزالي تقديم وتحقيق سليمان دُنيا – دار المعارف بمصر ص16-21-280-289/ ورسالة أمر المعاد لابن سينا ص: 55-56-57 طبع دار الفكر العربي 1949/ اليواقيت والجواهر للشعراني الباب 66). ومسألة الحشر الفردي الحسي للأجسام من المسائل التي حيّرت ابن رشد، حسبما يظهر من كتبه. فكان فكره مترددا بين صريح نصوص الشارع المعصوم وبين تخرصات الفلاسفة الذين لا يقولون إلا بالحشر الروحاني.

وكثيرا ما أكد الشيخ على الجزاء المحسوس في الآخرة لأهل النار كما هو واضح في النصوص الشرعية.وفي آخر الباب 167 من الفتوحات (II: 283) الذي قارن فيه بين معراج الوليّ التابع للرسول ومعراج الفكر للحكيم الفيلسوف، بيّن كيف يرجع الفيلسوف في نهايته لأتباع الرسول والإيمان بكل ما أخبر به بلا تأويل ويختم بقوله عنه: [ورأى حشر الأجساد من طور إلى طور باختلاف حكم ولاختلاف دور]. فالأرواح لا تنفك عن تدبير أجسادا. ففي الدنيا تدبر أجسامنا حسية عنصرية. وفي البرزخ تدبّر أجساما برزخية كالتي يراها النائم في منامه. وفي النّار الأخروية تدبّر أجسامنا طبيعية عنصرية حسية مظلمة. وفي الجنة تدّبر أجسامنا طبيعية حسّية نورانية. وهذا هو الموضوع الذي جرى فيه التفاوض بين أبي الوليد ابن رشد وهو شيخ، والصبيّ المفتوح عليه محي الدّين بن العربي الذي يصف اجتماعه به قائلا (I:152–153):

[ولقد دخلتُ يوما بقرطبة على قاضيها أبي الوليد ابن رشد، وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغه ما فتح الله به عليّ في خلوتي. فكان يظهر التعجب ممّا سمع. فبعثني والدي إليه في حاجة قصدا منه، حتى يجتمع بي، فإنّه كان من أصدقائه، وأنا صبي ما بقل وجهي ولا طَرَّ شاربي. فعندما دخلت عليه، قام من مكانه إليّ محبة وإعظاما، فعانقني وقال لي: نعم. قلت له: نعم. فزاد فرحه بي لفهمي عنه. ثم إنّي استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له: لا. فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف و الفيض الإلهي؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟ قلت له: نعم لا. وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها. فاصفر لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل. وعرف ما أشرت إليه. وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام، أعني مداوي الكلوم. وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا، وهل هو يوافق أو يخالف ؟ فإنّه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي. فشكر الله تعالى الذي كان في زمان رأى فيه من دخل

خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة و لا قراءة. وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابا. فالحمد الله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين لمغالق أبوابها. والحمد لله الذي خصني برؤيته. ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية، فأقيم لي رحمه الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني، وقد شغل نفسه عني. فقلت: أنّه غير مراد لما نحن عليه، فما اجتمعت به حتى درج وذلك سنة 595 بمدينة مراكش، ونقل إلى قرطبة وبها قبره. ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة، جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد، وصاحبي أبو الحكم عمرو بن السّراج الناسخ. فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه ؟ هذا الإمام وهذه أعماله، يعني تواليفه. فقال له جبير: يا ولدي نِعم ما نظرت إليه لا فُضّ فوك. فقيدتها عندي موعظة وتذكرة. رحم الله جميعهم. وما بقي من تلك الجماعة غيري. وقلنا في ذلك:

الكامل

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعري هل أتت آماله

ومن المسائل التي خاض فيها بعض الفلاسفة: عقيدة التناسخ التي ذكرها عند كلامه على أرواح الحيوانات بعد موتها ، وقوله عن القرابين أنها إتلاف أرواح عن تدبير أجسام حيوانية ليتغذى بها أجسام إنسانية فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقها فتدبِّرها إنسانية بعدما كانت تدبرّها إبلا أو بقرا أو غنما ثم قال: "... ومن هنا هبّت نفحة على القائلين بالتناسخ فلم يتحققوا معناها فزلوا وضلوا وأضلوا

ولأنهم نظروا إليها من حيث أفكارهم فأخطأوا الطريق فغلطوا فهم مخطئون غير كافرين إلا من أنكر البعث منهم الذي هو نشأة الآخرة فهو ملحق بالكفار (755:I). ويقرر الشيخ أن عقيدة التناسخ باطلة وهي انحراف عن أصل صحيح، وهو أن بواطن البشر تتشكل في صورة معنوية أو خيالية مناسبة لأخلاقها وأعمالها. فالأخلاق السيئة والأعمال الرديئة تتشكل في عالم المثال و البرزخ والرؤيا في صور حيوانية مناسبة لها، حسبما ورد في الأخبار الشرعية المتعلقة بالمسخ وعذاب القبر (II:ب283 منزل سورة القارعة/ب290 منزل سورة الشرح/ب 311 منزل سورة المزمل).

الشيخ مع الخلفاء الراشدين وآل البيت

البسيط

من طهرّ الله لم يلحق به دنس وهو المقدّس لا بل عينه القدس
كأهل بيت رسول الله سيّدنا وهو الإمام الكريم السيّد النّدس

(ديوان الشيخ 357)

يبيّن الشيخ موقفه في خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة فيقول عند كلامه على حضرة اسم الله تعالى الآخر (IV:298–299) [يُدعى صاحبها الآخر وحدّه من الثاني الذي يلي الأوّل إلى ما تحته فهو المسمى بالآخر لأنّ له حكم التأخّر عن الأولية بلا شك وإن استحق الأولية هذا المتأخر فما تأخر عن الأوّل إلا لأمر أيسره وأبينه الزمان لأنّ وجود الأهلية فيه من جميع الوجوه. فيعلم أنّ الحكم في تأخيره وتقدّم غيره للزمان لأنّ وجود الأهلية فيه من جميع الوجوه. فيعلم أنّ الحكم في تأخيره وتقدّم غيره للزمان كخلافة أبي بكر وعمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عن جميعهم. فما منهم واحد إلا وهو مترشح للتقدم والخلافة مؤهل لها فلم يبق حكم لتقدم بعضهم على بعض فيها عند الله، لفضل يعلم، تطلبه الخلافة، فما كان إلا

الزمان. فلما كان في علم الله أنّ أبا بكر يموت قبل عمر وعمر يموت قبل عثمان وعثمان يموت قبل علي رضي الله عن جميعهم، والكل له حرمة عند الله، فجعل خلافة الجماعة كما وقع فقدّم من علم أن أجله يسبق أجل غيره من هؤلاء الأربعة، فما قدّم من قدّم منهم لكونه أكثر أهلية من المتأخر منهم في نظري والله أعلم. فالظاهر أنه من كون الآجال فإنّه لو بويع خليفتان قتل الآخر منهما للنص الوارد. فلو بايع الناس أحد الثلاثة دون أبي بكر ولا بد في علم الله أن يكون أبو بكر خليفة وخليفتان فلا يكون. فإن خلع أحد الثلاثة وولي أبو بكر كان عدم احترام في حق المخلوع ونُسب الساعي في خلعه إلى أنه خلع من يستحقها ونسب إلى الهوى و الظلم و التعدي في حقه، ولو لم يخلع لمات أبو بكر في أيامه دون أن يكون خليفة ولا بد له من الخلافة أن يليها في علم الله فلا بد من تقدمه لتقدم أجله قبل صاحبه وكذلك عمر بن الخطاب وعثمان وعلي و الحسن، فما تقدّم من تقدم لكونه أحق بها من هؤلاء الباقين ولا تأخر من تأخر منهم لعدم الأهلية، وما علم الناس ذلك إلا بعد أن بيّن الله ذلك بآجالهم وموتهم واحدا بعد آخر في خلافته أن التقدم إنما وقع بالآجال عندنا وفي نظرنا الظاهر أو بأمر آخر في علم الله لم نقف عليه وحفظ الله المرتبة عليهم رضي الله عن جميعهم]. وأوضح الشيخ نفس هذا المعنى في باب منزل سورة التكوير (6:III) وفيه يقول عن الخلفاء الراشدين: [وفضل بعضهم على بعض مصروف إلى الله... فالله يعصمنا من الفضول].

ويقول الشيخ إنّ الخلفاء الراشدين الأربعة والحسن (ت:50هـ) ومعاوية بن يزيد (ت:64هـ) وعمر بن عبد العزيز (ت: 101هـ) والمتوكل العباسي (ت:247) حازوا الخلافة الظاهرة و الخلافة الباطنية أي القطبانية أعلى درجات الولاية (6:II).

وأما أقوال الشيخ في فضل الصحابة فكثيرة:

يقول عن أبي بكر إنه خُلق من طينة واحدة هو ورسوله الله ρ، فسبق محمد وصلى أبو بكر أي تلاه (I: 84)، فليس بينهما رجل (25:II). وفاز أبو بكر بسرّ مقام

القربة الذي وقر في صدره بعد فوزه بالصديقية (16:III)، وشهد له رسول الله ρ بفضله على الجماعة، وكان له استيفاء مقام العبودية على الكمال (372:III).
ويذكر الشيخ في كتاب (المبشرات) أنّه حين كان بمكّة سنة 599 رأى في المنام أبا بكر الصديق فسأله عن حد المسجد الحرام فأجابه أبو بكر: كل موضع في الحرم توقع الصلاة فيه فهو مسجد وهو في الحرم، فهو من المسجد الحرام والصلاة فيه بمائة ألف، هكذا هو عندنا.

ويقول عن عمر بن الخطاب τ في (روح القدس):

[هذا عمر بن الخطاب τ الصلب القوي الذي ليس للشيطان عليه سبيل، حسب الشيطان أن ينجو منه، نزل القرآن موافقا لحكمه، وأداه أن يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينان ، ما يعرفه من إيمانه وعلمه، وقد جمع بين العلم والعيان، وتبرز في مشاهدة الأعيان، ليس أحد من وقته إلى يوم القيامة يبرز أمامه، ولا يكون في حال من الأحوال إمامه...] وقد ذكر الشيخ اجتماعات برزخية له مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وحاورهم في مسائل التوحيد في كتابه التجليات. ويذكر واقعة له مع عثمان τ فيقول (111:I): [أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان رضي الله عنه إلي آمرا بالكلام في المنام بعد ما وقعت شفاعتي على جماعتي، ونجا الكل من أسر الهلاك، وقرب المنبر الأسنى وصعدت عليه عن الإذن العالي المحمي الأسمى، بالاقتصار على لفظة الحمد لله خاصة، ونزل التأيد ورسول الله ρ عن يمين المنبر قاعد، فقال العبد] ثم ذكر بعض أسرار الحمد لله. وخلال كلامه على صلاة العيدين (518:I)، يبين الشيخ حكمة ما أحدثه عثمان τ من تقديم الخطبة على صلاة العيد وما أحدثه معاوية من أذان وإقامة لصلاة العيد ويصفه بأنه كاتب رسول اللهρ وصهره وخال المومنين.

ويقول الشيخ عن الصحابة: (484-366:IV/518:I): [أصحاب النبي ρ فازوا بالمقام العلي هنا وفي دار السلام، أعلى درجات القربة، التحقق في الإيمان

بالصحبة، لا يبلغ أحدنا مدّ أحدهم ولا نصيفه، ولا يصلح أن يكون وصيفه، نحن الإخوان فلنا الأمان، وهم الأصحاب فهم الأحباب (...) الظن بهم جميل رضي الله عن جميعهم، ولا سبيل إلى تجريحهم، وإن تكلم بعضهم في بعض فلهم ذلك، وليس لنا الخوض فيما شجر بينهم، فإنهم أهل علم واجتهاد وحديثو عهد بنبوة، وهم مأجورون في كل ما صدر منهم عن اجتهاد سواء أخطأوا أو أصابوا (...) وإذا جالستَ من تعرف أنه يقع في الصحابة من الروافض، فلا تتعرض ولا تعرض بذكر أحد من الصحابة – الذين تعلم أن جليسك يقع فيهم – بشيء من الثناء عليهم، فإنّ لجاجه يجعله يقع فيهم، فتكون أنت قد عرضتهم بذكرك إياهم للوقوع فيهم].

وأمّا الإمام علي كرّم الله وجهه، فيقول عنه خلال كلامه على أوّل مخلوق وهو الحقيقة المحمدية: [... حقيقة محمد ρ المسمّاة بالعقل فكان سيّد العالم بأسره، وأوّل ظاهر في الوجود. وأقرب الناس إليه علي بن أبي أطالب، وأسرار الأنبياء أجمعين] (I:119). ويقول عنه: إنه كان من الأفراد وهم الأولياء الذين لا يفوقهم غيرهم في العلم بالله تعالى. ويشير إلى مقامه السابق مرة أخرى فيقول عن القطب الحادي عشر من الأقطاب الاثنى عشر الذين عليهم مدار العالم ومدار الأمة – لكل قطب برج مناسب وسورة ومدد معين – [والحادي عشر له سورة **طه**. وهذا القطب هو نائب الحق تعالى، كما كان علي بن أبي طالب نائب محمد ρ في تلاوة سورة **براءة** على أهل مكة، وقد كان بعث بها أبا بكر ثم رجع عن ذلك فقال: لا يبلغ عني القرآن إلا رجل من أهل بيتي. فدعا بعلي فأمره فلحق أبا بكر. فلما وصل إلى مكة، حجّ أبو بكر بالنّاس وبلغ عليّ على الناس سورة **براءة**، وتلاها عليهم نيابة عن رسول الله ρ ، وهذا ممّا يدلك على صحة خلافة أبي بكر الصدّيق ومنزلة علي رضي الله عنهما] (IV: 78). وربّما كان لهؤلاء الأقطاب الاثني عشر صلة بالاثني عشر رجلا مفاتيح كنوز فاتحة الكتاب الذين يُنْشِئُهم الله تعالى من وتر رسول الله ρ ، والذين وصفهم الشيخ في الباب 379 المخصوص بسورة المائدة

(494:III). ويذكر الشيخ السبطين الحسن والحسين رضي الله عنهم، فيقول في الباب 270 في معرفة منزل القطب والإمامين: [إنّ ممّن تحقق بهذا المنزل من الأنبياء صلوات الله عليهم أربعة: محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام. ومن الأولياء اثنان وهما الحسن والحسين سبطا رسول الله ρ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شرب معلوم على قدر مرتبته].

وأمّا الإمام علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم، فيعده الشيخ من بين الأفراد – وكذلك عمر بن الخطاب وابن عباس وأحمد بن حنبل – ويستشهد بالبيتين المنسوبين إليه فيقول (32:I):

[... ولو لم يكن لقول الرضى من حفدة علي بن أبي طالب τ معنى إذ قال: (فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما (200:I):

البسيط

يارب جوهر علم ولو أبوح به لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا
ولاستحلّ رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

ويذكر الإمام جعفر الصادق τ في كتاب (الميم و الواو والنون) فيقول عنه [... فإنّه أجلّ من أن يجري عليه لسان ذنب، فإنّي وإن كنت من بعض حسناته...].

وصحّ عند الشيخ الأحاديث المتعلقة بظهور الإمام المهدي من آل البيت في آخر الزمان ونزول المسيح υ في وقته. ويقول عنه: إنّ له مقام القربة – أي أعلى مقامات الولاية - اختصاصا إلهيا من غير تعمل - (41:II)، وإنّه يخرج الكنز المودع في الكعبة (I: 667). وفي الباب 463 الذي خصصه لمعرفة الاثني عشر قطبا الذين عليهم مدار العالم كأنّه –والله أعلم– يشير إليه بدون أن يصرّح باسمه وأنّه واحد منهم، فيقول عنه (IV: 78) إنّ سورته **يس**، وهو على قدم مع نوح υ . ثم قال عنه:[وهو أكمل الأقطاب حكما، جمع الله له بين الصورتين الظاهرة والباطنة،

فكان خليفة في الظاهر بالسيف. وليس في جماعة هؤلاء الأقطاب من أوتِيَ جوامع ما تقتضيه القطبية غير هذا، كما أوتي آدم υ جميع الأسماء وكما أوتي محمد ρ جوامع الكلم. ولو كان ثم قطب على قدم محمد ρ لكان هذا القطب. إلا أنّه ما ثم أحد على قدم محمد ρ إلا بعض الأفراد الأكابر، ولا يعرف لهم عدد]. قلت: قد يجمع الرجل بين القطبية والفردية. فمن حيث هو قطب يكون على قلب أحد الأنبياء، ومن حيث هو فرد يكون على قدم محمد ρ والله أعلم.

وقد جعل الشيخ منزل سورة **الكهف** أي الباب 366(III: 327-340) تحت عنوان: [في معرفة منزل وزراء المهدي الظاهر آخر الزمان الذي بشر به رسول الله ρ وهو من أهل البيت] فيقول عنه ما خلاصته:

[إنّ لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا. يواطئ اسمه اسم رسول الله ρ. يبايع بين الركن والمقام وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف، أسعد الناس به أهل الكوفة. يقسّم المال بالسوية ويعدل في الرعية، يمشي النّصر بين يديه يفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفا من المسلمين. يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا، يبيد الظلم وأهله، ينفخ الروح في الإسلام. يضع الجزية، يظهر الدّين ما هو الدين عليه في نفسه. له رجال إلهيون يقيمون دعوته، هم الوزراء خبأهم له في مكنون غيبه أطلعهم كشفا وشهودا على الحقائق، وهم على أقدام رجال من الصحابة وهم من الأعاجم، لكن لا يتكلمون إلا بالعربية. لهم حافظ ليس من جنسهم ما عصى الله قط، هو أخص الوزراء وأفضل الأمناء. يقتلون كلهم إلا واحدًا منهم في مرج عكا في المائدة الإلهية التي جعلها الله مائدة السباع والطيور والهوام. وعددهم تسعة – حسبما أخبرني به واحد من أهل الله وخاصته يقال له أحمد بن عقاب، اختصه الله بالأهلية صغيرا – على عدد أعوام مدة بقاء المهدي فلا بدّ أن تكون تسع سنين، وجميع ما يحتاج إليه ممّا يكون قيام وزرائه به تسعة أمور لا عاشر لها ولا تنقص عن ذلك : وهي نفوذ البصر، ومعرفة

الخطاب الإلهي عند الإلقاء، وعلم الترجمة عن الله، وتعيين المراتب لولاة الأمر ،والرحمة والغضب وما يحتاج إليه الملك من الأرزاق المحسوسة والمعقولة ، وعلم تداخل الأمور بعضها على بعض والمبالغة والاستقصاء في قضاء حوائج الناس، والوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون في مدتّه الخاصة]. وفصّل الشيخ هذه التسع، ثم قال إنّها لم تصح لخليفة بمجموعها إلى يوم القيامة إلا للمهدي، كما أنّه ما نصّ رسول الله ρ على إمام يرثه ويقفوا أثره لا يُخطي إلا المهدي، خاصة، فقد شهد بعصمته في أحكامه (III: 338). وذكر نزول المسيح υ وقتله الدجال، وسَعْي الدجال لقتل الخضرυ إلى غير ذلك من أمور أشراط الساعة. ويقول إنّ في زمن المهدي يقتل السفياني بغوطة دمشق ويخسف جيشه بالبيداء بين مكة و المدينة بعد أن يستبيح هذا الجيش مدينة الرسول ρ ثلاثة أيام ثم يقول:

الطويل

[ألا إن ختم الأولياء شهيد وعين إمام العالمين فقيد
هو السيّد المهدي من آل أحمد هو الصارم الهندي حين يبيد
هو الشمس يجلو كل غم وظلمة هو الوابل الوسمي حين يجود

وقد جاءكم زمانه وأظلَّكُم أوانه وظهر في القرن الرابع اللاحق بالقرون الثلاثة الماضية...]

وفي ديوانه الكبير، يشير الشيخ إلى الكنز المودع في الكعبة و أنّ يخرجه المهدي عند ظهوره. وقد جيء إلى الشيخ بشيء منه في واقعه روحانية خلال إقامته بتونس عام 598 فقال:

ولولا تعدي الحدود التي رأيت من الفئة الباغية
لأظهرت كنز أبي طالب إليكم أوصافه الوافية

ولكن أبى ربنا ذاك فأودعه الكعبة الزاكيه

كأنه يشير إلى كنز عرش الخلافة الحقيقة الباطنة الخاصة بأئمة آل البيت الأطهار، بيت الذكر والولاية.

وفي إحدى قصائده، يذكر الشيخ اجتماع المهدي بعيسى عليهما السلام في آخر الزمان فيقول ملغزا (دي: 65–66):

وفي رمضان صحة يهتدي بها قلوب رجال عاينوا الأمر في العما
إذا لاح في كنز الفرات مغرب له الطائر الميمون والنصر في العدى
ويقدم ذو الشامات عسكره الذي كمنطقة الجوزاء لكن في الاستوا
يسمى بيحيى الأزد أزدشنوءة فيحيي به الدين الحنيفي والهدى
وفي عام جيم الفاء تنزل روحه من الماية الأخرى دمشق فينتضى
هنالك سيف للشريعة صارم بدعوة مهدي وسنة مصطفى
فيقتل دجالا ويدحض باطلا ويهلك أعداء وينجو من اهتدى

والشيخ يؤكد على وجوب حبّ آل البيت (I: 195–196/IV:193...)، ويرى أنّهم مطهرون بالمغفرة من رجس الذنوب لا بعمل عملوه بل سابق عناية إلهية. ويرى أن الأوْلى بالمسلم أن لا يطالب بحقه منهم إن طرأ عليه من أهل البيت ممّا لا يلائمه، لأنّ العفو عن جميع النّاس هو الأوْلى، فكيف بأهل البيت، فإنّه ρ ما طلب منّا في أمر الله إلا المودة في القربى، أي ثبوت المحبة في كل حال، ثم يقول: [فلو كشف الله لك يا وليّ عن منازلهم عند الله في الآخرة، لوددت أن تكون مولى من مواليهم، فهم المطهرون بالنص. وسلمان منهم بلا شك، فأرجو أن يكون عقب علي وسلمان تلحقهم هذه العناية كما لحقت أولاد الحسن والحسين وعقبهم موالي أهل البيت، فإنّ رحمة الله واسعة. وإذا كانت منزلة مخلوق عند الله بهذه المثابة أن يشرف

المضاف إليهم بشرفهم، فكيف بمن أضيف إلى المجيد سبحانه وتعالى ؟ وهم عباده السعداء الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة، وهم المحفوظون القائمون بحدود سيّدهم، الواقفون عند مراسمه، فشرفهم أعلى وأتمّ. وهؤلاء هم أقطاب هذا المقام، ومنهم ورث سلمان شرف مقام أهل البيت، فكان رضي الله عنه من أعلم الناس بما لله على عباده من الحقوق، وما لأنفسهم و الخلق عليهم من الحقوق وأقواهم على أدائها].

ويقول أيضا : [ولقد أخبرني الثقة عند ي بمكة قال: كنت أكره ما تفعله الأشراف بمكة في الناس. فرأيت في النّوم فاطمة بنت رسول الله ρ وهي معرضة عني، فسلمتُ عليها وسألتها عن إعراضها. فقالت: إنك تقع في الشرفاء. فقلت لها: يا ستي، ألا ترين إلى ما يفعلون في الناس ؟ فقالت: أليس هم بنيَّ ؟ فقلت لها: من الآن تبت. فأقبلت عليّ واستيقظت .

الوافر

فلا تعدل بأهل البيت خلقا فأهل البيت هم أهل السياده
فبغضهم من الناس خسر حقيقي وحبّهم عباده]

فإن قيل: ما هو موقف الشيخ من الروافض وغلاة الشيعة الذين يسيئون الأدب مع الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم، فالجواب يظهر من نصوصه التالية:

في الباب 73(8:II) وكتابه (محاضرة الأبرار) ذكر أنّه اجتمع بدنيسير (مدينة قرب ماردين في الجزيرة من ديار بكر بين العراق والأناضول)مع أحد الأولياء الرجبيين، فأخبره أنّه يشهد الروافض الذين يعتقدون السوء في أبي بكر وعمر، ويتغالون في علي رضي الله عنهم على شكل خنازير أو كلاب. وفي الباب 366 المتعلق بسورة الفتح (136:III) تكلم على غلط الإمامية الذين يشترطون العصمة للإمام الظاهر.

وفي الباب 55 يتكلم عن الخواطر الشيطانية وأهلها فيقول (282:III): [...وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة ولاسيما من الإمامية منهم. فدخلت عليهم شياطين الجن أولا بحبّ أهل البيت و استفراغ الحبّ فيهم، ورأوا أنّ ذلك من أسنى القربات إلى الله. وكذلك هو لو وقفوا و لا يزيدون عليه. إلا أنّهم تعدوّا من حب أهل البيت إلى طريقين: منهم من تعدى إلى بغض الصحابة وسبّهم حيث لم يقدّموهم، وتخيلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية. فكان منهم ما قد عرف واستفاض. وزادت طائفة إلى سبّ الصحابة و القدح في رسول الله ρ وفي جبريل υ وفي الله جل جلاله، حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة للناس (...) وهذا كله واقع من أصل صحيح، وهو حب أهل البيت أنتج في نظرهم فاسدا، فضلوا وأضلوا، فانظر ما أدّى إليه الغلوّ في الدّين، أخرجهم عن الحدّ، فانعكس أمرهم إلى الضدّ].

ويبّين الشيخ غاية معراج صالحي الشيعة فيقول ما خلاصته (433:III): [خلق الله في جوف الكرسي جسما شفافا مستديرا قسّمه اثني عشر قسما، هي البروج التي أقسم بها فقال تعالى: [والسماء ذا□ البروج]، ,أسكن كل برج منها ملكا، وهم لأهل الجنة كالعناصر لأهل الدنيا، فعنهم يتكون في الجنات ما يتكون. ومن هنا قالت الإمامية بالاثني عشر إماما، فإنّ هؤلاء الملائكة أئمة العالم الذي تحت إحاطتهم. ومن كون هؤلاء الاثني عشر لا يتغيرون عن منازلهم، لذلك قالت الإمامية بعصمة الأئمة، لكنهم لا يشعرون أنّ الإمداد يأتي إليهم من هذا المكان. وإذا سعدوا سرت أرواحهم في هذه المعارج بعد الفصل والقضاء النافذ بهم إلى هذا الفلك فلا تتعدّاه فإنّها لم تتعقد سواه].

الشيخ والحكّام

عدة ملوك من المغرب والمشرق اتصلوا بالشيخ للاستفادة من مشورته ونصائحه أو الدخول تحت تربيته. فكان يرشدهم للعمل بالشريعة والرحمة والعدل في الرعية حسب القاعدة القرآنية: [إن تنصروا الله ينصركم]محمد:7. فالشيخ يقول: إن الأمة المحمدية تحت حكم الاسمين الناصر والخاذل. فهي تحت الناصر بحسب نظرها لنبيها محمد ρ ، أي العمل بشريعته، وبقدر إعراضها عنه تدخل تحت حكم الخاذل (204:III).

أمّا في المغرب، ففي سيرة الشيخ، نجد على الأقل خمسة أمراء اتصلوا بالشيخ وكانوا مُجلين له. أوّلهم الخليفة الموحدي المشهور أبو يوسف يعقوب المنصور (ت:594) الذي عرض عليه الالتحاق بديوانه فرفض الشيخ ذلك.يقول الشيخ: [طلبني بعض السلاطين للولاية وعزم عليّ فيها، فامتنعت عليه، إلى أن قال: ما يمنعك أن ترغب في عز الولاية؟ قلت: ذل العزل، قال: لا أعزلك وعليّ العهد بذلك، قلت: الأحوال بروق تلمع ولا تقيم، وهذه الحالة منك غير دائمة ولا سيما إذا جاء سلطان نقضها . فإياك وصحبة الملوك، فإنك إذا أكثرت مخالطة الملك ملّك، وإن تركته أذلك، فخذ وأعط إذا ابتليت بصحبتهم](V: 506/ المسامرات ج 2 ص11).]. الثاني أمير فاس الذي أرشده الشيخ لإقامة حلق تلاوة القرآن يتلونه آناء الليل والنهار. الثالث أمير جنوب المغرب صديق الشيخ أبي يحيى بن وجاتن هو وكاتبه. الرابع هو السلطان أبو العلا في شمال المغرب، و للشيخ قصة معه تظهر ورع الشيخ واحترازه البالغ من خلطة الحكام وأكل طعامهم، ففي ترجمته لأحد الصالحين من أصحابه وهو عبد الله المالقي يقول (ر:120-121):

[اتفق لي يوما بمدينة سبتة، وهو بها مع ابن طريف، أن وجّه إليّ السلطان أبو العلا مائدتين، ولم أكن حاضرا، فأخذهما الفقراء الذين كانوا وصلوا إلى الموضع من أجلي وأكلوا وانقبض خواص أصحابي عنها، فلما كان في الليلة الثانية وجّه إلينا كذلك مائدتين فلم أقبل ولم أرد. وكانوا قد أتوا إلينا فقراء بالقصد لما سمعوا أنّ السلطان

يبعث إلينا، فأقمت صلاة العشاء فصليت، فقال بعض الفقراء ممّن يدّعي التشيخ: لا صلاة بحضرة طعام، فسكت عنه فغضب حيث لم أجبه، فقلت: أنا لم أقبل على الطعام ولا أرى أن آكله فإنّه عندي حرام، ولا يمكن لي أن آمركم بأكله فإنّي أحبّ لكم ما أحب لنفسي، ثم بينْت وجه الحرام فيه وأدخلت معي خواص أصحابي (...) فبلغ ذلك صاحبنا القلفاط (أي عبد الله المالقي)، فاجتمع بي وقد خاف عليّ وعلى أصحابي مما يعرف من البلاء وعاتبني على ذلك (...) قلت له: بئس العبد لله من يستند إلى عدو الله، لا راعى الله العالم إذا لم يراعوا حق الله، حق الله أحق، ونفضت يدي وقمت...].

وكان الشيخ شديد الحرص على قضاء حوائج المسلمين عند الملوك. يظهر هذا في عدّة وقائع منها حكايته مع أمير تونس (أبو زيد بن أبي حفص محمد بن عبد المؤمن وكان من الموحّدين)التي يقول عنها (489:IV):

[وإياك أن تقبل هدية من شفعت فيه شفاعة، فإن ذلك من الربا الذي نهى الله عنه بنص رسول الله ρ في ذلك. ولقد جرى لنا مثل هذا في تونس من بلاد أفريقية. دعاني كبير من كبرائها يقال له ابن معتب إلى بيته لكرامة أعدها لي. فأجبت الداعي. فعندما دخلت بيته، وقدّم الطعام، طلب مني شفاعة عند صاحب البلد، وكنت مقبول القول عنده متحكما. فأنعمت له في ذلك وقمت، وما أكلت له طعاما ولا قبلت منه ما قدمه لنا من الهدايا، وقضيت حاجته ورجع إليه ملكه (...) وإياك أن تشفع عند حاكم في حدّ من حدود الله (...) ثبت في الحديث عن رسول الله ρ :" من حالت شفاعته دون حدود الله فقد ضادّ الله"].

وفي المشرق اتصل الملوك الأيوبيون والسلاجقة بالشيخ وكانوا يعظمونه غاية ويمتثلون لجميع أوامره. يظهر ذلك في نصوصه التالية: كما يظهر منها كيف يرى الشيخ أن يتعامل المسلم مع أولي الأمر فيقول (476:IV):

[وإن كنتَ وليا فاقض بالحق بين الناس و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. وسبيل الله هو ما شرعه لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله (...) يقول رسول الله ρ : "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا". ولقد أشهدني الله في هذا مشهدا عظيما في أشبيلية سنة 586].

ويقول (484:IV): [احذر أن ترجّح نظرك على علم الله في خلقه بمن قدّمه من الولاة في النظر في أمور المسلمين وإن جاروا، فإنّ لله فيهم سراً لا تعرفه، وإن ما يدفع الله بهم من الشرور ويحصل بهم من المصالح أكثر من جورهم إن جاروا، وهذا كثيرا ما يقع فيه الناس و يرجحون نظرهم على ما فعل الله في خلقه،ويأتيهم الشيطان فيعلق تسفيههم بالذين ولوه، ويحول بينهم و بين الصحيح من كون الله ولاهم، ويُنسيهم أمر النبي ρ أن لا تخرج يدا من طاعة، وأن لا تنازع الأمر أهله، فيدخل عليهم الشيطان من التأويل في هذه الأحاديث وأمثالها بما يخرجهم من ذلك من الإسلام وينسيهم قول رسول الله ρ :" فإن جاروا فلكم وعليهم وإن عدلوا فلكم ولهم"، وأنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولو لم يكن في هذه المسألة إلا اعتراض الملائكة على الله تعالى في خلافة آدم υ لكان كافيا، وقد جعل رسول الله ρ من تمام الزكاة أن ينقلب المصدق وهو العامل الذي على الزكاة راضيا عنك وإن ظلمك. وهذا باب قد أغفله الناس، وقد أغلقوه على أنفسهم، فيما يرى أحد إلا وله في ذلك نصيب، ولا يعلم ما فيه عند الله. وقد رأينا على ذلك براهين من الله كثيرة. ومتى ذممت ولا بد فذِم الصفة بذّم الله ولا تذم الموصوف بها إن نصحت نفسك. ومتى حمدت فاحمد الصفة و الموصوف معا، فإنّ الله يحمدك على ذلك].

ويقول الشيخ ناصحا (490:IV):

[وإياك وصحبة الملوك إلا أن تكون مسموع الكلمة عندهم، فتنفع مسلما أو تدفع عن مظلوم أو تردّ السلطان عن فعل ما يؤدّي إلى الشقاء عند الله (...) وعليك بطاعة أولي الأمر من الناس ممن ولاه السلطان أمرك، فإنّ طاعة أولي الأمر واجبة

بالنص في كتاب الله، ومالهم أمر يجب علينا امتثال أمرهم فيه إلا المباح لا الأمر بالمعاصي. فإن غصبوك فاقْبَلْ غصبهم في بعض أحوالك، وإن أمروك بالغصْب فلا تغصَب، ولا تفارق الجماعة، ولا تخرج يدا عن طاعة فتموت ميتة جاهلية بنص رسول ρ ، ولا تخرج على الأمة، ولا تنازع الأمر أهله] ويقول أيضا (499:IV):

[وإذا رأيت من يطلب ولاية عمل، فلا تسع له في ذلك، فإنّ الولاية مندمة وحسرة في الآخرة، وقد أمرك الله بالنصيحة. وإذا رأيت قوما ولوا أمرهم امرأة فلا تدخل معهم في ذلك]. ويقول (402:III):

[... والعلم وسوء الخلق لا يجتمعان في موقف. فكل عالم فهو واسع المغرفة والرحمة. وسوء الخلق إنّما هو من الضيق و الحرج وذلك لجهله. فلا يعلم قدر العلم إلا العلماء بالله فله السعة التي لا نهاية لها مددا ومدة. ولقد شفعت عند ملك في حق شخص أذنب له ذنبا اقتضى ذلك الذنب في نفس ما يطلبه الملك أن يقتل صاحبه. فإنّ الملك يعفو عن كل شيء إلا عن ثلاثة أشياء، فإنّه لا يعفو عنها إذ لا عفو فيها. وما يتفاضل الملوك فيها إلا في صورة العقوبة. والثلاثة الأشياء التي لا عفو فيها عند التعرض للحرم، وإفشاء سره و القدح في الملك. وكان هذا الشخص قد جاء لهذا الملك بما يقدح في الملك فعزم على قتله. فلما بلغتني قصته، تعرّضت عند الملك للشفاعة فيه أن لا يقتله. فتغير وجه الملك وقال: هو ذنب لا يغفر، فلا بدّ من قتله! فتبسّمت وقلت له: أيها الملك، والله لو علمت أن في ملكك ذنبا يقاوم عفوك ويغالبه ما شفعت عندك و لا اعتقدت فيك أنك ملك. والله إنِّي من عامة المسلمين، والله ما أرى في العالم كله ذنبا يقاوم عفوي. فتحير من قولي ووقّع لي بالعفو عن ذلك الشخص. فقلت له: فاجعل عقوبته إنزاله عن الرتبة التي أوجبت له عندك، أن تطلعه على أسرارك حتى ركب مركبا يقدح في الملك، فإني كما كنت له في دفع القتل عنه، أنا أيضا للملك معين فيما يدفع القدح عن ملكه. ففرح الملك بذلك وسرّ وقال لي: جزاك الله خيرا عني. ثم صعد

من عندي إلى قلعته وأخرج ذلك المحبوس وبعث به إلي حتى رايته، فوصيته بما ينبغي، وتعجبت من عقل الملك وتأدبه وشكرته على صنيعه].

ثم في موقع آخر زاد الشيخ تفصيلا لهذه الواقعة فقال (472:III/539:IV):[كانت لي كلمة مسموعة عند بعض الملوك وهو الملك الظاهر صاحب مدينة حلب رحمه الله غازي ابن الملك الناصر لدين الله صلاح الدّين يوسف بن أيوب، فرفعت إليه من حوائج الناس في المجلس واحد مائة وثمانية عشر حاجة فقضاها كلها]. ثم ذكر القصة السابقة عن عفوه عن الرجل الذي قدح في ملكه وزاد فيها قوله للملك: [وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك في غير حدّ من حدود الله، إنّك لدني الهمة. فخجل وسرّحه (...)، وبعد ذلك المجلس، ما رفعت إليه حاجة إلا سارع في قضائها من غير توقف كانت ما كانت].

ومن ملوك بني أيوب الآخرين الذين صحبوا الشيخ: العادل الذي يذكره الشيخ في حضرة الاسم الباسط من الباب 559(225:IV) فيقول: [ومن هذه الحضرة كان رسول الله ρ يمازح العجوز والصغير، يباسطهم بذلك ويفرحهم. ألا ترى إلى أكابر الملوك كيف يضحكون أولادهم بما ينزلون إليهم في حركاتهم حتى يضحك الصغير ؟ ولم أر من الملوك من تحقق بهذا المقام في دسته بحضور أمرائه و الرسل عنده مثل الملك العادل أبي بكر بن أيوب مع صغار أولاده وأنا حاضر عنده بميافرقين بحضور هذه الجماعة. فلقد رأيت ملوكا كثيرا ولم أر منهم مثلما رأيته من الملك العادل في هذا الباب. وكنت أرى ذلك من جملة فضائله، ويعظم به في عيني، وشكرته على ذلك. ورأيت من رفقة بالحريم وتفقد أحوالهن وسؤاله إيّاهنّ ما لم أر لغيره من الملوك، وأرجو أنّ الله ينفعه بذلك].

ويبدو أنّه كان بين الشيخ و الملك العادل صلة وطيدة، ففي ديوانه، نجد ستة أبيات نظمها لما مات الملك العزيز بن العادل – وكان أميرا على بانياس – يوم الاثنين عاشر رمضان سنة 630 بظاهر دمشق، ومنها:

الكامل

طلبتْ ذلولُ عزيزها لتزيله عن ظهرها كرما به فأجابا
عن إذن خالقها دعته لنفسها فلذاك لبّى طائعا وأنابا

...

فيفوز بالخير الأعمّ ويعتلي نحو الكثيب فيبصر الأحبابا

وفي أوّل محرّم 632، كتب إجازة عددّ فيها أزيد من 270 من كتبه لابن آخر للعادل، وهو ملك دمشق الأشرف مظفّر الدّين موسى (ت:635). وخلال صراع على الحكم بين أيوب المعظّم ابن العادل في دمشق، وأخيه الكامل بمصر، وأخيه الآخر الأشرف في الجزيرة، ثم بعد ذلك ناصر داوود بن معظّم مع عميّه المذكورين، كان الشيخ ينظر إلى تلك الحوادث بعين الأسى. وبلغ الأسى أوجه لما سلّم الملك الكامل بيت المقدس لملك المسيحيين فريدريك الثاني في 22 ربيع الأول 626 (18 فيفري 1229)، وذلك للقضاء على حكم ناصر داوود. فأصدر حينئذ الشيخ فتوى بتحجير إقامة المسلمين ببيت المقدس ما دام تحت حكم الكفار. وفي هذا الأمر يقول (460:IV): [وعليك بالهجرة ولا تقم بين أظهر الكفار، فإنّ في ذلك إهانة دين الإسلام وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله، فإنّ الله ما أمر بالقتال إلا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى (...) وقد ثبت عن النبي ρ قال:" أنا بريء من مسلم يقيم بين أظهر المشركين" فما اعتبر له كلمة الإسلام. وقال الله تعالى فيمن مات وهو بين أظهر المشركين: [**إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساء مصيرا**]. ولهذا حجرنا في هذا الزمان على الناس زيارة بيت المقدس والإقامة فيه لكونه بيد الكفار. فالولاية لهم والتحكم في المسلمين. و المسلمون معهم على أسوأ حال ، نعوذ بالله من تحكم الأهواء. فالزائرون اليوم بيت المقدس والمقيمون فيه من

المسلمين هم من الذين قال الله فيهم: [ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا]].

وقد بيّن الشيخ سياسته في صحبة الملوك فقال (472:III): [..." قال تعالى لنبيه ρ ممتنا عليه: [فبما رحمة من الله لنت لهم]. و اللين خفض الجناح والمداراة والسياسة (...) ومن هذا المقام لما ذقته واتحدْثُ به اتفق لي أني صحبتُ الملوك والسلاطين. وما قضيت لأحد من خلق الله عند واحد منهم حاجة إلا من هذا المقام. وما ردّني أحد الملوك في حاجة التمستها منه لأحد من خلق الله. وذلك أنّي كنت إذا أردت أن أقضي عنده حاجة أحد، أبسط له بساطا أستدرجه فيه حتى يكون الملك هو الذي يسأل، ويطلب قضاء تلك الحاجة مسارعا على الفور بطيب نفس وحرص، لما يرى له فيها من المنفعة. فكنت أقضي للسلطان حاجة بأن أقبل منه قضاء حاجة ذلك الإنسان (...) وإذا حصل للإنسان هذه القوة، انتفع به الناس عند الملوك]. وكمثال لتربية الشيخ الملوك بالآداب الشرعية، ما وقع له مع الخلفية العباسي الناصر في بغداد – وهو الذي تولى الخلافة بين سنتي 580 و622 – فيقول: [أبدأ بالسلام على من هو أكبر منك، وأبدأ بالسلام على الماشي إن كنت راكبا، وعلى القاعد إن كنت ماشيا. ولقد جرى لي مع بعض الخلفاء رضي الله عنه ذات يوم، كنا نمشي و معنا جماعة، وإذا بالخليفة مقبل، فتنحينا عن الطريق وقلت لأصحابي: من بدأه بالسلام أرذلت به عنده. فلما وصل وحاذانا بفرسه، انتظر أن نسلم عليه كما جرت عادة الناس في السلام على الخلفاء و الملوك، فلم نفعل، فنظر إلينا وقال: سلام عليكم ورحمة الله و بركاته، بصوت جهير. فقلنا بأجمعنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: جزاكم الله عن الدّين خيرا، وشكرنا على فعلنا وانصرف، فتعجب الحاضرون].

ومثل هذه الحكاية ما وقع للفقيه ابن زرب الذي ذكره الشيخ في وصيته التالية (499:IV): [... وإن كنت في جماعة يقرأون القرآن فاقرأ معهم ما اجتمعتم عليه،

فإن اختلفتم فقم عنهم، وحافظ على قراءة الزهراوين البقرة وآل عمران. وإذا شرعت في قراءة سورة من القرآن، فلا تتكلم حتى تختمها، فإن ذلك دأب العلماء الصالحين.ولقد حدثني غير واحد بقرطبة عن الفقيه ابن زرب صاحب الخصال أنّه كان يقرأ في المصحف سورة من القرآن، فمرّ عليه أمير المؤمنين من بني أمية. فقيل للخليفة عنه، فمسك فرسه وسلم عليه وسأله، فلم يكلمه الشيخ حتى فرغ من السورة ثم كلمه، فقال له الخليفة في ذلك فقال: ما كنت لأترك الكلام مع سيّدك وأكلمك وأنت عبده، هذا ليس من الأدب. ثم ضرب له مثلا به وبعبيده فقال: أرأيت لو كنت في حديث معك وكلمني بعض عبيدك، أيحسن مني أن أترك الكلام وأقطعه وأكلم عبدك ؟ قال: لا. قال: فإنك عبد الله، فبكى الخليفة. ولقيت جماعة على ذلك من شيوخنا منهم أبو الحجاج الشبربلي بإشبيلية].

ويبدو أنّ أطول الملوك صحبة للشيخ وأكثرهم إجلالا له ودخولا تحت تربيته الملك السلجوقي كيكاوس. فقد مكث الشيخ عنده بالأناضول عدّة سنين، وعندما يفترقان، تبقى المراسلات بينهما مستمرة. فمنها هذه الرسالة التي كتبها الشيخ له وفيها يقول:(IV:547-548): [وصية ونصيحة كتبت بها إلى السلطان الغالب بأمر الله كيكاوس صاحب بلاد الروم يونان، رحمه الله جواب كتاب كتب به إلينا سنة تسع وستمائة: بسم الله الرحمن الرحيم، وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله العزي أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعي له محمد بن العربي، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية والنصيحة السياسية الإلهية، وقد قلدك الله هذا الأمر، وأقامك نائبا في بلاده، ومتحكما بما توفّق إليه في عباده، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم، وأوضح لك محجة بيضاء تمشي بهم عليها، وتدعوهم إليها. على هذا الشرط ولاك، وعليه بايعناك، فإن عدلت فلك ولهم، وإن جرت فلهم وعليك. فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ولا يكون شكرك لما أنعم

الله به عليك من استواء مُلكك بكفران النعم وإظهار المعاصي وتسليط النواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة، فإنّ الله أقوى منك، فيتحكمون فيهم بالجهالة والأغراض، وأنت المسؤول عن ذلك (...) وما بينك وبين أن تقف على أعمالك إلا بلوغ الأجل المسمىّ، وتصل إلى الدار التي سافر إليها آباؤك وأجدادك. ولا تكن من النادمين، فإنّ الندم في ذلك الوقت غير نافع . يا هذا ، ومن أشد ما يمر على الإسلام و المسلمين وهم قليل ما هم، رفع النواقيس والتظاهر بالكفر وإعلاء كلمة الشرك ببلادك، ورفع الشروط التي اشترطها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الذمة]، ثم عددّ الشيخ له تلك الشروط. وختم كتابه بقصيدة في 17 بيتا منها:

الطويل

إذا أنت أعززت الهدى وتبعته فأنت لهذا الدّين عزّكما تدعي
وإن أنت لم تحفل به وأهنته فأنت مذل الدين تخفضه وضعا
فلا تأخذ الألقاب زورا فإنّكم لتسأل عنها يوم جمعكم جمعا

...

فيا أيها السلطان حقق نصيحتي لكم وارعني منكم لما قلته سمعا
فإنيّ لكم والله أنصح ناصح أذود الردى عنكم وأمنعه منعا
وأجلب للسلطان من كل جانب من الدين والدنيا العوارف والنفعا

وفي رمضان من عام 612 بشر الشيخ كيكاوس بفتحه أنطاكية التي كانت تحت حكم المسيحيين. ذكر ذلك في محاضرة الأبرار فقال: [رأينا ونحن بسيواس في شهر رمضان، والسلطان الغالب في ذلك الزمان يحاصر أنطاكية. فرأيت أنه نصب عليها المجانيق، ورماها بالأحجار، فقتل زعيم القوم، فأولتُ الأحجار آراءه السديدة،

وعزائمه التي يرميهم بها، وإنّه فاتحها إن شاء الله تعالى. فكان كما رأيت بحمد الله، وفتحها يوم عيد الفطر، وكان بين الرؤيا و الفتح عشرون يوما،وذلك سنة اثني عشر وستمائة. فكتبت إليه من ملطية قبل فتحه إياها بأبيات أذكر فيها رأياي (...) وكانت الأبيات لزوميات اتفاقا وهي (8 أبيات):

1 – قصدت بلاد الكفر تبغي فتوحها فأبشر فإنّ الروم فيك لفي خسر
2 – رأيت لكم رؤيا تدل على النصر وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
...
8 – إّذا جاء نصر الله و الفتح فلتجُد بمالك من خير على العسر واليسر

ومن نصائحه الأخرى له قوله (533:IV)
[وكتبت على عز الدّين كيكاوس سلطان بلاد الروم جواب كتاب كتب به إليّ من أنطاكية و كنت مقيما بملطية:

الطويل

كتبت كتابي والدموع تسيل وما لي إلى ما أرتضيه سبيل
أريد أرى دين النبي محمّد يُقام ودين المبطلين يزول
فلم أر إلا الزور يعلو وأهله يعزون و الدين القويم ذليل
فيا عزّ دين الله سمعا لناصح شفيق فنصّاح الملوك قليل
وحاذر بتأييد الإله بطانة تشير بأمر ما عليه دليل
لينْمى بيت المال والبيت ساقط فجُد وتوكل فالإله كفيل

ومن كلامه في نعوت الحكام قوله في الباب 404 وهي في معرفة منازلة من شق على رعيته سعى في هلاك ملكه، ومن رفق بهم بقي ملكا:

[... كذلك الإمام إن أغفل بلهوه وشأنه وشارك رعيته فيما هم عليه من فنون اللذات و نيل الشهوات ولم ينظر في أحوال ما هو مأمور بالنظر في أحواله من رعاياه، فقد عزل نفسه بفعله، ورمت به المرتبة، ويبقى عليه السؤال من الله والوبال والخيبة، وفقد الرياسة والسيادة وحرمه الله خيرها، وندم حيث لم ينفعه الندم].

وكتب إلى صاحب له ببلاد الروم اسمه إسحاق بن محمد من أصحاب السلطان ممّن تخدمه الدولة وتظهر به السنة (المسامرات ج1/ 188):

إسحاق اسمع لوعظ من أخي ثقة ولا يغرنك تقريب السلاطين
إنّ الملوك قد استغنوا بملكهم عنا وعمّا بأيديهم من الدّين
فاستغن بالله عن ملك الملوك وعن سؤال من هو مسكين بن مسكين
فالله يكفيك يا عيني ويا ولدي شرّ الملوك وأشرار الشياطين

ونختم هذا الفصل بقصة رواها محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي عند ترجمته للفقيه الصوفي حسين بن عبد الله الحضري (ت: 979هـ) في كتابه: (تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر) فقال عنه: إنه كان من شيوخ التربية، يعظم ابن العربي ويقرأ كتبه، وله في اقتنائها أشد عناية. ثم حكى أن والده أبا بكر العيدروسي كان ينهى عن مطالعة كتابي الفتوحات و الفصوص لابن العربي، لكن يأمر بحسن الظن فيه وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين. ويقول: إن كتبه اشتملت على حقائق لا يدركها إلا أرباب النهايات، وتضر بأرباب البدايات. ثم قال:

[وعلى بالي حكاية غريبة وقعت للشيخ ابن عربي تدل على فضله العظيم، أذكر هنا تيمنا بذكره واستشعارا بعظيم قدره (...)، ذكرها بعض المعتنين بأخباره والمدونين لمحاسن آثاره: إن صاحب إشبيلية أرسل مالا عظيما إلى مكة شرفها الله تعالى، وأوصى الوكيل أن لا يفرق هذا المال إلا أعلم أهل الأرض. واتفق أنه اجتمع

في تلك السنة بمكة شرفها الله تعالى من المشايخ والعلماء والفقهاء ومن كل ذي فن من العلوم ما لم يجتمع في عصر من الأعصار، وهي السنة التي اجتمع فيها الشيخ شهاب الدين السهروردي بالشيخ محيي الدين رضي الله عنهما، وقال كل واحد منهما في شأن صاحبه ما قال: فأجمع الكل على الشيخ محي الدين τ، وأن لا يفرق المال سواه، ففرقه. فلما فرغ من تفريقه قال: لولا أن خوفي خرق الإجماع لامتنعت. فقال له بعض أصحابه: لِمَ يا سيدي ؟ قال: ما أريد به وجه الله، بل أريد به التفاخر. فقال له: بين لي ذلك. فقال: إن صاحب الغرب أراد أن يفتخر بي على سائر ملوك الأرض، إذ قد علم أنه لا يفرقه سواي . فما أراد به وجه الله تعالى، بل أراد التفاخر. فبلغ ذلك المجلس لصاحب إشبيلية فبكى وقال: صدق الشيخ هذا ما أردت]. والله أعلم بصحة هذه القصة.

الفصل الثالث

التكوين الصوفي للشيخ

بعض صوفية الأندلس قبل الشيخ

لما فتح المسلمون الأندلس في شهر رمضان سنة 92 هـ، استقر بها رجال من أهل الولاية والتربية الروحية الموجودين في كل مجتمع إسلامي. ومنذ القرن الثاني للهجرة، ظهرت لشيوخهم ربط ومدارس صوفية لها مريدون وأتباع، منهم التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني (ت: أوائل القرن الثاني)، و الفقيه المالكي الطليطلي عيسى بن دينار (ت: 212)، والزاهد الشهير ميمون بن سعد (ت:267)، وخلف بن سعد القرطبي (ت:305)، ومحمد بن وضاح (ت: 287) صاحب كتاب (العباد والعوابد)، وأيوب البلوطي، ومعاذ بن عثمان المشهور بتنسّكه، وقيل عنه إنّه كان من الأبدال المجابي الدعوة، ويحي بن عمر الكناني (ت: 289) الذي استقر بإحدى أربطة إفريقية، وكان له أتباع في ثغور الأندلس، مثل سرقسطه ورشقة وتطيلة، حيث أسسوا بها رباطات، وعبد الله بن نصر القرطبي (ت:315هـ)، والزاهد الإمام

اصبغ بن مالك القبري (ت:299)، الذي عاش بقلعة يشتر بالجبال المحيطة بغرناطة، ويمن بن رزق التطيلي (ت: أوائل القرن الرابع) مُؤلف كتاب (الزهد)، وساح في المشرق وتوفي بعسقلان. ولقي كتابه هذا إنكارا من بعض الفقهاء كابن الحجام محمد بن مسرور، الذي أفتى بالنهي عن قراءته، وكذلك أفتى الفقيه القرطبي ابن الحباب أحمد بن خالد (ت:322)، ولكنه لقي قبولا ورواجا عند الصوفية و الزهاد مثل الزاهد السجلماسي الأصل المدعو بجساس، الذي كان يعتكف بثغر مجريط، ويدرس كتاب (الزهد)، وعنه رواه عبد الرحمن بن خلف الإقليشي (ت:347).

ومنهم أيضا الزاهد أبو محمد بن عبد الله التاهرتي (ت:313) الذي عرف بكلامه في المحبة وأحمد بن مخلوف المسيلي المعروف بالخياط (ت:393) الذي لزم المرابطة ؛ ومنهم أيضا في قرطبة عبد الله بن زياد الطبني (ت:410) ؛ وبعدهم أبو القاسم عبد الرحمن الهمداني المعروف بالخراز والوهراني (ت: 411) الذي ساح مدّة عشرين سنة في الشرق الأوسط وإيران ثم استقرّ في الأندلس إماما في التصوف والشريعة والعلم.

وفي أوائل القرن الرابع، لمع في التصوف الأندلسي نجم الشيخ الكبير الحكيم محمد عبد الله بن مسرة الجبلي من أهل قرطبة (269–319هـ)، الذي التف حوله مريدون، وألف كتبا لم يبق منها معروفا إلى اليوم إلا ثلاثة هي: (التبصرة) و(الحروف) و(توحيد الموقنين). وفي إطار الخلاف التقليدي بين بعض الفقهاء والصوفية، كتب ابن الحباب القرطبي صحيفة ضده خرج على إثرها ابن مسرة من الأندلس قاصدا الحج مع أصحاب له، منهم تلميذه محمد بن وهب القرطبي المعروف بابن الصقيل، ومحمد بن بكر التنوخي المعروف بابن المديني وأيوب بن فتح. ثم عاد إلى الأندلس قاصدا الحج مع أصحاب له، منهم تلميذه محمد بن وهب القرطبي المعروف بابن الصقيل، ومحمد بن حزم بن بكر التنوخي المعروف بابن المديني، وأيوب بن فتح.

ثم عاد إلى الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمان الثالث (ت:350)، وواصل دعوته إلى الله تعالى إلى أن توفي مخلفا خلفاء في طريقته نشروها خلال القرن الرابع الهجري ، وامتدت آثارها إلى قرون بعده، منهم حي بن عبد الملك، وخليل بن عبد الملك القرطبي (ت:322)، ومحمد بن سليمان العكي، المعروف بابن الموروري، وأحمد بن فرح بن منتيل بن قيس، وطريف الروطي، ومحمد بم مفرج المعافري المعروف بالفتى (ت:371) وأحمد بن وليد بن عبد الحميد بن عوشجة الأنصاري، ورشيد بن محمد بن فتح الدجاج القرطبي، وأبان بن عثمان بن سعيد بن المبشر، ومحمد بن عبد الله بن عمر القيسي(ت: 382)، وعبد العزيز بن الحكم المكنى بأبي الاصبغ (ت:387)، وعبد الرحمن بن إسماعيل الإقليدي، وأبي عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي، مؤلف كتاب (شجرة الحكمة) ومحمد بن أحمد بن حمدون الخولاني القرطبي، المعروف بابن الإمام (ت:380). وفي أواخر القرن الرابع، ظهر من المدرسة المسرية الشيخ إسماعيل بن عبد الله الرعيني، الذي تزعم الطريقة كما تزعمها قبله قاضي قرطبة وفقيهها منذر بن سعيد البلوطي (ت:355). وهكذا تكونت في كبرى مدن الأندلس جماعات صوفية. وكانت مدينة المرية إحدى تلك المراكز، وظهر بها في أواخر القرن الخامس محمد بن عيسي الألبيري، الذي حظي بالتعظيم من طرف محبّيه الكثيرين.

وفي المرية أيضا، ظهر واحد من أقطاب التصوف الأندلسي، هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف (ت: 23 صفر 536هـ)، مؤلف (محاسن المجالس) وكتب أخرى مثل (مفاتيح المحقق)، ذكره ابن سبعين في (بدّ العارف)، وكتاب (مطالع الأنوار ومنابع الأسرار)، ذكره المقري في (نفح الطيب)، وله رسائل كثيرة جمع بعضها أبو بكر عتيق بن مؤمن (ت:548) تحت عنوان: (مفتاح السعادة). وربَّى ابن العريف جماعات من رجال الولاية والمعرفة،

واصلوا دعوته ونشروها في الأندلس والمغرب , منهم ابن الإقليشي (ت:550) ، وابن قرقول (ت:569) وابن المدرة (530) والأندرشي (581) وابن ولم (557) وابن نماره الحجري (563) وسعيد بن معاوية الأموي (520) وأبو الوليد زكرياء النصاري (590) وعتيق بن مؤمن (548) وابن خير الفاسي الإشبيلي ، وابن بشكوال. وكان ابن العريف معاصرا لصوفي آخر يُعَّدُ من أعلام التصوف الأندلسي، هو عبد السلام بن أبي عبد الرحمن بن أبي الرجال، المعروف بأبي الحكم ابن برجان (ت:537)، مؤلف (شرح أسماء الله الحسنى، أو لسان الحق المبثوث في الأمر و الخلق). وله تفسير للقرآن و كتب أخرى ككتاب (عين اليقين)، ذكره ابن خلدون في فتواه، وكتاب (الإلهام والإشارات)، ذكره ابن الزبير(ت:708) في (صلة الصلة). وكانت بين ابن العريف وابن برجان مراسلات تظهر إجلال كل منهما للآخر . لكن وقعت بينهما جفوة بسبب موقفهما السياسية حسبما يبدو ، إذ كان ابن برجان مؤيدا للثورة ضد السلطان الجائر ، بعكس ابن العريف الذي كان يرى أن لا فائدة حقيقية تُرجى من ذلك، وأن لا يُواجه السلطان إلا بالموعظة والنصيحة. وموقف ابن برجان كان قريبا من اتجاه متصوف آخر هو أبو القاسم أحمد بن الحسين المعروف بابن قسّي (ت:546)، الذي تزعم ثورة المريدين ضد المرابطين سنة 539، وخلّف كتاب (خلع النعلين) الذي سنرجع إليه فيما بعد، ونشره أخيرا (سنة 1418) الأستاذ المغربي محمد الأمراني الذي من مقدّمته اقتبس هذا الباب.

ولا شك أنّ إشعاع مدارس التصوف المشرقي والمغربي في القرون الستة الأولى قد انتشر في الأندلس بواسطة أتباع كبار الشيوخ من أمثال الحسن البصري (ت:

110)، وأئمة آل البيت، والمحاسبي (ت:243)، والجنيد (ت:297)، وأحمد الرفاعي (ت:578)، وعبد القادر الجيلاني (ت:561)، وأبي يعزى المغربي (ت:572)، وأبي مدين (ت:589).

ومن مشاهير صوفية الأندلس في هذا القرن السادس: أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي (ت: 536أو537). كان فقيها ظاهريا عالما بالحديث، منقطعا للزهد والعبادة على نهج ابن العريف، والشيخ محمد بن الكبش الذي حاول إصلاح ذات البين بين ابن العريف وابن برجان، وأبو عبد الله محمد بن خلف الشبوقي، وعلي بن محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن النفري (ت:552 أو 557)، وابن الخراط أبو محمد الإشبيلي (ت:580)، وأبو عبد الله بن المجاهد الإشبيلي (ت:574)، وأبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن محفوظ، وأبو الحسن علي بن غالب بن دفين القصر الكبير بالمغرب (ت:568)، الذي كان من خاصة أصحاب ابن العريف، مثله مثل محمد بن يوسف بن الأبار، وأبو الحسن بن مومن الذي كان متزعما بقرطبة أنصار ابن قسي، وأبو بكر بن نماره الذي امتحن وسجن، مثله مثل أبي الحسن سيد المالقي , وكان ابن العريف يراسله ، وأبو بكر بن أبي خليل البلنسي من تلاميذ ابن العريف أيضا، وأبو محمد عبد الله الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني، من لبلة لازم ابن برجان وابن العريف، ورحل للمشرق سنة 540، عند احتدام ثورة ابن قسّي، وأبو عبد الله محمد بن سالم، كان صديقا لابن قسي ومات بفاس، وأبو الوليد بن المنذر(ت:558)، كان زاهدا مرابطا على الساحل البحر في رباط الريحانة، صحب ابن قسي، ثم انقلب عليه، وكان يتراسل مع ابن العريف. وبخصوص هؤلاء الصوفية ينظر:

- ابن عبد الملك المركشي: الذيل والتكملة: السفر 5و6 / ابن الزبير: صلة الصلة.
- ابن الأبار: الحلة الجزء2 / معجم الصدفي / التادلي: التشوف إلى رجال التصوف.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض.
- المقري: نفخ الطيب الجزء2 — ابن بشكوال: الصلة
- ابن فرحون: الديباج — ابن العريف: مفتاح السعادة.

مواقف الشيخ مع الشيوخ السابقين

فلله قوم في الفراديس مذ أبت قلوبهم أن تسكن الجو والسما
(دي:67)

سياحات الشيخ في المغرب والمشرق وصحبته لعلماء وأولياء عصره أتاحت له الاطلاع على تراث الصوفية الذين سبقوه، فقرأ جلّ كتبهم، وسمع الكثير من أقوالهم وأخبار سيرهم وأحوالهم. وفي ثنايا تآليفه، نجد تحاليلا وشروحا أو تعليقات على مقولاتهم ونظرياتهم، وقد جمع الباحث الدمشقي محمود محمود الغراب جملة من نصوص الشيخ في هذا الموضوع في كتاب عنوانه: (شرح كلمات الصوفية من كلام الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي)، نوجز مسائله فيما يلي:

1 — أبو بكر الصديق τ (ت:14هـ): حلل الشيخ أقواله التالية:

- العجز عن درك الإدراك إدراك (I:93-94-95-270-271/II:619-641/III:371-429-555/IV:283...)
- ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله (I:415-476-584-608/II:351-454-514-567/III:116-147-153-226-239-255-378-559/IV:58)

- الطبيب أمرضني (II: 481/ 275:IV)

2 – رابعة العدوية (ت: 135): ناقش الشيخ أقوالها التالية:

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

(359:II)

ناقش قولها هذا ثم قال عنها إنها أربت على الرجال حالا ومقاماً، وقد فصلت وقسمت رضي الله عنها، وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب.

- شغلي بموافقة مراده فيما جرى، شغلني عن الإحساس (447:IV)

- أرأيتم لو لم يخلق جنة ولا نارا، أليس بأهل أن يعبد (I:418-454–/IV:57-432) قال إنها تشير إلى الدين الخالص، ولكن الله لم يُعبد من حيث ذاته بل من كونه إلها، خلافا لقولها رضي الله عنها.

- مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم (743:I): علق على قولها هذا بما خلاصته: بل هي المسكينة في تجريح الغير ببادي الرأي. فأهل الجنة في شغل بالله هم وأزواجهم!.

3 – إبراهيم بن أدهم (ت: 160) (134:II / IV: 545 كتاب تلقيح الأذهان).

4 – ابن السماك (ت: 183) (545:IV–546).

5 – مسكينة الطفاوية (547:IV).

6 – أبو العتاهية (ت: 149) قال عنه إنه لا يعتبر من الصوفية، ولكنه صادف حقا في قوله المشهور الذي قال عنه شاعر وقته الحسن بن هانئ:" وددت أن هذا البيت الواحد لي بجميع شعري " وهو:

[وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد]

(294:IV/636-471-460-184:I)

7 – أبو سليمان الداراني (ت:215) وافقه الشيخ في قوله:

– لو وصلوا ما رجعوا، وإنما حُرموا الوصول لتضييعهم الأصول (251:I).

8 – ذو النون المصري (ت:245): يُكنُّ الشيخ لذي النون إجلالا كبيرا حتى ألف في أقواله وأحواله كتابا كبيرا عنوانه: (الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري)، ترجمه و نشره بالفرنسية الباحث الفرنسي روجي دلادريار عام 1988 وقسمه إلى أربعة أقسام: الأول في حياة ذي النون وأحواله ومقاماته الروحية، الثاني في تعاليمه ومراسلاته ووصفه لنحو 60 مقاما وحالا للسالكين، الثالث: أوصافه لطبقات الأولياء الذين لقيهم أو صحبهم ووقائعه معهم، الرابع ابتهالات ومناجاة وقصص و خطب ومواعظ لذي النون. وقد استشهد الشيخ بوصاياه ومسائله في كتب أخرى له كـ: (روح القدس) و(محاضرة الأبرار) و(الفتوحات)، خصوصا الباب 278 في معرفة مقام المحبة، وفي الباب الأخير 560 باب الوصايا. وأهم المسائل التي ورد فيها ذكر اسمه تتعلق بعالم الحقيقة والمثال وسماع ميثاق الذر (I: 128-151-578-621-670/II:82-108-134-194-195-338-346-420-566/IV:530-532...).

9 – **أبو يزيد البسطامي** (ت:1261): أبو يزيد و أبو مدين هما أكثر الرجال ذكرا في كتب الشيخ، حتى أنه خصص كتابا مستقلا في شرح أقوال وأحوال أبي يزيد (461:RG)، ألفه بأمر إلهامي في سبتة، وفي الفتوحات شرح بعض أحواله وأقواله التالية:

– ورع أبي زيد (I: 480-717/II:191)

- طلب أبي يزيد للحق (388:IV /527-370:II)
- إشارة أبي يزيد أنه قطب الوقت (493:IV)
- بيت الأبرار لأبي يزيد (99:I)
- الرجل الذي ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة (532:IV).
- قول أبي يزيد على طي الأرض وخرق العادات (369:II)
- فضل رؤية أبي يزيد وأمثاله (433-203-184:IV/-215-117:III).
- استظهار أبي يزيد للقرآن (206:IV/-414-94-93 :III)
- قوله: حدثني قلبي عن ربي (412:IV /53:I)
- أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت (280-31:I/ 413-140-139:III /253 :II).
- إّذا رأيتم من يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة، ويسلم بهم ما يتحققون به، فقولوا له يدعو لكم، فإنه مجاب الدعوة (646:II /33 :I)
- اطلعت على الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات (529:I)
- مقام كمال العبودة الذي ناله سيدنا محمد ρ لا يذوقه أحد من البشر غيره (230:I).
- مخاطبة أبي يزيد بقول: " ردوا إليّ حبيبي فلا صبر له عليّ " (251-167-116:I-252-757/ 185:IV/556:II).
- قوله ليس بي يتمسحون (136:III)
- التقرب إلى الله بالذلة والافتقار (487-350-263-214-35-16:II/690:I/ 229-:III 529-17:IV/373).
- مخاطبة أبي زيد: " اترك نفسك وتعال" (231:IV/207:III/561 :II).
- قوله: لا صباح لي ولا مساء (408-40-39-36-13:IV/646:II).

- أبو يزيد من رجال الأعراف الذين خرجوا عن قيد الصفات (I:83-187-223-251/II:133-187-360-386/ IV:57).

- قولــه: أنا اليــوم لا أضــحك ولا أبكــي (I:356-/II:73-187-558/III 73-85-86/IV:59-97)

- قوله: إنما جوعني لأبكي (II:29-208/IV:143)

- قوله: أريد أن لا أريد لأني أنا المراد وأنت المريد (I:479/II:19-521/III:464.

- قوله: العارف فوق ما يقول والعالم تحت ما يقول(I:252-650/ II : 297-316-318).

- الفرق بين العالم والعارف (كتاب مواقع النجوم)

- قوله: يا عجبا كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ (I:511/III: 212-213/ IV: 109).

قيل له: أيعصى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا (I: 233-516-561/ II:23-370-491-512/III:480-487/IV:47-125-235)

- قوله: عن الآية [إن بطش ربك لشديد] (I:695/II:412/III:146-219-281-333-553/IV:87)

- كلامه عن عذوبة العذاب (I: 511-746-/II :408-524/IV:185-308).

- الإنّية الإلهية (I:108-272-618/II: 361/ III: 117-305/IV:11-118-262).

- تسبيح أبي يزيد (I: 175-344/II:479/IV: 57-90-262-414)

- قوله: الريّ محال (II:548-551-552)

- قوله: السالك مردود و الطريق مسدود (رسالة الانتصار)

- شفاعة أبي يزيد (IV:57)

- قوله في آية: [لا يسأل عما يفعل وهو يسألون](IV-204)

- وسع الرحمة ووسع قلب العارف (IV:8-48).

- الاسم الأعظم عند أبي يزيد (II:222-641/III:329)

- قوله: " دعوت الخلق إلى الله كذا وكذا سنة ثم رجعت إليه فوجدتهم قد سبقوني " (I:561).

10- أبو سعيد الخراز (ت: 277 أو 286): كثيرا ما استشهد الشيخ بقوله:" عرفت الله بجمعه بين الضدين" (I:184-189-471-651/II:40-476-512-605-660/IV:40...)

11 – سهل بن عبد الله التستري (ت:283):

- استظهاره القرآن (II: 20/III:488/IV:57)

- سجود قلبه (I:515/II:20-102/III:86-302/IV:402–407).

- مناظرته مع إبليس (II: 662/III:466).

- تسميته الحق المخلوق به العدل (II:60/III:220/IV: 274).

- لا أعلى في الإنسان من الصفة الجمادية (I:710).

- قوله عن رجال الغيب (II: 11-12).

- قوله عن البرزخ وتصحيح الشيخ لقوله (III:395).

- قوله عند سؤاله عن القوت: الله (II: 355/III:544/IV: 248-249-409-438– فلك البطن من مواقع النجوم).

- كلامه عن سر الألوهية (I:42/II: 93-154-462-479-551/منزل الميراث الأنبيائي من مواقع النجوم/ الفصل السابع من فصوص الحكم.

12 – أبو القاسم الجنيد بن محمد (ت:297)

- قيل له: بم نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة (31:I).

- قوله: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة (I: 404-607-631-/162:II/8:III-419-262:IV/55).

- متى يبلغ درجة الحقيقة (I: 199/II:368-591)

- قوله عن وله الشبلي والتواجد (II: 684/IV: 549)

- قوله في التوحيد: إن كنت أجريه فأنا أمليه (II:200-432)

- قوله: إن المحدث إذا قورن بالقديم لم يبق له أثر(I:74-285-688/II: 211-262-127:III/597-316).

13 – محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت: أوائل القرن الرابع) أجاب الشيخ على أسئلته وعددها 155 التي طرحها في كتابه (خاتم الأولياء) (II:الباب73) وشرح اصطلاحه: ملك الملك (I: 182-184/II:50/III: 45-458/ IV:64-349).

14 – رُويم (ت:303) كلامه في التوبة من التوبة (II:143) وقوله: " من جالس أهل الله وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه" (III:366/ IV:183).

15 – الحسين بن منصور الحلاج (ت:309)

- حال أويس القرني في الإيثار و مقارنته بحال الحلاج (روح القدس).

- تحققه بحال العظمة (IV:84-241).

- قوله: بسم الله منك بمنزلة كن منه (II: 126-401/ IV:328)

- كلامه عن طول الحرف وعرضه (I:169)

- قوله : " ولدت أمي أباها " (II: 656/ IV: 156)

- ما في الوجود إلا الله (II: 320/ III: 80-117)

- محاكاته للقرآن (II: 370/ III:17/41)

- قوله: [ما قدّ لي عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر] (II: 337-362/IV:143).

- قوله: [سقاني مثل ما يشرب كفعل الضيف بالضيف] (رسالة الانتصار).

- محاورة الشيخ لروح الحلاج حول التوحيد وسبب قتله (كتاب التجليات: تجلي العلة).

- وللشيخ كتاب عنوانه:(السراج االوهاج في شرح كلام الحلاج). (RG:651).

16 – أبو بكر جحدر بن الشبلي البغدادي (ت:334هـ).

- الحج عند الشبلي (I: 677).

- وصيته (IV:545).

- قوله: أنا النقطة التي تحت الباء (I:74–102)

- قوله: العبادة لا تكون بالشركة (II:293)

- بين الشبلي والحلاج (II:546)

- ولهه ووجْدُه (I:250-479/ II:207-532)

- الذكر وغيره الشبلي (I:115-741/II:244-245-358/IV:36)

17 – أبو العباس القاسم بن القاسم السيّاري (ت: 342):

- قوله: ما التذ عاقل بمشاهدة قط (I:201-609-650/II:213–396/IV:192 /مواقع النجوم)

18 – محمد بن عبد الجبار النفري (ت: 354 أو 361هـ):

- مواقفه: موقف السوا (I: 607/III: 37-147).

- موقف وراء المواقف (II:609).

- موقف الليل لي لا للقرآن يتلى (I:237-392).

- النفري في منزل وزير القطب (كتاب منزل القطب والإمامين)

19 – أبو طالب المكي (ت:386) شرح الشيخ أقواله التالية:

- لا تكرار لنفس التجلي (I:184-266)

- لا يرى من ليس كمثله شيء إلا من ليس كمثله شيء (II:601/ كتاب التراجم).

- مشيئته تعالى عرش ذاته (II:39/III:43).

- الفلك يجري بأنفاس الإنسان (I:236-441).

20 – أبو إسحاق الأسفرايني (ت:418) ناقش الشيخ قوله: إن ما كان معجزة لنبي على حدها وشمول لوازمها، لا يكون ذلك أبدا كرامة لولي (II:8-374).

21 – أبو علي الدقاق (ت:405هـ):

- تقسيم التوبة عنده (II:143).

- قوله: الجمع ما سلب عنك والفرق ما يُنسب إليك (II:516-517-518-519).

الوُجد لا يُملك (II:537).

23 – أبو المعالي الحويني إمام الحرمين (ت: 478).

- قوله: بالعلم يُعلم العلم كما يُعلم سائر المعلومات (II:584).

- حصول العلم عقيب النظر ضرورة (IV:52).

24 – عليم الأسود:

- قوله: الأعيان لا تنقلب (I:234-236/II:277-278/IV:211).

25 – أبو حامد الغزالي (ت: 505) ناقش الشيخ مسائله التالية:

- دخوله إلى الطريق (II:645)

- الفرق بين الولي والنبي فيما ينزل به الملك (II:3-19-262-569).
- قوله: المكاشفة أتم من المشاهدة (II:496).
- قوله: لا يعرف الله إلا الله (I:160-181).
- قوله: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم (I: 4-45-259-552/II:103-321-260:IV/345)
- قوله في رؤيا: لولا هذا العلم الغريب لكنا على خير كثير (I:643).
- سبب التلبيس والعصمة منه (II:622).

26 – عبد القادر الجيلاني (ت: 561) قال الشيخ عنه: كان عدلا قطب وقته.

- مقامه و حاله (I: 201-233-588/II:14-19-223-308/III:560...).
- كلامه حول الأنبياء والأولياء (II:90).
- علاقته بمحمد بن قائد (I: 201/II:19-49-80-130-392).
- أبو السعود بن الشبلي البغدادي:
- مقامه مع الملامتية (I:201-233/II:80-131-370).
- قوله لمحمد بن قائد: نحن تركنا الحق يتصرف لنا (I:187-558/II:370)
- قوله: ماهي إلا الصلوات الخمس وانتظار الموت (II:370)
- قوله في العقلاء المجانين (I:248/II:522).
- اجتماعه برجل من رجال الماء (II:19)
- قوله في السماع (II:368-369).
- معرفته بحال شيخه عبد القادر (II:624-627).

- 28- أبو مدين شعيب (ت: 589هـ).

ونختم هذا الفصل بذكر بعض الرجال الذين روى الشيخ عنهم الأخبار الصوفية والأولياء الذين سبقوه، وورد ذكرهم في (الفتوحات) أو (روح القدس) أو (الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري).

فمن إشبيلية:

1 – عبد المومن بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، ذكره في الإجازة باسم عبد المومن بن القرشي الخزرجي (ت:597)، وذكر في الكوكب اجتماعه به على ضفاف الوادي الكبير بإشبيلية قرب باب غلاش.

2 – أبو عبد الله محمد بن عيشون، ذكره في روح القدس والكوكب.

3 – الحاج أبو بكر محمد بن علي بن أخت أبي الربيع المقوقي، وذكر في الكوكب اجتماعه به في حي العكارين.

4 – أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمان اللخمي الفيزتي (ت: 646)،وصفه في الكوكب بأنه نموذج للتاجر الأمين، كما ذكره في الفتوحات (302:II) في شأن الإلهية وإحصائها رواية عن ابن حزم.

ومن المغرب:

5 – أبو الحسين يحي بن الصائغ الأنصاري، المحدث الناسك (ت:600)، اجتمع الشيخ به في سبتة عام 589، وذكره في روح القدس والإجازة.

6 – أبو عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت: 603)، ذكر في الفتوحات والكوكب اجتماعه به في فاس عام 594 وأخذ عنه الخرقة. وروى عنه أقوالا لذي النون عن طريق السلمي والقشري.

7 – أبو عبد الله بن خزر الطنجي، ذكره في الفتوحات (I:223) وذكره مرة واحدة في الكوكب.

8 – أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسيني الغماد، عابد مدينة سلا (ت: 590) وهو أحد الصالحين الذين صحبهم الشيخ.

وفي مكة:

9 – أبو محمد يونس بن يحيى بن أبي الحسن بن أبي البركات الهاشمي العباسي القصّار البغدادي (ت:608)، ذكر الشيخ في الإجازة أنه أخذ عنه صحيح البخاري، وذكره في الكوكب نحو المائة مرة عند رواياته لأقوال ذي النون، التي رواها أبو نعيم. صحبة الشيخ في مكة عام 599 (IV:524).

10 – أبو عبد الله محمد بن أبي الصيف اليماني، وصفه في الفتوحات (IV:147) بمفتي الحجاز، وأنه كان يسكن بمكة (ت:609)، وذكره في الكوكب أكثر من 60 مرة، أخذ عنه مروياته عن ابن الجوزي.

وفي بغداد و الموصل:

11 – جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، العلامة الخطيب، الواعظ المشهور، الفقيه الحنبلي، صاحب التآليف الكثيرة (ت:597)، ذكره الشيخ في الإجازة.

12 – رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني (ت: 590) الفقيه الشافعي المدرس بالنظامية، وخطيب بغداد، ذكره الشيخ في الإجازة.

13 – أبو محمد عبد العزيز بن أبي نصر بن المبارك بن محمود الأخضر الجنباذي ثم البغدادي (ت: 611)، الإمام الحافظ المحدث، لقيه الشيخ ببغداد عام 601، وروى عنه الحلية لأبي نعيم.

14 – ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي بن سكينه البغدادي مسند العراق (ت: 607)، ذكره في الإجازة والكوكب، وأخذ عنه رسالة القشيري ببغداد عام 601.

15 – عماد الدين أبو الثناء محمود العيان، لقيه بالموصل، وذكره في الإجازة ومحاضرة الأبرار وأخذ عنه كتب ابن خميس الحميدي التي منها (مناقب الأبرار) في أخبار ذي النون.

وفي الشام:

16 – أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جراده، وهو عم أبي العديم ومن أكابر علماء الشام، اجتمع بالشيخ في حلب.

17 – عبد الرحمان بن عبد الله بن علوان الحلبي، ذكر الشيخ أخذه عنه في الإجازة و الكوكب وكان يجتمع به في المسجد الكبير بحلب.

18 – محمد بن محمد البكري، ذكره في الإجازة، وسمع عنه في دمشق وروى رسالة القشيري...

بدايات الشيخ في الطريق: معارج المعرفة

ذكرنا في فصل طفولة الشيخ أنّ طاقاته الروحية الكامنة بدأت أحيانا تطفو في وعيه بعد أن أنقذه الله من مرض ببركة تلاوة والده سورة **يس** وعمره حوالي 12 سنة. ولما شارف البلوغ، وفي أحد بيوت الله، فاضت خميرة تلك الطاقات الروحية

المتأججة في كمونها من باطنه على ظاهره، فانقلب من صحبة أبناء الملوك إلى التجرد نهائيا وإلى آخر عمره لمالك الملوك، وظهر عليه سرّ خطاب الله تعالى لكليمه موسى υ: [وألقيت عليك محبة مني و لتصنع على عيني] الآية 39 من **طه** . يصف الشيخ هذا الجذب الرباني فيقول ما خلاصته: [سبب خروجي من العسكر ودخولي في الطريق هو أنّي خرجت يوماً بقرطبة صحبة الأمير أبي بكر بن يوسف بن عبد المومن للصلاة بالمسجد، فرأيته يركع ويسجد بتواضع وخشوع. فقلت في نفسي: ما كان الأمير خانعا لله تعالى، إلا لأن الدنيا لا قيمة لها إلا في الفرار إلى الله تعالى، ففارقته في نفس اليوم ولم أره بعد ذلك وتجردت للطريق].(A: 52-64)

وفي مقدمة ديوانه الكبير يوضح بداية هذا التجرد فيقول: [... فإني ما زلت مذ قلدت الحمائل بدلا من التمايم أمتطي الجياد وأقدم الأجواد، شنشنة ورثتها من الأسلاف و الأجداد، وأنظر في صحائف الدفاتر، وأجول بميادين العساكر لا بمجالس التناظر، لم أغش قط معان الأدب، ولا أنضيت إليه ركاب الطلب، لست أعرف سوى دين العجائز، وأرى أنه من أسنى المواهب والجوائز، لا أفرق بين العلم وأضداده، ولا أميز مراتب وجوده في عباده. ولم أزل على ذلك مدة من الزمان إلى أن نظر إليّ بعين عنايته الرحمن. فوجه إلي في المنام محمدًا وعيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام. فأما عيسى فأمرني بالزهد والتجريد، وأما موسى فأعطاني قرص الشمس وبشرني بالعلم اللدني من علوم التوحيد، وأما محمد ρ فقال لي: " استمسك بي تسلم ". فاستيقظت باكيا، وقطعت بقية ليلي تاليا، وتجردت في زعمي على طريق الله، وأعملت ركاب الهمة في نيل ما ناله كل حليم أوّاه. فصحبت رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعاشرت سادات ما أعرضوا عنه قط من وقت نظرهم إليه، فانتفعت بخدمتهم، ومُنحت لطائف الأسرار بهمَّتهم،

وعقدت على أني لا أرضى منه سبحانه إلا به، فإني ما أحببت أن آخذ عن كون إلا عنه... إلى أن أسمعني صريف الأقلام في صدري بالألحان، ونطقت المثاني والمثالث بحسب المطلوب من النقص والرجحان...]

حدث للشيخ إذن ما يسميه هو بالهجوم أو البواده (557:II)، أحدثت فيه انزعاجا ويعرّفه بقوله (II: 492): [الانزعاج حال انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوجد]. فكيف تجسد عمليا هذا التحرك ؟.

تجسّد بانقطاع الشيخ وعمره إذ ذاك نحو 14 سنة في خلوة بإحدى مقابر إشبيلية للذكر والتوجه. يقول تلميذه إسماعيل بن سودكين في كتاب (وسائل السائل) راويا عن الشيخ: [لقد كانت خلوتي من الفجر، وكان فتحي قبل طلوع الشمس. بعد الفتح جاءني الترتيب في الأذكار (؟) وغيرها من المقامات، ولزمت مكاني أربعة عشر شهرا، وحصل لي بذلك الأسرار التي ألفتها جميعا بعد الفتح. وكان فتحي جذبة في تلك اللحظة، والمنّة لله تعالى معرفة خاصة من معارف السعداء].

و في الفتوحات أيضا، قال الشيخ إنّ فتحه تقدّم على رياضته (616:I). فالحق تعالى هو الذي تولّى بعنايته تربية الشيخ. ولّما تجلت فيه آثارها، أحاطته نظرة ورعاية أرواح جماعة من الرسل، لينال إرثهم، إلى أن تمكن واستقر في الإرث المحمدي الأكمل. يقول الشيخ في الباب 270 المتعلق بسورة الناس إنه اجتمع بالإمام الأوّل وزير القطب فأكد له ذلك. يقول: [ولقد أنعم عليّ هذا ببشارة بشرني بها، وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي فأوقفني عليها ونهاني عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لي: لا تنتم إلا لله، فليس لأحد ممّن لقيته عليك يد ممّا أنت فيه، بل الله تولاّك بعنايته. فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسب إليهم، وانتسب إلى ربّك. وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء، لم يكن لأحد ممّن لقيه عليه يد في طريق الله إلا الله. هكذا نقل لي الثقة عندي عنه،

وأخبرني بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه. فلله الحمد والمنة على ذلك].

فإن قيل: ما هو الذكر المختار عند الشيخ في الخلوة وفي الجلوة للسلوك ؟ فالجواب: من النصوص الكثيرة للشيخ في هذا الموضوع، يظهر أن أشرف الأذكار عنده وأسرعها فتحا وأوسعها وأعلاها تحققا هو اسم الجلالة الأعظم (الله)، فهو الدال على الذات العلية، وهو اسم مرتبة الألوهية الجامعة لكل المراتب، ومنه تستمد حضرات كل الأسماء الحسنى. وأهل هذا الاسم المفرد هم أعمدة الوجود. فإذا مات آخرهم، تمور السماء مورا، وتقوم الساعة لقول النبي ρ فيما رواه مسلم في صحيحه: [لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول :"الله الله"]. فالهدف من الخلوة ترويض النفس على دوام ذكره امتثالا لقوله تعالى: [واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا] الآية 8 المزمّل – ليُصبح الوجود كله خلوة (II:152–154). يقول ابن سودكين: [سألته رضي الله عنه عن تحرير مقصد الخلوة والمعتزل عن الناس فقال رضي الله عنه: يقصد تهيئته المحل لما يجب عليه للربوبية وقطع العلائق. متى حصل ذلك استغنى عن الخلوة، وصارت خلوته وجلوته كما أنشد قائلهم:

الكامل

يا مؤنسي بالليل إن هجع الورى ومحدّثي من بينهم بنهار

وقد أجمعوا على أنّه من وجد الأنس بالله تعالى في الخلوة، فإنّ أنسه بالخلوة لا بالله]. فالخلوة إحدى روافد السلوك. والهدف من السلوك هو التحقق بقاعدة " من عرفه نفسه عرف ربّه". وبمقدار معرفة العبد بربّه يعبده حق عبادته. وقد خصّص الشيخ لهذه المعرفة مكتوبات كثيرة من أهمها الباب 177 من الفتوحات حيث يقول: [المعرفة في طريقنا عندنا لما نظرنا في ذلك، فوجدناها منحصرة في

العلم بسبعة أشياء وهو الطريق الذي سلكت عليه الخاصة من عباد الله: الواحد علم الحقائق وهو العلم بالأسماء الإلهية، الثاني العلم بتجلي الحق في الأشياء، الثالث العلم بخطاب الحق عباده المكلفين بألسنة الشرائع، الرابع علم الكمال والنقص في الوجود، الخامس علم الإنسان نفسه من جهة حقائقه، السادس علم الخيال وعالمه المتصل والمنفصل، والسابع علم الأدوية و العلل]. ثمّ فصّل الشيخ هذه السبعة تفصيلا بديعا لم يسبق إليه.

وللشيخ تصانيف كثيرة في الخلوة والسلوك وآدابه ومراحله. وله كتاب(الخلوة المطلقة) الذي يقول عنه: (I:391): [... للجمع بين العبادتين الظاهرة في حسك والباطنة في عقلك، فتكون من أهل الجمع والوجود. فإنّك إذا طلبت الطريق إلى الله من حيث ما شرعه الله، كان الحق الذي هو المشرع غايتك. وإذا طلبته من حيث ما تعطيه نفسك من الصفاء والالتحاق بعالمها من التنزه عن الحكم الطبيعي عليها، كان غايتها الالتحاق بالعالم الروحاني خاصة، ومن هناك تنشأ لها شرائع الأرواح تسلك عليها وبها، حتى يكون الحق غايتها. هذا إن فسح الله له في الأجل، وإن مات فلن يدرك ذلك أبدا. وقد أفردنا لهذه الطريقة خلوة مطلقة غير مقيدة في جزء يعمل عليها المومن فيزيد إيمانا، ويعمل بها عليها غير المومن من كافر ومعطل ومشرك ومنافق، فإذا وفّى العمل عليها وبها كما شرطناه وقررناه، فإنّه يحصل له من العلم بما هو الأمر عليه في نفسه، ويكون ذلك سبب إيمانه بوجود الله إن كان معطلا، وبتوحيد الله إن كان مشركا، وبحصول إيمانه إن كان كافرا، وبإخلاصه إن كان منافقا أو مرتابا. فمن دخل تلك الخلوة وعمل بتلك الشرائط كما قررنا، أثمرت له ما ذكرنا، وما سبقني إليها أحد في علمي، إلا إن كان وما وصل إليّ، فإنّ الله لا تحجير عليه، يؤتى الحكمة من يشاء. فإنّي أعلم أنّ أحدا من

أهل الطريق ما يجهلها إن كان صاحب كشف تام، ولكن ما ذكروها،ولا رأيت أحدا منهم نبّه عليها إلا الخلوات المقيدة، ولولا ما سألني عنها أخونا وولينا أبو العباس أحمد بن ميمون بن آب التوزري ثم المصري المعروف بالقسطلاني المجاور الآن بمكة ما خطر لنا الإبانة عنها].

وهكذا كانت خلوة الشيخ الأولى وهو صبي منطلقا لمعارج عرفانية لا متناهية، تحقق فيها بأسرار القرآن في الآفاق والأنفس. ولهذا نجده في الأبيات التي افتتح بها الباب 22 من الفتوحات الذي صنف فيه سور القرآن حسب فواتحها إلى 19 صنفا يشير إلى سريان منازل المعراج في منازل القرآن فيقول:

الكامل

[عجبا لأقوال العقول السامية إنّ المنازل في المنازل ساريه

كيف العروج من الحضيض إلى العلى إلا بقهر الحضرة المتعاليه]

وكثيرة هي كتب الشيخ التي فصّل فيها كيفيات مختلفة ومتكاملة لهذه المعارج التي يمكن تصنيفها إلى ثمانية وهي:

أولا: المعراج الآفاقي عبر مراتب الكون انطلاقا من التراب الأرضي والعناصر الحسية، ومرورا بالسماوات والأفلاك والكرسي والعرش، وانتهاء بالقلم الأعلى والنون. ومراتب الكون في هذا المعراج تظهر كآيات الفرقان المسطورة في الرقّ المنشور للآفاق. وخصّص الشيخ له كتبا كثيرة لبيان مراتبه أو مجموعها منها:

– كتاب الإسرا ألّفه عام 594 بفاس، ورسالة الأنوار فيما يُمنح صاحب الخلوة من الأسرار، ألفها عام 602 بقونية، وكتاب عقلة المستوفز ورسالة الاتحاد الكوني، وأبواب من الفتوحات أهمها: 371/367/198/167 ومنها أيضا:

307/295/65/64/63/62/61/60/13/11/8/7... ورسائل أخرى كثيرة منها: العرش – الكرسي – الهباء – الدرة البيضاء – والدرة الخضراء – العالم – مآل العالم – الجنة – النكاح الساري – البرزخ – البروج – الزمان – الديمومية - أيام الشأن – الأزل – الحركة...

ثانيا: المعراج النفْسي الذاتي عبر أحوال ومقامات النفس والقلب والروح والسرّ، حيث تظهر مراحله ومدارجه ومعارفه كسور وآيات التنزيل المرقومة في اللوح المحفوظ، والمتنزلة إلى لوح النفس. ومن كتب الشيخ حول هذا المعراج أبواب الفصلين الثاني والثالث من الفتوحات وهي 196 بابا، وكتاب مواقع النجوم، وكتاب وجوه القلب، وكتاب مناهج الارتقاء الذي ذكر فيه ثلاثة آلاف منزل للسالكين (280:II)، ورسائل أخرى كثيرة.

ثالثا: معراج المضاهاة بين الإنسان والأكوان أي المناسبة والمقابلة بين الإنسان الجامع المخلوق في أحسن تقويم ومراتب الكون وصور الوجود، وفيه تنطوي آيات الآفاق في ذات السالك. فصّل الشيخ ذلك في (التدبيرات الإلهية) و (عنقاء مُغرب) وأبواب من (مواقع النجوم) و(نشأة الحق) و(الإنسان الكامل والاسم الأعظم) و (مراتب علوم الوهب) وأبواب من الفتوحات: 375/362/361/360/308/6. ومن هذه المضاهاة قوله (16:II): [فما من أمر محصور في العالم في عدد إلا ولله رجال بعدده في كل زمان يحفظ الله بهم ذلك الأمر]. وقوله (157:I): [... إنّ الله أودع العالم كله في الأفلاك، وجعل الإنسان مجموع رقائق العالم كله (...) فما من شيء في العالم إلا وله أثر في الإنسان وللإنسان أثر فيه].

رابعا: المعراج الميراثي عبر حضرات الأنبياء والكمّل، ليأخذ السالك إرثه منهم حسب استعداده (III: 208). ونجده في كتاب (العبادلة) وكتاب (الإسفار عن نتائج الأسفار) وكتاب (فصوص الحكم) وأبواب متفرقة من الفتوحات، خصوصا أبواب الفصل الأوّل و الباب الطويل الرائع: 73؛ وغاية هذا المعراج هي تشكيل ذات السالك بروح القرآن في مرآة الذات المحمدية الكاملة، وهو ما عبّر عنه الشيخ بقوله (III:251-252): [... فلا تطلب مشاهدة الحق إلا في مرآة نبيك ρ ، واحذر أن تشهده في مرآتك، أو تشهد النبي وما تجلى في مرآته من الحق في مرآتك ، فإنه ينزل بك ذلك عن الدرجة العالية، فالزم الاقتداء والاتباع ولا تطأ مكانا لا ترى فيه قدم نبيك، وضع قدمك على قدمه إن أردت أن تكون من أهل الدرجات العلى والشهود الكامل في المكانة الزلفى. وقد أبلغت لك النصيحة كما أمرت...].

خامسا: المعراج عبر مراتب الحروف وأعدادها بأصنافها الثلاثة الخيالية واللفظية والرقيمة. وكل حرف مفتاح لمحيط لا ساحل له من أسرار العلوم. فالتراكيب الوجودية والإنسانية والقرآنية مؤسسة عند الشيخ على أسرار الحروف والأعداد حتى أنّه يقول (II:215): [فالعدد حكمه مقدّم على حكم كل حاكم]. ويقول (II:440): [فالمنازل مقادير التقاسيم التي في فلك البروج (...) جعلها ثماني وعشرون منزلة من أجل حروف النَفَس الرحماني. وإنّما قلنا ذلك لأنّ الناس يتخيلون أن الحروف الثمانية والعشرين من المنازل حكم هذا العدد لها. وعندنا بالعكس بل عن هذه الحروف كان حكم عدد المنازل]. وللشيخ كتب عديدة في أسرار الحروف والأعداد، منها كتاب (الباء)، وكتاب (الهاء)، وكتاب (الياء)،

وكتاب (الألف)، وكتاب (الميم والواو والنون)، وكتاب (الرمز)، وكتاب (العمل بالحروف)، وكتاب (أسرار الحروف القرآنية)، و(العقد المنظوم في علم الحروف)، وكتاب (الأفراد والأعداد)، وقصائد ورسائل حول الأحرف المقطعة في أوائل السّور، وكتاب (المبادي والغايات)، والباب الثاني من (الفتوحات)، وفيه يقول عن أحد مشاهد هذا المعراج خلال جولانه حول فاتحة سورة البقرة: (الم): [... فقد تجلت لنا فيه أمور جسام مهولة، رمينا الكراسة من أيدينا عند تجليها، وفررنا إلى العالم، حتى خفّ عنّا ذلك...]، وفيه يقول أيضا: [إنّ فصول حروف المعجم تزيد على أكثر من خمسمائة فصل، وفي كل فصل مراتب كثيرة، فتركنا الكلام عنها حتى نستوفيه في كتاب المبادي والغايات إن شاء الله]. وقد بلغ الشيخ غاية لم يسبق إليها في الرسوخ في علم أسرار الحروف. وكان يفاوض أهل هذا العلم، لكنه لم يهتم به من حيث تصريفاته الكونية، بل من حيث دلالاته على الحقائق الإلهية. يقول في الباب 26 من (الفتوحات) (I:190-191): [...ولولا أنّي آليت عقدا أن لا يظهر منّي أثر عن حرف، لأريتهم من ذلك عجبا (...) وهو علم شريف في نفسه، إلا أنّ السلامة منه عزيزة. فالأولى ترك طلبه، فإنّه من العلم الذي اختص الله به أولياءه على الجملة، وإن كان عند بعض الناس منه قليل، ولكن من غير الطريق الذي يناله الصالحون. ولهذا يشقى به من هو عنده، ولا يسعد. فالله يجعلنا من العلماء بالله].

سادسا: المعراج عبر حضرات الأسماء الحسنى تعلقا وتخلقا وتحققا. والأسماء الحسنى عند الشيخ هي مفاتيح الغيب وأمهات آيات القرآن التي هي أمّهات آيات الآفاق والأنفس. فصّل ذلك في كتاب (إنشاء الدوائر)، وكتاب (كشف المعنى عن سرّ

أسماء الله الحسنى)، والباب الكبير الرائع 558 من (الفتوحات)، والباب 177، وكتاب (الإشارات في الأسماء الإلهية) (والكنايات)، وكتاب (الاسم والنعت والوصف)، والقَسَم الثاني من كتاب (العبادلة)، وكتاب (القسم الإلهي)، وكتاب (الجلالة)، وكتاب (الأحدية)..[وقد ذكر الشيخ أحيانا طرفا من أذواقه في التعلق والتحقق والتخلق بالأسماء الحسنى. فهو مثلا يقول في حضرة الاسم (المؤمن):

[ومن هذه الحضرات عبد المؤمن، وتحققت بهذه العبودية بعد دخولي هذه الطريق سنة أو سنتين، تحققا لم ينله في علمي أحد في زماني غيري، ولا ابْتُليَ فيه أحد ما ابتليت فيه، فقطعته بحيث أنه ما فاتني منه شيء، وصفا لي الجو، ولم يحل بيني وبين خبر السماء..] (204:IV).

وعن حضرة الاسم المعز يقول:

[هذه الحضرة الداخل فيها يدعى في الملأ الأعلى عبد العزيز، لم أذق في كل ما دخلته من الحضرات ذوقا ألذ منه ولا أوقع في القلب] (206:IV).

وبعكس (المعز) يقول في حضرة الاسم (القهار):

[أكبر العلماء من لا يكون له حظ في حضرة القهر، فلا يكون له اسم عبد القهار ولا عبد القاهر ، وهو العارف المكمل المعتنى به، بل هو المعصوم. وما تجلى لي الحق بحمد الله من نفسي في هذا الاسم، وإنما رأيته من مرآة غيري، لأن الله عصمني منه في حال الاختيار والاضطرار، فلم أنازع قط، وكل مخالفة تبدو مني لمنازع فهي تعليم لا نزاع، فإني ما ذقت في نفسي القهر الإلهي قط، ولا كان له من هذه الحضرة فيَّ حكم، فإن النزاع رياسة وسلطنة] (215:IV).وفي كلامه عن هذا الاسم في كتابه النفيس«كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى» يقول: [التعلق (بالقهار): افتقارك إليه في النصرة والتأييد، والتحقق: هذا الاسم في مقابلة ما خلق

الله في خلقه من الدعاوي في الربوبية، والتخلق: لما كُلف العبد ردع شهواته وأعدائه بالاستيلاء عليهم، فردعهم وأسرهم وظهر عليهم، صحّ له نصيب من هذا الاسم، وهو الذي يكثر منه القهر في مقابلة المنازعين].

ويتكلم كذلك عن حضرة اللطف فيقول:[نلت منها في خُلُقي الحظ الوافر، بحيث أني لم أجد أحدا فيمن رأيت وضع قدمه فيها بحيث وضعت، إلا أن كان وما رأيته، لكني أقول: إنه إن كان ثمّ فغايته أن يكون معي في درجتي فيها، وأما أن يكون أتمّ فما أظن، ولا أقطع على الله تعالى ، فأسراره لا تُحد وعطاياه لا تُعدّ].(239:IV).

سابعا: المعراج القرآني عبر منازل القرآن سوره وآياته وكلماته وحروفه وأعدادها. وهو معراج الجمع القرآني والوجود الفرقاني. وهو جامع للمعارج الستة السابقة مع زيادات تخصّه لا نهاية لها. يقول الشيخ عنه (40:II):[وأمّا علم الجمع والتفرقة، فهو البحر المحيط الذي اللوح المحفوظ جزء منه، ومنه يستفيد العقل الأوّل، وجميع الملإ الأعلى منه يستمدون، وما ناله أحد من الأمم سوى أولياء هذه الأمة، وتتنوع تجلياته في صدورهم على ستة آلاف نوع ومئين.فمن الأولياء من حصّل جميع هذه الأنواع كأبي يزيد البسطامي، وسهل بن عبد الله. ومنهم من حصل بعضها. وقد كان للأولياء في سائر الأمم من هذه العلوم نفثات روع في روع، وما كمل إلا لهذه الأمة تشريفا لهم وعناية بهم، لمكانة نبيهم سيدنا محمد ρ،] فقوله إن تجلياته على ستة آلاف نوع ومئين يعني به آيات القرآن. وكل كتب الشيخ شرح لها أو تستمدّ منها.

ثامنا وأخيرا: معراج الكمال الأحمدي في ديمومة العبودية، وهو معراج الصلاة الدائمة. وهو الأكبر الجامع للمعارج السابقة، وفيه قرة عين الإنسان الكامل المخاطب بـ: [وَاسجد واقترب] آية 19 العلق- وخصص الشيخ له كتاب (التنزلات الموصلية) و الباب 69 من (الفتوحات)، و للعبادات الأخرى الأبواب 72/71/70/68، وبعض أجوبته على أسئلة الترمذي: (154/149/148/147/128/112/111/110/109/100/99/12/11/10/9/8/5). وتتفاوت حظوظ كمّل الأولياء حسب تحققهم بحقائق هذا المعراج في الصلاة الأحمدية الدائمة التي روحها فاتحة الكتاب، وفيها تتحق أكمل رؤية وأشرفها، وهي التي يقول الشيخ عنها (38:IV) [... فالحق لا يراه غير نفسه من حيث هويته... كان الحق بهويته بصرا لهذا العبد. فإذا رآه بهذا الحال يكون ممّن رأى الحق بالحق والمرئي به حق. وهذه أكمل رؤية تكون حيث كانت]. ويقول عنها أيضا (203:IV): [رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية فإنّها أتمّ رؤية وأصدقها] . تلك هي غاية هذا المعراج تحقيقا لقوله تعالى: [إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله] آية 10 الفتح – وقوله ρ :" من رآني فقد رأى الحق". (رواه أحمد والبخاري والترمذي وكلهم عن أبي قتادة)، لأنّ خُلُقه القرآن فصورته أكمل مجلى للحق تعالى. وإلى تلك المعارج، يشير الشيخ في توشيحاته كقوله:

إلى الكثيب دعتني أشواقي
نحو الحبيب دعاء مشتاق
فيا طبيبي هل لي من راق
فقال خِدْني ذلك في عدن

وقوله:

حاز مجدا سنيا من غدا لله تقيا

بقديم العناية

لرجال الولاية

لاح نور الهداية

لاح شيئا فشيئا حين خروا سجدا وبُكيا

يا منير القلوب

بشموس الغيوب

نفحات الحبيب

تتوالى علينا فتريني الحق طلق المحيا

بدايات صحبة الشيخ للشيوخ

بعد جذبته وخلوته الأول وخروجه منها فياضا بالعلوم اللدنية، تجرد الشيخ للعبادة والسياحة وطلب الحديث الشريف وعلوم القرآن كما سبق بيانه. ثم حصلت له فترة روحية تذكّر بفترة الوحي عند رسول الله ρ في بداية نبوته والتي انتهت بنزول : [والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى]. تكلم الشيخ عن فترته ونهايتها، فقال وهو يتكلم على الآية: [والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه] الآية 58 من الأعراف (172:IV) [اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أنّ هذا الذكر كان

لنا من الله عز وجل لّما دعانا الله تعالى إليه، فأجبناه إلى ما دعانا إليه مدّة، ثم حصلت عندنا فترة، وهي الفترة المعلومة في الطريق عند أهل الله، التي لا بد منها لكل داخل في الطريق؛ ثم إذا حصلت الفترة إمّا أن يعقبها رجوع إلى الحال الأوّل من العبادة والاجتهاد، وهم أهل العناية الإلهية الذين اعتنى الله عز وجل بهم، وإمّا أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبدا. فلمّا أدركتنا الفترة وتحكمت فينا، رأينا الحق في الواقعة فتلا علينا هذه الآيات: [وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء] الآية ثم قال: [والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه] . فعلمت أنّي المراد بهذه الآية. وقلت ينبّه بما تلاه علينا على التوفيق الأوّل رجوعنا إلى هذا الطريق كان بمبشرة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام بين يدي رحمته، وهي العناية بنا [حتى إذا أقلت سحابا ثقالا]، وهو ترادف التوفيق [سقناه لبلد ميت]، وهو أنا فأحيينا به الأرض بعد موتها، وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به].

انتهت فترة الشيخ وعمره حوالي تسع عشرة سنة، ولم تدم معه إلا قليلا. ومن المحتمل أنّ دخوله النهائي للتجرد التام للطريق بعد فترته افتتحه بخلوة كتلك التي دخلها عند جذبه الأول. وفي هذه الخلوة الثانية، قطع مراحل في معارج المعرفة بسرعة فائقة حسبما يظهر من قوله في الباب 198 خلال تفصيله للمقامات السبعة التي يتحقق بها رجال الأنفاس المدبّرين فيقول (II: 425): [ومنتهى العالم في هذا الباب الذي شاهدناه كشفا ألفا من العاملين لا زائد على ذلك. والذي شاهدناه ذوقا وجارينهم قدما وسبقناهم في حضرتين، حضرة النكاح وحضرة

الشكوك ستة عشر عالما من ثماني حضرات، وباقي العالم كشفا وتعريفا لا ذوقا. فدخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقا مع عامة أهل الله، وزدنا عليهم باسم إلهي، وهو الآخر أخذنا منه الرياسة وروح الله الذي يناله المقربون من قوله تعالى: [فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم]. ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة في حضرة النكاح مع أهل الصفاء، وفي حضرة الشكوك مع أهل القهر والغلبة ، من أجل الاختلال في الشروط،وهي المواثيق التي أخذت على العالم بالله. فمنا من غدر، ومنا من وَفّى، فكنّا ممّن وفّى بحمد الله. وهذه علوم غريبة وأذواق عزيزة لقينا من أربابها رجالا بالمغرب، ورجالا بالإسكندرية، ورجلين أو ثلاثة بدمشق، ورجلا بسيواس، كان قد نقصه من هذا المقام شيء قليل، فعرضه علينا، فأتممناه له حتى تحقق به في زمان يسير، وكان غريبا لم يكن من أهل البلاد، كان من أهل الأخلاط].

ويبدو أنّ هذا الرجل الأخير هو أحد الرجال الستة، رجال أيام الخلق الستة، لكل يوم رجل، وهم الذين وصفهم الشيخ في الباب 73 ضمن طبقات رجال الأنفاس من الأولياء الثابت عددهم في كل زمان فقال عنهم: (II:15): [هجيرهم: [ولقد خلقنا السماوا والأرض في ستة أيام وما مسنا من لُغُوب] . ولهم سلطان على الجهات الست التي ظهرت بوجود الإنسان. وأخبرت أنّ واحداً منهم بعكاّ من جملة العوانية من أهل إرزن الروم، أعرف ذلك الشخص بعينه، وصحبته، وكان يعظمني ويراني كثيرا. اجتمعت به في دمشق، وفي سيواس، وفي ملطية، وفي قيصرية، وخدمني مدة. وكانت له والدة كان براً بها. واجتمعت به في حرّان في خدمة والدته، فما رأيت فيمن رأيت من يبرّ أمه مثله. وكان ذا مال، ولي سنون

فقدته في دمشق، فما أدري هل عاش أو مات]. ومن المقامات التي نالها الشيخ في أوّل سلوكه ما ذكره في الباب 311 المتعلق بسورة المزمّل، حيث ذكر عالم الخيال، وقوة الإنسان على التروحن بجسمه في عالم الغيب، بحيث يتشكل في أيّ صورة شاء فيقول: III:42-43): [وقد وجدنا هذا المقام من نفوسنا وأخذناه ذوقا في أوّل سلوكنا مع روحانية عيسى υ] وفي الباب 71، يقول عنه حديثه عن خلوف فم الصائم: [ما أقامني الحق في صورة حيوان غير إنسان، كما أقامني في أوقات في صور ملائكته].

وهكذا، بعد أن استعاد الشيخ توثّبه الروحي الذي سبق فترته وزاد عليه بفتوحات جديدة وعمره يشارف العشرين عاما، ورد عليه الأمر بالانطلاق في مرحلة جديدة تتمثل في صحبة الأولياء وشيوخ الطريق الأحياء، تحقيقا لقوله تعالى:[**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**] الآية 119 التوبة.

وقد فصّل الشيخ أنواع الأولياء وطباقتهم في الباب الطويل الرائع 73 من (الفتوحات)، تفصيلا لم يسبق إليه، فذكر منهم نحو المائة طبقة، منها 35 طبقة عدد رجال كل منها ثابت لا يتغير في كل زمان ومجموعهم 589 نفسا. وباقي الطبقات عدد رجالها قد يزيد وينقص. و الصفة المشتركة بينهم هي أنهم كلهم أهل القرآن. فعوالم الولاية الإنسانية هي صورة كاملة لجمع القرآن وآيات الفرقان. ودوائر منازل سور القرآن هي عين دوائر مقامات الأولياء. ولهذا لا يذكر الشيخ طبقة أو مقاما أو حالا للأولياء إلا ويذكر سورتها أو آيتها التي هي روح تلك الطبقة أو المقام أو الحال. ينظر أمثلة لذلك في أبواب (الفتوحات): 41/40/32/31/28/27/26/23/16/15 وخصوصا: 463/73، والأبواب الإثنين و التسعين من الفصل السادس في الآيات هجيرات الأقطاب... وما من طبقة منهم

إلا وصحب أو رأى الشيخ منها رجالا أو نساء. وبدأت رحلته معهم عام 580 وهو في العشرين من عمره، يقول عن صحبته لهم: [إني رأيت من أولياء الله ما لا أحصيهم عددا، نفعنا الله بهم، فما من طبقة من الأقطاب والأئمة والأوتاد والأبدال والنقباء والرجبيين والأفراد إلا وقد رأيت منهم، وعاشرتهم ببلاد المغرب، وببلاد الحجاز والشرق](II:76- 11...) وفي الباب 463 الذي خصّصه لأقطاب الأمة المحمدية الاثني عشر يقول: [وإني شاهدت هؤلاء الأقطاب أشهدنيهم الحق وإن كانوا درجوا من الدنيا] (IV: 82). وذكر أيضا معرفته لجميع الأقطاب بأسمائهم إلى يوم القيامة (65:IV)

وحيث أنّ الشيخ في ذلك الوقت كان في دائرة روحانية عيسىU، فأوّل من لقيه منهم كان على قدمه. يقول الشيخ عنه في (روح القدس) و(الدرة الفاخرة) و(الفتوحات) (I:244-574/II:86/177/325/III:298-300-532-539-/IV:89-416-482-497-529...) ما خلاصته: [أوّل من لقيته في أوّل دخولي لطريق الله أبو جعفر أحمد العريبي. وكان قد سلك الطريق بحضوره لمجالس الشيخ أبي عبد الله بن الخواص. وكان عيسويا في نهايته وهي كانت بدايتنا. أصله من العلياء بغرب الأندلس. نُفِي منها ظلما، فقدم إشبيلية، فابتلى أهل بلده بجنّ فضح خباياهم، فندموا وقدموا إليه معتذرين. فرجع معهم وأنقذهم من ذلك الجنّ. ولما استقر بإشبيلية، كنت أوّل من سارع إليه. فتسميت له وعرف حاجتي منه فقال لي:" امح ما كتبت، وانس ما حفظت، واجهل ما علمت، وكن هكذا معه على كل حال، لا تتحدث معه بما قد علمته، فإنّ في ذلك تضييع الوقت، واطلب المزيد كما أمرك في قوله : [وقل ربّ زدني علما]. اطلب الحاجة بلسان الفقر، لا بلسان الحكم". كان رحمه الله بدويا أميا لا يكتب ولا يحسب، وإذا تكلم في علم التوحيد، فحسبك أن تسمع راسخ القدم في العبودية، يعلّمه الله حكمة من أيّ شيء تدركه

حواسه. وكان يدعو الله أن يرزقه شهوة الحب لا الحبّ، وكان يقول: [ما عصى من آدم υ إلا من كان من أولاده المخالفين في ظهره]. كان أكثر دهره صائماً، ولا تأخذه في الله لومة لائم. كثير التفكر، مبسوطا مع الحق في جميع أحواله. له كرامات مشهورة. يُستسقى به الغيث، فيسقيهم الله بدعوته. لا يهتز لسماع، فإذا سمع القرآن تقصّف وتصدّعت أركانه. صليت معه الصبح فقرأ الإمام: [عمّ يتسألون] فلما وصل إلى قول: [ألم نجعل الأرض مهادا و الجبال أوتاد]، غبت ورأيته وهو يقول: المهاد العالم والأوتاد المؤمنون. والمهاد المومنون والأوتاد العارفون. والمهاد العارفون والأوتاد النبيون. وذكر من الحقائق ما شاء الله أن يذكر. فرُدِدت إليّ والإمام يقرأ: [وقال صوابا ذلك يوم الحق]. فلما فرغنا من الصلاة، سألته فوجدته قد حضر له في تلك الآية ما شهدته. وكنت إذا دخلت عليه يقول: [مرحبا بالابن البار. كل ولدي نافق عليّ وجحد نعمتي، إلا أنت، فإنّك مقر بها معترف لا أنساها الله لك]. وكان لا يفتر عن ذكر الاسم الأعظم: الله في يقظته ونومه. وهذا الاسم كان ذكرنا، وما في فوائد الأذكار أعظم من فائدته. قلت له مرة: لم لا تقول لا إله إلا الله ؟ فأجابني: " يا ولدي، أنفاس المتنفس بيد الله ما هي بيدي. وكل حرف نفَس، فنخاف إذا قلت لا إله إلا الله، فربّما يكون النفس " بلا" آخر نفس، فأموت في وحشة النفي". وقد دخل عليه يوما رجل، فوقع ذكر المعروف والصدقة. فقال الرجل: الله يقول: الأقربون أولى بالمعروف، فقال الشيخ على الفور: إلى الله!].

ويذكر الشيخ بعض أحواله مع شيخه العريبي فيقول: [لقد أعطانا الله من أجل هذه النشأة التي أنشأنا الله عليها في هذا الطريق وجه الحق في كل شيء، فليس في العالم عندنا في نظرنا شيء موجود، إلا ولنا فيه شهود عين حق نعظمه منه، فلا نرمي بشيء من العالم. فإنّ الله في السماء كما هو في الأرض، وكما هو متوجه إلى

أعلى الموجودات قدرا، كذلك هو متوجه إلى أدناها. فإنّه تعالى من حيث ذاته ما فيه مفاضلة، لأنّه لا يتصف بالكل، فيتحقق فيه البعض، وما من جوهر فرد في العالم كله، إلا وهو مرتبط بحقيقة إلهية. ولا تفاضل في ذلك الجناب الأعز الأحمى. واتفق لي في هذا المشهد ذوق، وذلك أنّي حملت في يدي شيئًا محقرا، بحيث يراه الناس ما كان يقتضيه منصبي في الدنيا، وهو ذو رائحة خبيثة من هذا السمك المالح، فتخيّل أصحابي أنّي حملته مجاهدة لنفسي لعلو منصبي عندهم عن حمل مثل ذلك وقالوا لشيخي – يعني العربي – ما قصّر فلان في مجاهدته. فقال: حتى نسأله بأي نية حمله. فقلت لهم: ما نويت شيئاً من ذلك، ولكني رأيت الله على علو قدره ما نزه نفسه عن خلق مثل هذا ، فأنزه نفسي عن حمله. فشكرني الشيخ وتعجب الأصحاب].

وفي هذا المعنى، ذكر الشيخ واقعة أخرى خلال كلامه على الحديث الشريف: " والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك". فيقول (603:I): كنت عند موسى بن محمد القباب بالمنارة بحرم مكة بباب الحزورة، وكان يؤذن بها. وكان له طعام يتأذى برائحته كلّ من شمّه، وسمعت في الخبر النبوي أنّ الملائكة تتأذى ممّا يتأذى منه بنو آدم، ونهى أن تقرب المساجد برائحة الثوم والبصل والكرّاث، فبتّ وأنا عازم أن أقول لذلك الرجل أن يزيل ذلك الطعام من المسجد لأجل الملائكة. فرأيت الحق تعالى في النوم فقال لي عز وجل: لا تقل له عن الطعام، فإنّ رائحته عندنا ما هي مثل ما هي عندكم. فلما أصبح جاء على عادته إلينا، فأخبرته بما جرى، فبكى وسجد لله شكرا، ثم قال لي: ياسيدي، ومع هذا فالأدب مع الشرع أولى، فأزاله من المسجد رحمه الله].

ويذكر الشيخ إحدى وصايا العربي له فيقول (842:IV): [كن فقيرا من الله كما أنت فقير إليه، فهو مثل قوله ρ :" وأعوذ بك منك" ومعنى فقرك من الله، أن لا يشّم منك رائحة من روائح الربوبية، بل العبودية المحضة. كما أنّه ليس في جناب الحق شيء من العبودية، ويستحيل ذلك عليه فهو ربّ محض, فكن أنت عبدا محضا، فكن مع الله بقيمتك لا بعينك، فإنّ عينك عليه روائح الربوبية بما خلقك عليه من الصورة بالدعوى. وقيمتك ليست كذلك، بهذا وصاني شيخي وأستاذي أبو العباس العربي رحمه الله. فلقيمتك التصرف بالحال لا بالدعوى. فكن أنت كذلك، فمتى قالت لك نفسك: كن غنيا بالله، فقد أمرتك بالسيادة. فقل لها: أنا فقير إلى الله. وإلى ما أفقرني الله إليه، فإنّ الله أفقرني إلى الملح أن يكون في عجيني].

وفي الباب 304 المخصوص بسورة (عبس)، أكّد الشيخ تأكيدا بالغا على أن الثبات على شهود الفقر الدائم إلى الله أوْلى وأعزّ من شهود الغنى بالله، وأنّ الشيخ المحقق هو الذي إذا رأى فقراء مفتقرين إلى ما عنده، ازداد هو فقرا إلى الله تعالى ثم يقول:[...فيرى هذا الشيخ حق المريد عليه أعظم من حقه على المريد. فالمريد هو شيخ الشيخ بالحال، والشيخ هو شيخ المريد بالقول والتربية (...):

الخفيف

أنا عبد والذل بالعبد أولى لا أراني للعزّ بالحق أهلا
فانظروني فكلما قلت قولا كان قولي حالا وعقدا وفعلا]

ويفصّل الشيخ مرة أخرى الغنى المطلق للحق تعالى والفقر المطلق للعبد فيقول (734:I):

[... لأنّ الله لم يطلب تكوين الموجودات لافتقاره إليها، وإنّما الأشياء في حال عدمها الإمكاني لها تطلب وجودها، وهي مفتقرة بالذات إلى الله الذي هو الموجد لها لفقرها الذاتي وفي وجودها من الله، فقيل الحق سؤالها وأوجدها لها. ولأجل سؤالها لا من حاجة قامت بها إليها لأنّها مشهودة له تعالى في حال عدمها ووجودها (...) فما وُجد الممكن ولا وُجدت المعرفة الحادثة إلا لكمال رُتبته الوجود وكمال رتبته المعرفة لا لكمال الله، بل هو الكامل في نفسه، سواء وجد العالم أو لو يوجد. وعُرف بالمعرفة المحدثة أو لم يُعرف، كما انّه على الحقيقة لا يُعرف ولا يَعرف منه ممكن إلا نفسه].

وفي كلام الشيخ هذا أحسن ردّ على ما انتقده الشيخ الكبير عبد الكريم الجيلي (ت:832) على الشيخ الأكبر في الأبواب 17و18و19 من كتابه (الإنسان الكامل) – والله أعلم – .

ويذكر الشيخ آخر لقاء له مع أستاذه الأوّل فيقول (ر:78): [دخلت عليه آخر زورة رأيته فيها رحمه الله تعالى ومعي جماعة، فوجدناه قاعدا فسلمت عليه. وقد أراد بعض الجماعة أن يسأله، فإذا به رضي الله عنه قد رفع رأسه وقال: خذوا مسألة وقد رميتك بها يا أبا بكر، وأشار إليّ: " لم أزل أتعجب من قول أبي العباس بن العريف:" حتى يفنى من لم يكن فانيا ويبقى من لم يزل". ونحن نعلم أنّ من لم يكن فانيا ومن لم يزل باقيا. فأيش ؟ قال: أجيبوا. فلم يكن في الجماعة من أجابه. فعرض عليّ الجواب فحضرتني نفسي بعثوري على وجه المسألة دونهم، فلم أتكلم، فإني كنت شديد القهر لنفسي في الكلام. وعرف منّي الشيخ ذلك فلم يُعِد عَليّ].

ومن هذا النص، يبدو أنّ العربي هو أوّل من لقّب الشيخ بأبي بكر، لاشتراكه مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في التحقق بمحض العبودية، كما صرّح به الشيخ في الباب 369 من (الفتوحات) حيث يقول (372:III):

[ولما شهدت لي جماعة أنّي على قدم أبي بكر الصدّيق من الصحابة، علمت أنّه ليس إلا مقام العبودية المحضة، لله الحمد و الشكر على ذلك. فالله يجعل من نظر إليّ مرة واحدة من عمره أن يكون هذا نعته في نفسه دنيا وآخرة]. ويقول (244:I):

الوافر

[أنا ختم الولاية دون شك لورث الهاشمي مع المسيح
كما أنّي أبو بكر عتيق أجاهد كل ذي جسم وروح
بأرماح مثقفة طوال وترجمة بقرآن فصيح]

وهكذا بدأ الشيخ صحبته للصالحين في المساجد وفي السياحات يختبر أحوالهم، يقول عن أحدهم [وكان عندنا بإشبيلية رجل عابد حسن الصوت، كثير الاجتهاد، سريع الدمعة، دائم العبرة كثير الفكرة والتهجد، بتُّ معه ليالي عدّة فلم يكن يفتر، فربما أسمعه في بعض الأحايين ينشد بصوت غرد ودموعه تنحدر على خديه:

قطع الليل رجال ورجال وصلوه
رقدوا فيه أناس وأناس سهروه
لا يميلون إلى النوم ولا يستعذبوه
فكأنّ النوم شيء لم يكونوا يعرفوه
لبسوا ثوبا من الخدمة حتى خلعوه

مع جلباب من الحزن فما أن نزعوه]

(المسامرات ج 2 ، 52)

الميراث الأنبيائي للشيخ

ورثت الهاشمي أخا قريش بأوضح ما يكون من الدليل
أبايعه على الإسلام كشفا وإيمانا لألحق بالرعيل
أقوم به وعنه إليه حتى أبينه لأبناء السبيل

صحبة الشيخ للشيوخ الأولياء في الظاهر قارئها صحبته لأرواح أنبياء في الباطن، لأنّ كل وليّ على قدم نبيّ. وقد قلنا إنّه لما حصلت الجذبة الربانية للشيخ وعمره نحو 14 سنة، أحاطته عناية بعض الرسل عليهم السلام، حسبما ذكره في ديوان المعارف والفتوحات (172/77:IV) وخلاصته:

[أرسل الرحمان لي في أوّل رجوعي للطريق عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام في الرؤيا. فعيسى تبت على يديه وأمرني بالزهد والتجرد. وكنت كثير الاجتماع به في الوقائع. ودعا لي بالثبات على الدّين في الدنيا والآخرة، ودعاني بالحبيب. فهو شيخنا الأوّل. وله بنا عناية عظيمة، لا يغفل عنا ساعة واحدة (341:III/49:II). وموسى بشرني بحصول العلم اللدني من علوم التوحيد، وأعطاني علم الكشف والإيضاح، وعلم تقليب الليل والنهار. فلما حصل عندي، زال الليل وبقي النهار في اليوم كله، فلم تغرب لي شمس، ولا طلعت. فكان هذا الكشف إعلاما من الله

أنّه لاحظ لي في الشقاء في الآخرة. ومحمد ρ قال لي:" يا حبيبي، استمسك بي لتسلم" واستيقظت وأنا أبكي، وقضيت بقية الليل في تلاوة القرآن، وعزمت على التجرد إلى طريق الله].

وبفصّل الشيخ ميراث الأولياء للأنبياء خلال إشارته للآية 32 من فاطر:[**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**] في الباب 349(208:III) فيقول:[إنّ من رحمة الله بخلقه أن جعل على قدم كل نبي وليا وارثا له، فما زاد، فلا بدّ أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي وأربعة وعشرون ألف ولي، على عدد الأنبياء، ويزيدون ولا ينقصون. فإن زادوا، قسم الله علم ذلك النبي على من ورثه (...) وما كنت عرفت أنّ الله قد جعل في الوجود وليا له على كل قدم نبي. فإنّ الله تعالى لما جمع بيني وبين أنبيائه كلهم حتى ما بقي منهم نبي إلا رأيته في مجلس واحد، ولم أر معهم أحدا ممّن هو على قدمهم. ثم بعد ذلك، رأيت جميع المؤمنين فيهم الذين هم على أقدام الأنبياء وغيرهم من الأولياء. فلما لم يجمعهم مجلس واحد، لذلك لم أعرفهم. ثم عرفتهم بعد ذلك ونفعني الله برؤيتهم (...) وكنا نقول قبل هذا إنّ ثمّ أولياء على قلوب الأنبياء، فقيل لنا لا، بل قل هم على أقدام الأنبياء، لا تقل على قلوبهم، فعلمت ما أراد بذلك لما أطلعني الله على ذلك رأيتهم على آثارهم يقتفون. ورأيت لهم معراجين: المعراج الواحد يكونون فيه على قلوب الأنبياء ولكن من حيث هم الأنبياء أولياء النبوة التي لا شرع فيها. والمعراج الثاني يكونون فيه على أقدام الأنبياء أصحاب الشرائع لا على قلوبهم، إذ لو كانوا على قلوبهم لنالوا ما نالته الأنبياء من الأحكام المشروعة وليس ذلك لهم (...) وهذا كله لتتميز المراتب].

وكرر الشيخ رؤياه الأخيرة في الباب 463(77:IV) فقال:

[ورأيت جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين، وكلمت منهم هودا أخا عاد دون الجماعة. ورأيت المومنين كلهم مشاهدة عين أيضا، من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة، أظهرهم الحق لي في صعيد واحد في زمانين مختلفين (...) وعاشرت من الرسل محمدا ρ وإبراهيم وموسى وعيسى وهودا وداود، وما بقي فرؤية لا صحبة].

ويبدو - والله أعلم - أنّ هذه المشاهدة الجامعة قد حصلت للشيخ في خلوة. فمؤيد الدّين الجندي (ت:700) تلميذ صدر الدين القونوي أشهر خلفاء الشيخ — يقول في شرحه للفصوص: إنّ هذا الاجتماع لكل الأنبياء حصل في مشاهدة للشيخ في خلوة بإشبيلية، دخلها في بداية محّرم وخرج منها في عيد الفطر، فدامت تسعة أشهر. وكان اجتماعهم عليهم الصلاة والسلام لتهنئته ببشرى كونه خاتم الولاية المحمدية الخاص. وأمّا مشاهدته الأولى التي رأى فيها كل الأنبياء فقط بدون أتباعهم، فحصلت له في قرطبة عام 586 ويقول عنها (151:I):

[وأمّا أقطاب الأمم المتكمّلين في غير هذه الأمّة تقدّمنا بالزمان، فجماعة ذكرت لي أسماؤهم باللسان العربي لما أشهدتهم ورأيتهم في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة في مشهد أقدس]. ثم ذكر 25 اسما رمزيا للأنبياء الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن. فكأنها هي أسماؤهم من كونهم أقطابا أولياء، لا من كونهم أنبياء مشرعين. فأشار لآدم (بالمفرق)، أي تفرقت منه الذرية، ولإدريس بـ (مداوي الكلوم)، لأنّ علوم الطب ظهرت على يديه وكذلك علوم الكيمياء و الفلك و الكتابة بالحروف الرقمية، كما أن مُداوي تشير للدواة والكلوم للكلام وهو قطب عالم الأنفاس ومقامه بفلك الشمس التي بإشراقها تتنفس الكائنات قال الله تعالى:[**والصبح إذا تنفس**] وأشار لنوح بـ (البكاء) وإلى هود بـ (الهادي)... إلخ وختم قائلا: [وأمّا

القطب الواحد فهو روح محمد ρ، وهو الممدّ لجميع الأنبياء و الرسل سلام الله عليهم أجمعين والأقطاب من حين النشء الإنساني إلى يوم القيامة].

وفي نفس هذه السنة 586 يذكر بعض الفتوحات القرآنية التي تحقق بها فيقول عن الآية: [**إنما يستجيب الذين يسمعون**] – الأنعام: 36–: [هذا الذكر لما وفقنا الله تعالى لاستعماله بإشبيلية من بلاد الأندلس، سنة 586، بقينا فيه ثلاثة أيام، فرأينا له بركة في تلك الأيام، وكنا به ثلاثة أنا وعبد الله النزهزني قاضي شرف وكان عبدا صالحا ضابطا فقيها وشخصا ثالثا من أهل البلد](IV: 162).

ويتكلم الشيخ عن تنقّله في ميراث الأنبياء فيقول (I:223):

[وكان شيخنا أبو العباس العريبي رحمه الله عيسويا في نهايته، وكانت بدايتنا (...) ثم نقلنا إلى الفتح الموسوي الشمسي، ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود υ ، ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد ρ. هكذا كان أمرنا في هذا الطريق، ثَبّتَه الله علينا ولا حاد بنا عن سواء السبيل (...) وفي زماننا اليوم جماعة من أصحاب عيسى υ ويونسυ، يحيون وهم منقطعون عن الناس. فأمّا القوم الذين هم من قوم يونس، فرأيت قدم واحد منهم بالساحل، كان صاحبه قد سبقني بقليل، فشبرت قدمه في الأرض، فوجدت طول قدمه ثلاثة أشبار ونصفا وربعا بشبري. وأخبرني صاحبي أبو عبد الله بن خرز الطنجي أنّه اجتمع به في حكاية، وجاءني بكلام من عنده، ممّا يتفق في الأندلس في سنة 585، وهي السنة التي كنا فيها وما يتفق في سنة 586 مع الإفرنج، فكان كما قال ما غادر حرفا].

فبداية الشيخ في الطريق عيسوية ونهايته محمدية. وبينه وبينهما عليهما الصلاة والسلام علاقة متميزة من حيث الختمية وإحياء دين الله تعالى. ولهذا، نجده ρ يقول لعيسى υ في المشاهدة الكبرى التي حصلت للشيخ في مكة عند اعتلائه منبر كمال الخلافة المحمدية: [هذا – أي الشيخ – عديلك وابنك وخليلك، انصب له منبر الطرفاء بين يدّي] . وحيث أنّ المسيح هو الذي يقتل الدجال في آخر الزمان (انظر مشاهدة الشيخ لهذا القتل في كتاب لطائف الأسرار، خلال كلامه على صلاة العصر في سماء الكاتب مع عيسى (ص: 169)، فقد حصل للشيخ مثله في واقعة برزخية أشار إليها بقوله عند كلامه على معنى المنازلة (526:III): [... وقد ذقت هذا الكشف، رأيته من الله في قتل الدجال بحضور رسول الله ρ معي فيه. ومن هنالك انفتح لي باب بسط الرحمة على عباد الله، وعلمت أنّ رحمته وسعت كل شيء، فلا بدّ أن ينفذ حكمها في كل شيء].

وكما أحيا الله الدين بالخاتمين، فكذلك أحيا الله بالشيخ مقام الإحسان في الملّة المحمدية، فلقب بمحي الدين. وفي الكتاب الذي أملاه عليه عيسى في سماء الكاتب الثانية خلال معراج الشيخ الروحاني، الذي وصفه في كتابه الإسرا، يقول مخاطبا الأرواح ومبيّنا وظيفة الشيخ: [... ووَادعناه على أن يحيي أمواتكم ويؤلف شتاتكم وينمي نباتكم ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون]. ومن الإمداد العيسوي لهذه السماء، كتب الشيخ ما كتب من عشرات الآلاف من الصفحات في الحقائق العالية، ما لم يسبقه فيه سابق ولا لاحق، من حيث الكيف و الكمّ. وامتثل الشيخ وهو لا يزال صبيا أمر عيسى υ له بالزهد و التجريد. يقول عن هذا وهو يفصّل معنى الذوق ومراتبه وكيفية خروج المتجرد عمّا يملكه والتذاذه بذلك: (548:II):

[وهكذا كان خروجنا عمّا بأيدينا. ولم نسند أمره إلى أحد، لأنّا لم نرجع على يد الشيخ، ولا كنت رأيت شيخا في الطريق، بل خرجت عنه خروج الميت عن أهله وماله. فلما شاورنا الوالد، وطلب منّا الأمر في ذلك، حكمناه في ذلك، ولم أسأل بعد ذلك ما صنع فيه إلى يومي هذا].

وبقي الشيخ من وقت بداية تجرده هذا وعمره نحو 15 سنة، إلى آخر حياته متجردا تماما من كل ما يفتح الله به عليه. فكان لا يسأل ولا يرفض عطاء حلالا ولا يدَّخِر. يقول عن نفسه (I:196):

[قال تعالى في حق المختصين من عباده: [إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان]. فكل عبد إلهي توجّه لأحد عليه حق من المخلوقين، فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق، فإنّ ذلك المخلوق يطلبه بحقه وله عليه سلطان به، فلا يكون عبدا محضا خالصا لله (...) ومن الزمان الذي حصل لي فيه هذا المقام، ما ملكت حيوانا أصلا، بل ولا الثوب الذي ألبسه، فإنيّ لا ألبسه إلا عارية لشخص معيّن أذن لي في التصرف فيه، والزمان الذي أتملك الشيء فيه أخرج عنه في ذلك الوقت، إمّا بالهبة أو بالعتق إن كان ممّن يُعتق. وهذا حصل لي لما أردتُ التحقق بعبودية الاختصاص لله. فقيل لي: لا يصحّ لك ذلك حتى لا يقوم لأحد عليك حجة. قلت: لا والله إن شاء الله. قيل لي: وكيف يصح لك أن لا يقوم الله عليك حجة ؟ قلت إنمّا تقام الحجج على المنكرين لا على المعترفين، وعلى أهل الدعاوي وأصحاب الحظوظ لا على من قال ما لي حق ولا حظ].

وبعد تحققه بالميراث العيسوي، انتقل الشيخ للميراث الموسوي خصوصا من حيث أنّ موسى υ كليم الله وكذلك من حيث قوله:[ربّ أرني أنظر إليك]، حسبما أشار إليه في المبشرات، ثم انتقل إلى ميراث هود υ خصوصا من حيث

قوله: [ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم] الآية 56 من هود (انظر كلام الشيخ حولها في فصّ هود من كتاب الفصوص).

ثم انتقل إلى ميراث بقية الأنبياء، فعاشر داود υ، ونال منه أوفر نصيب ، من حيث أنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ومنطق الطير, وهو قطب عالم الأنفاس وما يناسبها من طبقات الأولياء المتحققين بها، وهم الذين وصفهم الشيخ في الباب 73 من الفتوحات. ونال الشيخ أوفر نصيب أيضا من الميراث الإبراهيمي، خصوصا من حيث كونه خليل الله، وقرأ الشيخ عليه القرآن فكان يبكي كلما سمع ذكر اسمه فيه. ووصف الشيخ طرفا من إرثه الإبراهيمي لما دخل خلوة ذكر سهل بن عبد الله التستري (ت: 283) وهو:" الله معي الله ناظر إليّ الله شاهدي" فقال (488:III):

[ولما دخلت الخلوة على ذكره، فتح لي به من ليلتي تلك الفتح الخاص بذلك الذكر، فانكشف لي بنوره ما كان عندي غيبا، ثم أفل ذلك النور المكاشف به، فقلت هذا مشهد خليلي، فعلمت أنّي وارث من تلك الساعة لملة أمر الله ورسوله، وأمرنا باتباعهما وذلك قوله: [ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل] ، وتحققت أبوّته وبُنوتي].

وفي الباب 72 المتعلق بالحج، يذكر الشيخ واقعة حصلت له في مقام إبراهيم υ عند الكعبة وكملت له فيها الوراثة الإبراهيمية من كونه أنّه وفّى، وأنّه أوّاه حليم، أُمَّةٌ قانت لله، حنيف شاكر لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، مسلم صالح. وأطال الشيخ في شرح هذه الشمائل الإبراهيمية التي ورثها ثم قال (722:I-723)

[فنرجو أن يكون لنا نصيب من الخلة كما حصل من درجة الكمال والختام والرفعة السارية في الأشياء (...) ورأيت في هذه الواقعة أنواعا كثيرة من مبشرات

إلهية بالتقريب الإلهي وما يدل على العناية (...) وأمّا بنعمة ربك فحدثّ، وأية نعمة أعظم من هذه النعم الإلهية الموافقة للكتاب والسنة].

وقد فصل الشيخ معاني الخلة وشروطها في الباب 359 المتعلق بسورة **الفرقان** خلال إشاراته لآيتها 28: **[يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا]**، فقال ما خلاصته: [إذا علمت أن الله لا يستحيل عليه خلة عباده، فاجتهد أن تكون أنت ذلك الخليل. ولا تجد لها سبيلا إلا موافقة شرعه فيما حرم وحلل وأباح وكره وندب وأوجب. فإذا عمك هذا في نفسك، وقمت فيها مقام حق، صحت لك الخلة، بل المحبة التي هي أعظم وأخص، لأن الخليل يصحبك لك والمحب يصحبك لنفسه. فالخليل يعتضد بخليله، والحبيب ببطن في محبه، فيقيه بنفسه، ألا ترى ما جرى في نفوس العالم، حيث يجعلون الخبز و الملح سببا لأن يكون كل واحد من الشخصين اللذين بينهما الممالحة فداء لصاحبه؟ ولما شهدناه مع الحق مشاهدة عين، ورأيت أثرها بحمد الله برهانا قاطعا، قلت:

لآكلن الخبز والملحا حتى أرى البرهان والفتحا
وأطلب الحرب من أجل العدا لا أطلب السلم ولا الصلحا

فأعطته الممالحة أن لا يتخذ عدو الله محبوبا ولا محبا كما قال تعالى عن خليله إبراهيم υ في شأن آزر: **[فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه]**. وعلى قدر ما ينقصك من هذا الحال ينقصك من المعرفة بالله تعالى].

ويتكلم الشيخ عن ميراثه لبقية الأنبياء، فيقول خلال وصفه لسدرة المنتهى في معراجه في الباب 367 المتعلق بسورة الإسراء (III: 350): [ثم عاينت متكآت رفارف العارفين، فغشيتني الأنوار حتى صرت كلي نورا، وخلع عليّ خلعة ما رأيت

مثلها. فقلت: إلهي الآيات شتات، فأنزل عليّ عندها هذا القول: [قل آمنا بالله ومآ أنزل علينا ومآ أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق و يعقوب والأسباط ومآ أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربّهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون]. فأعطاني في هذه الآية كل الآيات وقرّب عليّ الأمر، وجعلها لي مفتاح كل علم. فعلمت أنّي مجموع من ذكر لي. وكانت لي بذلك البشرى بأني محمدي المقام من ورثة جمعية محمد ρ، فإنّه آخر مرسل وآخر من إليه تنزل. آتاه الله جوامع الكلم، وخُصّ بست لم يخصّ بها رسول أمّة من الأمم، فعمّ برسالته لعموم ستّ جهاته، فمن أيّ جهة جئت لم تجد إلا نور محمد ρ، ينفهق عليك، فما أخذ أحد إلا منه، ولا أخبر رسولا إلا عنه. فعندما حصل لي ذلك، قلت حسبي حسبي، قد ملأ أركاني، فما وسعني مكاني وأزال به عنّي إمكاني. فحصلت في هذا الإسراء معاني الأسماء كلها، فرأيتها ترجع إلى مسمّى واحد، وعين واحدة، فكان ذلك المسمّى مشهودي، وتلك العين وجودي. فما كانت رحلتي إلا فيَّ، ودلالتي إلا عليَّ. ومن هنا، علمت أني عبد محض ما فيّ من الربوبية شيء أصلا].

وأشار إلى ميراثه من إدريسυ، الذي يلقبه بمداوي الكلوم فيقول (151:I): [وقد أخذنا عنه علوما جمة بمآخذ مختلفة]. وقد بيّن الشيخ في كتاب الإسرا ورسالة الأنوار والباب 167 والباب 198 وكتاب التنزلات الموصلية وغيرها بعض العلوم التي يأخذها السالك من أنبياء السموات السبع: آدم فعيسى ويحيى فيوسف فإدريس فهارون فموسى فإبراهيم. وفي كتابه (الأسفار عن نتائج الأسفار)، ذكر العلوم التي يتحقق بها السالك في وراثته لأسفار الأنبياء المذكورين في القرآن: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم ولوط ويوسف وموسى عليهم السلام. وأمّا ميراث الشيخ من سيدنا

محمد ρ، فيتمثل خصوصا في وسع الجمعية ووسع العلم ووسع الرحمة ووسع الحبّ وكمال العبودة وكمال التحقق بالأخلاق الإلهية وجوامع الكلم وفتوح العبارة وكمال التحقق بجمع القرآن ووجود آيات الفرقان.

ومن تمكنه في هذا الميراث الأنبيائي، قال عنه تلميذه صدر الدّين القونوي (ت:673) في شرحه للأربعين حديثا: [وأمّا الشيخ رضي الله عنه، فإنّه كان متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء وسائر الماضين على ثلاثة أنحاء: إن شاء استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسدا في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العنصرية التي كانت له في حياته الدنيوية لا يخرم منها شيئا؛ وإن شاء أحضره في نومه؛ وإن شاء انسلخ من هيكله، واجتمع به حيث تعينت مرتبة نفسه (...) وهذا الحال الذي ذكرته من تمكن شيخنا τ هو من آيات صحة الورث النبوي. وإليه الإشارة بقوله تعالى: [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا]الآية. فلو لم يكن متمكنا من الاجتماع بهم، لم يكن لهذا الخطاب فائدة]. وقد صرحّ الشيخ نفسه بهذا المقام (755:I): [وكنا رأينا منهم جماعة متجسدين من الأنبياء والملائكة والصالحين من الصحابة وغيرهم].

وقد ذكر الشيخ في فصول من كتابه (التجليات)، نماذج من حواره في مسائل التوحيد مع بعض أرواح الصحابة وكبار الشيوخ السابقين، منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، والجنيد وسهل التستري و المرتعش وابن عطاء والحلاج والشبلي رحمهم الله، وأشار إلى ترقي هؤلاء الشيوخ في العلم بالله تعالى إثر اجتماعهم وحوارهم البرزخي معه. وقد ذكر تلميذه ابن سودكين في تعليقاته على (التجليات)، جواب الشيخ له لما سأله عن كيفية اجتماعهم به وهو قوله:

[والذي ذكرناه في كتاب (التجليات) ممّا جرى بيننا وبين أسرار القوم، إنّما كان في حضرة حقّية ومشاهدة قدسية تجرد فيها سريّ وسرّ من كوشفت به في حضرة الحق التي لا تقبل إلا مجرد التحقيق و الصدق. ولو قدرنا اجتماعنا معهم في عالم الحس بالأجساد، لما نقص الأمر عما أخبرت به عنهم ولا زاد. والمعاملة يا ولدي مع " القائم على كل نفس بما كسبت " فيما يُعمل أو يقال. وهو – سبحانه – عند لسان كل قائل، عَدَل أو مال].

ونشير هنا إلى التحقيق الممتاز الذي قام به الأستاذ عثمان يحيى لكتاب (التجليات)، وتعليقات ابن سودكين عليه، ولشرحه "كشف الغايات" لمؤلف مجهول.

الشيخ مع أبي العبّاس أحمد الخضر υ وخرقة الطريق

الخضر هو صاحب موسى عليهما السلام في قصتهما المذكورة في سورة الكهف. ومقامه في دوائر الأولياء مشهور؛ واجتماع بعضهم معه متواتر.ذكره الحكيم الترمذي في كتابه (ختم الأولياء) (ص: 361–362) عند كلامه على علامات الأولياء فذكر من بينها: [محادثة الخضر الذي تطوى له الأرض، برها وبحرها، سهلها وجبلها، في طلب مثلهم شوقا إليهم. وللخضر قصة عجيبة في شأنهم، وقد كان عاين شأنهم في البدء ومن وقت المقادير، فأحبّ أن يدركهم فأعطيَ الحياة حتى بلغ من شأنه أنّه يحشر مع هذه الأمة وفي زمرتهم، حتى يكون تبعا لمحمد ρ،

وهو رجل من قرن إبراهيم وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة، ففاتته وأصابها الخضر في قصة طويلة].

وقد ذكر الشيخ الخضر عشرات المرات في الفتوحات وكتبه الأخرى [انظر أبواب الفتوحـــات 4/10/19/24/25/29/30/31/32/36 وصـــفحات I:153-184-186-188-189-203-205-223-244-392-393-574-631.../II:9-40-53-76-90-107-114-131-162 وأسـئلة الترمـذي 12/14/19/53/54/83/112/153/III:5-208-335...) قـال عنه في كتابه (أيام الشأن): إنّ فيه قوة عربية للحوقه بالأمة المحمدية، خصوصا وأنّ جدّه هود الرسول العربي υ حسب نسبه الذي ذكره في الباب 366 المتعلق بسورة الكهف (II:336). وخصص له في الفتوحات الباب 25 الذي عنوانه: (في معرفة وتد مخصوص معمّر).وخلاصة كلام الشيخ حوله نوجزه في ما يلي: [اعلم أن هذا الوتد هو خضر واسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن غابر – الذي هو هود υ – بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح υ. كان في جيش ذي القرنين، فبعثه ليرتاد لهم ماء، فوقع بعين الحياة فشرب منه فعاش إلى الآن. وكان لا يعرف ما خصّ الله به من الحياة شارب ذلك الماء. ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بالماء، فسارع الناس إلى ذلك الموضع ليسقوا منه، فأخذ الله بأبصارهم عنه، فلم يقدروا عليه. فهذا ما أنتج له سعيه في حق الغير. وأطال الله عمره إلى الآن، كما أبقى الله من الرسل الأحياء بأجسادهم ثلاثة، هم إدريس في السماء الرابعة، وعيسى في السماء الثانية، وإلياس في الأرض عليهم السلام. فهؤلاء الأربعة هم أوتاد بيت الدين الثابت الباقي إلى آخر الزمان، الحافظون لأركانه الأربعة: الرسالة والنبوة والولاية والإيمان ، واحد منهم هو القطب وله ركن الحجر الأسود، واثنان منهم هما الإمامان، وللوتد الرابع الركن الرابع. ولكل واحد منهم في كل زمن شخص على قلبه هو نائب له مع وجوده.

وزيادات الإيمان بالغيب واليقين البارزة من الغوث صاحب الزمان تُعطى على يد إلياس من حيث القبض، وعلى يد الخضر من حيث البسط. فممّا خص الله به الخضر أنّه ما حلّ بموضع أجدب إلا أوجد الله فيه الخصب والبركة كما ورد في الحديث عن سبب تسميته بخضر أنّه " ما قعد على فروة إلا اهتزت تحته خضراء". وقد شهد الله له أنّه آتاه رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما اتبعه فيه كليم الله موسى عليهما السلام. فحاله العصمة من كل ما يؤدي إلى سوء الأدب الذي يبعد صاحبه عن البساط. فهو محفوظ عليه وقته أبدا، وعلمه علم الاعتصام بالله وبحبله، أي الطريق الذي يعرج بالعبد إلى الله تعالى. وهو من أكبر الأقطاب الملحقين بآل بيت النبي ρ كسلمان τ ، وهو من رؤوس الأفراد الذين تولىّ الله تعليمهم عناية بهم. فهو من المقربين، أي له مقام القربة أو النبوة العامة بلا تشريع، التي منزلها بين الصديقية ونبوة الشرائع. ومنزل أهل القرية يعطيهم اتصال حياتهم بالآخرة، فلا يدركهم الصعق الذي يدرك الأرواح، بل هم ممّن استثنى الله في قوله [ونفخ في الصور فصعق من في السماوا ومن في الأرض إلا من شاء الله] . وهؤلاء الأفراد من أهل مقام السير في الحق تعالى بأسمائه: منه وإليه وفيه وبه. فهو سائر في وقوفه واقف في سيره. فهم بمنزلة المهيّمين من الملائكة، يفعلون ما يؤمرون، فخرق السفينة وقتل الغلام حكما وأقام الجدار مكارم أخلاق. والخضر هو الشاب الممتلئ شبابا الذي يتحدّى الدجّال عند خروجه في آخر الزمان، فيقطعه الدجال في زعمه جزلتين ثم يدعوه، فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك كما ورد في الحديث. وروينا عنه أنّه قال: اجتمعت بشخص يوما لم أعرفه، فقال لي: يا خضر سلام عليك. فقلت له: من أين عرفتني ؟ فقال لي: إنّ الله عرّفني بك. فعلمت أنّ لله عبادا يعرفون الخضر ولا يعرفهم الخضر. وسُئل عن

الشافعي فقال: هو من الأوتاد الأربعة. وسُئل عن أحمد بن حنبل فقال: هو صديق. وسئل عن بشر الحافي فقال: " ما ترك بعده مثله"].

وذكر الشيخ في الباب 25 (I:186–187) ثلاثة لقاءات له مع الخضر υ لقيه عام 590 وهو في مركب بمرسى تونس، حيث جاءه الخضر وهو يمشي على سطح البحر بدون أن يصيبه بلل وتحاورا معا. ولقيه بعد ذلك بمسجد في ساحل البحر المحيط مع مَن وصفَه بأنه " رجل كبير القدر أكبر منه منزلة" فربّما يكون هذا الرجل هو الإمام الوزير الثاني للقطب الذي قال عنه الشيخ إنّه عاينه في بعض سياحاته وإنّه يربّي الأفراد (II: 572). وكان مع الشيخ رجل ينكر خرق العوائد، فأشهده خضر إحداها قال الشيخ عنها: [وإذا بذلك الرجل الذي قلت إنّه الخضر قد أخذ حصيرا صغيرا كان في محراب المسجد، فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض، ووقف على حصير في الهواء يتنفل (...) فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وأنشدته لنفسي:

الكامل

شغل المحبّ عن الهواء بسره في حبّ من خلق الهواء وسخّره
العارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهّرة
فهمو لديه مكرّمون وفي الورى أحوالهم مجهولة ومستره

فقال لي: يا فلان، ما فعلتُ ما رأيت إلا في حق هذا المنكر (...) فرددت وجهي إلى المنكر وقلت له: ما تقول ؟ فقال: ما بعد العين ما يقال].

وأمّا أول لقاء للشيخ وهو في بداية العشرينات من عمره مع الخضر υ فيقول الشيخ عنه: [... وذلك أنّ شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه

مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله ρ - (يعني الإمام المهدي القائم في آخر الزمان) فقال لي: هو فلان بن فلان، وسمّي لي شخصا أعرفه باسمه، وما رأيته، ولكن رأيت ابن عمته. فربّما توقفت فيه ولم آخذ بالقبول، أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره. ولا شك أنّ الشيخ رجع سهمه عليه، فتأذى في باطنه ولم يشعر بذلك، فإنّي كنت في بداية أمري. فانصرفت عنه إلى منزلي. فكنت في الطريق، فلقيني شخص لا أعرفه، فسلم عليّ ابتداء، بسلام محبّ مشفق وقال لي: يا محمد، صدّق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك فلان عن فلان، وسمّى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي، فقلت له: نعم. وعلمت ما أراد، ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرفه بما جرى؛ فعندما دخلت عليه قال لي: يا أبا عبد الله، أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك، يقول لك صدّق فلانا فيما ذكره لك، ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف ؟! فقلت: إن باب التوبة مفتوح. فقال: وقبول التوبة واقع. فعلمت أنّ ذلك الرجل كان الخضر ولا شك أني استفهمت الشيخ أهُوَ هو ؟ قال: نعم، هو الخضر.قلت له الحمد لله هذه فائدة، ومع هذا، فما هو الأمر إلا كما ذكرت لك. فلما كان بعد مدة، دخلت على الشيخ، فرأيته قد رجع إلى قولي في تلك المسألة وقال لي: "إنّي كنتُ على غلط فيها وأنت المصيب". فقلت له: يا سيدي علمت الساعة أنّ الخضر ما أوصاني إلا بالتسليم، وما عرفّني بأنك مصيب في تلك المسألة، فإنّه ما كان يتعين عليّ نزاعك فيها، فإنّه لم تكن من الأحكام الشرعية التي يحرم السكوت عنها. وشكرت الله على ذلك، وفرحت للشيخ الذي تبيّن له الحق فيها].

وفي هذه القصة تظهر العلاقة المتميزة الغريبة التي كانت بين الشيخ وشيوخه. فكما كانوا يربّونه ظاهرا كان يربّيهم باطنا، وذلك أنّه لم يصحبهم إلا بعد أن تمّ له الفتح. فكان يأخذ عنهم الخبرة العلمية لأحوالهم ومقاماتهم، ويرقّيهم باطنا في

معارج العلم بالله تعالى. ومن رسوخه في مقام الملامية والفردية، لم يكن يظهر ذلك لهم إلا نادرا بقدر ما ينتفعون به. وقد اعترفوا له بذلك: مثال ذلك صالح البربري (ت: 593) الذي عاشره الشيخ 13 سنة، يقول له:[لو علم الناس النعمة السارية في الأحوال ما فرّقوا بين السراء و الضرّاء واتحد الحمد]. فيعقب عليه الشيخ:[بل توحدّ]، فيجيبه: [صدقتّ يا ولدي وأخطأ الشيخ]. فيقبّل محيي الدّين يد شيخه صالح ويقبّل صالح رأس محيي الدّين. وأمثلة هذا كثيرة في سيرة الشيخ سنذكر بعضها لاحقا. والشيخ يعتبر الخضر من شيوخه. فهو يذكره في رسالته (نسَب الخرقة) قائلا: [... وكذلك صحبت أنا أيضا الخضر وتأدبتُ به وأخذت عنه التسليم لمقالات الشيوخ نصّا من فيه إلى فِيَّ، وغير ذلك من العلوم].

ويذكر لباسه خرقة الخضر υ في الطريق فيقول (I:186):

[واجتمع به رجل من شيوخنا وهو علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب علي المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان. كان يسكن بالمقلي خارج الموصل في بستان له، وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان. وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها. وقد كنت لبست خرقة الخضر بطريق أبعد من هذا، من يد صاحبنا تقيّ الدّين عبد الرحمان بن عليّ بن ميمون بن آب التوزري. ولبسها من يد الخضر. ومن ذلك الوقت، قلت بلباس الخرقة، وألبستها النّاس لما رأيت الخضر قد اعتبرها.وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن، فإنّ الخرقة عندنا إنّما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلق. ولهذا، لا يوجد لباسها متصلا برسول الله ρ، ولكن توجد صحبة وأدبا، وهو المعبر عنه بلباس التقوى. فجرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحدا من أصحابهم عنده نقص في أمر ما، وأرادوا أن يكملوا له حاله، ويتحد به هذا الشيخ، فإذا اتحد به، أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال،

ونزعه، وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله. فيسري فيه ذلك الحال، فيكمل له ذلك. فذلك هو اللباس المعروف عندنا، والمنقول عن المحققين من شيوخنا].

وفي (نسب الخرقة)، فصل الشيخ تاريخ الخرقة وحقيقتها المعنوية وشروطها الأخلاقية، من آداب وعلم وفي آخرها يقول: [... فألبستك أيها الولي الحميم موفّق الدّين أحمد بن علي بن أحمد بن مريم الفنيسي الإشبيلي هذا اللباس مع صحبة الأدب من يدي. ولبستُ أنا من يد الشيخ جمال الدين يونس بن يحيي بن أبي العبّاس القصّار بمكة بالحرم الشريف تجاه الكعبة المعظمة، بعد أن صحبته وتأدبت به. ولبسها يونس من شيخ الوقت عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي، ولبسها عبد القادر من يد أبي سعيد المبارك بن علي المخزومي، ولبسها المخزومي من يد أبي الحسن علي محمد ين يوسف القرشي الهكاري، ولبس الهكاري من يد أبي الفرج الطرسوسي، ولبس أبو الفرج من يد ابي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي، ولبس أبو الفضل من يد أبي بكر محمد بن خلف جحدر الشبلي، والشبلي صحب أبا القاسم الجنيد وتأدب به، والجنيد صحب خاله سريا السقطي وتأدب به، وسرّي صحب معروفا بن فيروز الكرخي وتأدب به، ومعروف صحب علي بن موسى وتأدب به، وعليّ بن موسى صحب أباه موسى بن جعفر وتأدب به، وموسى صحب أباه جعفر بن محمد وتأدب به، وجعفر صحب أباه محمد بن علي وتأدب به، ومحمد صحب أباه علي بن الحسين وتأدب به وعلي صحب أباه الحسين بن علي وتأدب به وأخذ عنه، والحسين صحب جدّه رسول الله ρ وتأدب به وأخذ عنه. ومحمد ρ أخذ عن جبريلυ، وجبريل أخذ عن الله تعالى. فقلت للشيخ يونس: ما أخذ عنه ؟ فقال: سألت أو سئل الشيخ عبد القادر: ما أخذ عنه ؟ فقال: أخذ عنه العلم والأدب. وكذلك ألبستك الخرقة التي لبستها من يد أبي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم الفاسي، ومن يد تقي الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن آب

التوزري، وقالا لي إنهما لبساها من يد أبي الفتح محمود البصري.ولبس البصري من يد أبي الفتح بن شيخ الشيوخ، ولبس أبو الفتح من يد أبي إسحاق ابن شهرنار المرشد، ولبس المرشد من يد حسن أو حسين الأكّار، ولبس الأكّار من يد أبي عبد الله بن خفيف، وابن خفيف صحب جعفرا الحذاء، وصحب الحذاء شيخه أبا عمرو الإصطخري، وصحب أبو عمرو شيخه أبا تراب النخشبي، وصحب أبو تراب شقيقا البلخي، وصحب شقيق ابراهيم ابن أدهم، وصحب ابراهيم ابن أدهم موسى بن يزيد الراعي، وصحب الراعي أوَيْسا القرني وصحب أويس عمر بن خطاب وعلي بن أبي طالب وصحب عمر و علي رسول الله ρ (...) فليلبس وليي وفقه الله من شاء ومن أحبّ، من صغير وكبير وذكر وأنثى بهذه النسبة على الشرط المذكور هذه الخرقة بهذه النسبة من المؤمنين بالسند المذكور. وليس من شرط لباس هذه الخرقة و الصحبة أن يلبسها إلا من واحد، هذا لم يشترطه أحد، بل ثبت عن بعضهم أنّه قال: من أراد أن يرى ثلاثمائة رجل في رجل واحد، فليرني، فإنّي صحبت ثلاثمائة شيخ، أخذت عن كل شيء خلقا. وانظر في رسالة القشيري عند ذكره من ذكر منهم، فما يذكر إلا ويقول صحب فلانا وفلانا، وليس الخرقة إلا الصحبة والأدب وذلك غير محجور، وإنّما نبعث طائفة جهلاء لا علم لهم، فتخيلوا أنّ الإنسان لا يجوز له أن يلبس إلا من شخص واحد، ولم يقل بذلك أحد من الناس، والله الموفق].

قلتُ: الشيخ يعني في كلامه الأخير صحبة وخرقة التبرك. وأمّا مريد التربية و الترقية فلا يلتزم إلا بشيخ مربّ كامل واحد يكون تحت حكمه. وهو ما أكده الشيخ في آخر الباب 181(II: 366) حيث يقول:[والأصل أنّه كما لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع، ولا امرأة بين زوجين، كذلك لا يكون المريد بين شيخين، إذا كان مريد التربية. فإن كانت صحبة بلا تربية، فلا

يبالي بصحبة الشيوخ كلهم، لأنه ليس تحت حكمهم، وهذه الصحبة تسمىّ صحبة البركة. غير أنّه لا يَجِيءُ منه رجل في طريق الله. فالحرمة أصل في الفلاح].

فإذا طبَّق قوله هذا عليه هو نفسه وقد صحب عشرات الشيوخ، اتضح أن صحبته لهم لم تكن لتربيته، إذ تمّ له الفتح الكبير قبل أن يعرفهم، بل صحبهم ليختبر عيانا وتفصيلا مختلف أحوال أهل الله، ولينتفعوا هم بصحبته.

وقد وضح الشيخ كيفية تحصيل العلم اللدني الموهوب للخضر وأمثله في الباب 396(III: 558–559)، فقال ما ملخصه:

[وليس له طريق إلى ذلك إلا بأن يترك جميع المعلومات وجميع العالم من خاطره، ويجلس فارغ القلب مع الله، بحضور ومراقبة وسكينة وذكر إلهي بالاسم: الله ذكر قلب، ولا ينظر في دليل يوصله إلى علمه بالله. فإذا لزم الباب وأدمن القرع بالذكر – وهذه هي الرحمة التي يوتيها الله من عنده – فيتولى الحق تعليمه شهودا كما تولى أهل الله كالخضر وغيره، فيعلمه من لدنه علما من الوجه الخاص الذي بينه وبين الله، فلا يطلع عليه غيره. وقد فتح الله بيننا وبينه، فلزمت واسترحت. وعلامة من يدعيه لزوم الأدب الشرعي، فيرى المعصية في مخالفة الشرع. وإن اعتقد خلاف هذا، فما هو من أهل الوجه الخاص، وإنما هو شخص لا يعبأ الله به]. فالعمل بالشرع ظاهرا وباطنا هو الطريقة والحقيقة. يقول الشيخ في كتاب التراجم – الباب 25 –وفي إشاراته للآية 18 من سورة الجاثية: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون): [تخيل من لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة. وهيهات لما تخيلوه، بل الحقيقة عين الشريعة، فإن الشريعة جسم وروح. فجسمها علم الأحكام وروحها الحقيقة فما ثم إلا شرع].

الشيخ مع ابن مسرة وابن برجان وابن قسّي

في القرن الرابع الهجري، امتدّ إشعاع مدرسة الإمام أبي القاسم الجنيد (ت:297) في التربية الصوفية إلى الأندلس والمغرب. ومن رجالها، ظهر الشيخ ابن مسرة الجبلي (ت:319) مؤلف كتاب (خواص الحروف) و (رسالة الاعتبار)، وكان مع مقامه العالي في الطريق ورسوخه في علوم الشريعة، على إطلاع عميق على علوم الحكماء القدامى. ذكره الشيخ في كتابه (الميم والواو والنون)، عند بيانه لطريقته في الكلام على أسرار الحروف فقال:

[فكلامنا على أسراره كطريقة ابن مسرة الجبلي وغيره لا خواصّه]. وذكره في الباب 13 من الفتوحات في معرفة حملة العرش، فقال عنه: [روينا عن ابن مسرة الجبلي من أكبر أهل الطريق علما وحالا وكشفا: العرش المحمول هو الملك، وهو محصور في جسم وروح وغذاء ومرتبة. فآدم وإسرافيل للصُّور، وجبريل ومحمد للأرواح، وميكائيل وإبراهيم للأرزاق، ومالك ورضوان للوعد و الوعيد (...) وأمّا العرش الذي هو السرير، فإنّ لله ملائكة يحملونه على كواهلهم، هم اليوم أربعة، وغدا يكونون ثمانية لأجل الحمل إلى أرض الحشر. وورد في صور هؤلاء الأربعة

الحملة ما يقاربه قول ابن مسرة، فقيل الواحد على صورة إنسان، والثاني على صورة الأسد، والثالث على صورة النسر، والرابع على صورة الثور].

وذكر الشيخ ابن مسرة أيضا في الباب 272 المتعلق بسورة **الإخلاص**، خلال إشارته لبسملتها، حيث شبهها بعمود مدخل منزلها قال عنه: [وكأنّه ترجمان بيننا وبين ما تعطيه المنازل من المعارف. وقد نبّه على ذلك ابن مسرة الجبلي في كتاب الحروف له. وهذا العمود له لسان فصيح يعبّر لنا عمّا تحويه المنازل، فنستفيد منه علم ذلك]. يشير الشيخ إلى قول ابن مسرة ما يلي: [... وعدد درجات الجنة على عدد آي القرآن، على عدد الأسماء. وكل درجة من درجات الجنة تنقسم في نفسها درجات. وكذلك كل اسم من أسماء الله له في ذاته مراتب، إلا الاسم الأعظم الجامع للأسماء والصفات العلى، وهو مفيض الرحمة على المخلوقات، وبه تتعلق كل المخلوقات، وبه تتعلق جميع المكونات، وهو نهاية المعرفة، وابعد الغاية في البغية. وللأسماء غيره مراتب في أنفسها، ودرجات في ذواتها، وانفصال واتصال من أجل قبول المخلوقات، وبه يتعلق جميع مكونات، وهو نهاية المعرفة، وأبعد الغاية في البغية. وللأسماء غيره مراتب في أنفسها، ودرجات في ذواتها، وانفصال واتصال من أجل قبول المخلوقات، ولها عموم وخصوص من قبل شرفها، وإخفاء من لطفها. فجوامع الأسماء وأعمها " بسم الله الرحمن الرحيم "، وهو أوّل مراتب العلم وأعلاها وأشرفها، وهو يشتمل على لطائف القرآن ودقيق معانيه، ولأنه من الاسم المضمر الذي فيه يعرف الله حق معرفته. ومن الألوهية يعرف عموم أسمائه، ومن الألوهية تعرف حقيقة الرؤية. ومن الرحيم تبين ظهورها وخصوصها في رتبة. ومع الاسم المضمر مع الإلوهية تعرف حقيقة الرؤيا. ومن الألوهية مع الرحمن يعرف

فيض الرحمة. ومن الرحمة مع الرحيم تظهر صفة النفخة، ومن الرحيم الرحمن يستدل على المعراج وقت مفارقة الأرواح من الجثث، ويستدل من ذلك على عذاب القبر . ومنن الرحيم يستدل على أنّ الله مصوّر شاهد محيي مميت ظاهر قريب ونحو هذا. ومن الألوهية مع الرحمن الرحيم، نعلم أن العقل الكلي مستغرق في النفس الكلّية، وأنّ النفس الكلية مستغرقة في جثة العالم على مذهب الفلاسفة وقدماء الأمم الضالة، وأهل الفترات الذين لحقوا علم التوحيد من غير نبوة، إلا أنّ عملهم في ذلك موافق للأسماء، غير أنّ النبوة شرحت ذلك بأقرب بيان وأوضح برهان].

فمدرسة ابن مسرّة قرآنية محضة، ميزانها الأوحد الشرع المحمّدي، وهي امتداد لمدرسة الجنيد القائل: " علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة"، وليست امتدادا لمدارس فلسفية أو نحل باطنية.

ومن صوفية الأندلس الذين نجد لأقوالهم صدى في كتب الشيخ أبي الحكم بن برجان الذي أقام بإشبيلية في بدايات القرن السادس، وكان له أتباع كثيرون، حتى أنّ الشعراني نقل في طبقاته أنّه لما أراد القيام بثورة على المرابطين بايعه 130 قرية. وفي عهد المرابطين، وُشي به عند السلطان علي بن يوسف بن تاشفين، فاستدعاه لعاصمته مراكش، فسجن ثم قتل عام 536. وذكر التادلي في كتابه (التشوف إلى رجال التصوف) أنّ الفقيه الصوفي أبا الحسن علي بن حرزهم دعا سكان مراكش لتشييع جنازته. وابن حرزهم هذا كان من أكبر المدافعين عن التصوف وأهله في المغرب في عهد المرابطين وقد أخذ الطريق عن عمّه صالح بن حرزهم، الذي أخذ عن الإمام أبي حامد الغزالي في المشرق. واستدعى السلطان أيضا الفقيه الزاهد العارف أبا بكر محمد بن حسين الميورقي الذي كان مقيما بغرناطة ومشهور بالفقه

والزهد والتصوف على نهج ابن العريف؛ ولما استقدمه السلطان عُذب وسجن وجُلد ثم أطلق سراحه، فعاد إلى الأندلس ثم إلى بجاية حيث توفي عام 536 أو 537هـ.

وأمّا كلام الشيخ عن ابن برجان (I:60/II:60-104-577-649/III:77/IV:220/مواقع النجوم 142/ التدبيرات الإلهية: 125)، فينحصر في النقاط التالية:

في البابين 2و559 (حضرة الاسم الفتاح)، يذكر تنبؤ ابن برجان بفتح بيت المقدس سنة 583، الذي ذكره في تفسيره للقرآن. وقد بّين الشيخ كيفية استخراج هذا التاريخ بحساب جمل الآية : [الم غلبت الروم] ثم يقول: [وهذا العلم من هذه الحضرة – أي الاسم الفتاح - ولكن عبد السلام أبا الحكم بن برجان ما أخذه من هذا. فوقع له غلط وما شعر به الناس. وقد بينّاه لأصحابنا لما جاءنا بكتابه، فتبين له أنّه غلط في ذلك، ولكن قارب الأمر. وسبب ذلك أنّه أدخل عليه علما آخر فأفسده]، يعني الشيخ أنه أدخل عليه علم الفلك حسبما ذكره في الباب 2 (I:60).

وفي الباب 290 المتعلق بسورة الشرح، يذكر الشيخ كتب القوم في التخلق بالأسماء الإلهية، فيذكر من بينها كتاب ابن برجان في هذا الموضوع واستعمال ابن برجان لكلمة (الحق مخلوق به)، للدلالة على الإنسان الكامل والمعبر عنه بالرداء (ينظر جوابه على السؤال 106 من أسئلة الترمذي II:104). يقول في الباب 320 المتعلق بسورة التغابن:

[ويتضمن هذا المنزل علم الحق المخلوق به الذي يشير إليه عبد السلام أبو الحكم ابن برجان في كلامه كثيرا، وكذلك الإمام سهل بن عبد الله التستري. ولكن يسميه سهل بالعدل، ويسميه أبو الحكم الحق المخلوق به، من قوله تعالى: [وما خلقنا

السماوا□ والأرض وما بينهما إلا بالحق]، وله فيه كلام كبير شاف].
يشير الشيخ إلى الآية 3 من التغابن: [خلق السماوات والأرض بالحق]. لكن الشيخ لا يوافق ابن برجان في لفظة " الحق المخلوق به "، ويرى أنّ الباء هنا بمعنى اللام أي: خلق السموات والأرض للحق، أي ليعبدوه. والله تعالى لا يخلق شيئا بشيء، وإنّما يخلق بقوله: كُنْ. وفصّل هذا المعنى في أوّل منزل سورة النمل (III:354–355). وفي الباب 271 المتعلق بسورة الفلق، يشير الشيخ إلى حروف بسملتها فيقول: [وهذه الدرجة تتضمن منزلا واحدا من منازل الغيب بالإجماع من أهل هذا الشأن، وقيل ثلاثة منازل بخلاف بينهم. فأمّا ابن برجان، فانفرد دون جماعة بإظهار المنزل الثاني في هذه الدرجة من منازل الغيب، ولم أعلم ذلك لغيره. وله وجه في ذلك، ولكن فيه بعد عظيم، وإن كنا نحن قد ذهبنا إلى هذا المذهب في بعض كتبنا]. كأنّ الشيخ يشير إلى الألفات الثلاثة الغائبة في كتابة (بسم) و(الله) و(الرحمن)، وقد تكلم عليها في الباب الخامس (I:109)، كما تكلم على حرف الواو بعد هاء اسم (الله) عند تحليله لحروفه (I: 103–104).
ومن أصحاب ابن برجان الذين لقيهم الشيخ، عبد الحق بن الخراط الأزدي الإشبيلي (ت:581)، الذي كان على صلة وثيقة بأبي مدين أيضا. وقد أخذ الشيخ عنه علم الحديث وكتب ابن حزم.

وفي هذا الفصل، نذكر أيضا ابن قسّي، الذي ذكره الشيخ عدة مرات في الفتوحات. وكان ابن قسّي – على ما قيل -، قد ادّعى المهدوية وجمع أتباعا، وقاد ثورة على المرابطين، فافتك منهم حصونا. ولـمّا قدم الموحدون للأندلس، تظاهر بالانضمام إليهم عام 540. ثم خرج عليهم و مات مقتولا عام 546، مخلفا كتابا عنوانه (خلع النعلين) شرحه الشيخ، وحلّله في أخريات حياته (A:77–78). ومن مقارنة نصوص الشيخ حول ابن قسي في الفتوحات وشرحه لخلع النعلين، يتبيّن

أنّ الشيخ التقى بابنه في تونس عام 590، فأعطاه كتاب والده. لكن الشيخ رفض أخذه " لسبب كان هناك". فمن الرّاجح أنّ الشيخ اطلع على بعض أقواله وعلّق عليها مستحسنا أو منتقدا في الفتوحات، ولم يكن على بينة تامة عن حقيقة ابن قسّي، حتى تحصّل عند استقراره بدمشق في أخريات حياته على نسخة من (خلع النعلين)، فحلّلها شرحا، وتأكد حينذاك أنّ ما أصاب فيه ابن قسّي من الحقائق، لم يكن إلاّ نقلا من أحد كبار الأولياء الذين جالسهم، وما أخطأ فيه كان من عند نفسه. وفي ذلك الشرح، نقد الشيخ ابن قسّي نقداً لاذعا، بكل موضوعية وأدب. فرغم وصفه له بالجهل والتقليد، ورغم فداحة أغلاطه، يترحم ويترضى عليه بحكم الأدب والرحمة الواسعة اللذين جبل عليهما الشيخ. فمن المسائل التي استحسنها الشيخ في نقول ابن قسّي، قوله عنه في الباب 10 من الفتوحات: [وهذا الذي نزعنا إليه من دورة الملك، قال به غيرنا كالإمام أبي القاسم بن قسيّ في خلعه، وهو روايتنا عن ابنه عنه، وهو من سادات القوم. وكان شيخه الذي كشف على يديه من أكبر شيوخ المغرب، يقال له ابن خليل من أهل لبلة]. وكذلك قوله عنه في الباب 492: [فالعلم بالله من الرسول في المتعلم أعظم وأنفع من العلم الذي يحصل لك من الوجه الخاص (...) وقد بينا أن أعظم الرؤية، رؤية محمدية في صورة محمدية، وإليه ذهب الإمام أبو القاسم ابن قسي رحمه الله في كتابه (خلع النعلين) (...) وما رأيت هذا النَفَس لغيره فنعيّنه، فإنّه ما وصل إلينا...] ويذكره أيضا خلال كلامه على أنّ كُلاً من الأنبياء فاضل مفضول فيقول (II:52-60-257-) وكذلك في الباب 297 المتعلق بسورة الأعلى (II:686) فيقول:

[إنّ كل جوهر في العالم يجمع كل حقيقة في العالم، كما أنّ كل اسم إلهي مسمّى بجميع الأسماء الإلهية (...) وهذا العلم خاصة انفردت به دون الجماعة في علمي،

فلا أدري هل عثر عليه غيري وكوشف به أم لا، من جنس المومنين أهل الولاية لا الأنبياء. وأمّا في الأسماء الإلهية، فقد قال به أبو القاسم ابن قسي في (خلع النعلين) (III: 354). فرحم الله عبدا بلغه أنّ أحدا قال بهذه المسألة عن نفسه كما فعلت أنا، أو من غيره فيلحقها بكتابي هذا في هذا الموضع، استشهادا لي فيما ادعيته، فإنّي أحبّ الموافقة وأن لا أنفرد بشيء دون أصحابي].

وفي مسائل أخرى، يبين الشيخ اختلافه مع ابن قسّي، كمسالة كيفية إعادة الأجسام يوم القيامة (312:I) (160:II)، وكمسألة المفاضلة في أنواع الجنس الواحد (326:III)، ويردّ عليه قوله: " إنّ الله لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله " (749:I/165-7:III)، فيقول: [وهذا من أعظم الغلط الذي يطرأ على أهل الكشف لعدم الأستاذ. وما يقول هذا إلا من لم يكن بين يدي أستاذ قد رباه أستاذ متشرع عارف بموارد الأحكام الشرعية ومصادرها]. وأخيرا، يلخص الشيخ موقفه من ابن قسي خلال شرحه لخلع النعلين عند قول مؤلفه: [وأشباحهم الظاهرة الجامعة لهذه الحقائق الباطنة كأنّها خشب مسندة وعمد ممدة لا يستطيعون السجود]، فيعلق الشيخ قائلا:

[كلام مقلد في جميع ما قاله، ما عنده علم بما هو الأمر عليه. وقد شهد على نفسه بهذا القول أنّه في جميع ما ذكره من الحقائق و العلوم، ناقل مقلد من غير ذوق ولا كشف من ذاته، وإلا فأين هذا النَّفس من ذلك النفسّ؟ فلقد أراحنا هذا الرجل منه بهذا القول، وأزال عنا الغلط الذي اعتقدتاه فيه، وعلمنا أنّه ناقل حديث، وحامل فتوى، وحاكى رواية. فشرحنا إنّما لمعنى من نقل عنه والحمد لله ربّ العالمين. فصحّت الرواية أنه ينقل عن العبد الصالح في هذا الكتاب، وهو

خلف الله الأندلسي، كان من الأكابر الأميين. فكان يأتي لهذا الرجل، فيصف له ما يتلقاه من الروح القدسي و النور الإلهي في قلبه. وكان عند هذا المؤلف فهم وإفصاح في خطابه، متضلع من الأدب واللغة ووجود القريحة في صنعة الكتابة، فكسا تلك المعاني ألفاظا أدبية خطابية (...) فقد حصل لنا الفرقان بين ما هو منه وبين ما ينقله. على أني أعرف بأحواله من غيري فإنّي اجتمعت بوالده وكان ذا فهم وفطنة، فسألته عن أحوال أبيه، فوصف أحوالا تدل على ما ذكرناه من قصوره. وفي حديث ترك شيخه ابن خليل له ولأمثاله غنية في معرفة حاله وضيق مجاله، وفي رسالته لعبد المؤمن بن علي وكلامه فيها في إشارته إلى نفسه، ولم يكن الأمر كما ذكره وانعكاس الأمر عليه يدل على أنه لم يكن محققا في شأنه، وأنّه كان جاهلا بمرتبته ونفسه]، يشير الشيخ في الجملة الأخيرة إلى دعوى ابن قسّي المهدوية... وقد حقق الأستاذ المغربي محمد الأمراني كتاب (خلع النعلين)، ونشره سنة 1418هـ (1998)، وعدّد جملة من مسائله التي نجد لها صدى في كتب الشيخ الأكبر. وأهمها زيادة على ما ذكرناه:

- وحدة الأسماء الإلهية (III:368/ كتاب فصوص الحكم البابان 4-21).
- الحقيقة المحمدية منبع الوجود و العلم (I:134/137/143/147/III:494).
- لكل نبي اسم إلهي غالب عليه ولمحمد ρ الاسم الأعظم الجامع (II:61/124/125/225/IV:13-214-231 /فصوص ب:1-27).
- التمييز بين رحمتي الوجوب والامتنان (IV:200-550-553/فص21).
- النكاح كمبدإ للإيجاد في شتى المراتب (I:139/II:167).
- المكونات كلها كلمات إلهية (II:394-396-400/IV:65)
- الكون كمرآة لحضرة الحق (IV:21/316).

- بـروز الأعيـان الثابتـة مـن العلـم الإلهـي القـديم إلى الظهـور العيـني الحـادث (I:31/II:399-400/III:11/IV:210-211).

الشيخ ومدرسة ابن العريف

استمرت مدرسة التربية الروحية الجنيدية في الأندلس تربّي طالبي الطريق، وتتأقلم مع التقلبات السياسية والفقهية، وتدعّمت بكتب الغزالي (ت: 505)، التي قاومها اتجاه فقهاء المرابطين، حتى سعوا في إحراق كتاب (إحياء علوم الدّين) وغيره من الكتب.لكن ذلك لم يطفئ نور الطريق الذي كان من معاقله مدينة المرية التي زارها الشيخ عام 595 وفيها ألّف أحد أهم تآليفه، وهو كتاب (مواقع النجوم)، وفيها اجتمع مع بعض أتباع مدرسة الشيخ المربّي الكبير أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله المشهور بابن العريف الصنهاجي. كان والد ابن العريف قد هاجر من طنجة، حيث كان صاحب حرس الليل – ويسمّى القائم بهذه الوظيفة: عريف – إلى المرية التي كانت عاصمة أحد ملوك الطوائف. أتقن ابن العريف كل العلوم الشرعية واللغوية في عصره بعد إتقانه لحفظ قراءات القرآن وبراعته في فنون الأدب والخط وعلوم الحديث و الفقه وهو شاب.وخلال ذلك انجذب لسلوك طريق الولاية وتمّ له الفتح الكبير في مدّة يسيرة وأصبح شيخا مربيا محققا كاملا. فالتف حوله المريدون وقصدوه من جميع أنحاء الأندلس فقضى جُلّ عمره في تربيتهم وتعليم القرآن ومراسلة أهل العلم والتصوف كصاحبه ابن برجان، إلى أن استدعاه السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين لعاصمته مراكش بعد أن

وشى به ابن الأسود قاضي المرية زاعما بأنّ تكاثر تلاميذ ابن العريف يشكل خطرا على السلطة. وبعد مثوله أمام السلطان في مراكش، أطلق سراحه وتوفى بعدها بقليل وقبره في مراكش معروف يزار إلى اليوم؛ قيل أنّه وُلد ليلة الإثنين ثاني جمادى الأولى عام 481 هـ وتوفي ليلة الجمعة 23 صفر من عام 536 وعمره نحو 53 سنة.
وأمّا سند ابن العريف في الطريق فإنه قد أخذ عن أبي بكر بن عبد الباقي الأنصاري عن أبي محمد المعافري عن أبي عمر أحمد بن عبد الله عن أبي سعيد أحمد بن الأعرابي عن أبي القاسم الجنيد من كتاب ("الحركة الصوفية بمراكش" لحسن جلاب ص 75). لكن محقق كتاب (مفتاح السعادة) لأبي بكر عتيق (بيروت 1993 ص 46) يعطي سَنَداً آخر لسلسلة ابن العريف وهو أنّه أخذ الطريق عن أبي بكر عبد الباقي بن محمد بن بريال الحجازي عن أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي عن أبي عمر أحمد بن عون الله عن الحسن بن عبد الله الجرجاني عن أبي سعيد بن الأعرابي عن أبي محمد مسلم بن عبد الله الخراساني عن الفضيل بن عياض عن هشام بن حسان عن الحسن البصري.
ويعتبر ابن العريف من أكبر مجددي التربية الصوفية الإسلامية الأصيلة في النصف الأول من القرن السادس بالأندلس إذ خلّف عدة رجال من كبار الشيوخ الذين واصلوا مسيرته. وترك من التآليف كتابه المبارك: (محاسن المجالس) بيّن فيه مقامات السلوك. وله رسائل أخرى كتبها لأصحابه. ولابن العريف مكانة كبرى في قلب الشيخ محيي الدين فهو يصفه بشيخنا وبالمحقق. يقول في الباب 177 مثلا: [فطائفة قالت مقام المعرفة ربّاني ومقام العلم إلهي وبه أقول وبه قال المحققون كسهل التستري وأبي يزيد وابن العريف وأبي مدين]. والمسائل التي أوردها في الفتوحات عن ابن العريف مستحسنا لها وشارحا هي أقواله التالية:

-488-396-395-278:III/325-315-201-144-143-97:II/279-112-103-93:I)
(411-361-93-92-84:IV/491

- " ليس بين الله وبين العباد نسب إلا العناية ولا سبب إلا الحكم ولا وقت غير الأزل وما بقي فعمى وتلبيس". ويعقب الشيخ على هذا القول: [انظر ما أحسن هذا الكلام وما أتم هذه المعرفة بالله وما أقدس هذه المشاهدة نفعه الله بها].

- الأعمال للجزاء والأحوال للمريدين ولها الكرامات: العلماء " لي" والعارفون "بي" والعارفون بالهمم، والهمم للوصول والحق وراء ذلك كله، وإنّما يتبيّن الحق عند اضمحلال الرسم:

- فناء من لم يكن وبقاء من لم يزل.

- الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة.

- وسُئل عن المحبة فقال: [الغيرة من صفات المحبة، والغيرة تأبى إلا الستر، فلا تُحَدّ].

الرجز

قد تاب أقوام كثير وما تاب من التوبة إلا أنا

الطويل

- وجاء حديث لا يُملّ سماعه شهيّ إلينا نثره ونظامه

- ومن دعائه: [اللهم إنك سددت باب النبوة و الرسالة دوننا، ولم تسد باب الولاية: اللهم مهما عينت أعلى مرتبة في الولاية لأعلى وليّ عندك، فاجعلني ذلك الوليّ].

[وكان الشيخ على صلة مع شيوخ تخرجوا من مدرسة ابن العريف ، منهم خليفته بالمرية أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الغزال (I: 228/II:201/IV:550/ر:99-102)، ذكر بعض المؤرخين أنّ مولده كان سنة 544، أي بعد وفاة شيخه ابن العريف بثماني سنين (التشوف 119)، وهو فيما يبدو غلط، لأنّ الشيخ يقول عنه إنّه كان شيخا مسنا في حياة أبي مدين المتوفي عام 589 (ر:99). فلو كان مولده عام 544، لكان عمره سنة وفاة أبي مدين 45 سنة. فكيف يوصف حينئذ بالشيخ المسن ؟ بل الأرجح أنّ مولده كان في أوائل القرن السادس، وصحب ابن العريف وهو شاب، وتوفي في أواخر ذلك القرن، والله اعلم. وفي ديوان الشيخ، نجد قصيدة من 12 بيتا وجهها إلى الغزال أوّلها:

الكامل

وافى كتاب ولينا الغزال منّي على شوق له متتال

وهو دليل على وجود مراسلات كانت بينهما. وفي باب الوصايا (IV:550، يقول عنه: [حدثني أبو القاسم البجائي بمراكش، عن أبي عبد الله الغزال العارف، الذي كان بالمرية من أقران أبي مدين وأبي عبد الله الهواري بتنس، وأبي يعزى وأبي شعيب السارية وأبي الفضل اليشكري وأبي النجا وتلك الطبقة...] ثم ذكر حكاية رجل كان يحضر مجلس ابن العريف، ويُرزق من الغيث مثل مريم عليها السلام. ويقول الشيخ عنه أيضا (I:228): [خرج شيخنا أبو عبد الله الغزال –كان بالمرية رحمه الله – في حال سلوكه من مجلس شيخه أبي العباس بن العريف، وكان ابن العريف أديب زمانه، فهو بالأحرش بطريق الصماد، إذ رأى أعشاب ذلك المرج كلها تخاطبه بمنافعها، فتقول له الشجرة أو النجم: خذني فإني أنفع لكذا وأدفع من

المضار كذا، حتى ذهل وبقى حائرا من نداء كل شجرة منها تحببا له وتقربا منه. فرجع إلى الشيخ وعرّفه بذلك، فقال له الشيخ: ما لهذا خدمتنا، أين كان منك الضار النافع حين قالت لك الأشجار إنّها نافعة ضارة ؟ فقال: ياسيدي التوبة. قال له الشيخ: إنّ الله فتنك و اختبرك. فإنيّ ما دللتك إلا على الله ولا على غيره، فمن صدق توبتك أن ترجع إلى ذلك الموضع فلا تكلمك تلك الأشجار التي كلمتك. فرجع أبو عبد الله الغزال إلى الموضع، فما سمع شيئا ممّا كان قد سمعه. فسجد لله شكرا، ورجع إلى الشيخ، فعرّفه. فقال الشيخ: الحمد لله الذي اختارك لنفسه ولم يدفعك إلى كون مثلك من أكوانه، تشرف به، وهو على الحقيقة يشرف بك. فانظر همّته τ. وإذا علم أسرار الطبائع، ووقف على حقائقها، وعلم من الأسماء الإلهية التي علمها الله آدم υ نصفها، وهي علوم عجيبة لما أطلعنا الله عليها من هذه الطريقة، رأينا أمرا هائلا، وعلمنا من سرّ الله في خلقه وكيف سرى الاقتدار الإلهي في كل شيء. فلا شيء ينفع إلا به، ولا يضّر إلا به، ولا ينطق إلا به، ولا يتحرك إلا به، وحجب العالم بالصور، فنسبوا كل ذلك لأنفسهم، وإلى الأشياء، والله يقول: [يأيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله]].

ويبدوا أنّ الأوراد التي كانت متداولة في مدرسة ابن العريف هي نفس الأوراد التي نجدها عند كل طرق الصوفية وهي تلاوة القرآن وذكر (لا إله إلا الله) والأسماء الحسنى وأعظمها (الله) و الصلاة على النبي ρ . ويقول الشيخ إنه لقي أحد الأولياء الذين هجيرهم الآية 5 من الحجرات: [ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خير لهم] ، قال عنه (IV: 184): [وصاحب هذا الهجير كثير الصلاة على محمد ρ وعلى هذا الذكر يحبس نفسه حتى يخرج إليه ρ. وما لقيتُ أحدا على هذا القدم غير رجل كبير حداد بإشبيلية، كان يعرف باللهم صل على محمد،

كما كان يعرف بغير هذا الاسم. رأيته ودعا لي وانتفعت به، لم يزل مستهترا بالصلاة على محمد ρ، لا يتفرغ لكلام أحد إلا قدر الحاجة. إذا جاء أحد يطلبه أن يعمل شيئا من الحديد، فيشارطه على ذلك ولا يزيد. وما وقف عليه أحد من رجل ولا صبي ولا امرأة إلا ولا بدّ أن يصلي على محمد ذلك الواقف، إلى أن ينصرف من عنده، وهو مشهور بالبلد بذلك وكان من أهل الله].

الشيخ و مدرسة ابن المجاهد

من أقران ابن العريف علما وفضلا وإمامه حتى لقب بزاهد الأندلس، الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المجاهد (484–574). وهو من أعلام التصوف في القرن السادس، اشتهر بالزهد والورع والإمامة في قراءات القرآن و الفقه، واشتهرت كراماته وتربيته لطالبي طريق الحق. تكلم الشيخ عليه في عدة مواضع من (الفتوحات) وفي (الدرة الفاخرة) (I:211–358/II:628/III:34:IV:532)، ويعتبره من شيوخه. لكنه توفي وعمر الشيخ 14 سنة. فمن الممكن أنّ الشيخ عرفه وهو صبي خلال تعلمه القرآن وقراءاته. يقول عنه ما خلاصته: [كان يدّرس بمسجد المقيبرات، زاهدا رافضا لعطايا الملوك. وكان من أقطاب الرجال النياتيين مُطبقا للحديث: " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا". فكان يسجل خواطره وأعماله وأقواله كل يوم، ويحاسب نفسه عليها قبل نومه بعد وزنها الشرعي، ويعاملها بما تستحق من استغفار وتوبة أو شكر. ثم يقضي ليلته بين نوم قليل وأوراد كثيرة. وقد عملنا أيضا بهذه المحاسبة، فكنا نقيّد كل ذلك حتى النوايا، فقلّت الخواطر والفضول، إلا فيما يعني. وكان ابن مجاهد إذا تلى القرآن في المصحف، يمشي بيده

على الحروف لتأخذ أعضاؤه حظها منه بصرا وسمعا ويدا. وكان هو وتلميذه أبو عبد الله بن قسّوم نائبه في التدريس والإمامة لا يبرح الورق والمداد والقلم معهما، يكتبان كل يوم ما قدر لهما من العلم، رغبة أن يحشرا غدا عند الله من طلاب العلم].

وابن مجاهد من الملامية الذي خصّص الشيخ لهم الباب 309، وهو باب منزل سورة القيامة التي فيها الآية: [ولا أقسم بالنفس اللوامة]، وفيه يقسّم الشيخ رجال الله إلى ثلاثة أصناف: العبّاد أهل العبادات الكثيرة الظاهرة، والصوفية أهل الأحوال والكرامات والمقامات، والملامية الذين يقول عنهم ما خلاصته: [وهذا مقام رسول الله ρ وأبي بكر الصديق τ . وممّن تحقق به من الشيوخ: حمدون القصار وأبو سعيد الخراز وأبو يزيد البسطامي. وكان في زماننا هذا أبو السعود بن الشبل و عبد القادر الجيلي ومحمد الأواني وصالح البربري وأبو عبد الله الشرفي ويوسف الشبريلي ويوسف بن تعز وابن جعدون الحناوي ومحمد بن قسوم وأبو عبد الله الشرفي وعبد الله بن المجاهد وعبد الله بن تاخمست وأبو عبد الله المهدوي وعبد الله القطان وأبو العباس الحصار ومن يضيق الكتاب عن ذكرهم (...) وهم رجال لا يزيدون عن الصلوات الخمس إلا الرواتب، ولا يتميزون عن الومنين المؤدين فرائض الله بحالة زائدة يعرفون بها. قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم طرفة عين،ولا يعرفون للرياسة طعما، لاستيلاء الربوبية على قلوبهم، وهم يعاملون كل مواطن بما يستحقه مشاهدون لسيّدهم على الدوام، يضعون الأسباب مواضعها، ويعرفون حكمتها، خالصون في فقرهم الدائم إلى الله في عين افتقارهم للأسباب. هم أرفع الرجال، وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية. وليس من حاز مقام الفتوة والخُلُق مع الله دون غيره سوى هؤلاء، فهم الذين حازوا جميع المنازل، وكان سلمان الفارسي من أجلهم وقدرا...]، ومحمد بن قسّوم من الذين صحبهم الشيخ مدة تقرب من 17 سنة، ويقول عنه ما خلاصته (ر:88): [جرى على حالة شيخه ابن

مجاهد وزاد، فجمع بين العمل و العلم. قرأت عليه ما يصلح لي من طهارة وصلاة. وسمعت دعاءه في خاتمة مجلسه أبدا: اللهم أسمعنا خيرا وأطلعنا خيرا وارزقنا اللهم العافية وأدمها لنا، واجمع اللهم قلوبنا على التقوى، ووفقنا لما تحبه وترضاه – ربّنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا –إلخ... من خواتم البقرة. ورأيت النبي ρ في المنام في الحرم الشريف وقارءاً يقرأ عليه صحيح البخاري، فلما فرغ دعا بهذا الدعاء. وهو الدعاء الذي التزمناه في خواتم مجالسنا. كان ابن قسّوم على قدم ابن مجاهد في محاسبة نفسه وتلاوته القرآن في كل أوقاته أو الصلاة وكان إماما. ولا يتأدم في الجمعة إلا مرتين. سنّي الحال والمقام، كثير المعرفة، قَلّ أن يُرى مثله. جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بن بدر الحبشي وصلّى خلفه].

وفي نفس السنة التي بدأ الشيخ فيها صحبة الشيوخ وعمره عشرون سنة، أي سنة 580 صحب أحد كبار تلاميذ ابن مجاهد، من أقران ابن قسّوم وهو أبو عمران موسى بن عمران المرتلي (ت:604). أصله من قلعة مرتلة معقل ابن قسي، انتقل إلى إشبيلية، حيث اشتهر بالزهد والعلم والأدب، وله ديوان شعر. ذكره الشيخ في روح القدس و الفتوحات بما خلاصته:

[اتفق لي في بدايتي – وما ثم إلا بداية. وأمّا النهاية فمقولة غير معقولة – دخلت على شيخنا أبي العباس العريبي وقد تكّدر عليّ وقتي لما أرى الناس فيه من مخالفة الحق فقال لي: عليك بالله. فخرجت من عنده و دخلت على شيخنا أبي عمران المرتلي، وأنا على تلك الحالة. فقال لي: عليك بنفسك. فقلت له: يا سيدنا، قد حرت بينكما، هذا أبو العباس يقول عليك بالله وأنت تقول عليك بنفسك، وأنتما إمامان دالان على الحق. فبكى أبو عمران وقال لي: يا حبيبي، الذي دلك عليه أبو العباس هو الحق، وإليه الرجوع، وكل واحد منا دلك على ما يقتضيه حاله، وأرجو عن شاء الله أن يلحقني بالمقام الذي أشار إليه أبو العباس، فاسمع منه فإنّه أَوْلى بي وبك. فما أحسن إنصاف القوم. فرجعت إلى أبي العباس، وذكرت له

مقالة أبي عمران وقال لي: أحسن في قوله، هو دلك على الطريق، وأنا دللتك على الرفيق، فاعمل بما قال لك وبما قلته لك، فتجمع بين الرفيق والطريق. كان أبو عمران قد أخذ نفسه بالشدائد، ولزم بيته سنين لا يخرج. جرى على طريقة الحارث المحاسبي، لا يقبل من أحد شيئا، ولا يطلب حاجة لنفسه ولا لغيره. وكان ينفق على المحتاج ببيع كتبه. ولّما تمّ بيعها جميعا، توفيّ بإشبيلية وأنا بالمشرق. وكان أحد الرجال الذين لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان عن ثلاثة، وهم رجال الإمداد الإلهي والكوني، ويستمدون من الحق و يمدّون الخلق بلطف ولين ورحمة. الواحد منهم فتحه دائم، مع الله واقف، هجيره " لا إله إلا هو الحي القيوم"، و الثاني له الملكوت، جليس الملائكة، له التروحن، و الثالث له عالم الملك، جليس للناس، ليّن المعاطف. وقد سمعتُ من أبي عمران بمنزله بمسجد الرضا بإشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير، وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم، لا تفعل، فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين: لا نرى ذلك من نفوسنا، ولا نؤمن به من غيرنا، وما ثم دليل يردّه، ولا قادح يقدح فيه شرعا وعقلا، ثم استشهدني على ما ذكره. وكان أبو القاسم يعتقد فينان فقررت عنده ما قاله بدليل يسلمه من مذهبه فإنّه كان محدثا، فشرح الله صدره للقبول، وشكرني الشيخ ودعا لي. وكان له أدب عظيم، مقبوض في عموم أحواله مع البشاشة لزواره، ولنا معه مواطن عجيبة. وكانت همته متعلقة بالله في عصمتنا من الفتن. وكان يباسطني، فلا يزيدني إلا تعظيما، ويتعجب من حفظي الأدب معه في حين بسطه، فيرجع من المباسطة إلى باب العبودية، فحينئذ أباسطه لسر عجيب إن تأمَّلته وقفت عليه. رأيت له رؤيا تدل على انتقاله من مقامه إلى ما هو أعلى منه فقال لي: بشرتني بشرك الله بالجنة. فما تم شهر حتى بشرني الله بالجنة بشرى قطعية]. وقد فصّل الشيخ ببراعة لم يسبق إليها معنى بسط الجلال وهيبة الجمال في الآيات القرآنية والكونية والسلوكية في كتابه (الجلال و الجمال). ومن تلاميذ ابن

مجاهد الذين صحبهم الشيخ أبو الحجاج يوسف الشبريلي، صحبة نحو عشر سنوات قبل وفاته أواخر العقد التاسع من القرن السادس، ذكره في الفتوحات وروح القدس والدرة الفاخرة بما خلاصته:

[هو من شبريل على فرسخين من إشبيلية. أكثر إقامته بالبادية. كان يعيش من عمل يده. دخل الطريق قبل الحلم. كان ابن المجاهد إمام هذه الطريقة ببلادنا يقول: التمسوا الدعاء من أبي الحجاج الشبريلي. كان ممّن يمشي على الماء، ورأيت له بركات كثيرة، دائم التلاوة للقرآن في المصحف. دخلت عليه مع شيخنا أبي محمد فقلت له: ياسيدنا، هذا من أصحاب أبي مدين. فتبسم وقال: عجب! أمس كان عندنا أبو مدين τ نِعْم الشيخ. وأبو مدين إذ ذاك ببجاية، وبينهما مسيرة 45 يوما، فكان كشفًا بينهما. وكان من طبقة الأقطاب المدّبرين، وهم من أكابر الأولياء الملامية الذين بأيدهم علم التدبير والتفصيل وهجيرهم: [يدبّر الأمر ويفصّل الآيا□]. لقيت منهم بإشبيلية أبا يحيى الصنهاجي الضرير، وكان يسكن بمسجد الزبيدي. صحبته إلى أن مات ودفن بجبل عال كثير الرياح، وشق على الناس طلوعه، فسكّن الله الريح، فلم تهب من الوقت الذي وضعناه في الجبل إلى أن وارياه. فعند انصرافنا، هبّت الريح على عادتها، فتعجب الناس من ذلك. ومنهم صالح البربري، ومنهم أبو عبد الله محمد الشرفي الذي تورمت قدماه من طول القيام، وإذا وقف للصلاة، تنحدر دموعه على بياض لحيته كأنّها اللؤلؤ. سكن موضعا نحو أربعين سنة ما أوقد نارا. وكان صاحب خطوة، وعاينت له بركات. وما من واحد من هؤلاء إلا وعاشرته معاشرة مودّة وامتزاج ومحبّة].

وفي الباب 51، يبيّن الشيخ أحوال أهل الورع الذين تحققوا بمنزل نفَس الرحمان. ويتطرق لذكر من تجالسهم الأرواح، فيذكر منهم الشبريلي قائلا ما خلاصته: [منهم من يجالسهم الروحانيون من الجان. و الكيّس من النّاس من يهرب منهم، فإنّ مجالستهم رديئة جداً، لكشفهم العورات التي ينبغي للعاقل أن لا يطلع عليها،

ويؤثرون في جليسهم التكبر على الناس. وكل عبد رأى لنفسه شفوفا على غيره تكبرا فهو ممقوت. و الجان هم أجهل العالم الطبيعي بالله، ويتخيل جليسهم بما يخبرونه من الحوادث الأكوان أنّ ذلك كرامة الله به، وهيهات لما ظنوا. ولهذا، ما ترى أحدا قط جالسهم فحصل عنده منهم علم بالله جملة واحدة. غاية الرجل الذي يصحبهم أن يمنحوه من علم خواص النبات والأحجار والأسماء والحروف، وهو علم السيمياء، فلم يكتسب منهم، إلا العلم الذي ذمّته الشرائع. وقد رأينا جماعة ممّن صحبوهم من أهل الجد والعبادة، فما زلنا بهم حتى حِلْنا بينهم وبين صحبتهم لإنصافهم وطلبهم الأنفَس. كما رأينا ضدّ ذلك منهم ، فما أفلح ولا يُفلح من هذه صفته إذا كان صادقا. وأمّا الكاذب فلا نشتغل به. ومنهم من نفَّس الرحمان عنه بمجالسته الملائكة ونعم الجلساء هم، هم أنوار خالصة لا فضول عندهم ، وعندهم العلم الإلهي الذي لا مرية فيه، فجليسهم في مزيد علم بالله دائما مع الأنفاس. فمن ادعى مجالسة الملإ الأعلى ولم يستفد في نفسه علما بربه، فليس بصحيح الدعوى، وإنّما هو صاحب خيال فاسد. ومنهم من يُنفِّس الرحمان عنه، فيأنس بالله في باطنه بتجليات دائمة، فلا يزال في كل نفَس صاحب علم بحال جديد بالله وأنس جديد. وما من طبقة ذكرناها، إلا وقد رأينا منهم جماعة من رجال ونساء بإشبيلية وتلمسان ومكة ومواضع كثيرة، وكانت لهم براهين تشهد بصحة ما يقولونه. وأمّا نحن، فلا نحتاج من أحد منهم لبرهان فيما يدّعيه، فإنّ الله قد جعل لكل صنف علامة يعرف بها، فإذا رأينا تلك العلامة، عرفنا صدق صاحبها من حيث لا يشعر. وكم رأينا ممّن يدعي ذلك كاذبا أو صاحب خيال فاسد، فإن علمنا منه أنه يرجع نصحناه، وإن رأيناه عاشقا لحاله محجوبا بخياله الفاسد تركناه. وأصدق من رأينا في هذا الباب من النساء فاطمة بنت ابن المثنى وأمّ الزهراء بإشبيلية وشمس أمّ الفقراء بمرشانة، وجلبهار بمكة تدعى ست غزالة،

ومن الرجال أبا العباس بن المنذر بإشبيلية وأبا الحجاج الشبريلي ويوسف بن صخر بقرطبة].

وكلام الشيخ هذا يكذّب الحكاية السخيفة التي رواها الذهبي في ميزان الاعتدال خلال ترجمته للشيخ، وخلاصتها أنّ الشيخ تزوج بجنّية خاصمته فشجّت جبينه!.

ومن أصحاب ابن مجاهد الذين صحبهم الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن طريف العبسي، وأبو الصبر أيوب الفهري، وشيخه عبد الجليل بن موسى القاطن بقصر كتامة.

والملاحظ في أتباع مدرسة ابن مجاهد انقطاعهم الدائم للقرآن والحديث و محاسبة النفس التي من نتائجها نفي كل الخواطر غير المفيدة. وقد لقي الشيخ أحد الأولياء الذين بلغوا الغاية في هذه النتيجة وقال عنه (666:I): [... فليس لنبي إلا ثلاثة خواطر: إلهي، وملكي، ونفسي.وقد يكون ذلك لبعض الأولياء الذين لهم جزء وافر من النبوة، كسليمان الدنبلي، لقيته وهو ممن له هذا الحال، فأخبرني عن نفسه أنّ له بضعا وخمسين سنة ما خطر له خاطر قبيح. ولأكثر الأولياء هذه الخواطر وزادوا بالخاطر الشيطاني العراقي. فمنهم من ظهر عليه حكمه في الظاهر، وهم عامة الخلق، ومنهم من لا يخطر له ولا يؤثر في ظاهره، وهم المحفوظون من أولياءه (...)] ثم ذكر قصة أحد الصالحين، لقي إبليس فقال له: كيف حالك مع الشيخ أبي مدين ؟ فأجابه: [ما شبهت نفسي في ما نلقي إليه في قلبه إلا كشخص بال في البحر المحيط! فقيل له: لم تبول فيه ؟ قال: حتى أنجسه، فلا تقع به الطهارة ! فهل رأيتم أجهل من هذا الشخص؟ كذلك أنا وقلب أبي مدين، كلما ألقيت فيه أمرا قلب عينه]. وسليمان الدنبلي هو الذي أشار الشيخ إليه في قوله: (384:II): [ولقد لقيت شخصا صدوقا صاحب حال على قدم أبي يزيد البسطامي، بل

أمكن في شغله, له إدلال في أدب. فقال لي يوما: لي خمسون سنة ما خطر لي في نفسي خاطر سوء يكرهه الشرع، فهذه عصمة إلهية]. صحب سليمان الشيخ في دمشق (410:II).

الشيخ في مدرسة أبي مدين

هو أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري، محيي الطريق في النصف الثاني من القرن السادس. وُلد في أوائل ذلك القرن بنواحي إشبيلية، وطلب العلم بفاس، فقرأ سنن الترمذي على أبي الحسن علي بن غالب (ت:568)، وصحب الصوفي أبا عبد الله الدقاق، والفقيه الصوفي ابن حرزهم (ت:559)، الذي عرَّفه بكتب الغزالي خصوصا (إحياء علوم الدّين). ثم أخذ الطريق عن الوليّ الشهير الشيخ أبي يعزى (ت:572) وسافر للحج حيث التقى – حسبما قيل – بالشيخ عبد القادر الجيلاني (ت:561)؛ فألبسه الخرقة، ولقنه الاسم الأعظم وأكمل سلوكه. ولما رجع من المشرق، استقر ببجاية، فأقبل عليه المريدون من كل فج. ثم استدعاه السلطان الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش، فمات وهو متوجّه إليها بضاحية تلمسان بالعُبّاد، وقبره بها مشهور. ربّى عددا كبيرا من الرجال، وخلّف عشرات من الشيوخ الذين واصلوا مسيرته في الطريق شرقا وغربا. واختلف في عام وفاته بين عام 589 وعام 594. والراجح عندي هو:589، لأنّ الشيخ محي الدين سافر من تلمسان إلى تونس عام 590 لزيارة عبد العزيز المهدوي بتونس، أحد خلفاء أبي مدين دون أن يمرّ في طريقه ببجاية. فهل يُعقل أن لا يزور حينئذ أبا

مدين، والشيخ يعدّه أكبر شيوخه ؟ والحجة الأقوى في نظري هي قول الشيخ في عنوان الباب 556(195:IV): [في معرفة حال قطب كان منزله [تبارك الذي بيده الملك]، وهو من أشياخنا درج سنة 589 رحمه الله]. ثم يواصل: كان هذا الهجير المقام لشيخنا أبو مدين رحمه الله . وكان يُعرف في العالم العلوي بأبي النجا، وبه يسميه الروحانيون. وكان يقول τ: سورتي من القرآن[تبارك الذي بيده الملك] ومن أجل هذا، كنا نقول فيه أنّه أحد الإمامين، لأنّ هذا هو مقام الإمام]. يعني أنّ أبا مدين كان الإمام الأوّل لقطب الزمان في وقته، وهو ما كرره في (مواقع النجوم)، وفي كتاب (منزل قطب الإمامين)، حيث يقول: [وفي هذا المقام عاش الشيخ أبو مدين ببجاية إلى قرب موته بساعة أو ساعتين، خلعت عليه خلعة القطبية، ونزعت عليه خلعة الإمامة، وصار اسمه عبد الله، وانتقلت خلعته باسم عبد الرب إلى رجل ببغداد اسمه عبد الوهاب. وكان الشيخ أبو مدين قد تطاول له بها رجل من بلاد خراسان. مات الشيخ قطبا كبيرا، وكان له من القرآن [تبارك الذي بيده الملك]].

والشيخ يعتبر أبا مدين من أكبر شيوخه إن لم يكن هو أكبرهم على الإطلاق، رغم أنّه لم يجتمع به جسديا، وإنّما كان على صلة روحية وثيقة. بل يمكن القول إنّ السنوات العشر الأولى من دخول الشيخ للطريق رياضة وسلوكا (من 580 إلى 589)، كانت جلها في دائرة روحانية أبي مدين. فجل الشيوخ والأولياء الذين صحبهم في المغرب العربي و الأندلس – وقد عدّ منهم أزيد من السبعين في (روح القدس) و (الدرة الفاخرة) –كانوا من أصحاب أبي مدين، أو من مدرسة ابن

المجاهد وابن العريف. ومن المحتمل أنّ أبا مدين هو الذي أخبر الشيخ عنه أنه اجتمع به برزخيا وقال عنه أنّه قال له (573II):

[لا تنتم إلا إلى الله، فليس لأحد ممّن لقيته عليك يد ممّا أنت فيه، بل الله تولاك بعنايته، فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسب إليهم وانتسب إلى ربك. وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء، لم يكن لأحد ممّن لقيه عليه يد في طريق الله إلا الله. هكذا نقل لي الثقة عندي عنه، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه].

وذكر الشيخ في الفتوحات أحوال وأقوال أبي مدين في العشرات من المواقع منها:
(I:102-110-145-184-221-244-251-252-253-256-448-480-609-610-615-629... /II:22-83-146-148-171-199-201-233-261-505-520-52-551-/646 III:65-93-94-117-130-136-213-396/IV:51-137-141-19-195-264-340-377-485-532...)

وفي كتابه (محاضرة الأبرار)أورد ما رواه الموروري عن أبي مدين (I: 110 – 145 – 173 – 188 – 199 - - // II: 31-148-175...الخ) كما ذكره في كتاب (الأسفار) وفي (كتاب الكتب).

ويبّين الشيخ علاقته بأبي مدين عند ترجمته لأحد أصحابه، وهو موسى بن عمران السدراني، الذي اجتمع به عام 586 فيقول عنه (ر:7:II/113): [كان من الأبدال، وكان مجهولا، له عجائب و غرائب. كان سبب اجتماعي به و الشيخ في ذلك الزمن ببجاية مسيرة 45 يوما. فلما صليت المغرب تنفلت ركعتين خفيفتين. فلما سلمت، دخل عليّ هذا أبو عمران، فسلم فأجلسته إلى جانبي وقلت من أين؟ فقال: من عند الشيخ أبي مدين من بجاية. قلت متى عهدك به ؟ قال: صليت معه هذا المغرب، فردّ وجهه إليّ وقال: إنّ محمدا بن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا،

فَسِر إليه الساعة وأخبره عني بكذا وكذا، وذكر ما خطر لي من رغبتي في لقاء الشيخ، وقال لي: يقول لك: أمّا الاجتماع بالأرواح، فقد صح بيني و بينك وثبت، وأمّا الاجتماع بالأجسام في هذه الدار، فقد أبى الله ذلك فسكّن خاطرك، والموعد بيني و بينك عند الله في مستقر رحمته، وذكر كلاما خلاف هذا ورجع إليه. كان موسىτ من أهل السعة في الدنيا، فخرج عنها , ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوما والتحق بالأبدال. كان يتبوأ من الأرض حيث يشاء، وجيءَ به إلى السلطان، فأمر بتقييده، فقيد بالحديد وسير به إليه، فلما قرب من فاس، ألقي في بعض المنازل في بيت وأقفل عليه وبات عليه الحرس. فلما أصبح الصبح، فتح الباب فوجدوا الحديد الذي كان عليه مطروحا وما وجدوا أحدا. دخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب فقرع عليه الباب فخرج الشيخ بنفسه وقال له: من أنت ؟ قال: أنا موسى. قال له الشيخ: وأنا شعيب، ادخل نَجَوْتَ من القوم الظالمين... أخبرني شيخي أبو يعقوب الكومي عنه أنّه وصل جبل قاف المحيط بالأرض، فصلّى الصبح على أسفله، وصلى العصر على ذروته. سئل عن ارتفاعه في الهواء، فقال مسيرة ثلاثمائة سنة. وأخبر أنّ الله طوّق هذا الجبل بحية اجتمع رأسها بذنبها، فقال له صاحبه الذي معه: سلم على هذه الحية ترد عليك، قال موسى: فسلمتُ عليها فقالت: وعليك السلام يا أبا عمران، كيف حال الشيخ أبي مدين ؟ فقلت لها: وأنى لك بمعرفة أبي مدين؟ فقالت: عجبا ! وهل على وجه الأرض من يجهل حاله ؟ إنّ الله تعالى قد أنزل حبّه إلى الأرض ونادى به، فعرفته أنا وغيري فلا شيء من رطب ولا يابس إلا ويعرفه ويحبّه (II:334 منزل سورة ق).

وأبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي هو أيضا من أوائل شيوخ الشيخ، ذكره في (روح القدس) وفي (الفتوحات) (45:III/616-251:I)، وخلاصة ما قاله عنه: [صحب أبا مدين وكان شديد التعظيم له. ولقي رجالا، سكن مصر وتأهّل بالإسكندرية، رغب في مصاهرته أبو الطاهر السلفي. عُرضت عليه ولاية فاس فأبى. له في الطريق قدم راسخة. كان أبو مدين لسان هذه الطريقة ومحييها بالمغرب يقول فيه: " أبو يعقوب مثل المرساة القوية للسفينة" كان كثير الأوراد، يخفي صدقته، دائم الخدمة للفقراء. دخلت تحت أمره، فربّى وأدّب، فنعم المؤدّب و المربّي. كبير الهمة، الغالب عليه إخفاء أحواله. جلّ ما أنا فيه ببركته و بركة أَبي محمد المورورى. أوّل مسالة ألقاها عليّ في أول ساعة رأيته فيها و قد أقبل عليّ بكليته أن قال: ما الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلي حتى يود أن يقف أربعين خريفا ؟ فأجبته على ذلك على حدّ ما وقع له، فسر بذلك. و لما صاحبته، لم أكن قط أدري لفظة التصوف على ماذا تنطلق، ولا رأيت كتابا في التصوف. كنت إذا قعدت بين يديه وبين يدي غيره من شيوخنا، ارتعد مثل الورقة في يوم الريح الشديد، ويتغير لوني، وتتخدّر جوارحي، حتى يعرف ذلك في حالي، فيؤنسني ويطمع أن يباسطني، فلا يزدني ذلك إلا إجلالا. كان يحبّني ولا يظهر ذلك لي، بل يوبخني في المحافل، حتى كان أصحابي الذين معي ينسبونني إلى قلة الهمة، وهم معي في خدمته، فما برع من تلك الجماعة غيري ولله الحمد. وكان الشيخ يقول ذلك. وقعت لي معه كرامات وشهدتها منه. وكان من صدقي في محبته أنّي أتمناه بالليل في بيتي لمسألة تخطر لي، فأراه أمامي، فأسأله ويجيبني، ثم ينصرف فأخبره بذلك بكرة. ومناقبه أكثر من أن تحصى. سمعته يقول:" إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين، وألقاه في عليين في لحظة واحدة". وكان يقول:" بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود، ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها. فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم

نرجع، فإنّ وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه. وهو قول أبي سليمان الداراني:" لو وصلوا ما رجعوا".وأفادني شيخنا هذا مسالة الوصال، و إّذا أحب الله عبدا ابتلاه، وأنا سيّد ولد آدم، وآدم من دونه تحت لوائي، والتدبير نصف المعيشة، وقلب القرآن **يس**. و لقد كنت انقطعت في القبور مدة، منفرد بنفسي. فبلغني أنّ شيخنا هذا قال: إنّ فلانا، وسماني، ترك مجالسة الأحياء و راح يجالس الأموات. فبعثت إليه: لو جئتني لرأيت من أجالس. فصلى الضحى وأقبل إليّ وحده، فوجدني بين القبور قاعدا مطرقا، وأنا أتكلم على من حضرني من الأرواح. فجلس إلى جانبي بأدب قليلا قليلا، فنظرت إليه، فرأيته قد تغير لونه وضاق نفسه. فكان لا يقدر يرفع رأسه من الثقل الذي نزل عليه، وأنا أنظر إليه وابتسم ، فلا يقدر أن يتبسم لما هو فيه من الكرب. فلما فرغت من الكلام وصدر الوارد، خفف عن الشيخ واستراح، وردّ وجهه إليّ فقبّل بين عيني، فقلت له: يا أستاذ من يجالس الموتى، أنا أو أنت ؟ قال: لا والله بل أنا أجالس الموتى، والله لو تمادى عليّ الحال فطست، وانصرف وتركني. فكان يقول: من أراد أن يعتزل من الناس فليعتزل مثل فلان. وحين فارقته وأنا متوجه إلى مراكش عام 597 وهو بسلا، نظمت فيه قصيدة أودعتها كتاب: (إنزال الغيوب على مراتب القلوب فيما لنا في هذه الطريقة من نظم و نثر خاصة)].

ومن هذا النص، تظهر مرة أخرى علاقة الشيخ بمن يسميّهم شيوخه؛ فهذا يوسف الكومي، رغم اعتراف الشيخ بأنّ جل ما هو فيه من بركته وبركة المورورى، يريه من الأحوال ما لا يعرفها، و يختلي بالأرواح بدون إذنه. وقد أفصح الشيخ عن حقيقة علاقته بشيوخه في نصّه التالي، حيث يقول عن شيخه الكومي إنّه كان تلميذا له وأستاذا في نفس الوقت. يقول (616:I):

[... فالمريد صاحب التربية يكون الشيخ قد أهّله وخصّه بذكر مخصوص لنيل حالة مخصوصة ومقام خاص، فمات قبل تحصيله. فمنّا من يرى أنّ الشيخ لما كان وليّه وقد حال الموت بينه وبين ذلك المقام الذي لو حصل له نال به المنزلة الإلهية التي يستحقها ربّ ذلك المقام، فيشرع الشيخ في العمل الموصل إلى ذلك المقام نيابة عن المريد الذي مات. فإذا استوفاه، أحضر ذلك الميت إحضار من مثّله في خياله بصورته التي كان عليها، وألبس تلك الصورة الممثلة ذلك الأمر، وسأل الله أن يبقي ذلك عليه، فحصلت نفس ذلك الميت في ذلك المقام وعلى أتمّ وجوهه منّة من الله وفضلا، والله ذو الفضل العظيم. وهذا مذهب شيخنا أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي، وما راضني أحد من مشائخي سواه، فانتفعت به في الرياضة، وانتفع بنا في مواجيده. فكان لي تلميذا وأستاذا، وكنت له مثل ذلك. وكان الناس يتعجبون من ذلك، ولا يعرف واحد منهم سببا لذلك، وذلك سنة 586، فإنّه كان قد تقدّم فتحي على رياضتي، وهو مقام خطر، فأفاء الله عليّ بتحصيل الرياضة على يد الشيخ جزاه الله عنّي كل خير].

أمّا الموروري الذي ذكره الشيخ مع الكومي، وأنّ جلّ ما فيه من بركتهما، فهو أيضا من تلاميذ أبي مدين، وأكمل سلوكه عند الشيخ. يقول عنه ما خلاصته (I:666/IV:76-217-510/ ر:99/S:119) : [هو أبو محمد عبد الله بن الأستاذ الموروري من مورور بالأندلس. واحد عصره من ثقته بالله وعظيم إخلاصه. صحب أبا مدين وابن سيدبون، وحجّ مع عبد الرزاق المغاور، وصحب بمكة أبا عبد الله بن حسان. كان أبو مدين يحبّه جدا، ويسميه الحاج المبرور. قال له يوما: " يا عبد الله، كبر عليّ دعائي الناس إلى الله، ولا يجيب أحد، وأريد أن أصطفيك لنفسي، وتخرج معي على بعض الجبال، فألزم مغارة تصحبني فيها إلى أن أموت. قال: ففرحت بذلك و علمت أنّ لي عند الله مكانا. فلما كان في الليل، قال عبد الله:

نمتُ فرأيت الشيخ في النوم إذا تكلم على الناس صار شمسا، وإذا سكت صار قمرا. فقصصتها عليه بكرة فتبسم وقال: الحمد لله ! يا ولدي، أريد أن أكون شمسا، فإنّ الشمس تفني كل ظلمة و تكشف كل كربة ". ولقد أطلعني الله عز وجل ليلة على مقامات، ومشى بي عليها، حتى وصلت مقام التوكل، فرأيت شيخنا هذا عبد الله وسط ذلك المقام، والمقام يدور عليه كدوران الرحا على قطبها، وهو ثابت لا يتزلزل، فكتبت له بذلك. ورأيت له كرامات من طي الأرض، ورزق الغيب، وفعل بالهمة. وكان له أخ مات، فرآه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أدخلني الجنة، آكل وأشرب وأنكح. قال له ليس عن هذا أسالك، هل رأيت ربك ؟ قال: لا يراه إلا من يعرفه. واستيقظ، فركب دابته، وجاء إلينا إلى إشبيلية، وعرّفني بالرؤيا ثم قال لي: قد قصدتك لتعرّفني بالله. فلازمني حتى عرف الله بالقدر الذي يمكن للمحدث أن يعرفه به عن طريق الكشف والشهود، لا من طريق الأدلة النظرية. وتركته على قيد الحياة لما فارقت الوطن]. أي لمّا فارق الأندلس عام 597، قبل سنة 590، وكتب الشيخ بمورور كتابه (التدبيرات الإلهية) في أربعة أيّام، وأهداه لصاحبه هذا قطب التوكل في زمانه.

ومن تلاميذ أبي مدين الآخرين الذي صحبوا الشيخ أبو أحمد السلاوي. قال عنه ما خلاصته (ر:118) [وصل إلينا إلى إشبيلية، وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب. كان قوي الحال، صحب أبا مدين 18 سنة. كان كثير الاجتهاد و العبادة، شديد البكاء. بت معه شهرا كاملا بمسجد ابن جراد، فقمت ليلة أريد أن أصلي، فتوضأت وجئت إلى سقف المسجد، فرأيته نائما عند باب السقف والأنوار متصلة منه إلى السماء (...) كان إذا بكى أجد لدموعه رائحة المسك].

والملاحظ أنّ مدار التربية في مدرسة أبي مدين حول التحقق بالتوحيد والتوكل، والاستغراق الدائم في ذكر الاسم الأعظم المفرد (الله)، كما يظهر في قصيدة مشهورة تنسب لأبي مدين مطلعها:

الكامل

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنتَ مرتادا بلوغ كمال

وقد بيّن الشيخ ثمرات ذكر الاسم المفرد (الله) وغيره من الأذكار النبوية الأساسية في كتاب نفيس موجز عنوانه (نتائج الأذكار في المقرّبين والأبرار) كتبه في دمشق خلال السنوات الخيرة من حياته.

ووصف الشيخ حالا وقع له في بدايته عند ذكره للاسم فقال (298:III): "...فيظهر الحق حتى يكون سمعه و بصره. وهذا المسمّى علم الذوق. فإنّه لا يكون الحق شيئا من هذه الأدوات، حتى تحترق بوجوده، فيكون هو لا هي. وقد ذقنا ذلك، ووجدت الحرق حسا في ذكري الله بالله، فكان هو لم أكن أنا. فأحسست بالحرق في لساني، وتألمت لذلك الحرق تألما حسيا حيوانيا، لحرق حسي قام بالعضو. فكنت ذاكرا الله بالله في تلك الحالة ست ساعات أو نحوها، ثم أنبت الله لي لساني، فذكرته بالحضور معه لا به. وهكذا جميع القوى (...) و من لم يشاهد الحرق في قواه و يحسه وإلا، فلا ذوق له، وإنما ذلك توهم منه. وهذا معنى قوله في الحجب الإلهية: لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه (...) وهذا أعظم اتصال يكون من الله بالعبد، حيث يزيل قوة من قواه، ويقوم بكينونته في العبد على ما يليق بجلاله، من غير تشبيه و لا تكييف ولا حصر ولا إحاطة ولا

حلول ولا بدلية، وما شهدنا إلا بما علمنا (...) والله يؤيدنا بالعصمة في الاعتقاد والقول والعمل، إنّه وليّ الرحمة].

فالشيخ هنا يذكر تحققه بنتيجة التقرب إلى الله تعالى بالنوافل حسبما ورد في الحديث القدسي الصحيح : [... كنت سمعه وبصره...]...

[وأهم المسائل التي أوردها الشيخ وناقشها من كلام أبي مدين هي التالية:

– قطبيته ومقامه (I: 480-654-666/II:201-233/IV:485).

– قوله في تمسح الناس به (III: 136).

– الأولياء غير محفوظين من خواطر الشيطان (I:666).

– قوله في الآية: [فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب] (I:629).

– فهمه للآية [وما أوتيتم من العلم إلا قليلا] (I:253)

– قوله عن العلم الوهبي: أطعمونا لحما طريا (I:280/II:505).

– قوله في أهل الحنة وأهل النار (II:648/III:117)

– حث تلاميذه على إظهار الطاعة (I:590/II:11-520).

– قوله: سر الحياة سرى في الموجودات كلها (IV:264).

– قوله في المشاهدة وفي سر الباء (I:102-448/III:396).

– صدق المريد وعلامات وجوده للحق (I:251).

– قوله : لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد (III:93-94/IV:377).

– قوله: إن من الرجال من يحن في نهايته إلى بدايته (II:551).

– تعليقه على ما دار بين الخضر وموسى عليهما السلام (II:261)

– قوله: من صح توكله في نفسه صح توكله في غيره (I:356/II:199).

– كلامه في التوحيد نقل الشيخ منه فصولا طويلة في كتاب (محاضرة الأبرار).

ولما توفي أبو مدين سنة 589، رثاه الشيخ بقصيدة أوردها في ديوانه الكبير تتألف من 51 بيتا: على عدد اسم (أبو النجا شعيب أبي مدين) بحساب الجمل الصغير :

1- ضياؤك نور الشمس بل هو أرفع وكفك سيب الغيث بل هو أنفع

2- وقلبك قلب الهاشمي وراثة وعلمك ذو السبطين ما فيه مدفع

3- وأمرك فاروق فينفذ بالذي تشاء ولا خلق هنالك يدفع

4- وسرك يسري في الوجود خلافة فيُحفظ قسط العدل فيه ويُرفع

15-أبا مدين دان الوجود تواضعا لمجدك والأسرار خرس وخشع

22-وأحييت رسم الدين في الغرب فازدهى وقِدْمًا رأته أعين وهو بلقع

23-فأجريت فيهم سر روحك فاستوى وما زال يعدوه مصيف ومربع

24-وقمت بميزان الشريعة حاكما وبينت منها ما يضر وينفع

25-دعوت الورى لله دعوة عارف به لا يرى شيئا سوى الله يصنع

47-سقى جدثا ضم المكارم و العلى من الغيث صوب مسجم ليس يقلع

50-عليك سلام الله ما حن تائق إلى الملإ الأعلى لكم ومودع

الفصل الرابع

سياحات الشيخ في المغرب الإسلامي

أوّل سياحات الشيخ في المغرب الأقصى

الطويل

تَغَرّبْ عن الأوطان والحال بالحق عساك تحوز الأمر في مقعد الصدق

(527:II)

كأنّ قول أبي مدين للشيخ إنهما لن يجتمعا بالجسد في الدنيا، يشير إلى أنّه لا ينبغي للشيخ أن يغادر الأندلس إلا بعد وفاة أبي مدين. وبالفعل، ففي عام 589 الذي توفي فيه أبو مدين – على الراجح – شدّ الشيخ الرحال نحو المغرب.

وأوّل منزل نزله قبل إبحاره كان بالجزيرة الخضراء بالقرب من مضيق طارق. فزار فيها الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن أحمد بن طريف العبسي، شيخ أبي عبد الله القرشي (ت:599). يقول الشيخ عنه (ر:119-120/I:617): [... كان سمح الخلق، لين الجانب، قائلا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، من أهل الجد و الاجتهاد. كان يحنّ إلى العزلة و لا يقدر عليها من أجل الحرفة. كان يبيع الفخار. قيّد كثيرا من كتب الطريق. كانت المعاملة غالبة عليه، يحب المعارف و يحن إليها. كان سبب موته أنّ رجلا مر به فقال له: يا سيدي مرّ عليك فلان يسأله عن إنسان من هذا

البلد، وكان ذلك قد ابتلاه الله في عنقه بداء نسميه عندنا نفنفه، فلم يعرفه الشيخ جدا، فألحّ عليه الرجل في السؤال فقال له: أراك والله تسأل عن ذلك الرجل صاحب النفنفة في عنقه، قال: عنه أسال. قال الشيخ: فناداني الحق في سرّي: يا إبراهيم ما تعرف عبادنا إلا بما نبتليهم به ما كان له اسم تذكره به لأميتنك بها، فأصبح وقد خرجت في عنقه، فقاساها يسيرا ثم مات رحمه الله تعالى. أخبرني بهذه الحكاية ابنه محمد بالحرم. وقال لي: قال لي أبي: ما غلطت في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة].

ويقول عنه في الدرة الفاخرة (142:S) إنّه صاحب أبا النجا، وأبا الربيع، وابن عبد الجليل وقضيب البان الموصلي. وشيخه أبا الربيع المالقي الضرير من تلاميذ ابن العريف وذكر الشيخ عنه (508:III) أنّه كان شيخ أبي عبد الله القرشي، وأنّه كان إذا نام يوم الاثنين خاصة تنام عيناه ولا ينام قلبه. وقد كان القرشي من كبار شيوخ الطريق أصله هو أيضا من الجزيرة الخضراء واستقرّ بمصر. وابن عبد الجليل بن موسى (ت: 608) مؤلف مسائل شعب الإيمان هو تلميذ لابن غالب القرشي (ت: 568) الذي هو تلميذ لابن العريف. ومن الجزيرة الخضراء أبحر الشيخ إلى سبتة بالساحل المغربي حيث حضر دروسا في الحديث كان يليقيها ثلاثة من كبار رجال الحديث هم:

1 – أبو عبد الله محمد بن عبيد الله الحجري (ت: 597) (334:III/32:I) الذي أجازه في صحيح البخاري في رمضان من العام 589.

2 – ابن الصّائغ – من ذرية أبي أيوب الأنصاري – (ت:600) وهو من تلاميذ أبي الربيع المالقي في الطريق عرّفه الشيخ بقوله (ر:123): [أبو الحسين يحي بن الصائغ بسبتة من المحدّثين وهو صوفي. محدث صوفي. كبريت أحمر له بركات كثيرة.

عاشرته كثيرا ووريت عنه وقرأت عليه كان زاهدا متجردا]. وقد ذكره في الفتوحات (II:528/III:334/IV:489) وروي عنه قوله: " لآكل الدنيا بالدف و المزمار خير لي من أن آكلها بالدّين".

3 – أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري (ت:609). أخذ الفقه و الحديث عن ابن حبيش وابن بشكوال. وصحب في الطريق ابن مجاهد (ت:574) وابن غالب (ت:568) – وهو أحد تلاميذ ابن عريف ، وأبي يعزى (ت:572) وأبي مدين (ت:589). واستشهد بالأندلس في واقعة العقاب التي انهزم فيها جيش محمد الناصر الموحدي في منتصف صفر عام 609.

وكان يحضر مع الشيخ مجالس هؤلاء المحدثين قاضي سبتة أبو إبراهيم بن يغمور (ت: 609) الذي تولى القضاء بفاس وغيرها، وفقد في واقعة العقاب. يقول الشيخ عنه (III: 333–334):[الذي يغضب الله، لا يمكن أن يكون إلا عادلا ومقسطا، لا جائرا ولا قاسطا. وعلامة من يدعي هذا المقام، إذا غضب لله وكان حاكما وأقام الحد على المغضوب عليه، يزول عنه الغضب على ذلك الشخص عند الفراغ منه، وربّما قام إليه وعانقه وآنسه وقال له: أحمد الله الذي طهرك، وأظهر له السرور والبشاشة، وربّما أحسن إليه بعد ذلك. هذا ميزانه، ويرجع لذلك المحدود رحمة كله. وقد رأيت ذلك لبعض القضاة ببلاد المغرب، قاضي مدينة سبتة، يقال له أبو إبراهيم بن يغمور. وكان يسمع معنا الحديث (...) وما كان يأتي إلى السماع راكبا قط، بل يمشي بين الناس. فإذا لقيه رجلان قد تخاصما وتداعيا إليه، وقف إليهما وأصلح بينهما، غزير الدمعة، طويل الفكرة، كثير الذكر، يصلح بين القبيلتين بنفسه، فتصطلحان ببركته].

وفي سبتة، اجتمع الشيخ أيضا بابن جبير الذي تحقق بأدب الحق، حسبما ذكره الشيخ في الباب 168 من الفتوحات، وهو باب معرفة مقام الأدب وأسراره، فيقول: [أدب الحق وهو الأدب مع الحق في اتّباعه عند من يظهر عنده و يحكم به، فترجع إليه وتقبله ولا ترده، ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة، وظهر الحق عند من هو أصغر منك سنا أو قدرا، أو ظهر الحق عند معتوه ،تأدبت معه وأخذت عنه واعترفت بفضله عليك فيه. هذا هو الإنصاف، وما رأيت من تحقق بهذا خلقا في عمري إلا سيد واحد، يقال له أبو عبد الله بن جبير، لقيته بمدينة سبتة وقصر كتامة، وهو جزء من آداب الشريعة، فإن أدب الشريعة هو الأم لباقي الأقسام.]

وفي سبتة أيضا اجتمع بالشيخ ابي الحسن علي المسفر الذي وصفه في (محاضرة الأبرار I:224) بقوله: [كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر،حكيما، عارفا، غامضا في الناس، محمود الذكر، رأيته بسبتة، له تصانيف، منها «منهاج العابدين» الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك كتاب «النفخ والتسوية» الذي يعزى لأبي حامد أيضا ويسميه الناس (المضنون الصغير). ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة وهي هذه (26بيتا)

قل لإخوان رأوني ميتا فبكوني إذا رأوني حزنا

ومن سبتة عزم الشيخ على التوجه إلى تونس بأمر باطني أكّده له أحد أصحابه من طبقة الأبدال السبعة في الدوائر العليا للأولياء (7:II) وهو الذي يقول الشيخ عنه باختصار (ر:133:S/110):

[هـو أبـو عبـد الله محمـد بـن أشـرف الرنـدي، مـن الأبـدال. يسـيح في الجبـال و السواحل، لا يأوي إلى معمور قريبا من 30 سنة. كان قوي الفراسة، كثير البكاء، طويل القيام، دائم الصمت والتفكر، لصدره أزيز، شديد الوجد. كثيرا ما يقعد على جبل شامخ، فيُرى له عمود من نور يتشعشع. وكان يحترف بجمع البانيبا من الجبال فيبيعها. كان رحمة للعالم. له غرائب وعجائب عاينتها له. منها أنّ النار لا تعدو عليه، فيمسكها كما يشاء. وكنا مرة خارج مرشانة، وأردنا الصلاة، فاختلفنا في القبلة فقال: هاهي الكعبة. فرأيت حينئذ الكعبة ، وحولها الطائفون، ورأيت حذوها شخصا أعرفه. عاشرت هذا البدل زمانا، فكان إذا وقعت عيناه عليّ فرح واستبشر. أوّل ما لقيته، كان يوم الجمعة بمسجد قرية يقال لها روطة بساحل الأندلس – وهو موضع يطرقه الصالحونَ وله بركة مشهورة – فأخبرني بأمور كثيرة بكل ما يتفق لي بعد مفارقته. فكان ذلك كذلك حرفا حرفا، ووعدني أن ألقاه بإشبيلية، فأقمت معه ثلاثة أيام وانصرفت. ثمّ أرسل إليّ قائلا: " لقد خطر لك الساعة أن تسير إلى تونس، فسر مسلما عافاك الله ".

ومن سبتة اتجه الشيخ إلى تلمسان حيث زار قبر الشيخ أبي مدين وقبر خاله يحي بن يغان، وفيها اجتمع بشاعر متصوف ذكره في قوله (379:I):

[فكل متردد بين هَوَاءَيْن لا بد من هلاكه، كما قال صاحبنا أبو زيد عبد الرحمن الفازازي رحمه الله: أنشدنيها لنفسه بتلمسان سنة 590). (توفي هذا الشاعر عام 627) .

السريع

هوى صحيح وهواء عليل صلاح حالي بهما مستحيل]

وفي تلمسان أيضا اجتمع الشيخ بأبي عبد الله الطرسوسي من أهل الذكر (175:S)، وحصلت بينهما واقعة رواها في قوله (IV: 498): [وإياك وبغض من ينصر الله ورسوله أو يحبّ الله ورسوله. ولقد رأيت رسول الله ρ سنة تسعين وخمسمائة في المنام بتلمسان، وكان قد بلغني عن رجل أنّه يقع في الشيخ أبي مدين، وكان أبو مدين من أكابر العارفين، وكنت أعتقد فيه وكنت فيه على بصيرة. فكرهت ذلك الشخص لبغضه في الشيخ أبي مدين. فقال لي رسول الله ρ: لم تكره فلانا ؟ فقلت: لبغضه في أبي مدين. فقال لي: أليس يحبّ الله ويحبنيّ؟ فقلت له: بلى يا رسول الله، إنّه يحب الله ويحبك. فقال لي: فلم بغضته لبغضه أبي مدين وما أحببته لحبّه الله ورسوله ؟ فقلت له: يا رسول الله، من الآن إني والله زللت وغفلت، والآن فأنا تائب وهو من أحبّ الناس إليّ، فقد نبّهت ونصحتَ صلى الله عليك. فلما استيقظت أخذت معي ثوبا له ثمن كثير أو نفقة لا أدري. وركبت وجئت إلى منزله، فأخبرته بما جرى، فبكى وقبل الهداية، وأخذ الرؤيا تنبيها من الله، فزال عن نفسه كراهته في أبي مدين وأحبه، فأردت أن أعرف سبب كراهته في أبي مدين مع قوله بأنّ أبا مدين رجل صالح فسألته فقال: كنت معه ببجاية، فجاءته ضحايا في عيد الأضحى،فقسّمها على أصحابه وما أعطاني منها شيئا. فهذا سبب كراهتي فيه ووقوعي، والآن قد تبت. فانظر ما أحسن تعليم النبي ρ فقد كان رفيقا رقيقا].

ومنن الذين لقيهم الشيخ بتلمسان، صانع ماهر للقسي، ذكره خلال إشارته للآية 45 من سورة غافر: [فوقاه الله سيئات ما مكروا] (180:III). فقال: [... علم الجبن وإعادة السهام على راميها. وقد عاينت هذه النبال بمدينة تلمسان من عالم بصنعة الرمي، وإنشاء القسي والنبال، فرأيته يرمي بالسهم فإذا انتهى السهم إلى

مرمـاه، عـاد إلى الرامـي وحـده، فكـان ذلـك عـبرة في كـون الأعمـال ترجـع إلى عامليها].

ومن تلمسان، شدّ الشيخ الرحال إلى تونس.

الشيخ في أوّل زيارة لتونس ونيله الإرث المحمدي

الطويل

أنا وارث لا شك علم محمد وحالته في السّر مني وفي الجهر

علمت الذي قلنا ببلدة تونس بأمر إلهي أتاني في الذكر

(دي:311)

لما نزل الشيخ بتونس عام 590، مكث فيها نحو سنة بصحبة شيخين من خلفاء أبي مدين، هما عبد العزيز المهدوي وشيخه ابن خميس الكناني الجراح.

ذكر الشيخ ابن خميس في الفتوحات (I:10–186) وروح القدس (ص:125) والدرة الفاخرة (S:175) وخلاصة ما قال فيه:

[هو أبو محمد عبد الله بن خميس الكناني جرائحي بمدينة تونس، كان من سادات القوم، مرابطا بمرسى عبدون، لقيته وزرته حافيا على قدميّ في شدّة الحر، تأسيا بشيخي أبي يعقوب الكومي وأبي محمد المورورى، قالا لي: إنهما زاراه على هذه الحالة. ألهمه الله بقدومي إليه، فاستقبلني مستبشرا وهو يتوكأ على عصا لكبر سنّه قبل وصولي عنده. جلست معه أياما نتذاكر في المعارف، وصحبته مدة أقل بقليل من عام. وقبل أن أفارقه، أمرني أن أكتم حاله عن عبد العزيز المهدوي وغيره. وكان يجتمع بالخضر υ الذي لقيته أنا أيضا بتونس]. وتوفي ابن خميس في نفس هذه

السنة التي صحبه فيها الشيخ أي عام 590 (146:A). وكان قد سلك الطريق عند أبي مدين الذي كان يعظمه ويحبّه، حتى قال مرة معبرّا عن شوقه له: " لو كان لي جناح لطرت إلى الجرّاح".

ويقال: إن أبا مدين قد استقر في تونس عند رجوعه من الحج. وكان يجتمع في مسجد سوق السكاجين المعروف باسمه إلى اليوم بالشيوخ: أبي يوسف الدهماني (ت:621)، وأبي محمد صالح بن عبد الخالق التونسي، والطاهر المزوغي (ت:646)، وأبي عبد الله محمد الدباغ والد عبد الرحمن الدباغ صاحب كتاب معالم الإيمان (ت:618)، والشيخ جراح ابن خميس. وفي كتاب المعالم أنّ عبد العزيز المهدوي ومحمد الدباغ والدهماني التحقوا بأبي مدين في بجاية. أمّا المهدوي فيصفه ابن قنفذ في (أنس الفقير)، (ص:97-98) بقوله:[الشيخ الإمام العارف بحر الأنوار معدن الأسرار أبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر τ .دخل خلوته بقصر المنستير واصل أربعين يوما. فقال إمام جامع المهدية: إن مات عبد العزيز فلا يصلى عليه، لأنه قتل نفسه، يعني بالجوع. فبلغ ذلك عبد العزيز فقال: وهو يموت وعبد العزيز يصلي عليه، فكان كما قال. وسيق له بعد هذه المدة حسو، فما استطاع أن يسيغه وقيل له: كيف أنت ؟ فقال: حييتُ حياة لا أموت بعدها أبدا، ارتحل إلى بجاية برسم لقاء الشيخ أبي مدين ليكمل تربيته في ستة من الأخيار (...) وقال الشيخ أبو مدين τ : " عبد العزيز سبُع النفوس (...) ". وله الكتابه الحسنة و الشعر الرائق، وكان بينه وبين الشيخ أبي مدين τ مكاتبات ومراسلات...].

وقال عنه النبال في كتابه (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ص:219): [وتلامذة المهدوي كثيرون. منهم أبو سعيد الباجي، وهو الذي تولى غسله بعد

وفاته وصلى عليه ولحده في قبره بمرسى جراح. وقبر المهدوي مشهور بالمرسى، وبجواره قبور الكثيرين من أصحابه، وكان قبره بدون قبة إلى أن شيد حسين بن علي الحسيني قبة على ضريحه]. ثم ذكر له صلاة على النبي ρ

منها: [اللهم صلّ على لوح رحمانيتك الذي كتبت فيه بقلم رحمتك: [وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] اللهم صل على عرش استواء أسمائك من حيث إحاطة ألوهيتك. رحمتك الشاملة وبركتك الكاملة من قولك: [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] صل ربّ العالمين على رحمة العالمين. اللهم صل على إنسان عين الكل في حضرة وحدانيتك وجمع أحديتك من حيث إحاطة قولك: [يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا و بشر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلا كبيرا]فكان المبشر عين المبشر به، وافتح اللهم أقفال قلوبنا بمفتاح حبه، وكحل أبصار بصائرنا بإثمد نوره، وطهر أسرار سرائرنا بمشاهدته وقربه، حتى لا نرى في الوجود إلا أنت بهْ، ومن غفلتنا ننتبهْ (...) اللهم صل على نورك المستشفع بالأسماء في حضرة المسمّى، فكان عين مظاهرها الوجودية من حيث إحاطة علمك، وعين أسرارها الجودية من حيث إحاطة كرمك، وعين اختراعاتها الكلية والكونية من حيث إحاطة إرادتك، وعين مقدوراتها الجبروتية من حيث إحاطة قدرتك وقهرك، وعين إشاراتها الإحسانية من حيث إحاطة سعة رحمتك (...) وجعلته المشفع إليك في ملائكتك وأنبيائك ورسلك. فهو باب الرضا، والرسول المرتضى، حقيقة حقك وصفوتك من خلقك، بنوره حملت حملة عرشك، وبسره رفعت سماواتك وبسطت أرضك، فهو سماء أسمائك، وعنوان إحسانك، ومظهر عزك وسلطانك، فأنت العليم به من حيث الحقيقة، فصلّ يا ربّ عليه من حيث علمك بذلك وتعلقه بما هنالك. اللهم بحق صاحبه الصديق، وبالفاروق الموقر بالتصديق، وبذي النورين، وبخاتم الخلافة ابن عمه عليّ على التحقيق. اللهم اجمعنا بك عليك، واردنا منك إليك،

وأشهدنا إياه في حضرة الجمع حيث لا فرقة و لا منع، إنك المانح الفاتح، تمنح ما شئت من مواهب ربانيتك لمن شئت لمن خصصته بوهبانيتك. اللهم إنا نسألك أن تحشرنا في زمرته، وأن تجعلنا من أهل سنته، ولا تخالف بنا عن ملته ولا عن طريقته، إنك سميع الدعاء لمن دعا، أو ألقى السمع وهو شهيد، و لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد ρ].

عِشْقُ عبد العزيز للجناب المحمدي كما يظهر في صلاته هذه هو الذي جعل الشيخ يحبّه ويعظمه، فيهدي له كتاب (روح القدس)، وإليه يتوجه في خطبة الفتوحات، واصفا له بـ: العاقل الأديب، الولي الحبيب"كما أثنى عليه بإجمل الأخلاق في كتابه (روح القدس في محاسبة النفس) ويخاطبه قائلا:

[وقد فزت يا أخي – جعلني الله وإياك من الفائزين – في زمانك هذا بخلال لم أقدر أن أراها من غيرك، منها معرفتك بمرتبة العلم وأهله وعدم تعريجك على الكرامات والأحوال؛ ومنها انقيادك للحق وتواضعك له ونزولك إليه عند من وجدته سواء كام ممن تلحظه العيون أم لا يؤبه له، ولم تلحظ منزلتك الدنيوية من تعظيم الناس لك وتقبيلهم يدك وإتيان السلاطين إلى بابك، وهذا غاية الانصاف، ثبتك الله وإيانا؛ ومنها قولك فيما لا تعلم: لا أعلم، وفيما تعلم: أحبّ أن أسمعه من غيري. فقد حزت والله يا ولي هذه الخصال التي تتطاير دونها رقاب الرجال، والمقام الذي لا تغيره الأحوال ، ولا تزيده حسنا ووضاءة رواتب الأعمال. ثم بحثك الذي لم أره من غيرك في معرفة الأنام والزمان، واعتقادك أنه هو من فروض الأعيان من أعجب ما سمعَتْهُ الآذان وتسامرت به الخلان وسارت به الركبان. ثم ما وهبك الله من الصولة والقوّة على الفقهاء بدلائل المكارم والفتوّة الجارية مع براهين النبوّة]. وكتب في مناقبه كتابا عنوانه : (فضائل الشيخ عبد العزيز المهدوي) (R.G:119) وذكر بعض أحواله وكرامته في مقدّمة كتاب (مشاهد الأسرار القدسية). لكن رغم

هذا، فعبد العزيز لم تنفذ رؤيته، بحيث يكشف عن حقيقة مقام شيخه الجرّاح ولا عن حقيقة مقام الشيخ محيي الدّين خلال صحبتهما الأولى عام 590. عبّر عن ذلك الشيخ، حيث يقول له في خطبة الفتوحات: [وربّما كان من الوليّ حفظه الله تعالى في الرحلة الأولى التي رحلت إليه سنة تسعين وخمسمائة عدم التفات فيها إلى جانبي، ونفور عن الجري على مقاصدي ومذاهبي، لما لاحظ فيها τ من النقص، وعذرته في ذلك، فإنّه أعطاه ذلك مني ظاهر الحال، وشاهد النص، فإنّي سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي بما أظهرته إليهم من سوء حالي وشره حسيّ. وربّما كنتُ ألوّح لهم أحيانا على طريق التنبيه، فيأبى الله أن يلحظني واحد منهم بعين التنزيه؛ ولقد قرعت أسماعهم يوما بعض المجالس، والوليّ أبقاه الله في صدر ذلك المجلس جالس، بأبيات أنشدتها وفي كتاب الإسرا لنا أودعتها وهي:

الوافر

أنا القرآن و والسبع المثاني وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند معلومي مقيم يشاهده وعندكم لساني
فلا تنظر بطرفك نحو جسمي وعدْ عن التنعّم بالمغاني
وغص في بحر ذات الذات تبصر عجائب ما تبدّت للعيان
وأسرار تراءت مبهمات مسترة بأرواح المعاني

فوالله ما أنشدت من هذه القطعة بيتا إلا وكأني أسمعه ميتا، وسبب ذلك حكمة أبغي رضاها، وحاجة في نفس يعقوب قضاها. وما أحسّ بي من ذلك الجمع المكرم إلا أبو عبد الله ابن المرابط كليمهم المبرز المقدّم، ولكن بعض إحساس، والغالب عليه في أمري الالتباس. وأمّا الشيخ المسنّ المرحوم جرّاح، فكنت قد تكاشفت معه علانية في حضرة عليه، ولم أزل بعد مفارقة حضرة الولي أبقاه الله له

ذاكرا شاكرا وبمناقبه ناطقا ولآدابه عاشقا، وربّما سطرت من ذلك في الكتب ما سارت به الركبان، وشهر في بعض البلدان، وقد وقف الولي عليه ورأى بعض ما لديه، فقد ثبت له الودّ مني قبل سبب يقتضيه، وغرض عاجل أو آجل يثبت في النفس و يمضيه...].

وأبو عبد الله بن المرابط المذكور هو أحد أصحاب المهدوي الذين ذكرهم الشيخ في (روح القدس)، ويقول عنهم مخاطبا المهدوي: [ومنهم رضي الله عنهم الحاج أبو محمد عبد الله البرجاني صاحبك وصديقك τ ، يحبّ السنة وأهلها. كان صالحا جليل القدر، كثير السكوت (...) ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد البابلي الساكن بدار القير، خديمك الذي فتح الله له على يديك، وبركاتك عليه كانت ظاهرة. رأيت له أمورا عجيبة كنت أسرّ بها، لا يتسع الوقت لذكرها. ومنهم أبو عبد الله المرابط من أهل القرآن والليل، ظهرت عليه أنوارك، جيّد الذهن سريع الفهم].

ومن تلاميذ المهدوي أبو الحسين علي بن عبد الله بن محمد بن العربي ابن عمّ الشيخ، الذي كتب له الشيخ ولأصحاب المهدوي إثر رجوعه إلى الأندلس كتاب (مشاهد الأسرار القدسية ومطابع الأنوار الإلهية)، يحتوي على مقدمة فيها علم بيان لعلوم الأولياء التي يخاطبهم بها الحق في سرائرهم، وعلى أربعة عشر فصلا. وقد كنت كتبتُ قبل مدة كتابا فيه بيان المرجعية القرآنية لتلك الفصول، وكيف أنّ كل فصل منها يستمّد من السور المفتتحة بالأحرف النورانية المقطعة الأربعة عشر، بدءا من [ن القلم] وانتهاء بـ: المص الأعراف.

وخلال تجلّي مشهد إحدى تلك السّور، وهي سورة العنكبوت المفتتحة بـ: [ألم] التي رمز إلى اسمها في الباب 22 من الفتوحات بـ: (منزل الأرض الواسعة) من آيتها 56: [يا عبادي الذين ءآمنوا إنّ أرضي واسعة فإياي فاعبدون]، حصلت للشيخ واقعة وصفها بقوله (I:173): [ولما دخلت هذا المنزل وأنا بتونس، وقعت منّي صيحة ما لي بها علم أنّها وقعت مني، غير أنّه ما بقي أحد ممن سمعها إلا سقط مغشيا عليه، ومن كان على سطح الدّار من نساء الجيران مستشرفا علينا غشي عليه، ومنهن من سقط من السّطوح إلى صحن الدار على علوّها وما أصابه بأس. وكنتُ أوّل من أفاق. وكنّا في صلاة خلف إمام، فما رأيت أحدا إلا صاعقا؛ فبعد حين أفاقوا، فقلت: ما شانكم ؟ فقالوا: أنت ما شأنك ؟ لقد صحت صيحة أثرت ما ترى في الجماعة. فقلت: والله ما عندي خبر إني صحت]. وقد ذكر الشيخ هذه الواقعة لتلميذه ابن سودكين خلال شرحه لتجلي (لا يغرنك) من كتاب التجليات وقال له: "... لم أصح في طريق الله قط سوى هذه الصيحة... في ذلك المشهد الذي غُيبت فيه عن حسي، أطلعني الله على حقيقة هذه الأرض، وأشهدني في حقائق آفاقها، فلا أرى حركة بعد ذلك إلا وأعلم من أين انبعثت وإلى أي شيء غايتها بإذن الله تعالى وحسن تأييده". وقد خصّص الشيخ الباب 355 لسورة العنكبوت أي منزل أرض العبودية الواسعة ويبيّن حقيقتها فيقول ما خلاصته (III:249-250):[إنّ أرض بدنك هي الأرض الحقيقية الواسعة التي أمرك الحق أن تعبده فيها (...) وجعلها واسعة لما وسعته من القوى والمعاني التي لا توجد إلا في هذه الأرض البدنية الإنسانية. وأمّا قوله: فتهاجروا فيها ، فإنها محل للهوى ومحل للعقل، فتهاجروا من أرض الهوى إلى أرض العقل منها، وأنت في هذا كله فيها ما خرجت عنها. فإن استعملك الهوى، أدراك

وهلكت، وإن استعملك العقل الذي بيده سراج الشرع، نجوت فأضاءت زوايا هذه الأرض بنور الشرع. ثم يعيدنا فيها في النشأة الأخرى كما خلقنا فيها، ويخرجنا إخراجا لمشاهدته كما أنشأنا منها وأخرجنا لعبادته. فخلق أرواحنا من أرض أبداننا في الدنيا لعبادته، وأسكننا أرض أبداننا في الآخرة لمشاهدته إن كنا سعداء. والموت بين النشأتين حالة برزخية، تعمر الأرواح فيها أجسادا برزخية خيالية مثل ما أعْمرتها في النوم، وهي أيضا متولدة من هذه الأجسام الترابية، فإنّ الخيال قوة من قواها].

فعالم الخيال الأوسع جزء من أرض البدن. وعالم الخيال هو الذي خصّص الشيخ لمعرفة أرضه الباب الثامن من الفتوحات الذي عنوانه: [في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم υ، وهي أرض الحقيقة. وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب]. ثم يصف وسعها بقوله:" إذا جعل العرش وما حواه والكرسي والسماوات والأرضون وما تحت الثرى و الجنات كلها والنار في هذه الأرض كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض" ... وما هذه الأرض بوسعها إلا شعبة من أرض البدن، أرض العبودية التي يصفها الشيخ في الباب 351 المخصوص بسورة **الأحزاب** بقوله ما خلاصته (224:II): [العبودية ذلة محضة خاصة ذاتية للعبد، لا يكلف العبد القيام فيها، فإنها عين ذاته. فإذا قام بحقها كان قيامه عبادة. ولا يقوم بها إلا من يسكن الأرض الإلهية الواسعة التي تسع الحدوث والقدم، فتلك أرض الله، من سكن فيها تحقق بعبادة الله وأضافه الحق إليه: [يا عبادي إن أرضي واسعة فإيَّاي فاعبدون]، يعني فيها. ولي مذ عبدت الله من سنة تسعين وخمسمائة وأنا اليوم في سنة خمس وثلاثين وستمائة. ولهذه الأرض البقاء،

فلا تقبل التبديل، لأّن العبد لا يزال عبد أبدا، فلا يزال في هذه الأرض أبدا، وهي أرض معنوية معقولة حاكمة على سكانها بذاتها، وهي مجلى الربوبية ومنصة المالك الحق وفيها يرونه. فمن كان من أهلها كان عبدا محضا يشاهد الحق في عين ذاته، فالشهود له دائم و الحكم له لازم.

فالربّ ربّ والعبد عبد فلا تخالط ولا تغالط]

والشيخ يرى أن للبدن بقواه الحسية شرفا أعلى من شرف القوى الروحانية، لأن القوى الحسية هي التي تهب للقوى الروحانية ما تتصرف فيه، وما يكون بها حياتها العلمية، من قوة خيال وفكر وحفظ وتصور ووهم وعقل، فالقوى الحسية هم خلفاء الله تعالى في النشأة الإنسانية. وفي الباب الثامن من الفتوحات الذي خصصه لمعرفة أرض السمسمة، وهي أرض الحقيقة، أعطى الشيخ أسماء رمزية لتلك القوى، وسماهم ملوكا، وفيهم لطف وحنان منهم التالي – يشير به إلى الإنسان – وذو العرف – يشير به إلى الأنف أو قوة الشم – و السابح و السابق والرادع والقائم بأمر الله – يشير بهم إلى بقية الجوارح كالعين والأذن و اليد والرجل – ثم قال: وجميع من يملكها من الملوك ثمانية عشر سلطانا، منهم من ذكرنا و منهم من سكتنا عنه. وفي كثير من مكتوباته، فصَّل الشيخ التناسب والمضاهاة بين نشأتي العالم والإنسان. ويؤكد أن مرتبة الإنسان الكامل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العالم مرتبة النفس الناطقة من الإنسان، وبيّن ذلك بأوفى توضيح في الباب346 من الفتوحات المتعلق بسورة ص، وفي الباب 340 المتعلق بسورة الدخان، و الباب 360 المتعلق بسورة النور و الباب 361 المتعلق بسورة المومنون و بتحقق

الشيخ بهذه العبودية الكاملة التي هي حقيقة الإنسان الكامل تمّ للشيخ الإرث المحمدي. صرّح بذلك في قوله في ديوانه (311)

الطويل

أنا وارث لا شك علم محمد وحالته في السّر مني وفي الجهر

...

ولست بمعصوم ولكن شهودنا هو العصمة الغراء في الأنجم الزهر

علمت الذي قلنا ببلدة تونس بأمر إلهي أتاني في الذكر

أتاني به في عام تسيعين شربنا بمنزل تقديس عن الوهم والفكر

ولم أدر أنّي خاتم ومعيّن إلى أربع منها بفاس وفي بدر

وكانت هذه الوراثة الكاملة للعلم المحمدي هي الغاية من سفره وإقامته بتونس في هذا العام 590 وعمر الشيخ ثلاثون سنة.

وفي تونس، وقعت للشيخ حكاية غريبة مع أحد رجال الغيب (انظر وصفهم بـ الباب: 11:II73) ذكرها في الباب 366 المتعلق بسورة الكهف (III: 338–339) وهي: [إنّ أيّ واحد أو جماعة قلَّت أو كثرت لا بد أن يكون معهم من رجال الغيب واحد عندما يتحدثون. فذلك الواحد ينقل أخبارهم في العالم، يجد ذلك الناس في نفوسهم في العالم (...) ولقد عملتُ أبياتا من الشعر بمقصورة ابن المثنى بشرقي جامع تونس من بلاد افريقية عند صلاة العصر، وفي يوم معلوم معين بالتاريخ عندي بمدينة تونس، فجئت إشبيلية وبينها مسيرة ثلاثة أشهر للقافلة، فاجتمع بي إنسان لا يعرفني، فأنشدني بحكم الاتفاق تلك الأبيات عينها ولم أكن

كتبتها لأحد، فقلت له: لمن هذه الأبيات ؟ فقال لي: لمحمد بن العربي، وسماني. فقلت له: ومن أنشدك إياها حتى حفظتها ؟ فقال لي: كنت جالسا في ليلة بشرق إشبيلية في مجلس جماعة على الطريق، ومر بنا رجل غريب لا نعرفه كأنّه من السياح، فجلس إلينا فتحدث معنا ثم أنشدنا هذه الأبيات فاستحسناها وكتبناها. فقلت: لمن هذه الأبيات؟ قال: لفلان وسماني لهم. فقلنا له: فهذه مقصورة ابن مُثنى ما نعرفها ببلادنا. فقال: هي بشرقي جامع تونس، وهنالك عملها في هذه الساعة وحفضتها منه، ثم غاب عنا فلم ندر ما أمره، ولا كيف ذهب عنا وما رأيناه. ولقد كنت بجامع العديس بإشبيلية يوم بعد صلاة العصر، وشخص يذكر لي عن رجل كبير من أهل الطريق من أكابرهم اجتمع به في خراسان؛ فذكر لي فضله، وإذا بشخص أنظر إليه قريبا منا، والجماعة معي لا تراه، فقال لي: أنا هو الشخص الذي يصفه لك هذا الرجل الذي اجتمع بنا في خراسان. فقلت للرجل المخبر: إن هذا الرجل الذي رأيته بخراسان أتعرف صفاته ؟ فقال: نعم، فأخذت أنعته له بآثار كنت فيه وحلية في خلقه. فقال الرجل: هو والله على صورة ما وصفت، هل رأيته ؟ فقلت له: هو ذا جالس يصدقك عندي فيما تخبر به عنه، وما وصفته لك إلا وأنا أنظر إليه وهو عرفّني بنفسه، ولم يزل معي جالسا حتى انصرفت فطلبته فلم أجده].

من تونس قفل الشيخ راجعا إلى قصر مصمودة غربي سبتة بساحل المغرب، ومنه أبحر ليلا لجزيرة طريفة، ليجتمع بالشيخ عبد الله بن إبراهيم المالقي، الذي قال عنه ما خلاصته (I: 540:IV/577-ر:120-S:145): [عُرف بالقلفاط. وكان من أهل الفتوة. ما تراه ماشيا إلا في حق غيره. داره للفقراء مباحة، حافظ للشريعة والآداب. لما زرته، وجدته قد علم بقدومي نحوه إلهاما من الله، فهيأ لي طعاما ما

كنت فكرت فيه وأنا قادم. اجتمعت به مرارا عديدة، وكان يميل إلى جانبي كثيرا، ورأيت له كرامات].

وقد كان للشيخ القدم الراسخة في الفتوة التي وصف بها الشيخ القلفاط والتي من أخلاقها التفاني في خدمة عباد الله والإيثار حسا ومعنى، والقوة في مجابهة المكاره، وهو ما صرح به خلال إشارته للآية 55 من سورة الزمر [**واتبعو أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة و أنتم لا تشعرون**]: فقال (185:III): [علم التهيؤ لانتظار المفاجآت (...) وهذا مقام لم أر أحدا أتم مني فيه، لله الحمد على ذلك].

الشيخ في فاس لأوّل مرة

إثر رجوع الشيخ من تونس إلى إشبيلية، توفي الوالد. ثم توفيت الوالدة نور أمّ الشيخ (153:I). وبقيت شقيقتاه في كفالته، لكنه واصل سياحاته للقاء الصالحين في الأندلس والمغرب. وفي إحدى هذه السياحات، اجتمع بالخضر υ للمرة الثالثة ووزير قطب زمانه. ثم نزل فاس في بدايات عام 591، في الوقت الذي توجهت فيه جيوش الموّحدين بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب إلى الأندلس، للدفاع عن إشبيلية التي هاجمها الملك ألفونس الثامن. وكانت كل القلوب متطلعة إلى نتيجة الحرب، وهو ما عبر عنه الشيخ بقوله: (220:IV):

[ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الإسلام. فلقيت رجلا من رجال الله، ولا أزكي على الله أحدا. وكان من أخصّ أودائي، فسألني: ما تقول في هذا الجيش ؟ هل يفتح له وينصر في هذه السنة أو لا ؟ فقلت له: ما عندك في

ذلك ؟ فقال: إنّ الله قد ذكر وعد نبيّه ρ بهذا الفتح في هذه السنة، وبشر نبيه ρ بذلك في كتابه الذي أنزله عليه وهو قوله تعالى : [إنا فتحنا لك فتحا مبينا]، فموضع البشرى [فتحا مبينا] من غير تكرار الألف، فإنّها لإطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر أعدادها بحساب الجمل. فنظرت، فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة (فتحا مبينا =489+102=591). ثم جزت إلى الأندلس إلى أن نصر الله جيش المسلمين، وفتح الله به قلعة رباح والاركو وكركوى وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات]. ثم ذكر الشيخ كيف استخرج تاريخ فتح البيت المقدس عام 583 من آلم فاتحة سورة الروم، والرجل الذي أخبره بذلك النصر وكان من أخصّ أودّئه ما هو إلا الشيخ محي الدين نفسه، وهو ما أومأ إليه في آخر الباب 336 المخصوص بسورة الفتح:[ومن هذا المنزل علمنا حين وقفنا عليه سنة 591 نصر المومنين على الكافرين قبل وقوعه بمدينة فاس]. وعنوان هذا الباب هو " منزل مبايعة النبات القطب صاحب الوقت في كل زمان، وهو من الحضرة المحمدية"؛ يشير إلى الآية 18 من الفتح: [لقد رضي الله عن المومنين إذ يبايعونك تحت الشجرة].

وفي فاس، صحب الشيخ جماعة من العلماء والأولياء والشيوخ. منهم الإمام المحدث الصوفي محمد بن القاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي (ت: 603) الذي ساح في المشرق طلبا للعلم نحو 15 سنة (165:A)، واجتمع بالمحدث الشهير أبي طاهر السلفي (ت: 578). أخذ الشيخ عن التميمي خرقة التصوف عام 594، وسمع عنه الحديث وأخبار أولياء المغرب، وقال عنه ما خلاصته (503:IV/244:I-541): [ادفع عن عرض أخيك المسلم ولا تخذله. وما رأيت أحدا تحقق بمثل هذا في نفسه مثل الشيخ أبي عبد الله الدقاق بمدينة فاس. ما اغتاب أحداً قط، ولا

اغتيب بحضرته أحد قط، كان نِعم السيد، خرّج مناقبه شيخنا التميمي الإمام بمسجد الأزهر بعين الخيل من فاس في كتاب له سمّاه: (المستفاد في ذكر الصالحين من العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد). سمعنا هذا الكتاب عليه وبقراءته أظن سنة 593. وحدّثني سنة 591 بقول النبي ρ:" لا يكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه خمس خصال: التوكل على الله والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله والرضى بقضاء الله والصبر على بلاء الله. إنّه من أحب وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان"].

وفي فاس صاحب الشيخ أحد رجال الصلوات الخمس الذين منهم صالح البربري. ذكره الشيخ بما خلاصته (150:S/123:ر/34:III/15:II): [هو أبو عبد الله المهدوي، بقي نيفا وستين سنة ما استدبر القبلة حتى مات. لا يفتر عن صلاة في ليل ولا نهار. من أهل الاشتياق ملوك طريق الله. وكان من الملامية]. وقد ذكر التادلي في التشوف أنّ المهدوي (ت: 595) أنقذ سكان فاس من مجاعة بتوزيع القمح عليهم. ولقي الشيخ أيضا في فاس عبد الله السماد الذي كان من الأولياء النباتيين الذين وصفهم في الباب 33(217:I).

ومن الملامية الأمناء الذين لقيهم الشيخ بفاس الفقيه العارف عبد الله بن تاخمست (ت:608)، وهو من أصحاب أبي يعزى (ت:572) شيخ أبي مدين. يقول الشيخ عنه: إنّ النّاس كانوا يعتقدون فيه أنّه أحد الأبدال، وأن حضوره يوحي بالإجلال، وله كرامات، وكان يفرح بلقائه (146:S/121:ر/34-15 :III).

وفي فاس لقي الشيخ أيضا الفقيه المتكلم الأشعري أبا عبد الله الكتاني (ت:597)،وناقشه في مسالة علاقة الصفات بالذات. ذكر الشيخ ذلك فقال (IV: 22):

[ورأيت بفاس عبد الله الكتاني إمام أهل الكلام في زمانه بالمغرب، وقد سألني يوما في الصفات الإلهية. فقلت له ما هو الأمر عليه عندنا، ثمّ قلت له: فما قولك أنت فيها ؟ هل أنت مع المتكلمين أو تخالفهم في شيء مما ذهبوا إليه ؟ فقال: أنا أقول لك ما عندي. أمّا إثبات الزائد على الذات المسمّى صفة، فلا بد منه عندي وعند الجماعة. وأمّا كون ذلك الزائد عينا واحدة، لها أحكام مختلفة كثيرة، أو لكل حكم معنى زائد أوجبه، ما عندنا دليل على أحديته وعلى تكثره، وهذا هو الإنصاف عندي في هذه المسألة؛ وكل من تكلف في غير هذا دليلا فهو مدخول، والزائد لا بد منه. غير أنا نقول ما هو هو، ولا هو غيره، لما علمت يا سيّدنا من مذهب أهل هذا الشأن في الغيرين. فقلت له: ي أبا عبد الله، أقول لك ما قاله رسول اللهρ لأبي بكر في تعبيره الرؤيا: أصبت بعضا وأخطأت بعضا. فقال لي: لا أتهمك والله فيما تعلمه، ولا أقدر أرجع عن الحكم الزائد، إلا إن فتح الله لي بما فتح الله به عليك، مع اختلاف أهل النظر فيما ذهبت إليه؛ هذا قوله. فتعجبت من إنصافه ومن تصميمه مع شهادته على نفسه أنّه ما يتهمني وهو يخالفني. فأشبه من أضله الله على علم، ولكن لا يقدح ذلك عندي في إيمانه، وإنّما يقدح في عقله]. وقد توسّع الشعراني في الباب 14 من كتابه (اليواقيت والجواهر) في بحث هذه المسئلة، وأورد نقولا من كلام الشيخ حولها في الفتوحات من الأبواب: 558/470/373/56/17.

وفي فاس، واصل الشيخ ترقية في التحقق بمنازل القرآن، فدخل منزل سورة [ص] التي خصص لها الباب 346 من الفتوحات تحت عنوان: " منزل سرّ صدق فيه بعض العارفين، فرأى نوره كيف ينبعث من جوانب ذلك المنزل وهو من الحضرات المحمدية "، وبدأه بقوله: [اعلم أنّ هذا المنزل من منازل التوحيد والأنوار، وأدخلينه الله تعالى مرتين. وفي هذا المنزل صرت نورا، كما قال ρ في دعائه :" واجعلني

نورا". ومن هذا المنزل، علمت الفرقان بين الأجسام والأجساد]. فأشار بكلمة "صدق" إلى حرف الصاد الذي هو من الصدق و الصون والصورة، حسبما ذكره في الباب الثاني من الفتوحات عند تعريفه لهذا الحرف (71:I)، وذكر أنّ الله تعالى أعطاه له في المنام، ثم قال عنه: [حرف شريف عظيم أقسم عنده ذكر بمقام جوامع الكلم، وهو المشهد المحمدي في أوج الشرف بلسان التمجيد، وتضمنت هذه السورة من أوصاف الأنبياء عليهم السلام ومن أسرار العالم كله الخفية عجائب و آيات. وهذه الرؤيا فيها من الأسرار على حسب ما في هذه السورة من الأسرار، فهي تدل على خير كثير جسيم يناله الرائي ومن ريئت له، وكل من شوهد فيها من الله تعالى، ويحصل له من بركات الأنبياء عليهم السلام المذكورين في هذه السورة، ويلحق الأعداء من الكفار ما في هذه السورة منن البؤس لا من المومنين، نسأل الله لنا ولهم العافية في الدنيا وفي الآخرة].

وقوله:" من هذا المنزل علمت الفرقان بين الأجسام والأجساد، وأعطيت هذا المنزل سنة 591". يشير إلى آيتها 34: [ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب] . وفي كتاب التراجم للشيخ، نجده يخصص لسورة ص الباب 32 الذي عنوانه: " ترجمة انبعاث نور الصدق" وفيه يقول: [الصدق صفة جامعة للشرف عليه دلت المعجزات كلها. ولقد سألت عن صورة الإعجاز في القرآن فقيل لي: كونه حق صدق. و المعارض صاحب تزوير، فالزم الصدق أيها السالك ترَ العجب العجاب في الدّارين (...) اخل مع الحق على قدم الصدق أسبوعا بل اقل من ذلك، لولا أن أتألّى على الله لحلفت أنّ الطير تظلك والوحوش تصلي خلفك وتأنس بك ويخرج منك نور يضئ له المشارق والمغارب. وأي شيء هذا في جنب ما يقول الله تعالى: من تقرب إليّ شبرا تقربت منه ذراعاأشار بظل الطير وصلاة الوحوش إلى الآيتين 19/18: [إنا سخرنا الجبال معه يسبحن

بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أوّاب]. وقد أخبر الشيخ أن دخوله لمنزل النور الصادي حصل له في فاس، حيث يقول في الباب 220 من (الفتوحات) ما خلاصته (513:II): [رجال الفناء عن المخالفات قسمان: رجال لم يقدّر عليهم المعاصي، فلا يتصرفون إلا في المباح، وإن قُدر وعصوا، غفر الله لهم عناية أزلية. والقسم الآخر رجال اطلعوا على سرّ القدر، وتحكمه في الخلائق، وعاينوا ما قدّر عليهم من جريان الأفعال الصادرة منهم وذلك في حضرة النور الخالص الذي منه يقول أهل الكلام أفعال الله كلها حسنة، ولا فاعل إلا الله. وقد أطلعني الله على هذا الفناء بمدينة فاس، ولم أر له ذائقا، مع علمي بأنّ له رجالا، ولكن لم ألقهم ولا رأيت أحدا منهم. غير أنّي رأيت حضرة النور، وحكم الأمر فيها، غير أنه لم يكن لتلك المشاهدة فينا حكم، بل أقامني الله في حضرة السّدفة، وحفظني وعصمني، فلي حكم حضرة النور وأقامني بالسّدفة وهو عند القوم أتم من الإقامة في حضرة النور] انتهى. قلت: ذلك أتمّ، لأن صاحبها يبقى ملتزما في جميع أحواله بآداب الشريعة وتكاليفها مع البشرى الحاصلة له بالغفران.

وفي فصّ شيث الثاني، من كتابه الفصوص، يفصّل أنواع الكشف بسرّ القدر فيقول:[والاستعداد من العبد لا يشعر به صاحبه، ويشعر بالحال، لأنّه يعلم الباعث وهو الحال. فالاستعداد من أخفى سؤال. وإنّما يمنع هؤلاء من السؤل، علمهم بأنّ لله فيهم سابقة قضاء. فهم قد هيئوا محلهم لقبول ما يرد منه، وقد غابوا عن نفوسهم وأغراضهم. ومن هؤلاء من يعلم أنّ علم الله به في جميع أحواله هو ما أعطاه عينه من العلم به، وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علم الله به من أين حصل. وما ثمّ صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف، فهم الواقفون على سرّ القدر، وهم على قسمين: منهم من يعلمه مجملا، ومنهم من يعلمه مفصّلا. والذي يعلمه مفصلا أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملا. فإنّه يعلم

ما في علم الله فيه، إمّا بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به، وإمّا أن يكشف له عينه الثابتة وانتقالات الأحوال إلى ما لا يتناهى وهو أعلى]. ولقد كان الشيخ من رجال هذا الصنف الأخير حسبما ذكره الجندي في شرحه لفصوص الحكم، نقلا عن شيخه صدر الدين القونوي، أكبر خلفاء الشيخ (A:140–174).

وفي فاس، سنّ الشيخ السُنَّة الحسنة بإرشاد حاكمها إلى إقامة جماعات تتلوا القرآن لا تفتر طيلة النهار والليل (334:III). وفي فاس أيضا، بدأت جماعات من المريدين تلتف حول الشيخ، تنشد السلوك والتربية. وقد كتب الشيخ في هذا الموضوع رسائل عديدة، منها (كتاب الكنه فيمل لابد للمريد منه)، و(كتاب الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل طريق الله من الشروط)، و(كتاب مواقع النجوم)، و(كتاب الوصية) الذي ذكر فيه جملة من الأخلاق وآداب المريد، و(كتاب التدبيرات الإلهية)، (وكتاب رسالة الأنوار) التي فصّل فيها مراحل معراج السالك، وكتاب (لا يعوّل عليه)، بيّن فيه العوائق والمزالق التي ينبغي للمريد أن يتجنبها، والمفاهيم التي لا يعوّل عليها، وفي الفتوحات أبواب الفصلين الثاني والثالث كلها في تفصيل مقامات وأحوال السالكين بأبلغ بيان وأحسن عبارة، وباب الوصايا الأخير، وهو جامع لأعمال وأخلاق الصالحين.

ومن هؤلاء المحبين للشيخ في فاس، الشاعر ابن زيدان (ت: 624) الذي قال الشيخ عنه (514:II): [أخبرني الأستاذ النحوي عبد العزيز بن زيدان بمدينة فاس، وكان ينكر حال الفناء، وكان يختلف إلينا. وكانت فيه إنابة. فلما كان ذات يوم، دخل عليّ وهو فرح مسرور، فقال لي: يا سيدي، الفناء الذي تذكره الصوفية صحيح عندي بالذوق، قد شاهدته اليوم. قلت له: كيف ؟ قال: ألست تعلم أنّ أمير

المؤمنين دخل اليوم من الأندلس إلى هذه المدينة ؟ قلت له: بلى. قال: اعلم أني خرجت أتفرج مع أهل فاس، فأقبلت العساكر؛ فلما وصل أمير المؤمنين و نظرت إليه، فنيت عن نفسي وعن العسكر وعن جميع ما يحسبه الإنسان، وما سمعت دوي الكوسات، ولا صوت طبل مع كثرة ذلك، ولا البوقات، ولا ضجيج الناس، ولا رأيت ببصري أحدا من العالم جملة واحدة، سوى شخص أمير المؤمنين، ثمّ إنّه ما أزاحني أحد عن مكاني؛ ووقفت في طريق الخيل وازدحام الناس وما رأيت نفسي ولا علمت أني ناظر إليه، بل فنيت عن ذاتي وعن الحاضرين كلهم بشهودي فيه، لما انحجب عنّي، ورجعت إلى نفسي، أخذتني الخيل وازدحام الناس، فأزالوني عن موضعي، وما تخلصت من الضيق إلا بشدة، وأدرك سمعي الضجيج وأصوات الكوسات والبوقات. فتحققت أنّ الفناء حق، وأنّه حال بعصم ذات الفاني من أن يؤثر فيه ما فني عنه، هذا يا أخي فناء في مخلوق فما ظنك بالفناء في الخالق].

والأمير المذكور هو السلطان الموحدي المنصور، الذي قدم من الأندلس، بعد أن غادرها في جمادي الأولى عام 594، فمر بفاس خلال رجوعه لعاصمته مراكش، حيث توفي بعد رجوعه بقليل.

وبعد إقامته في فاس، رجع الشيخ لإشبيلية، حيث ألبسه الخرقة الشيخ تقي الدين عبد الرحمن ابن علي التوزري القسطلاني أخو التميمي الفاسي في خرقة الطريق: ألبسه إياها عام 592.

وكان تقي الدّين قد أخذها من أبي الفتح المحمودي وعن صدر الدّين بن حموية عن جدّه عن الخضر ʊ (A:176-177).

ولقد كان لعبد الرحمن التوزري أخوان: الأوّل محمد، استقر في مراكش مع علماء بلاط الموحدين، والثاني: أبو العباس أحمد (ت:636)، اجتمع الشيخ به في مصر،

وكتب له (كتاب الخلوة المطلقة) وتتلمذ على الشيخ القرشي (ت: 599)، الذي أوصاه بالتزوج بزوجته بعد وفاته فتزوجها وولدت له العلامة قطب الدّين القسطلاني.

وما كان لباس الشيخ لهذه الخرقة إلا تبركا، إذ أنّه قد تمكن في مقام المشيخة الكاملة قبلها بسنوات، واعترف له بذلك جل الشيوخ الأولياء الذين لقيهم، فكانوا يتأدبون معه في مجلسه غاية الأدب، وإليه يرجعون في فصل مسائلهم. يظهر مثل هذا في هذه الواقعة التي ذكرها في الفتوحات حيث يقول (539:IV):

[بتنا ليلة عند أبي الحسن بن أبي عمرو بن الطفيل بإشبيلية سنة 592، وكان كثيرا ما يحتشمني و يلتزم الأدب بحضوري. وبات معنا أبو القاسم الخطيب، وأبو بكر بن سام، وأبو الحكم ابن السراج، وكلهم قد منعهم احترام جانبي الانبساط، ولزموا الأدب و السكون. فأردت إعمال الحيلة في مباسطتهم، فسألني صاحب المنزل أن يقف على شيء من كلامنا. فوجدت طريقا على ما كان في نفسي من مباسطتهم، فقلت له: عليك من تصانيفنا بكتاب سميناه: (الإرشاد في خرق الأدب المعتاد)، فإن شئت عرضت عليك فصلا من فصوله. فقال لي: أشتهي ذلك. فمددتُ رجلي في حجره وقلت له: كبسني. ففهم عني ما قصدت، وفهمت الجماعة، فانبسطوا، وزال ما كان بهم من الانقباض والوحشة، وبتنا بأنعم ليلة في مباسطة دينية].

وإدخال السرور على الإخوان من اللطافة التي عُرف بها الشيخ لتخلفه التام بالاسم اللطيف، حسبما صرح به في فصل " حضرة اللطف" من الباب 559 من الفتوحات (239:IV) حيث يقول: [يُدعى صاحب هذه الحضرة عبد اللطيف...

"من يطع الرسول فقد أطاع الله"، فانظر إلى سريان هذه اللطف الإلهي ما أعجبه وحكمه الظاهر في هذه الكثافة كيف أبان أن طاعة رسول الله ρ طاعته:[إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله]

فلا يدري اللطيف سوى لطيف وعينُ اللطف في عين الكثافة
وكن عبد اللطيف بكل وجه تنل ما ناله أهل القيافة
من إدخال السرور على رسول نقي الثوب من أهل النظافة

وهذه الحضرة نلت منها في خلقي الحظ الوافر، بحيث أني لم أجد أحدا فيمن رأيت وضع قدمه حيث وضعت، إلا إن كان وما رأيته].

إقامة الشيخ بفاس عام 593-594 ونيله مقام الختمية

وما أنا الغوث أحمي الخلق ولا أنا بدل ولا أنا وتـد
ولكنني خاتم بالعلم منفرد لله مرتقب بالسر متحد
لا يعتريني لما قد قلت عني أذى ولا ينهنهني عن بغيتي الأسد

في بداية عام 593، قدم الشيخ إلى فاس مع شقيقتيه وأهله. وزوّج شقيقتيه، وكانت شهرته في أوساط الأولياء، والعلماء والأمراء قد ظهرت. فلم يكد ينزل منزله حتى أقبلوا نحوه. يظهر ذلك في ترجمته لأحد كبار أولياء فاس من طبقة الأوتاد الأربعة الذين يأتون في الترتيب مباشرة تحت دائرة القطب والإمامين. لكل وتد جهة تخصه من الجهات الأربع وركن معيّن من الأركان الطبيعية الأربعة وسورة خاصة هي منزله واسم إلهي يستمد منه من الأسماء الأوتاد الأربعة التي هي: الحي العليم المريد القدير (حول الأوتاد ينظر I:160/II:5-7/III:521) يقول الشيخ عن هذا الوتد الفاسي

واسمه عبد الله ابن جعدون الحناوي بن محمد بن زكريا (ر: 109-110/S:126-128):
[ومنهم رضي الله عنهم ابن جعدون الحناوي τ، مات بفاس سنة 597، جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بن بدر الحبشي. كان τ واحدا من الأربعة الأوتاد الذين يمسك الله العوالم بهم. سأل الله تعالى أن يسقط حرمته من قلوب العالم، فكان إذا غاب لم يفتقد، وإذا حضر لم يستشر، وإذا جاء لا يوسع له، وإذا تكلم بين قوم ضرب وسخف، كان سبب اجتماعي به ما أذكره الآن: وذلك لما وصلت مدينة فاس، فكان ذكري قد بلغ من بها، فأحب من بلغه ذلك الاجتماع بي، فكنت أفر من الدار إلى الجامع. فلا أوجد في الدار، فأطلب في الجامع، وأنا أراهم فيأتونني فيسألون عني فأقول لهم: اطلبوه حتى تجدوه. فبينما أنا قاعد وعليّ ثياب رفيعة جدا، إذا بهذا الشيخ قد قعد بين يدي ولم أكن أعرفه قبل ذلك، فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فرددت عليه، ففتح (كتاب المعرفة) للمحاسبي، فقرأ منه كلمات ثم قال لي: اشرح وبيّن ما قال. فخوطبت بأحواله ومن هو مقامه، وأنّه من الأوتاد الأربعة رضي الله عنهم، وأبنه يرث مقامه. فقلت له: عرفتك فأنت فلان. فأغلق كتابه وقام واقفا وقال: الستر الستر. إني أحبك فأحببت أن أتعرف إليك، فقد صح المقصود. ثم انصرف، فلم أكن أجالسه قط إلا إذا لم يكن معنا أحد. وكان معقود اللسان، لا يتكلم إلا عن مشقة، فإذا تلا القرآن كان من أحسن الناس صوتا وأبدعهم مساقا. كان كثير الاجتهاد. وكان ينخل الحناء بالأجرة، فلا تراه إلا مكحول العينين أشعث أغبر، وإنّما كان يكحل عينه من أجل غبار الحناء].

وتمنى الشيخ أن يكون كالحناوي مغمورا، فقال في إحدى غرر قصائده (د:311):

الطويل

سألتك ربيّ أن تجود لعبدكم بأن يكُ مستورا على آخر الدّهر
كمثل ابن جعدون وقد كان سيّدا إماما فلم يبرح من الله في ستر
سألتك ربّي عصمة الستر إنّه على سنة الحناوي سنّتنا تجري

لكنّ الله تعالى أظهره، لأنّه سبق في عمله أن يُؤهل الشيخ لوظيفة أعظم من وظيفة الأوتاد وهي ختمية الولاية المحمّدية وإحياء الدّين المحمدي و تجديده في القرن السابع، وتدوين علوم القوم، وأسرار المعرفة في كتب ينهل من تسنيمها أهل الله إلى يوم القيامة. وقد أفصح الشيخ بأنّ الحق أمره بالظهور لنصح العباد، فيقول مثلا في أوّل كتابه (روح القدس):

[من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمور بالنصح لإخوانه، المشددّ عليه في ذلك دون أهل زمانه]. ويقول فيه أيضا واصفا حالا عرض له في مكة:[... فعزمت على قطع الميعاد وأن لا أقعد للناس، فأمرت بالقعود والنصيحة للخلق قسرا وحتما واجبا].

وفي هذه السنة 593، اجتمع الشيخ في فاس أيضا بقطب زمانه الذي يُحتمل أن يكون من أصحاب أبي مدين، سمّاه في (الدرة) بالأشل القبائلي (S:171-172) فقال عنه: كان كثيرا ما يزورنا، فلا يتكلم إلا على القرآن، وذكر قصته معه فقال (IV:76):

[اجتمعت بقطب الزمان سنة 593 بمدينة فاس. أطلعني الله عليه في واقعة وعرفني به، فاجتمعنا يوما ببستان ابن حيوان بمدينة فاس، وهو في الجماعة لا يؤبه له. فحضر في الجماعة، وكان غريبا من أهل بجاية، أشل اليد. وكان في المجلس معنا شيوخ من أهل الله، معتبرون في طريق الله، منهم أبو العباس الحصّار (I:233/III:34) وأمثاله. وكانت تلك الجماعة بأسرها إذا حضروا يتأدبون معنا، فلا يكون المجلس إلا لنا، ولا يتكلم أحد في علم الطريق فيهم غيري. وإن تكلموا فيما بينهم، رجعوا فيها إليّ. فوضع ذكر الأقطاب وهو في الجماعة. فقلت لهم: يا إخواني، إني

أذكرلكم في قطب زمانكم عجبا. فالتفت إلى ذلك الرجل الذي أراني الله في منامي أنّه قطب الوقت، وكان يختلف إلينا كثيرا ويحبّنا، فقال لي: قل ما أطلعك الله عليه، ولا تُسَمِّ الشخص الذي عين لك في الواقعة؛ وتبسم وقال الحمد لله. فأخذت أذكر للجماعة ما أطلعني الله عليه من أمر ذلك الرجل. فتعجب السامعون، وما سميته ولا عيّنته، وبقينا في أطيب مجلس مع أكرم إخوان إلى العصر، ولا ذكرت للرجل أنّه هو. فلما انفضت الجماعة جاء ذلك القطب وقال: جزاك الله خيرا، ما أحسن ما فعلت، حيث لم تسمّ الشخص الذي أطلعك الله عليه، والسلام عليك ورحمة الله. فكان سلام وداع، ولا علم لي بذلك. فما رأيته بعد ذلك في المدينة إلى الآن].

وقد ألف الشيخ كتابا عرّف فيه بمنزل القطب والإمامين. وأشار فيه إلى تحققه الذوقي والعرفاني بمقام القطب (منزل القطب/ر: 13-14) في فاس، فذكر اجتماعه بقطب زمانه في مشهد عيني فقال: [كنت ببلاد المغرب في مدينة فاس (...) وإذا بالقطب واقف فتبسم (...) فقال: اكتب عني ما يبدو لك، فما زلت انظر إليه، والأسرار ترد علينا، وما يريده القطب ماثل بين يدينا، فأنشدته عنه في ذلك المشهد العيني و السّر الربّي، فكأني بلسانه أتكلم وعن ضميره أترجم، حتّى أتيت على آخر النظم، فأمرني بالكتم، فكتبت الكتاب، وسارت به الهمة على براق الصدق، إلى أن حطت بالأحباب، فعرفوا مقدارهم].

وكأنّ الشيخ نظم حينئذ إحدى أجمل قصائده وهي في 36 بيتا وعنوانها: " حكمة تعليم من عالم حكيم" وفيها يقول:

البسيط

1 — قلبي بذكرك مسرور ومحزون لما تملكه لمح وتلوين

2— فلو رقت في سماء الكشف همته لما تملكه وّجْد وتكوين

26 — فعندما قام فوق العرش بايعه اللوح والقلم العلاّم النّون

31 – فاعلم بأنك لا تدري الإله إذا ما لم يكن فيك يرموك وصفّين

35 – فافهم فديتك سرّ الله فيك ولا تظهره فهو عن الأغيار مكنون

36 – وغر عليه وصنه ما حييت به فالسرّ ميت بقلب الحر مدفون

وخلاصة ما قاله الشيخ في بعض أوصاف القطب ومقامه (منزل القطب والإمامين مواقع النجوم /II:6-555-ب:270/III:336):

[فأمّا القطب وهو عبد الله وهو عبد الجامع، فهو منعوت بجميع الأسماء تخلقا وتحققا. وهو مرآة الحق، ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وسرّ القدر، وله علم دهر الدهور الغالب عليه الخفاء، لا تعتريه شبهة، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، يوفي الطبيعة حقها على الحدّ الإلهي. يضع الموازين، ويتصرف على المقدار المعيّن، الوقت له ما هو للوقت، وهو لله لا لغيره، حاله العبودية والافتقار، فمرتبته الإلحاح في السؤال، والشفاعة في حق طبيعته. يضع الأسباب ويقيمها، ويدل عليها و يجري بحكمها، ينزل إليها حتى تحكم عليه وتؤثر فيه، بخلاف أصحاب الأحوال، فإنّ الأشياء تتكون عن همتهم وطرحهم الأسباب عن نفوسهم، والقطب منزه عن الحال، ثابت في العلم، مشهود فيه، فيتصرف به. لا تطوى له أرض، ولا يمشي في هواء ولا على ماء، ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا نادرا، لأمر يراه الحق فيفعله، لا يكون ذلك مطلوبا للقطب، يجوع اضطرارا لا اختيارا. يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يغار لله ويغضب لله. ولا يتمكن من الخلافة إلا بعد أن يحصل معاني حروف أوائل سور القرآن، مثل ألف لام ميم وغيرها. فهو مركز الدائرة و محيطها، عليه مدار العالم، وله رقائق ممتدة إلى جميع

قلوب الخلائق، وله من البلاد مكة، ولو سكن حيث ما سكن بجسمه. ولا بدّ لكل قطب عندما يلي مرتبة القطبية، أن يبايعه كل روح وحيوان وجماد، ما عدا الإنس والجان إلا قليل منهم. وما من روح يدخل عليه للمبايعة إلا ويسأله عن مسألة من العلم الإلهي. فيستفيد منه كل من يبايعه. فأوّل مبايع له العقل الأوّل، ثم النفس الكلية، ثم المقدمون من عمار السموات والأرض من الملائكة المسخرة، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت، ثم الجن، ثم المولدات. وذلك أن كل ما سبح الله من مكان ومتمكن يبايعه، إلا العالين من الملائكة، وهم المهَيمُون، والأفراد من البشر الذين لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرف، وهم كمّل مثله، وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله. وقد صنفنا في هذه البيعة وكيفية انعقادها كتابا كبيرا سميناه: (كتاب مبايعة القطب في حضرة القرب)، ذكرت في سؤالاته للمبايعين له، التي وقعت في زماننا لقطب وقتنا، فإنها ما هي مسائل معينة تتكرر من كل قطب، وإنما يسأل كل قطب فيما يخطر الله في ذلك الحين، مما جرى لهذا الذي بايعه من الأرواح.وبين أيدينا اليوم تلميذ يخدمنا، أرجو أن يكون من الأقطاب، من أكابرهم، وقد بُشّرنا بذلك. وللقطب حضرة الإيجاد الصرف، ومقامه تنفيذ الأمر، وتصريف الحكم ،بيده خزائن الجود، و الحق له متجل على الدوام. لا يرى في الأشياء إلا وجه الحق فيها. فالقطب وجه بلا قفا. قال ρ:" إني أراكم من وراء ظهري ". فأثبت الظهر حكما على العادة ونفى حقيقته بوجود النظر منه].

وقد ذاق الشيخ في فاس عام 593، المقام القطبي، حيث أصبح وجها بلا قفا، بمسجد الشيخ التميمي، الذي ألبسه الخرقة. وبعد ذلك عام 594، ذاق ذلك المقام

وهو يصلي بالمصلين الصلاة الوسطى، فقال (491:I): [ولما ورثته ρ في هذا المقام - أي وجه بلا قفا - كانت لي هذه، كنت أصلي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس. فإذا دخلت المحراب، أرجع بذاتي كلها عينا واحدا، فأرى من جميع جهاتي كما أرى قبلتي، لا يخفى عليّ الداخل ولا الخارج، ولا واحد من الجماعة، حتى أنّه ربّما يسهو من أدرك ركعة منن الصلاة؛ فإذا سلمتُ ورددت وجهي إلى الجماعة، أدعو، أرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخل ركعة، فأقول له: فاتك كذا وكذا، فيتم صلاته ويتذكر. فلا يعرف الأشياء ولا هذه الأحوال إلا من ذاقها. ومن كانت هذه حاله، فحيث كانت القبلة، فهو مواجهها. هكذا ذقته بنفسي (...) ومن كان له مثل هذه الحال، يثبت له في صلاته وجميع تصرفاته قوله تعالى: **[فأينما تولوا فثم وجه الله]**، ووجه الله للمصلي إنّما هو في قبلته...].

وفي الباب 206 في حال التجلي من الفتوحات، يعود إلى ذكر حصوله على هذا المقام المحمدي خلال تفصيله لأنواع الأنوار فيقول (486:II):

[قال:[أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني]. فهو بالنور الذي بين يديه يدعو على بصيرة. والداعي المتبع له يدعو بالنور الذي خلفه، ليكون هذا المتبع أيضا على بصيرة فيما يدعو إليه مثل من اتبعه، وبذلك النور يرى من خلفه مثل ما يرى من بين يديه. وهذا مقام نلته سنة 593 بمدينة فاس في صلاة العصر ، وأنا أصلي بجماعة بمسجد الأزهر بجانب عين الخيل، فرأيته نورا يكاد يكون أكشف من الذي بين يدي؛ غير أني لما رأيته زال عني حكم الخلف وما رأيت لي ظهرا ولا قفا، ولم أفرق في تلك الرؤية بين جهاتي، بل كنت مثل الاكرة، لا أعقل لنفسي جهة إلا بالفرض لا بالوجود. وكان الأمر كما شاهدته. مع أنّه كان قد تقدّم لي قبل ذلك كشف الأشياء في عرض حائط قبلتي. وهذا كشف لا يشبه هذا

الكشف]. ومن خصوصيات القطب أنّه رحمة للعالمين. هذه الرحمة التي شاهدها الشيخ بفاس في هذا العام وقال عنها (153:IV): [من عباد الله من تعجل له قيامته، فيرى ما يؤول إليه أمره في الدار الآخرة، وهي البشرى التي للمؤمن في الحياة الدنيا، وقد رأيناها ذوقا. وكان لنا فيها مواقف منها في ليلة واحدة مائة موقف بأخذ ورجوع، لو قسمت تلك الليلة على قدر الوقوف ما وسعته، وذلك بمدينة فاس 593، أشاهد في كل موقف من اتساع الرحمة ما لا يمكنني النطق به...]. لكن كل هذا لا يعني أن الشيخ كان هو قطب زمانه، بل كان رئيس الأفراد الخارجين عن دائرة القطب، والذين قال عنهم في نصّه السابق أنهم كمّل مثل قطب، وفيهم من يكون أكبر من القطب في العلم بالله.

وصرّح بهذا في قوله: إنّ الختمين أي ختم الولاية العامة عيسى υ وختم الولاية المحمدية الخاصة هما من الأفراد، فما هما قطبان (77:IV)، فوظيفة الشيخ لم تكن منحصرة في أهل زمانه كالقطب، بل عامةً عموم الرحمة المحمدية التي الختم مظهرها [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين]، ذاتية ثابتة فوق الزمان وفي الزمان، كذاتية العبودية الأحمدية التي نال منها الشيخ بأوفر نصيب، كما صرح بذلك في قوله في الباب 311 من الفتوحات المخصوص بمنزل سورة المزمّل (41:III):

[أعلم أنّه ليلة تقييدي هذا الباب، رأيت رؤيا سررتُ بها، واستيقظت وأنا أنشد بيتا كنت قد عملته قبل هذا في نفسي (...)، – وهو مكتوب في مدخل مقام ضريح الشيخ اليوم — وهو:

الكامل

في كل عصر واحد يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

وذلك أني ما أعرف اليوم في علمي من تحقق بمقام العبودية أكثر منّي، وإن كان ثم فهو مثلي. فإنّي بلغت من العبودية غايتها، فأنا العبد المحض الخالص لا أعرف للربوبية طعما (...) والله سبحانه قد منحنيها هبة أنعَم بها عليّ لم أنلها بعمل، بل اختصاص إلهي أرجو من الله أن يمسكها علينا، ولا يحول بيننا وبينها إلى أن نلقاه بها [فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون]].

والتحقق بغاية العبودية هو من أوصاف الختم المحمدي، حسبما وصفه به الإمام الحكيم الترمذي محمد بن علي في كتابه (ختم الأولياء) (ت: نحو 320)، حيث يقول عنه ما خلاصته (ص344-345-367-421-422-441): [الولي الذي له إمامة الولاية ورياستها وختمها مقامه في أعلى منازل الأولياء في ملك الفردانية، منفرد في وحدانيته ومناجاته، كفاحا في مجالس الملك. قد انكشف له الغطاء عن مقاماتهم ومراتبهم وعطاياهم وتحفهم. يسير به الله تعالى على طريق محمد ρ. فكما كان ρ حجة على الأنبياء، فكذلك يصير هذا الولي حجة على الأولياء بأن يقول لهم: معاشر الأولياء، أعطيتكم ولايتي، فلم تصونوها من مشاركة النفس. وهذا أضعفكم وأقلكم عمرا قد أتى بجميع الولاية صدقا، فلم يجعل للنفس فيها نصيبا ولا تلبيسا. وكان ذلك في الغيب من منة الله تعالى على هذا العبد، حيث أعطاه الختم لتقر به عين محمد ρ في الموقف، فيقر له الأولياء يومئذ بالفضل عليهم، ويكون أمانا لهم. ولا ينقضي الدهر حتى يأتي الله بهذا الخاتم. فإذا برز الأولياء يوم القيامة واقتضوا صدق الولاية والعبودية، وجد الوفاء عند هذا الذي ختم الولاية تماما، فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم، وكان شفيعهم يوم القيامة. هو سيّدهم. ساد الأولياء، كما ساد محمد ρ الأنبياء، فينصب له مقام الشفاعة، ويثني على الله تعالى ثناء، ويحمده بحامد يقر الأولياء بفضله عليهم في العلم بالله تعالى؛

فلم يزل هذا الولي مذكورا في البدء: أولا في الذكر، وأوّلا في العلم، ثم الأول في المشيئة، ثم هو الأول في المقادير، ثم هو الأول في اللوح المحفوظ، ثم الأولى في الميثاق، ثم الأول في المحشر، ثم الأول في الخطاب، ثم الأول في الوفادة، ثم الأوّل في الشفاعة، ثم الأوّل في دخول الدار، ثم الأول في الزيارة. فهو في كل مكان أول الأولياء، كما كان محمد ρ أول الأنبياء. فهو من محمد ρ عند الأذن، والأولياء عند القفا. فهذا عبد مقامه بين يديه في ملك الملك. ونجواه هناك في المجلس الأعظم. فهو في قبضته، والأولياء من خلفه دونه درجة درجة، ومنازل الأنبياء بين يديه].

صاحب هذا المقام الختمي هو الشيخ الأكبر محيي الدّين، حسبما صرّح به هو في الكثير من نصوصه، وتحقق به عام 594 بفاس كما سنفصّله في الفصل التالي.

وقد أورد الحكيم الترمذي في كتابه (ختم القرآن) 157 سؤالا في العلوم الإلهية الخاصة بالأولياء، متحديّا أدعياء الولاية في الإجابة عنها. ولم يرفع هذا التحدّي إلا الشيخ الذي وافق عدد لقبه محي الدّين بحساب الجمل عدد تلك الأسئلة (محيي الدّين = 58+99=157)، فأجاب عليها بتفصيل رائع في الباب73 من الفتوحات. وقد حاول بعض المتأخرين الإجابة عنها، لكن أجوبتهم جاءت بعيدة جدًا عن المستوى العالي الذي تكلم عنه الشيخ؛ (أجاب عن بعضها القاضي أحمد سكيرج (ت: 1363هـ بمراكش)، أحد شيوخ التجانية في كتاب مخطوط عنوانه (قرة العين في الجواب عن الأسئلة المودعة في خبيئة الكون). وأجاب عنها المصري محمد سلامة في كتاب طبع عام 1407.

ولما تحقق الشيخ في فاس بختميته المحمدية، وشهد الختمية العامة لعيسىυ أخبر بذلك أخصّ أصحابه عبد الله بدر الحبشي. وفي ذلك يقول (II:49): [ولقينا

جماعة ممّن هم على قلب عيسى U وغيره من الرسل عليهم السلام. وقد جمعت بين صاحبي عبد الله بدر الحبشي وإسماعيل بن سودكين وبين هذا الختم ودعا لهما وانتفعا به والحمد لله]. ذكر الشيخ عنه (S:179–180) أنّ اسمه: أبو محمد عبد الله بن بدر بن عبد الله الحبشي عتيق أبي الغنايم ابن أبي الفتوح الحراني (مقدمة حلية الأبدال)ويقول الشيخ عنه في كتابه (الدرّة الفاخرة) أنه كان مجاورا في مكة المكرمة، فرأى في واقعته أن يصاحب ابن العربي فرحل إليه وقابله في فاس. وكان قد ساح في المشرق، وصحب شيوخ، منهم أبو زكريا البجائي بالمعرة، وأبو الحسن بن الشكال الفاسي بحلب، و الربيع بن محمود المارديني الحطاب، وأبو عبد الله بن الحسن. وفي المغرب صحب إسماعيل الرقراقي. ثم اجتمع بالشيخ في فاس عام 595، فلازمه ملازمة الظل لشخصه في جميع أسفاره وإقاماته إلى أن توفي في بيت الشيخ بملطية عام 618، وغسله وصلى عليه الفقيه الصالح كمال الديّن مُظفّر بأمر رباني وبمحضر الشيخ. ويقول الشيخ: إنّه خاطبه وهو في قبره عن مسألة بينهما، فأجابه عنها بصوت واضح. وذكر أنّ أفرادا من عائلة الإمام الخطيب بدر الديّن رأوا نورا ينزل من السماء على قبره وبقي طول الليل.

ويصفه الشيخ فيقول (I:10): [وأمّا رفيقي، فضياء خالص، ونور صرف، حبشي اسمه عبد الله بدر، لا يلحقه خسف، يعرف الحق لأهله فيؤدّيه، ويوقفه عليهم ولا يعدّيه، قد نال درجة التمييز، وتخلص عند السبك كالذهب الإبريز، كلامه حق، ووعده صدق. فكنا الأربعة الأركان التي قام عليها شخص العالم والإنسان]. أي كأنّ الحبشي كان أحد الأوتاد الأربعة الذين ذكرهم في أواخر الباب 16 حيث يقول (I:160):

[وكان بعض الأركان في زماننا الربيع بن محمود المارديني الحطاب (وهو من شيوخ الحبشي في المشرق)، فلما مات خلفه شخص آخر. وكان الشيخ أبو علي الهواري فقد أطلعه عليهم في كشفه قبل أن يعرفهم ويحقق صورهم، فما مات حتى أبصر منهم ثلاثة في عالم الحس. أبصر ربيعا المارديني، وأبصر الآخر وهو رجل فارسي وأبصرنا ولازمنا إلى أن مات سنة 599، أخبرني بذلك وقال لي: ما أبصرت الرابع وهو رجل حبشي].

وقد كتب الشيخ لرفيقه الحبشي كتبا موجهة له هو خاصة منها (مواقع النجوم)، و(إنشاء الدوائر)، و(حلية الابدال) الخ ... ونظم قصائد تعبر عن إعجابه به كقوله:

الوافر

أحبُّ لحبك الحبشان طرّاً وأعشق لاسمك البدر المنيرا

(189:I)

وقد خلف الحبشي كتابا عنوانه (الإنباه) جمع فيه بعض حكم ووصايا الشيخ محي الدين.

الشيخ في مقام الختم المحمدي الخاص

الطويل

أنا خاتم للأولياء كما أتى بأنّ ختام الأنبياء محمّدا

ختام خُصُوصٍ لا ختام ولاية تعمّ فإنّ الختم عيسى المؤيّدا

(دي:293)

مقام الختمية من مقامات الولاية. واختُلف في تعريفه. فمن المتكلمين عليه من يعتبره مقاما يمكن أن يناله أولياء متعددّون وفي أزمنة مختلفة. فبعض الأولياء المتحققين بالمقام الأحمدي من اسمه تعالى " الولي الحميد "، تُخلع عليهم خلعة الختمية، وربّما ينطق صاحبها بأنّه هو الختم. وكثير من أتباع كبار الشيوخ نسبوا ذلك لشيوخهم كعبد القادر الجيلاني (ت: 561)، وأحمد الرفاعي (ت:578)، ومحمد وفا الشاذلي (ت: 801)، ومحمد الجزولي مؤلف دلائل الخيرات (ت: 870)، و أحمد السرهندي النقشبندي (ت: 1034)، وتقي الدين القشاشي (ت: 1071)، و عبد الغني النابلسي (ت: 1143)، ومحمد عثمان الميرغني السوداني (ت:1268) ومحمد بن عبد الكبير الكتاني المغربي، و المصري محمد بن عبد الله أبو العزائم (ت: 1359)، وغيرهم خصوصا أتباع الشيخ أحمد التجاني (ت: 1230). فقد أطنب أتباعه في نسبة هذا المقام إليه، وأنّه هو وحده ختم الأختام، ولهم في ذلك مكتوبات وفي بعضها مقولة يزعم واضعها أنّ الشيخ الأكبر محي الدين تراجع في آخر عمره عن قوله بأنّه هو الختم المحمدي الخاص وكشف له أنّ هذا المقام لغيره أي للشيخ التجاني. وهذه المقولة باطلة لا وجود لها في أيّ من تآليف الشيخ أو أشعاره، بل كل نصوصه التي كتبها في آخر حياته تصرّح بأنه هو وحده المخصوص بمقام ختم الولاية المحمدية الخاصّة وقد أورد علي حرازم تلميذ الشيخ التجاني في كتابه (جواهر المعاني) تعريفه للختم فقال : [إنّ أكمل العارفين وهو القطب الكامل لا تتجلى له حقيقة الكبرياء إلا بعد بلوغه للمرتبة العليا من القطبانية، وذلك المقام يسمونه ختم المقامات، ولم يرتقه من الأقطاب إلا القليل لبعد مرامه. فإذا ارتقاه القطب ووصله، هنالك يتجلى له الكبرياء الذاتي، ولا يزال مرتقيا فيه إلى الأبد. قال علي كرم الله وجهه: " المعرفة كشف سبحات الجلال، وغايتها الدهش في كبرياء الله"، أراد بغايتها مقام الختم في القطبانية، فهو غاية الغايات].

وأمّا الشيعة، فيعتقدون أنّ صاحب مقام ختم الولاية الكلية العامة هو علي بن أبي طالب، والختم المحمدي الخاص هو الإمام محمد المهدي الثاني عشر من أئمة آل البيت عليهم السلام. وقريب من تعريف التجاني، تعريف عبد الكريم الجيلي (ت: 832) في كتابه (الإنسان الكامل) (الباب 63)، حيث يقول: إنّ مراتب الولاية في الأمة المحمدية سبع، هي على الترتيب: الإسلام والإيمان والصلاح والإحسان والشهادة والصديقية والقربة أو الولاية الكبرى التي لها أربع حضرات هي على الترتيب: الخلّة ثم الحبّ ثم الختام وهو المقام المحمدي، وفيه رفع لواء الحمد ثم العبودية. ومقام الختام عنده هو التحقق بتجلي حقيقة اسمه تعالى: " ذي الجلال والإكرام".

وأمّا الشيخ الاكبر فتكلم على الختمية في مواضع كثيرة من الفتوحات:

(I:49-151-184-244-318-319-658/II:(أجوبته على أسئلة الترمذي: 13/14/15) ص: 9-41-49-125-624/ III:41-84-323-328-339-507-514-560-/ IV:75-195-442)،

وفي الفصوص (فص شيث υ) وخصّص له كتابا عنوانه: (عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب) ألّفه سنة 595 من أجل من وصفه بـ: " الشيخ العارف السائح المتجرد المنقطع الصادق الصالح المسن أبي يحيى بن أبي بكر الصنهاجي، من أهل المعارف و الإشارات والتمكين، قل أن تلقى مثله " (ر:122) وقد جمع الشيخ محمود محمود الغراب جلّ نصوص الشيخ حول الختمية في كتابه (شرح كلمات الصوفية والرّد على ابن تيمية). و للباحث الفرنسي المسلم ميشال شودكيفيتش كتاب قيّم في بحث هذه المسألة أي الختمية عند الشيخ الاكبر عنوانه (ختم الأولياء Le Sceau des saints).

وخلاصة قول أن الشيخ في هذا الموضوع أنّ ثمّة للولاية ختمان ما هما قطبان، بل هما من الأفراد على قدم سيدنا محمد ρ: الأوّل هو ختم الولاية العامة، وهو عيسى بن مريم υ، عندما ينزل في آخر الزمان حاكما بالشريعة المحمدية، فهو آخر الأولياء الذين يتحققون بمقام القربة. والثاني هو ختم الولاية التي تحصل من الورث المحمدي، لا التي تحصل من سائر الانبياء. فلا يوجد في زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله و بمواقع الحكم منه. ولا وليّ بعده إلا وهو راجع إليه. فلا يوجد بعده ولي على قلب سيدنا محمد ρ، ولكن كلمة بعده هل تعني البَعْدية الزمانية أو البَعْدية في المقام ؟ الراجح هو البَعْدية في المقام والله أعلم. ويذكر الشيخ علامة هذا الختم فيقول (442:IV): [الختم الخاص هو المحمدي، ختم الله به ولاية الأولياء المحمديين أي الذين ورثوا محمد ρ، وعلامته في نفسه أن يعلم قدر ما ورث كل ولي محمدي من محمد ρ، فيكون هم الجامع علم كل وليّ محمدي لله تعالى. وإذا لم يعلم هذا فليس بختم].

وصرّح الشيخ في العديد من المواضع – خصوصا في ديوانه – أنّه هو هذا الختم المحمدي الخاص. ويبدو من مقارنة مختلف النصوص حول مسألة الختمية أنّه كشف للشيخ عن ختميته هو المحمدية الخاصة وعن ختمية عيسىυ العامة خلال مرحلتين: الأولى: سنة 594، والثانية سنة 595 بمدينة فاس. إثر ذلك، أمر بكتابة تأليف في هذا الموضوع عنوانه (عنقاء مغرب). يقول مشيرا لنفسه (49:II): [وأمّا ختم الولاية المحمدية، فهي لرجل من أكرمها أصلا ويدا، وهو في زماننا اليوم موجود. عرّفت به سنة 595، ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق فيه عن عيون

عباده، وكشفها لي بمدينة فاس، حتى رأيت ختم الولاية منه، وهو خاتم النبوة المطلقة (أي عيسى υ) لا يعلمه كثير من الناس].

وقد قال مؤيّد الدّين الجندي (ت:700) في شرحه للفصوص راويا عن صدر الدّين القونوي أكبر خلفاء الشيخ: إنّ الشيخ بُشّر بختميته قبل ذلك عام 586 بإشبيلية، في المشاهدة التي شاهد فيها جمع الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، اجتمعوا لتهنئته بذلك. وروى أيضا أنّ بين كتفي الشيخ علامة كأنّها تشير إلى ختميته للولاية المحمدية، تتمثّل في موضع قدر بيض حمامة داخل في جلده، كما ظهر ذلك بارزا من بين كتفي ρ، كما هو مشهور في السيرة. وبّما أشار الشيخ إلى تلك البشرى في قوله في ديوانه:

الطويل

أتاني رسول بالوراثة فاضل بإشبيلية الغراء في العلم كامل

فقال لنا علم الحروف دليلنا على أنك الندب الإمام الحُلاحِل

ولا يريد الشيخ بهذا القول وأمثاله الفخر والإعجاب بالنفس، بل هو صادر من حضرة **وأمّا بنعمة ربّك فحدثّ** الآية 11 الضحى. وأشار إلى تلك العلامة الختمية بين كتفيه فقال (ديوان: 310)

الطويل

ولما أتاني الحق ليلا مبشّرا بأنّي ختام الأمر في غرة الشهر

وقال لمن قد كان في الوقت حاضرا من الملإ الأعلى ومن عالم الأمر

ألا فانظروا فيه فإنّ علامتي على ختمه في موضع الضرب في الظهر

وأخفيته عن أعين الخلق بهم للذي يُعطي الجحود من الكفر

وفي ديوان المعارف، يقول عن ختميته:

ووالله لولا أن عيسى ابن مريم يصدقني فيه وصاحبه المهدي
بأني ختم والختام نهاية خصصت بها وحدي وبالعلم الفرد
بنا ختم الله الولاية فاعتلت منازلنا أمر خصصت به وحدي

وإذا كان الشيخ قد بُشر بختميته المحمدية الخاصة في اشبيليةوعمره 26 سنة خلال فتحه الكبير عام 586 هـ ,وتحقق بهذا المقام بفاس سنة 594 هـ , ورسخ فيه لما اعتلى منبر الخلافة المحمدية خلال حجته الأولى بمكة سنة 598هـ , فقد واصل سبر أعماقه و العروج في مختلف آفاقه إلى أن كمل بتمامه بجميع أبعاده لما بلغ من العمر 70 سنة وهو في دمشق عام 630هـ , حسبما صرح به في ديوانه الكبير في نصه التالي بعد ذكره للأبيات التالية :

[أتاني رسول الحق ليلا مبشرا بتوقيعه فيما ملكت من الأمر
فأفرحني ذاك الخطاب ونصه بأن لنا فيه أمانا من المكر
فقمت مقام الشاكرين وراثة كما قام من يدري على قدم الشكر
تورمت الأقدام منه ولم يكن له مثل هذا الحال في زمن العسر
فلله ما يخفى ولله ما بدا ولله ما يجريه من حيث لا أدري
دعاني إلهي نفسه بي نيابة عن العبد بالتسديد في كل ما يجري
يحقق لي ذاك الدعاء إجابة بما قد دعى فيه من الحفظ للأمر
فقمت بتأييد الإله وحفظه أجرّر أذيال التعجب والفخر
ولكن بربي لا بنفسي فإنني شهيد لما عندي من الذل والفقر

وإن كنت مفطورا على الصورة التي لها القدم العليا في السر والجهر
كعتبة لما أن زهى في عبودة محققة زهوا على عالم الأمر

اعلم أيّدنا الله وإياك أن سبب هذه الأبيات ما أذكره: وذلك أنّ الحق تعالى لم يكن أوقفني على صورة توقيعه لي بما جعل لي من الولاية المعنوية في العالم حين أعلمني بأني خاتم الولاية المحمدية بمدينة فاس , أظنه سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، وأعطاني العلامة بذلك بين كتفيّ ، فعاينته في الواقعة مع جملة من الملائكة مبشرين لي بذلك . ولما كنت ليلة الخميس منتصف شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بمحروسة دمشق أوقفني الحق تعالى في مبشرة نبوية على التوقيع الذي كتبه لي بذلك في ورقة بيضاء كأني الآن أنظر إلى حسنه وبضه وهيئته :

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا توقيع إلهي كريم من الرءوف الرحيم إلى فلان ، وقد أجزلنا رفده ، وما خيّبنا قصده ، فلينهض على ما فوض إليه ، وليتقدم على قدم عليه ، وليعاملهم بكريم خُلُقه ، وليطلع عليهم بدر تمام بأفقه ، ولا تشغله الولاية عن المثول بين أيدينا شهرا بشهر ، إلى انقضاء العمر الذي سمح به الدهر . والله

يرزقه النُجح في سعيه ، والسداد في حكمه ورأيه ، والوقوف عند أمره ونهيه . والسلام .»

فلهذا قلنا هذه الأبيات . وقلنا فيها دعاني نفسه تعالى نيابة عني في ذلك . والحمد لله الذي أذهب عنا الحزَن بما وقانا من الفتن ، فإن الله تعالى قد رفع المكر على العلم بقوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » «ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون » فنفا عنهم العلم بذلك والشعور.ثم إن الله تعالى لا يمحو ما كتبه في

القلوب من أحكام الغيوب . فالشكر لله عليها من مبشرة إلهية نبوية برية ختمية علية مؤيدة بهوية . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما].

سياحات الشيخ الأخيرة في المغرب العربي ونيله مقام القرية

البسيط

إنّ المقرب ذو روح وريحان في جنة الخلد من نعمى وإحسان

(103:III)

ذكر الشيخ سياحته الأخيرة في الأندلس في رسالة كتبها لشيخ من أصحابه، وتوجد ضمن كتاب الكتب، يقول فيها إنّه بعد فراقه، نزل قصر كتامة الذي تبعد عن طنجة بنحو 90 كيلمترا جنوبا، حيث اجتمع بالشيخ عبد الجليل بن موسى (ت: 608)، مؤلف (مسائل شعب الإيمان)، وتلميذ ابن غالب أبي الحسن علي القرشي (ت: 568)، الذي هو من خلفاء ابن العريف. ثم أبحر إلى الجزيرة الخضراء، فزار ابن طريف، ثم توجه إلى رنده، فنزل بمحل الصوفي المحقق أبي الحسن الخوني – أو القنوي – الذي وصفه بأنّه من أهل الفتوة و المعارف السنية (ر: 122)؛ وفي رنده، حقق الشيخ أمنيته في جمع بدر الحبشي بالبَدل محمد بن أشرف الرندي (ر:112). ثم توجه الشيخ و الحبشي إلى إشبيلية لزيارة أبي عمران موسى بن عمران المرتلي وأبي عبد الله بن قسوم، وعبد الله الموروري. ثم ذهبا إلى قرطبة، فلقيا بها من سمّاه " الشاب الصالح المبادر إلى جميع المصالح، الفقير السني المتشرع الحنفي أبا

عبد الله الأسطني". وفي يوم 9 صفر من هذا العام 595، كان الشيخ قد شهد في قرطبة جنازة ابن رشد المتوفى بمراكش، والذي جيء بجثمانه لدفنه هناك.

ومن قرطبة، توجها لغرناطة، حيث نزلا عند الشيخ أبي محمد الشكاز، ولحق بهما عبد الله المورورى. وفي إحدى مذاكراتهم، تطرقوا إلى قول النبي ρ :[ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن وحدّ ومطلع]. فقال لهم الشكاز ما نقله عنه الشيخ في الباب 25 من الفتوحات وهو (I:187):

[... ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال، ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف قطب، وعلى ذلك القطب يدور فلك الكشف. دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز من أهل باغة بغرناطة سنة 595، وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق، لم أر في طريقه مثله في الاجتهاد. فقال لي: الرجال أربعة: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم رجال الظاهر، و رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة، ورجال الأعراف وهم رجال الحدّ قال تعالى: وعلى الأعراف رجال، أهل الشم والتمييز والسراج عن الأوصاف، فلا صفة لهم؛ كان منهم أبو زيد البسطامي، ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالا لسرعة الإجابة يركبون وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا ، وهم رجال المطلع، فرجال الظاهر هم الذين لهم التصرف في علم الملك والشهادة، وهم الذين كان يشير إليهم الشيخ محمد بن قائد الأواني، وهو المقام الذي تركه الشيخ العاقل أبو السعود بن الشبل البغدادي أدبا مع الله (...) وأما رجال الباطن فهم الذين لهم التصرف في عالم الباطن والملكوت، فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه، وأعني أرواح الكواكب، لا أرواح الملائكة (...) فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة، وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصا إلهيا. وأمّا رجال الحد، فهم الذين لهم

التصرف في عالم الأرواح النارية، عالم البرزخ والجبروت (...) وهم رجال الأعراف (...) فلا يتعدون الحدود. وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء، فلهم في كل حضرة استشراف (...) وأمّا رجال المطلع، فهم الذين لهم التصرف في الأسماء الإلهية، فيستنزلون بها منها ما شاء الله، وهذا ليس لغيرهم، ويستنزلون بها كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة (...) وهم أعظم الرجال وهم الملامية. هذا في قوتهم وما يظهر عليهم من ذلك شيء، منهم أبو السعود وغيره، فهم والعامة في ظهور العجز و ظاهر العوائد سواء]. وكان الشيخ من هذه الطبقة الرابعة. ومن غرناطة، رجع الشيخ إلى بلده مرسية، حيث زار من سمّاه " الأوحدي الإمام أبا أحمد بن سيدبون"، وهو من خلفاء أبي مدين. وقد ذكره الشيخ في الباب 282 من الفتوحات المتعلق بسورة العلق (II: 641)، خلال إشارته لآيتها : اقرأ باسم ربك فقال عنه: [ولقيت الشيخ أبا أحمد بن سيدبون بمرسية وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم، فرماه بحصاة، يشير إليه " إنك اسم الله الأعظم"، وذلك أنّ الأسماء وضعت للدلالة، فقد يمكن فيها الاشتراك، وأنت أدل دليل على الله وأكبره]. وفي الباب 283، يذكر الشيخ ابن سيدبون (II: 622)، ويقول عنه وعن أبي حامد الغزالي: التبس عليهما الأمر في قولهما إنّ الإنسان يعصم من الشيطان إذا ارتقى عن العناصر وفتحت له أبواب السماء. فردّ الشيخ عليهما أن ذلك صحيح لو كان المعراج جسما وروحا كمعراج الرسول ρ . وأما من عرج به بخاطره أو روحانيته، فلا يأمن من التلبيس إن لم يكن له علامة إلهية يكون فيها على بيّنة من ربّه. ولما لقيه الشيخ في زيارته الأخيرة له هذه، وجده في حالة قبض ثم قال عنه:[فرحلت من عنده وقد بكى لفراقي متفجعا، وخرج معي إلى الطريق مشيعا. وهنا انتهى ما لقيت. ولا أزور أحدا بعدها ما بقيت].

في هذه الجملة الأخيرة، يظهر وكأنّ الشيخ قد كشف له أنّ مقامه في الأندلس قد أوشك على نهايته، واقترب أوان الرحلة إلى المشرق. ولم يكد الشيخ يستقر بمرسية،

حتى شدّ الرحلة إلى المرية، التي تقع على بعد أربعة أيام للراجل من مرسية. فوصلها في بداية رمضان من هذا العام 595، وفيها كتب أحد أنفس كتبه وسماه (مواقع النجوم)، وقال عنه في الفتوحات (III:334/IV:262):

[... ومن خطاب الشارع، تعلم جميع ما يتعلق بكل عضو من هؤلاء الأعضاء من تكاليف (...) وقد بيناها بكمالها وما لها من الأنوار والكرامات والمنازل والأسرار و التجليات، في كتابنا المسمّى بـ: (مواقع النجوم)، ألفناه عن أمر إلهي. ما سبقنا في علمنا في هذا الطريق إلى ترتيبه أصلا، وقيدته في أحد عشر يوما في شهر رمضان بالمرية سنة 595. يغني عن الأستاذ بل الأستاذ محتاج إليه، فإنّ الأستاذين فيهم العالي والأعلى. وهذا الكتاب أعلى مقام يكون الأستاذ عليه، ليس وراءه مقام في هذه الشريعة التي تعبدنا بها. فمن حصل لديه، فليعتمد بتوفيق الله عليه. فإنّه عظيم المنفعة. وما جعلني أن أعرفك بمنزلته إلا أنّي رأيت الحق في النوم مرتين وهو يقول لي: انصح عبادي. وهذا من أكبر نصيحة نصحتك بها، والله الموفق وبيده الهداية و ليس لنا من الأمر شيء...].

ومن رمضان 595 إلى أواخر عام 596، نفتقد خطى الشيخ في مكتوباته، فهل قضى هذه الفترة في الخلوة مع رفيقه الحبشي أم في سياحات أخرى ؟ السؤال يبقى مطروحا. وفي بداية عام 597، نجد الشيخ في سلا مع الشيخ أبي يعقوب الكومي. وقد كان للشيخ أصحاب صالحون في سلا، منهم الغماد الذي قال عنه (IV:506): [وقد كان شيخنا عبد الحليم الغماد بمدينة سلا، إذا رأى شخصا راكبا ذا شارة يعظمه الناس وينظرون إليه يقول له ولهم:" تراب راكب على تراب". ثم ينصرف وينشد:

حتى متى وإلى متى تتوانى أتظن ذلك كله نسيانا

وكان الغالب عليه التوله]. ومنهم علي السلاوي الذي قال عنه (187:II) [فاعلم أنّه ثم تجلّ يُضحك، وما رأيت أحدا في هذا الطريق من أهل الضحك إلا واحد يقال له السلاوي، سحت معه وصحبته سفرا وحضرا بالأندلس، لا يفتر عن الضحك، شبه الموله، وما رأيته جرى عليه قط لسان ذنب. وأمّا البكاؤون، فما رأيت منهم إلا واحدا، يوسف المغاور الجلاء، سنة 586 بإشبيلية، وكان يلازمنا ويعرض أحواله علينا، كثير الجزع لا تفتر له دمعة، صحبته في الزمان الذي صحبت فيه الضحاك]. وذكر الشيخ المغاور في طبقة السائحين فقال (33:II): [... السائحون لقيت من أكابرهم يوسف المغاور الجلاء، ساح مجاهدا في أرض العدو عشرين سنة. وممّن رابط بثغر الأعداء شاب بجلمانية، نشأ في عبادة الله تعالى، يقال له أحمد بن همام الشقاق بالأندلس. وكان من كبار الرجال مع صغر سنه، انقطع إلى الله تعالى على هذا الطريق وهو دون البلوغ، واستمر حاله على ذلك إلى أن مات].

ومن سلا توجّه الشيخ نحو مراكش. وخلال توجهه، دخل إلى أعلى مقامات الولاية، وهو الذي خصّص الشيخ له الباب 161 من الفتوحات الذي عنوانه: [في المقام الذي بين القربة الصديقية والنبوة وهو مقام القرابة]، فقال فيه ما خلاصته (262–260:II):

[هذا المقام دخلته في شهر محرم سنة 597 وأنا مسافر بمنزل إيجيسل ببلاد المغرب، فتهت به فرحا ولم أجد به أحدا. فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلة والافتقار، فلا يجد في ذلك المنزل من أحد. وذلك المنزل هو موطني فلم

استوحش فيه، لأنّ الحنين إلى الأوطان ذاتي لكل موجود، وأنّ الوحشة مع الغربة. ولما دخلت هذا المقام وانفردت به وعلمت أنّه إن ظهر علي فيه أحد أنكرني. فبقيت أتتبع زواياه ومخادعة، ولا أدري ما اسمه مع تحققي به، وما خصّ الله به من أتاه إياه. ورأيت أوامر الحق تترى عليّ، وسفراءه تنزل إليّ، تبتغي مؤانستي وتطلب مجالستي، فرحلت وأنا على تلك الحال من الاستيحاش والانفراد، والأنس إنّما يقع بالجنس، فلقيت رجلا من الرجال بمنزل يسمّى آنجال. فصليت العصر في جامعه، فجاء الأمير أبو يحيي بن وجاتن، وكان صديقي، وفرح بي وسألني أن أنزل عنده، فأبيت ونزلت عند كاتبه، وكانت بيني وبينه مؤانسة، إذ لاح لي ظل شخص، فنهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجا، فعانقني، فتأملته فإذا به أبو عبد الرحمان السلمي، قد تجسدت لي روحه بعثه الله إلي رحمة بي. فقلت له: أراك في هذا المقام. فقال: فيه قبضت وعليه مت فأنا فيه لا أبرح. فذكرت له وحشتي فيه وعدم الأنس، فقال: الغريب مستوحش، وبعد أن سبقت لك العناية الإلهية بالحصول في هذا المقام ، فاحمد الله ولمن يا أخي يحصل هذا ؟ ألا ترضى أن يكون الخضر υ صاحبك في هذا المقام؟! فقلت له: يا أبا عبد الرحمان، لا أعرف لهذا مقام اسما أميّزه به، فقال لي: هذا يسمى مقام القربة، فتحقق به. فإذا به مقام عظيم، لعلماء الرسوم من أهل الاجتهاد فيه قدم راسخة، لكنهم لا يعرفون أنهم فيه. ورأيت الإمداد الإلهي يسري إليهم من هذا المقام. وقد أنكر أبو حامد الغزالي هذا المقام وقال: ليس بين الصديقية والنبوة مقام. ومن هذا المقام حصل لأبي بكر الصديق السرّ الذي وقر في نفسه، وظهرت قوة ذلك السرّ يوم مات الرسول ρ، فما بقي احد إلا خولط في عقله و تكلم بما ليس الأمر عليه، إلا أبو بكر، فما طرأ عليه من ذلك الأمر، ورقى المنبر وخطب الناس فقال: " من كان منكم يعبد محمدا فإنّ محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنّ الله حيّ لا يموت". ثم تلا:[

إنّك ميت وإنّهم ميتون]. فسكن جأش الناس، فالذي ينبغي أن يقال ليس بين محمد وأبي بكر رجل، لا أنّه ليس بين الصديقية والنبوة مقام].

وعبد الرحمن السلمي المذكور هو مؤلف (طبقات الصوفية) والمتوفى عام 421 قبل 176سنة من هذه الواقعة.

وقد تكلم الشيخ عن مقام القربة في الباب73 (II:24-25) فقال عن أهله: [وهو للأفراد هو دون نبوة التشريع في المنزلة عند الله، وفوق الصديقية في المنزلة عند الله]. وألف الشيخ فيه رسالة مطبوعة ضمن رسائله، ذكر في بدايتها هذا المعنى قائلا عنهم: [فهم الأفراد الذين لا يعرفهم الأبدال، ولا يشهدهم الأوتاد، ولا يحكم عليهم الغوث والقطب والإمام]. وقد ذكر كتابه هذا عند ذكره لعلوم " الباب 301 في معرفة منزلة الكتاب المقسوم بين أهل النعيم وأهل العذاب"ن فأشار إلى آيتها: [كتاب مرقوم يشهده المقربون] بقوله (III:10): [وفيه منزل القربة، ولنا فيه جزء لطيف]. ولمقام القربة من منازل القرآن سورة **الواقعة** التي قال الشيخ عنها إنّ لها الحياة الدائمة (IV:82)، ولهذا لما شرب الخضر من عينها لم يمت كما قيل. وإلى هذا المعنى، أشار الشيخ في الباب 328 (III: 103) الذي هو منزل الواقعة فقال في أوّله: (هذا منزل يعصم الدخول فيه من الموت ما دمت فيه هو منزل عجيب)، أي لأنّه منزل المقربّين المذكورين في بداية السورة بأنّهم السابقون، وفي آخرها بأنّ لهم روح وريحان وجنة نعيم. قال الشيخ عنهم: إنهم لا كتاب لهم إلا القرآن، وظهورهم بالذات، وهم أصحاب الهرولة الإلهية في أحوالهم التي سارعوا بها في مواطن التكليف. وتكلم الشيخ أيضا على هذا المقام الشريف في جوابه عن السؤال الثاني من أسئلة الحكيم الترمذي فقال: إنّ الإمام المهدي من أهله: [... وهو مقام المقرّبين وتقريب الحق لهم على وجهين، وجه اختصاص من غير تعمل،

كالقائم في آخر الزمان وأمثله، ووجه آخر من طريق التعمل كالخضر U وأمثاله والمقام واحد (...) واعلم أنّ منزل أهل القرية يعطيهم اتصال حياتهم بالآخرة، فلا يدركهم الصعق الذي يدرك الأرواح، بل هم ممّن استثنى الله في قوله [**ونفخ في الصور فصعق من في السموا ومن في الأرض إلا من شاء**]. وهذا المنزل هو أخص المنازل عند الله وأعلاها].

الشيخ من مراكش إلى تونس ومصر وفلسطين

لما وصل الشيخ عاصمة الموحّدين مراكش - والخليفة حينذاك أبو عبد الله محمد الناصر بن يعقوب المنصور الذي حكم بين 595 و 611هـ- بقي مدة في زيارة الأولياء الأحياء والأموات. فلا شك أنّه زار ضريحي ابن العريف وابن برجان المتجاورين. وضريح القاضي عياض (ت:544)، وضريح شيخه — أي شيخ محمي الدين في السيرة والحديث والتاريخ أبي زيد عبد الرحمن السهيلي (ت:581)، وغيرها من أضرحة صالحي مراكش. وأمّا الأحياء، فقد صحب منهم الشيخ الشهير صاحب الأحوال العجيبة أبا العبّاس أحمد السبتي (ت:601)، المتحقق عمليا ظاهرا وباطنا بقول الله تعالى [**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**]الآية 29 من سبأ، فكان شعاره كما رواه ابن رشد : [الوجود ينفعل بالجود] (انظر هذا في ترجمته في كتاب التشوف) للتادلي ص: 477-451). وقد ذكر الشيخ السبتي في عدة مواقع من الفتوحات، إمّا باسمه وإمّا بكلمة "شيخنا" أو " بعض شيوخنا بالمغرب". دون أن يذكر اسمه. قال عنه (121:IV): [فمن أراد الحياة الدنيا فقد أراد المحال (...) وأمّا الأمر الآخر، فإنّه إذا تألّم مثلا بقرصة برغوث إلى ما فوق ذلك من أكبر أو أصغر، فإن كان مؤمنا، فله عليه ثوابه في الآخرة، فيكون لهذا المريد الحياة الدنيا، يعطيه الله ذلك الثواب في الدنيا معجلا، فينعم به كما كان يفعل الله تعالى بأبي العباس السبتي بمراكش من بلاد المغرب.

رأيته وفاوضته في شأنه، فأخبرني عن نفسه أنّه استعجل من الله في الحياة الدنيا ذلك كله، فجعله الله له، فكان يُمرض ويُشفي، ويُحيي ويُميت، ويُولّي ويَعزل، ويفعل ما يريد، كل ذلك بالصدقة. وكان ميزانه في ذلك سُباعيا. إلاّ أنّه ذكر لي، قال: خبأت لي عنده سبحانه ربع درهم لآخرتي خاصة. فشكرت الله على إيمانه وسررت به. وكان شأنه من أعجب الأشياء، ولا يعرف ذلك الأصل منه كل أحد إلا من ذاقه، أو من سأله عن ذلك من الأجانب أولي الفهم، فيخبرهم، غير هذين الصنفين لا يعرف ذلك. وقد يعطي الله ما أعطى السبتي المذكور، لا من كونه أراد ذلك، ولكن الله عجل له ذلك زيادة على ما ادخره له في الآخرة، فإنّه غير مريد تعجيل ذلك المدخر، كعمر الواعظ بالأندلس ومن رأينا من هذا الصنف. وعملت أنا عليه زمانا في بلدي في أوّل دخولي هذا الطريق ورأيت فيه العجائب. وكان هذا لهم من الله ولنا، لا من إرادتهم ولا من إرادتنا. ولو عرف أبو العباس السبتي نفسه معرفتي بها ما استعجل ذلك، فإنّه كان على صورة لا يكون عنها إلا هذا؛ إلاّ أنه سأل ذلك من الله، فأعطاه إيّاها عن سؤال منه. ولو سكت لفاز بالأمرين في الدّارين. لكن جهله بنفسه، وطبعها الذي طبعت عليه، وصورته التي ركبه الله عليها، جعلته يسأل، فخسر حين ربح غيره والعمل واحد. ولهذا يفرح بالعلم، لأنّها اشرف صفة يتحلى بها العبد].

وقارن الشيخ بين السبتي وعبد القادر الجيلاني (ت:561) فقال (560:III):[فإنّه تعالى ما يتجلى له إلا في صورة محمدية، فيراه برؤية محمدية وهي أكمل رؤية يرى فيها الحق بها، فيرفعه بها منزلا لا يناله إلا المحمديون، وهو منزل الهوية، فلا يزال الغيب مشهده، فلا يرى له أثر في الحس، وهذا كان مشهد أبي السعود بن الشبل ببغداد، من أخصّ أصحاب عبد القادر الجيلي. فإذا كان صاحب هذا الشهود غير صاحب هوية، بل يشهده في الملكوت مليكا – وكل مشاهد لا بد أن يلبس

صورة مشهوده – فيظهر صاحب هذه الشهود بصورة الملك، فيظهر بالاسم الظاهر في عالم الكون بالتأثير بالتصرف والحكم والدعوى العريضة و القوة الإلهية، كعبد القادر الجيلي، وكأبي العباس السبتي بمراكش، لقيته وفاوضته، وكان سباعي الميزان، أعطي ميزان الجود، وعبد القادر أعطي الصولة والهمة، فكان أتّم من السبتي في شغله].

وفي كلامه على أنواع طبقات الأولياء، يقارن الشيخ بين الجيلي ورجل آخر لا يسمّيه، والراجح عندي أنّه السبتي – والله أعلم – فيقول (14:II): [ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد، وقد تكون امرأة، في كل زمان آيته **[وهوالقاهر فوق عباده]**، له الاستطالة على كل شيء سوى الله، شجاع، مقدام، كبير الدعوى بحق، يقول حقا ويحكم عدلا. كان صاحب هذا المقام شيخنا عبد القادر الجيلي ببغداد. كانت له صولة والاستطالة بحق على الخلق. كان كبير الشأن، أخباره مشهورة. لم أُلقه، ولكن لقيت صاحب زماننا في هذا المقام. ولكن كان عبد القادر أتم في أمور أخر من هذا الشخص الذي لقيته، وقد درج الآخر، ولا علم لي بمن ولي بعده هذا المقام إلى الآن]. وفي الباب 248 في الذوق، يذكر الشيخ السبتي فيقول (548:II):

[... وكلامنا مرتبط بعضه ببعضه، لأنّه عين واحدة وهذا تفصيلها. ويعرف ما قلناه من يعرف مناسبة آي القرآن في نسق بعضها على بعض، فيعرف الجامع بين الآيتين وإن كان بينهما بعد ظاهر، فذلك صحيح، ولكن لابد من وجه جامع بين الآيتين مناسب، هو الذي أعطى أن تكون هذه الآية مناسبة لما جاورها من الآيات، لأنّه نظم إلهي. وما رأينا أحد ذهب إلى النظر في هذا إلا الرماني من النحويين، فإنّ له تفسيرا للقرآن، أخبرني به من وقف عليه أنّه نحا في القرآن هذا

المنحى، وما وقفت عليه. لكني رأيت بمراكش ببلاد المغرب أبا العباس السبتي صاحب الصدقات يسلك هذا المسلك وفاوضته فيه وكان من أصحاب الموازين].

وذكر عنه أيضا انّه كان يقول: إنّ المحتضر له أن يوصي من ماله. ويعقب الشيخ عليه قائلا (577:I) [فإنّ المحتضر ما يملك من المال إلا الثلث، فخرج عمّا يملك وما أبقى شيئا، وأجاز له الشرع أن يتصدق بالثلث كله الذي يملكه، وهو محمود في ذلك شرعا، فلقي الله فقيرا على حكم الأصل، كما خرج من عنده رجع إليه صفر اليدين (...) فكان أفضل ممن لم يتصدق بذلك الثلث الذي يملكه ، أو تصدق بأقل من الثلث، وينوي بما يبقيه أنه صدقةُ على ورثته وفيه إشارة عجيبة].

وقد كرر الشيخ في الفتوحات قصّة السبتي المشهورة حين استدعاه الخليفة لقتله، (496:IV/(572:I): [... فاتقوا النار ولو بشق تمرة. ولقد وُشيَ ببعض شيوخنا من أهل الموازنة بالمغرب عند السلطان بأمر فيه حتفه، وكان أهل البلد قد أجمعوا على ما وُشيَ به وما قيل فيه، ممّا يؤدي إلى هلاكه. فأمر السلطان نائبه أن يجمع الناس ويحضر هذا الرجل، فإن أجمعوا على ما قيل فيه، يأمر الولي أن يقتله، وإن قيل غير ذلك، خلي سبيله. فجمع الناس لميقات يوم معلوم، وعرفوا ما جمعوا له، وكلهم على لسان واحد أنّه فاسق يجب قتله ولا مخالف. فلمّا جيء بالرجل مرّ في طريقه بخبّاز فاقترض منه نصف رغيف، فتصدّق به من ساعته. فلما وصل إلى المحفل وكان الوالي من أكبر أعدائه، أقيم في الناس وقيل لهم: ما عندكم في هذا الرجل وما تقولون فيه؟ وسموه، فما بقي أحد من الناس إلا قال هو عدل رضي. فتعجب الوالي من قولهم خلاف ما كان يعلمه منهم، وما كانوا يقولون فيه قبل حضوره. فعلم أنّ الأمر إلهي، والشيخ يضحك، فقال له الوالي: ممّ تضحك ؟ فقال: من

صدق رسول ρ تعجبا به وإيمانا، والله ما من أحد من هذه الجماعة إلا ويعتقد فيّ خلاف ما شهد به وأنت كذلك وكلكم عليّ لا لي.فتذكرت النار ورأيتها أقوى غضبا منكم، وتذكرت نصف رغيف، ورايته أكبر من نصف تمرة. وسمعت عن رسول الله ρ يقول: "اتقوا النار ولو بشق تمرة". فاتقيت غضبكم بنصف رغيف، فدفعت الأقل من النار بالأكثر من شق التمرة. قال ρ :" إنّ الصدقة لتطفئ غضب الربّ وتدفع ميتة السوء". وقد فعل الله ذلك، دفع عني شركم وميتة السوء بنصف رغيف مع حقارتكم وعظم صدقتي، فإنّ صدقتي أعظم من شق تمرة، وغضبكم أقل من غضب النار وغضب الربّ. فتعجب الحاضرون من قوة إيمانه].

وقد ذكر هذه القصة أبو الفتح محمد بن عبد السلام بن أحمد بوستة المراكشي (ت: 1370) في كتابه: (بلوغ الآمال في ذكر مناقب السادات السبع رجال)، عند ترجمته للسبتي (ص: 104)، وذكر أنّ الخليفة المذكور هو يعقوب المنصور. وذكر أيضا قصته العجيبة مع بنت الأميرة التي حكاها الشيخ وقال عنها " شهدناها ". فكأنّها وقعت خلال صحبة السبتي للشيخ في عام 597 وهي (675:I): [حكاية شهدناها: قيل لبعض شيوخنا عن بنت من بنات الملوك، ممّن كان الناس ينتفعون بها، وكان لها اعتقاد في هذا الشيخ. فوجهت إليه ليدخل عليها. فدخل عليها، والملك الذي زوجها عندها. فقام إليه السلطان إجلالا، ثم نظر إلى الشيخ وهي في النزع. فقال الشيخ: أدركوها قبل أن تقضي. قال له الملك: بماذا؟ قال: بديّتها اشتروها. فجيء إليه بديتها كاملة، فتوقف النزع و الكرب الذي كانت فيه، وفتحت عينيها وسلمت على الشيخ. فقال لها الشيخ: لا بأس عليك، ولكن ثم دقيقة بعد أن حل الموت لا يمكن أن يرجع خائبا، فلا بدّ له من أثر، ونحن قد

أخذناك من يده، وهو يطالبنا بحقه، فلا ينصرف إلا بروح مقبوضة، وأنت إذا عشت، انتفع بك الناس، وأنت عظيمة القدر لا نفديك إلا بعظيم بما عندي من هذا الموت ولي بنت هي أحبّ البنات إليّ، أنا أفديك بها (...) ثم قام وخرج إلى ابنته،قال لابنته وما بها من بأس: يا بنية هبيني نفسك، فإنك لا تقومين للناس مقام زينب بنت أمير المؤمنين في المنفعة. فقالت: يا أبت، أنا بحكمك قد وهبتك نفسي.فقال للموت : خذها، فماتت من وقتها. فهذه عين مسئلة الخليل وولده صلى الله عليهما. فهذه الموازنات الإلهية لا يعرفها إلا أهلها. وعندنا أنّ الجعل لابدّ منه ولا نلتزم أخذ روح ولا بد. فإنّا قد رأينا مثل هذا من نفوسنا، فاشتريناه وما أعطينا فيه روحا. وإنّما فعل ذلك الشيخ لحال طرأ عليه في نفسه أوجب عليه ما فعله من إعطاء ابنته، لأن مشهده في ذلك الوقت كانت قصة إبراهيم υ، فحكم عليه حال إبراهيم υ. فإن فهمت ما قلناه سعدت. قال الله تعالى:[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعد عليه حقا] يعني الجنة (...) فكان مشهد الشيخ من هذه الآية [فيقتلون ويُقتلون]، وكان مشهدنا نحن في هذه المسئلة عين الشراء لا غير وهو الحيّ، فمن كان عنده حيّ ولا بدّ، فأعطينا العوض الذي اشترينا به حياته، فبقى حيا وما ظهر للموت أثر في ذلك المشهد، فهذه آثار الأحوال على قدر الشهود، وهي علوم الأذواق، فهي عزيزة المنال، ما كل عارف يعرفها، وهي موازين لا تُخطيءُ، فإنها بالوضع الإلهي...].

وفي مراكش صحب الشيخ من يقول عنه إنّ هجيره الآية [واصبر لحكم ربك فإنّك بأعيننا] قال (148:IV) [... رأيت محمد المراكشي بمراكش، وكان يكاثرني ليلا ونهارا. وكان هذا هجيره دائما، فما رأيته ضاق صدره من شيء قط. وكانت

الشدائد تمر عليه، فلا يتلقها إلا بالفرح والضحك، فتفرج عنه في نظرنا، وهو يتنقل من فرح إلى فرح، ومن سرور إلى سرور. فكنت أقول له: هل تصبر على حلول هذه النوازل المكروهة طبعا؟ فقال: لما صبرت أوّلا فأنتج لي ذلك الصبر على الحكم الإلهي مشاهدة العين، فشغلتني عن كل حكم فلا أتلقاه إلا به، فهو مجني، فإياه أسأل، فإنّ النوازل به تنزل في رؤيتي، وأنتم ترون حكم النازلة في صورتي، وكل عند نظره. ثم كان هذا الشخص من أحفظ الناس على أوقات عبادته، والله ما رأيت مثله بعده في هذا المقام. وما تحسر أحد من إخواني على فراقي حين فارقته إلى هذه البلاد مثل تحسره على فراقي. وكان يقول لي: والله لولا مشاهدة العين التي حجبتني عن نفوذ الحكم الرباني فيَّ لسافرت معك، فوالله ما يغيب عني منك ألا تحول صورة الحق إلى صورة أخرى، فأشهده غيبا ومحضرا. وهذا ذوق عجيب. كان كثير الأدب، كثير الكلام، يكاد لا يصمت أبدا عن دلالة الناس على الله عز وجل؛ فإذا قيل له في ذلك، يقول: أنا أؤدي فريضتي في كلامي، وأنت بالخيار في مجالستي والإصغاء إلى ما نورده، أنا أتكلم مع من يسمع ، ما أتكلم مع من لا يسمع].

وفي مراكش حصلت للشيخ أحدى مشاهده العرشية التي يقول عنها (436:II): [واعلم أنّ هذا العرش قد جعل الله له قوائم نورانية لا أدري كم هي، لكني أشهدتها، ونورها يشبه نور البرق. ومع هذا، فرأيت له ظلا فيه من الراحة ما لا يقدر قدرها. وذلك الظل ظل مقعر هذا العرش يحجب نور المستوي، الذي هو الرحمن. ورأيت الكنز الذي تحت العرش الذي خرجت منه لفظة " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ". فإذا الكنز آدم صلوات الله عليه،ورأيت تحته كنوزا كثيرة أعرفها. ورأيت

طيورا حسنة تطير في زواياه ،فرأيت فيها طائرا من أحسن الطيور، فسلّم عليّن فأُلْقِيَ لي فيه أن آخذه صحبتي إلى بلاد المشرق. وكنت بمدينة مراكش حين كشف لي عن هذا كله، فقلت: ومن هو؟ قيل لي: محمد الحصّار بمدينة فاس، سأل الله الرحلة إلى بلاد المشرق فخذه معك. فقلت: السمع و الطاعة. فقلت له: وعين ذلك الطائر تكون صحبتي إن شاء الله. فلما جئت إلى مدينة فاس سألت عنه، فجأني فقلت له: سألت الله في حاجة ؟ فقال: نعم سألته أن يحملني إلى بلاد المشرق، فقيل لي: إنّ فلانا يحملك، وأنا أنتظرك من ذلك الزمان. فأخذته صحبتي سنة 597، وأوصلته إلى الديار المصرية ومات بها رحمه الله]. وفي مشاهدة عرشية أخرى (431:III)، يقول الشيخ: إنّ الله تعالى أنزله في أفضل قوائم العرش: [وهي خزانة الرحمة، فجعلني رحيما مطلقا مع علمي بالشدائد، ولكن علمت أنّه ما ثم شدة إلا وفيها رخاوة، ولا عذاب إلا فيه رحمة، ولا قبض غلا وفيه بسط، ولا ضيق إلا وفيه سعة، فعلت الأمرين].

وبصحبة محمد الحصّار و الحبشي، سافر الشيخ من فاس التي زار فيها أولياءها الأحياء والأموات زيارة وداع أخير وتوجّه لتلمسان، فزار ضريحي شيخه أبي مدين وخاله يحيي بن يغان، وودّع إخوانه من الصالحين أحياءا وأمواتا، وتوجّه إلى بجاية ليجتمع مع أصحاب أبي مدين. وفيها رأى مبشرة يقول عنها (كتاب الباء / كتاب الكتب 49: [كنت ببجاية في رمضان سنة 597 فرأيت ليلة أنّي نكحت نجوم السماء كلها، فما بقي نجم في السماء إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية، ثم أكملت نكاح النجوم، أعطيت الحروف، فنكحتها كلها في حال إفرادها وتركيبها. وشخص لي حرف (ف) الذي هو فاء الياء الظرفية، فأعطينه فيها سرا إلهيا يدل على شرفها وما أودع الله من الجلال عندها. وعرضت قصتي هذه على رجل عارف كان بصيرا بالرؤيا وعبارتها، وقلت للذي عرضها عليه لا تذكرني. فلما ذكر

المنام له، استعظم ذلك وقال: هذا هو البحر الذي لا يدرك قعْره. صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب و الحروف ما لا يكون بيد أحد من اهل زمانه. ثم سكت ساعة وقال: إن كان صاحب هذه الرؤيا في المدينة، فهو هذا الشاب الذي وصل إليها وسمّاني. فبهت صاحبي وتعجّب، ثم قال: وما هو إلا هو، فلا تخف عني. فقال صاحبي: نعم هو صاحب الرؤيا. قال: لا ينبغي أن يكون في هذا الزمان إلا له، فعسى أن تحملني إليه حتى اسلم عليه . فقال: لا أفعل حتى أستأذنه. فستأذنني، فأمرته أن لا يعود إليه؛ فسافرت عن قريب، فلم أجتمع به]. ومن بجاية توجه الشيخ مع رفاقه على تونس متبعا الساحل حسبما يبدو من ذكره لمدن ساحلية بالشرق الجزائري في نصّه التالي (261:III): [... وقد رأينا حيوانا على فرد رِجل وقد خرج من صدره شبه درة المحتسب يحركه تحريك الجناح ويعدو بتلك الحركة و يحرك رجله الواحدة، بحيث أنّ السابق من الخيل لا يلحقه بين القل وجيجل ببلاد المغرب].

ولما وصل تونس، نزل عند الشيخ عبد العزيز المهدوي، فمكث معه نحو تسعة أشهر حسب نصّه التالي الذي يخاطب فيه عبد العزيز، في خطبة الفتوحات (9:I-10) فيقول: [... فكأنّ وليّه ما غاب عنه بما عرف منه. وإن كان الوليّ أبقاه الله قد أصاب صفاء وده بعض كدر لعرض، وظهر منه انقباض عند الوداع لإ تمام غرض، فقد غمض وليه عن ذلك جفن الانتقاد، وجعله من الوليّ أبقاه الله من كريم الاعتقاد (...) وكانت الإقامة معه تسعة أشهر دون أيام في العيش الأرغد الأهنى، روح وشبح، وقد جاد كل واحد منّا بذاته على صفيه وسمح. ولي رفيق وله رفيق وكلاهما صدّيق وصديق، فرفيقه شيخ عاقل، محصل ضابط، يعرف بأبي عبد الله بن المرابط، ذو نفس أبية، وأخلاق رضية، وأعمال زكية، وخلال مرضية، يقطع الليل تسبيحا وقرآنا، ويذكر الله على أكثر أحيانه سرا وإعلانا، بطل في ميدان

المعاملات، فهم لما يرد به صاحب المنازل والمنازلات، منتصف في حاله، مفرق بين حقه ومحاله، وأمّا رفيقي (...) حبشي (...) فكنا الأربعة الأركان التي قام عليها شخص العالم والإنسان. فافترقنا ونحن على هذا الحال، لانحراف قام ببعض المحال، فإنّي كنت نويت الحج و العمرة، ثم أسرع إلى مجلسه الكريم الكَرَّه].

وخلال إقامته هذه في تونس، سبق للشيخ لوح عجيب قال عنه (I:667): [واعلم أنّ الله قد أودع في الكعبة كنزا أراد رسول الله ρ أن يخرجه فينفقه، ثم بدا له في ذلك مصلحة رآها، ثم أراد عمر بعده أن يخرجه، فامتنع اقتداء برسول ρ، فهو فيه إلى الآن. وأمّا أنا، فسيق لي منه لوح من ذهب جيء به إليّ، وأنا بتونس سنة 598، فيه شق غلظة إصبع، عرضه شبر، وطوله شبر وأزيد، مكتوب عليه بقلم لا أعرفه، وذلك لسبب طرأ بيني و بين الله. فسألت الله أن يردّه إلى موضعه أدبا مع رسول الله ρ، ولو أخرجته إلى الناس لثارت فتنة عمياء؛ فتركته أيضا لهذه المصلحة، فإنّه ρ ما تركه سدى، وإنّما تركه ليخرجه القائم بأمر الله في آخر الزمان، الذي يملأ الأرض قسطا و عدلا، كما ملئت جورا وظلما، وقد ورد خبر رويناه فيما ذكرناه من إخراجه على يد هذا الخليفة...].

وفي شعبان من عام 598، أبحر الشيخ من تونس إلى الإسكندرية، حيث لقي رجالا صالحين من رجال الأنفاس (II:425)، وكان يحكم مصر في ذلك العهد السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي (ت:589) الذي تولى من سنة 596 إلى سنة 615.ثم واصل الشيخ سفره إلى القاهرة، ونزل عند شيخه الذي قرأ عليه القرآن و هو صبي، محمد الخياط وأخيه أبي العباس الحريري (ت:616). وكانا قد هاجرا من الأندلس عام 590. وإذا كان الشيخ يكنّ إجلالا لمحمد، فله تحفظ من أخيه أحمد. فكانت الصحبة بين الشيخ وأحمد يشوبها توتر كما يظهر من رسالة صفي

الدين بن أبي منصور تلميذ أحمد ، وكما يظهر أيضا من كلام الشيخ حول أحمد. ففي الباب 52 في معرفة السبب الذي يهرب منه المكاشف إلى عالم الشهادة إذا أبصره (267:I) يقول عنه: [... المكاشف الذي يهرب إلى عالم الشهادة عندما يرى ما يهوله في كشفه مثل صاحبنا أحمد العصاد الحريري رحمه الله، فإنّه كان إذا أخذ سريع الرجوع إلى حسه باهتزاز واضطراب، فكنت أعتبه وأقول له في ذلك، فيقول أخاف وأجبن من عدم عيني لما أراه. ولو علم المسكين أنّه لو فارق الموادّ، رجع النفس إلى مستقره وهو عينه، ورجع كل شيء إلى أصله (...) و الذي يثبت هنالك، أعني عند الوارد، إنما يثبت إذا دخل عبدا...].

وأخطر من هذا، نجد رسالة للشيخ – هي أوّل رسالة في كتاب الكتب – يصف فيها حال أحمد ويسعى لإصلاحه. نوردها كاملة لما فيها من الفائدة، وقد بعثها الشيخ لعماد الديّن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد العلي المصري، المعروف بابن السكّري، الذي تولى منصب قاضي القضاة في مصر، وهو من تلاميذ الشيخ القرشي والشيخ أبي المنصور، والد صفي الدّين، مؤلف الرسالة المشهورة باسمه – الذي هو تلميذ أحمد الحريري – (حقق رسالته وترجمها للفرنسية و نشرها الأستاذ داود جريل عام 1986). وفيها يقول: [ورأيت بدمشق الشيخ الإمام العالم العارف محيي الدين بن العربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الوهبية، وشهرته عظيمة وتصانيفه كثيرة. وكان غلب عليه التوحيد علما وخُلُقا وحالا، لا يكترث بالوجود كان مقبلا أو معرضا. وله أتباع علماء أرباب مواجيد وتصانيف. وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرار (الحريري) إخاء ورفقة في السياحات، رضي الله تعالى عنه].

ونص رسالة الشيخ هو: [سلام على وليّي في الله تعالى، أبي القاسم العماد ابن السكري، أبقاه الله محفوظا، وبعين الصون والرعاية ملحوظا، ورحمة الله وبركاته. اعلم أيّدك الله أنّ الحقائق لا تتبدل، وأن مواجيد الحق لا تزل ترد على قلوب الواجدين وتتنزل، فلو بلغت أقصى ما إليه الانتهاء، وبرزت من جلال الحجب العزة والبهاء، لا تزل تحت إمكان الأدلة العقلية موجبة لها أو ساكتة عنها الألسن الشرعية. ولهذا قال الجنيد وغيره من أئمتنا:" علمنا هذا مقيد بالكتاب و السنة". وما خاطب سبحانه إلا أولي النهى والألباب، وليغتنم وليي أبقاه الله حصول هذا الفقير المنقطع الواقف مع وهمه وخياله، والمحجوب بما تجلى له من صورة مثاله أبي العباس الخياط، ووقوعه في حبالتك، وحبسه في دارة هالتك، عسى الله أن يفتح له طريق الحق على يديك، وذلك بأن تعرب له عن مراسم توحيده، وتوقفه عن حقيقة وجوده، فإنّه قد ملكته شبه كالشبه، ولا تفطّن لغوائلها ولا انتبه. فقد قيض الله من حضرة الابتلاء والمكر، قرناء زيّنوا له سوء عمله، وفسحوا له في مجالس أمله، ودلوه بغرور، وتملكوه بمحال من القول وزور، فإذا خلوا دونه ضحكوا عليه، ولا يعلم المسكين أنّه سقط في يديه، وهو والله رجل يقصد الخير ولا يعرف طريقه، ويظن الحق فيما لا يعلم تحقيقه. وأشدّ شبهة ملكته فأهلكته، توحيده بنفي السوى الثابت عينه، والصحيح بكل دليل كونه؛ ومن جحد عين وجوده، أو نسب إلى نفسه ما لا تقتضيه مراسم حدوده، بأن يقول أنّه عين معبوده، فلا خفاء بجهله، ولنسأل الله أن يلحقنا بأهله. فلو كان بمعزل عن قرنائه، لأخذنا بأهداب ردائه، فتلا فيكم لهذا الأمر من أعظم الأجر، والسّلام].

وتوتر العلاقة بين أحمد الحريري – أو الحرار – والشيخ، نجدها أيضا في مراسلة بينهما، ذكرها صفي الدين بن أبي المنصور، تلميذ الحرار في رسالته حيث يقول عن شيخه أحمد: [وكتب له الشيخ محيي الدين بن العربي كتابا من دمشق قال فيه: " يا أخي، أخبرني بما تجدد لك من الفتح". قال لي الشيخ: اكتُب قل له:" جرت أمور وردت عربية النظر عجمية الخبر ". فكتب إليه ابن العربي:" توجه إلي بباطنك وأجيبك عنها بباطني". فعز ذلك على الشيخ منه، فقال لي: اكتب قل له: " أشهدت الأولياء دائرة مستديرة، في وسطها اثنان، أحدهما الشيخ أبو الحسن بن الصباغ والآخر رجل أندلسي". فقيل لي: أحدهما هو الغوث". فبقيت متحيرا لا أعلم من هو منهما، فظهرت لهما الآية، فخرا ساجدين. فقيل لي: " الذي يرفع رأسه أولا هو القطب الغوث". فرفع الأندلسي رأسه أولا، فتحققته، فوقفت إليه وسألته سؤالا بغير حرف ولا صوت. فأجابني بنفثة نفثها، فأخذت منها جوابي، وسرت لسائر دائرة الأولياء، أخذ كل ولي بقسطه. فإن يا أخي بهذه المثابة، تحدثت معك من مصر". فلم يعد يكتب في ذلك شيئا].

وكان الشيخ قبل لقائه بالأخوين أحمد ومحمد قد نزل في خانقاه سعيد السعداء، حيث تقطن جماعات تنتسب إلى التصوف، اشمأزّ الشيخ من أحوالهم، فعبّر عنها في مقدّمه (روح القدس) ونوردها مع اختصار كلامه:" فأوّل ما وصلت إلى هذه البلادن سألت عن أهل هذه الطريقة المثلى، عسى أن أجد منهم نفحة الرفيق الأعلى. فحملت إلى جماعة قد جمعتهم خانقاه عالية البناء، واسعة الفناء، فنظرت إلى مغزاهم المطلوب، ومنحاهم المرغوب بتنظيف مرقعاتهم، بل مشهّراتهم، وترحيل لحاهم، غير أنّهم يدّعون أنّ أهل المغرب أهل حقيقة لا طريقة،وهم أهل طريقة لا

حقيقـة، وكفـى بهـذا الكـلام فسـادا، إذ لا وصـول إلى الحقيقـة إلا بعـد تحصـيل الطريقـة. وقـد قـال أبـو سـليمان الـداراني رحمـه الله: إنّمـا حرمـوا الوصـول لتضـييعهم الأصول. فالزمان يا وليي اليوم شديد، شيطانه مريد، وجباره عنيد، علماء سوء يطلبون ما يأكلون، وأمراء جور يحكمون بما لا يعلمون، وصوفية صوف بأعراض الدنيا موشوحون وموسومون، اتخذوا ظاهر الدّين شركا للحرام؛ فوالله ما أراهم إلا كما رُوِيَ عن رسول الله ρ: " ليجاءن بأقوام يوم القيامة معهم من الحسنات مثل جبال تهامة، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء، ثم قذفهم في النار،(...) أما إنهم كانوا يصومون ويصلون، وكانوا يأخذون وهنا من الليل، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام، وثبوا عليه، فأدحض الله عز وجل أعمالهم". أين هؤلاء من أهل الله ؟! ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان ولا يستحي في ذلك من الرحمن، لا يعرف شروط السنن والفرائض، ولا يصلح أن يكون خديما في المراحيض، يدخل بينهم الصادق و الصدّيق فيُجْهَل، والعارف المتمكن فيُترك ويُهمل. ولقد اجتمعت مع شيخ يُدعى فيهم بشيخ الشيوخ، فزعم أن ليس لله في المغرب من يعرف الطريق إلى الله. فأبدينا له يسرا ممّا وهبك الله من الأسرار – خطابا للمهدوي في تونس – ثم أعقبناه ببعض أحوال سيّدنا أبي مدين خلاصة الأبرار، فبقى مبهوتا ممّا سمع. ثم ألقى عليه بعض أصحابنا مسألة من الحقائق الإلهية، فوالله ما زاد على أن قال: لا أدري شيئا، فقلت له: هذا حالك معي، وأنا أنقص حظا وأحقر قدرا أن أُذكر فيهم أو أُنْسَبَ إليهم، فكيف بك لو لاحظتَ كبراء المغرب ؟ فسلّم واستسلم. وأمّا أهل السماع والوجد في هذه البلاد، فقد اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، لا تسمع إلا من يقول لك: رأيت الحق وقال وفعل. ثم

تطالبه بحقيقة يمنحها أو بسرّ استفادة في شطحه، فلا تجد إلا لذة نفسانية وشهوة شيطانية، يصرخ على لسانه الشيطان فيصعق ، ما دام المغرور الآخر بشعره ينهق].
وقد أوضح الشيخ موقفه من السماع في البابين 183/182 من الفتوحات (II:366-368) وفي هذا الموضوع يقول (IV:270): [فلا ينبغي للمؤمن الكيس أنه يهمل شيئا من كلام الله، ولا كلام المبلغ عن الله. فإنّ الله تعالى يقول فيه [وما ينطق عن الهوى]. وقد ذمّ قوما اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وهم في هذا الزمان أصحاب السماع، أهل الدف و المزمار، نعوذ بالله من الخذلان:

البسيط

ما الدّين بالدّف والمزمار واللعب لكنما الدين بالقرآن والأدب
لما سمعت كتاب الله حركني ذاك السماع وأدناني من الحجب
حتى شهدت الذي لا عين تبصره إلا الذي شاهد الأنوار في الكتب

مشاهده في مصر

وقد ذكر الغبريني (ت: 704) في كتابه (عنوان الدراية) أنّ بعض فقهاء مصر حكموا بالإعدام على الشيخ بسبب شطحاته، لكن الشيخ أبا الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي شفع له وأنقذه من تنفيذ الحكم. لكن الغبريني الذي هو أوّل من ذكر هذه الرواية بعد نحو قرن من وجود الشيخ بن العربي في مصر، لم يذكر سندها ولا ممّن سمعها أو أقرأها، كما لا توجد أدنى إشارة إليها في كتب الشيخ او تلاميذه أو المؤرخين المعاصرين له. والرّاجح كما أثبتته السيّدة عدّاس (A:230–232) أنّ ما رواه الغبريني وهم، خصوصا أنّه زعم أنّ الشيخ كان يسمّى بابن سراقة، وأنه توفي حوالي عام 640. والثابت المشهور هو أنّه توفي عام 638ولم

يُلقب أصلا بابن سراقة، وإنّما هو لقبٌ لأحد أصحابه، وهو الفقيه الصوفي محي الدين أبو بكر، مدير دار البهائية بحلب، ثم رئيس دار الحديث بمصر بين عامي 656 و660هـ وتوفى عام 662هـ.

وفي مصر وقعت للشيخ إحدى وقائعه في عالم المثال ، ذكرها في (محاضرة الأبرار Π : 54) ونصها : [...وذلك أني بت في جماعة من الصالحين منهم أبو العباس الحريري الإمام بزقاق القناديل بمصر ، وأخوه محمد الخياط ، وعبد الله المروزي ، ومحمد الهاشمي اليشكري ، ومحمد بن أبي الفضل . فرأيت نفسي والجماعة في بيت شديد الظلمة ، وليس لنا فيه نور سوى ما ينبعث من ذواتنا ، فكانت الأنوار تنفهق علينا من أجسامنا فنضيء بها ، فدخل علينا شخص من أحسن الناس وجها ومنطقا فقال : أنا رسول الحق إليكم ، فكنت أقول له : فما جئت به من رسالتك ؟ فقال : اعلموا أن الخير في الوجود ، والشر في العدم ، أوجد الإنسان بوجوده ، وجعله واحدا في وجوده ، تخلّق بأسمائه وصفاته ، وفني عنه بمشاهدة ذاته ،فرأى نفسه بنفسه ، وعاد العدد إلى أسه ، فكان هو لا أنت . فأخبرت الجماعة بالواقعة ، فسروا وشكروا الله .

ثم وضعت رأسي في جيبي ، فنظمت في نفسي أبياتا في المعرفة ، ونام أصحابي ، فاستيقظ عبد الله وناداني : يا أبا عبد الله ، فلما أجبته كأني نائم فقال لي : ما أنت بنائم ، أنت تعمل شعرا في معرفة الله وتوحيده . فرفعت رأسي وقلت له : من أين لك هذا ؟ فقال لي : رأيتك تعقد شبكة رفيعة ، فأولت الخيوط المنثورة تعقدها شبكة معاني متفرقة تجمعها ، وكلاما منثورا تنظمه ، فقلت هذا يعمل شعرا . قلت له : صدقت ، فمن أين عرفت أنه في معرفة الله وتوحيده ؟ قال : قلت الشبكة لا يصاد فيها إلا ذو روح حي عزيز المأخذ ، فلم أجد شعرا فيه روح وحياة وعزة إلا

فيما يتعلق بالله تعالى . فكان تأويل رؤياه أعجب إلينا من الرؤيا . رضي الله عنهم أجمعين] ومن وقائع الشيخ مع الحريري ، عندما زار مصر المرة الثانية ما ذكره في الباب 69 في معرفة أسرار الصلاة في الفتوحات ، قال : [ولقد أخبرني أبو العباس الحريري بمصر سنة ثلاث وستمائة عن أبي عبد الله القريايقي أنه كان يمشي معه في سويقة وردان ، وكان قد اشترى قصرية صغيرة لابن صغير كان عنده ليبول فيها . فضمهم منزل والقصرية عنده جديدة ومعهم رجال صالحون ، فأرادوا أكل شيء فطلبوا إداما يأتدمون به فاتفق رأيهم على أن يشتروا قطارة السكر فقالوا : هذه القصرية ما مسها قذر وهي جديدة على حالها فملئوها قطارة وقعدوا يأكلون إلى أن فرغوا وانصرف الناس ومشى صاحب القصرية مع أبي العباس ، قال أبو العباس : فوالله لقد سمعت بأذني هذه وسمع معي الشيخ أبو عبد الله القريايقي القصرية وهي تقول : بعد أن أكل فيّ أولياء الله أكون وعاء للقذر ؟ والله لا كان ذلك ، وانتفضت من يده وسقطت على الأرض فتكسرت . قال أبوا العباس : فأخذنا من كلامها حال . فلما قال لي ذلك قلت له : إنكم غبتم عن وجه موعظة القصرية إياكم ليس الأمر كما زعمتم ، وكم من قصرية أكل فيها من هو خير منكم وبعد ذلك استعملت في القذر ، وإنما قالت لكم : يا إخواني لا ينبغي لكم بعد أن جعل الله قلوبكم أوعية لمعرفته وتجليه أن تجعلوها وعاءا للأغيار ، وما نهاكم الله أن تكون قلوبكم وعاء له ، ثم تكسرت أي هكذا فكونوا مع الله ، فقال لي : ما جعلنا بالنا لما نبهتنا عليه .

بعد أن قضى الشيخ رمضان مع الأخوين أحمد و محمد، مرض محمد. وكانا قد عزما على مرافقة الشيخ للحج، فمنعهما المرض، وفارقهما الشيخ وفي قلبه من فراقهما لهيب كما ذكر (ر:93). لكنه لم يتوجه مباشرة للحجاز، بل ذهب

لفلسطين لزيارة مقام إبراهيم الخليلυ بحبرون ثم لزيارة المسجد الأقصى بالقدس. ومنه توجه للمدينة المنورة لزيارة رسول الله ρ ، قبل أن يذهب إلى مكة المكرمة ليقضي مناسك الحج، وليقيم هناك لمدّة تزيد عن سنتين.

الفصل الخامس

الشيخ مع الكعبة

المنسرح

يا رحمة الله للعباد أودعك الله في الجماد
يا بيت ربّي يا نور قلبي يا قرة العين يا فؤادي
يا سرّ قلب الوجود حقا يا حرمتي يا صفا ودادي
يا كعبة الله يا حياتي يا منهج السعد يا رشادي
قد انقضى ليلنا حثيثا وما انقضى في الهوى مرادي
(701:I)

عند الكعبة وفي عام 598، تطابق حجّ الشيخ الحسي مع حجّه الروحي، فبإتمامه للركن الخامس في الإسلام، تمّ له التمكن الكامل في مقام الوراثة المحمدية الذي بُشّر به عام 586، لما شاهد جميع الأنبياء والأولياء وأتباعهم من آدم υ إلى يوم القيامة. ودخل الشيخ هذا المقام وهو في تونس عام 590، وتوسّطه في فاس عام 594، لما تحقق بالمقام الأحمدي، وكشف له ذوقا عن ختميته. ثم رسخ فيه بدخوله لمقام القرية، وهو متوجّه لمراكش عام 597. وأخيرا اعتلى أوج عرشه في حجه هذا عام 598. وصف الشيخ هذا الاعتلاء في فاتحة الفتوحات، فقال مع اختصار لكلامه (9-2:I) [... والصلاة على سرّ العالم ونكتته الذي شاهدته عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال في حضرة الجلال، مكاشفة قلبية في حضرة غيبية، وجميع الرسل بين يديه مصطفون وأمته عليه ملتفون، والملائكة بين يديه وحول عرشه صافون وحافون، والصدّيق على يمينه الأنفس، والفاروق على يساره

الأقدس، والختم بين يديه قد حثا (يعني الشيخ بالختم عيسى υ] وعلي كرم الله وجهه يترجم عن الختم بلسانه، وذو النورين مشتمل برداء حيائه، مقبل على شأنِه، فالتفت السيّد الأعلى فرآني وراء الختم لاشتراك بيني وبينه في الحكم، فقال له السيد: هذا عديلك وابنك وخليلك، انصب له منبر الظرفاء بين يديّ. ثم أشار إليّ أن قم يا محمد عليه، فاثن على من أرسلني وعليّ، فإنّ فيك شعرة مني لا صبر لها عنّي، وهي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلا بكليتك، ولا بدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنّها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعد، وكان ممن شكر في الملإ الأعلى وحمد. فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر، هذا هو المقام المحمدي الأطهر، من رقى فيه فقد ورثه، وأرسله الحق حافظا لحرمة الشريعة وبعثه. ووُهِبتُ في ذلك الوقت مواهب الحكم، حتى كأنّي أوتيت جوامع الكلم، فشكرت الله عز وجل وصعدت أعلاه، وحصلت في مواضع وقوفه ρ ومستواه، وبسط لي على الدرجة التي أنا فيها كُمُّ قميص أبيض، فوقفت عليه حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ρ بقدميه، تنزيها له وتشريفا، وتنبيها لنا وتعريفا، أنّ المقام الذي شاهده من ربّه لا يشاهده الورثة إلا من وراء ثوبه، فلما وقفت ذلك المقام الأسنى، شرعت في الكلام بلسان العلاّم...]، وذكر خطبته.

وهكذا كانت إقامة الشيخ بمكة انطلاقة أخرى جديدة لمزيد من الفتوحات؛ ومن كثرة ما وجد فيها من البركة أراد أن يستحث صاحبه التونسي عبد العزيز المهدوي على القدوم إليها فكتب له في مقدمة الفتوحات المكية التي أهداها إليه قائلا: [فلو رحل الصفي أبقاه الله إلى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف والزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك ولا خطر له بالبال. وقد علم رضي الله عنه أنّ

النفس تحشر على صورة علمها والجسم على صورة عمله، وصورة العلم والعمل بمكة أتمّ مما سواها ولو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك فكيف إن جاور بها وأقام وأتى فيها بجميع الفرائض والقواعد فلا شكّ أنّ مشهده بها يكون أتمّ وأجلى ومورده أصفى وأعذب وأحلى].

وخلال طوافه بالكعبة، التقى الشيخ بما سمّاه الفتى في الباب الأوّل من الفتوحات، ومنه أخذ الفتوحات. وما هذا الفتى إلا روح القرآن المجيد، أي حقيقة الإنسان الكامل الجامع، سيدنا محمد ρ، الذي رقى الشيخ لأعلى درجات منبر وراثته، كما بينه في الخطبة السابقة.

وهكذا بدأ الشيخ كتابة كتابه الأعظم (الفتوحات المكية) بمكة المكرمة. بدأه عام 599 وعمر الشيخ أربعون سنة، وانتهى منه عام 629 بدمشق. ثم أعاد كتابته مع تعديلات و زيادات بين سني 632و636، فانتهى منه قبل رحيله للرفيق الأعلى بسنتين؛ يقول عن سبب كتابته له مخاطبا عبد العزيز المهدوي (I:98): [قد وقف الصفي الولي أبقاه الله على سبب بدء العالم في كتابنا المسمّى (بعنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب)، وفي كتابنا المسمى بـ: (إنشاء الدوائر)، الذي ألفنا بعضه بمنزلة الكريم في وقت زيارتنا إياه سنة 598، ونحن نريد الحج، فقيد له منه خديمه عبد الجبار، أعلى الله قدره، القدر الذي كنت سطرته منه، ورحلت به معي إلى مكة زادها الله تشريفا في السنة المذكورة لأتممه بها، فشغلنا هذا الكتاب عنه وعن غيره بسبب الأمر الإلهي الذي ورد علينا في تقييده، مع رغبة بعض الإخوان والفقراء في ذلك، حرصا منهم على مزيد العلم،ورغبة في أن تعود عليهم بركات هذا البيت المبارك الشريف، محل البركات والهدى والبينات].

ولا شك عند كل منصف أن هذا الكتاب هو أعظم كتاب في التصوف الإسلامي وفي المعارف الإلهية على الإطلاق، بعد القرآن العظيم و حديث رسول الله ρ؛ ولم يزل منذ كتبه أنفع وأنفس رحيق مختوم يرد منه المحبّون والمقربون. وصرّح الشيخ أنّ ترتيب الفتوحات وما فيه من إلهام إلهي، فيقول(163:II): [فالله تعالى رتب على يدنا هذا الترتيب، فتركناه ولم ندخل فيه برأينا ولا بعقولنا]. ويقول عنه أيضا (456:III/145:II):

[فوالله ما كتبت منه حرفا إلا عن إملاء إلهي، وإلقاء رباني، أو نفث روحاني، في روع كياني. هذا جملة الأمر. مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا أنبياء (...) وإنّما هو علم وحكمة وفهم عن الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله، وما خطه وكتبه في لوح الوجود من حروف وكلمات (...) وإنّما قلنا ذلك لئلا يتوهم أني وأمثالي أدّعي نبوة، لا والله ما بقي إلا ميراث وسلوك على مدرجة محمد رسول الله ρ خاصة].

ورغم عظمة الفتوحات المذهلة كماً وكيفا، فالشيخ يقول (382:III): [وللسلوك مراتب وأسرار يطول النظر فيها، ويخرجنا عن المقصود في هذا الكتاب من الاقتصاد والاقتصار على الضروري من العلم الذي يحتاج إليه أهل طريق الله، أن يبينه لهم من فتح عليه به من أمثالنا؛ وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه، ما استوفينا فيه خاطرا واحدا من خواطرنا في الطريق، فكيف الطريق ؟ ولا أخللنا بشيء من الأصول التي يعول عليها في الطريق، فحصرناها مختصرة العبارة بين إيماء وإيضاح]. ومن أحسن ما قيل في مدح الفتوحات ما نظمه العلامة العارف عبد الغني النابلسي (ت: 1143) في ديوانه وهو:

الوافر

كتاب الله جامع كل شيء وسنّة أحمد المختار شرح
وشرحهما الفتوحات التي من جناب القدس جاء بهنّ فتح
لشيخ شيوخنا العربي من قد أتانا منه فيض هدى ومنح
بمحيي الدّين يُدعى حيث أحيا لدين الله ذلك نعم مدح
فتوحات بها العلماء زادت علوما نحو الغيب تنحو
بها الحيران للتحقيق يُهْدى وسكران الهوى والجهل يصحو
ولكن إن هداه الله حتى من الإنكار لوح النفس يمحو
ولا تعجب فإنّ كتاب ربيّ به خسرت رجال وهو ربح
وسنة أحمد المختار قوم بها همُ في ظلام وهي صبح
ولولا في أوانِيهمْ ضلال لما منهم ضلال كان نضح
ووالله العظيم يمين عبد صدوق ما عليه بذاك جُنح
أئمة ديننا ما صنّفوا في شريعتنا كتلك ولا يصح
وكيف وقد حوت علوم رسم وكشف كله للناس نصح
وفي الإسلام ليس لها نظير فيحوي ما حوت وهو الأصح

وخلال زيارته الأولى هذه لمكة، لقي الشيخ الإمام المحدث مكين الدّين الأصفهاني، فسمع عنه عند الكعبة صحيح الترمذي، وأجازه في مسموعاته، كما لقي بها بنته العارفة النظام ملهمة ديوانه (ترجمان الأشواق)، ولقي أيضا من سماه بـ: " عبد الكريم وحشي المصري، وكان من الرجال"، وحكى للشيخ واقعة عجيبة شهد مدارها حول بركة الآية 38 من يس : [ذلك تقدير العزيز العليم].

وكما ألبس التميمي خرقة الطريق للشيخ في فاس عام 594 بعد تحققه بختميته، كذلك لبسها مرة أخرى عند الكعبة، بعد اعتلائه منبر الوراثة المحمدية. لبسها عام 599 من يد الشيخ يونس بن يحيي البغدادي (ت: 608)، أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلي (ت: 561). وأخذ عنه أيضا أحاديث نبوية، منها أحاديث قدسية جمع أربعين منها في الجزء الأول من كتابه (مشكاة الأنوار) (ينظر أيضا: I: 32-309–/524:IV/338:II). ومن رجال الحديث الآخرين الذين روى عنهم في هذا الكتاب زيادة على الحبشي رفيقه والتميمي الفاسي – نجد أبا الحسن علي الفيربي (ت: 646)، ومحمد بن خالد الصدفي التلمساني (552:IV /182:III/72:II) الذي أخذ الطريق عن الشيخ في مكة عام 599. وإجابة لطلب الحبشي، كتب لهما كتاب (حلية الابدال) وهو بالطائف، في جمادى الأولى من هذا العام، حيث ذهب الشيخ لزيارة قبر عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، الذي ذكر الشيخ عنه أنّه كان من الأفراد.

وفي حرم الكعبة، كان يجتمع الشيخ مع أصحابه لسماع الحديث الشريف، أو مطالعة كتب القوم أو المذاكرة، وهم مقابلون للركن اليماني في أكثر الأحيان (338:II/309-71-32:I). وفي إحدى هذه المجالس، وقعت للشيخ حادثة عجيبة كرر ذكرها في الفتوحات (15:II/638:I) وفصّلها في نصّه التالي (12-11:IV): [فإنّ الله خلق العالم في ستة أيام، بدأ به يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وما مسه من لغوب، ولم يعي بخلقه الخلق. فلما كان يوم السابع من الأسبوع وفرغ من العالم، كان يشبه المستريح الذي مسه اللغوب (...) كذا ورد في الأخبار النبوية. فسمّي يوم السبت، يريد يوم الراحة وهو يوم الأبد، ففيه تتكوّن الأشخاص كل نوع دنيا وآخرة (...) فنهار هذا اليوم الذي هو يوم الأبد لأهل الجنان وليله لأهل النار،

فلا مساء لنهاره ولا صبح لليله. وما رأينا أحدا اعتبر هذا اليوم إلاّ السبتي أحمد بن هارون الرشيد أمير المؤمنين. وذلك أنّي كنت يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة قد دخلت الطواف، فرأيت رجلا حسن الهيئة وهو يطوف بالبيت أمامي، فصرفت نظري إليه عسى أعرفه. فما عرفته في المجاورين، ولم أر عليه علامة قادم من سفر، لما كان عليه من الغضاضة و النضارة. فرأيته يمرّ بين الرجلين المتلاصقين في الطواف ويعبر بينهما ولا يفصل بينهما ولا يشعران به. فجعلت أتتبع بأقدامي مواضع وطأة أقدامه، ما يرفع قدما إلا وضعت قدمي في موضع قدمه، وذهني إليه وبصري معه لئلا يفوتني. فكنت أمرّ بالرجلين المتلاصقين اللذين يمر هو بينهما، فأجوزهما في أثره كما يجوزهما، ولا أفصل بينهما، فتعجبت من ذلك. فلما أكمل أسبوعه وأراد الخروج، مسكته وسلمت عليه. فردّ عليّ السلام، وتبسّم لي وأنا لا أصرف نظري عنه مخافة أن يفوتني، فإني ما شككت فيه أنّه روح تجسد. فقال لي: صدقت. فقلت له: من أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا السبتي بن هارون الرشيد. فقلت له:بلغني أنك ما سميت السبتي إلا لك إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدر ما تأكله بقية الأسبوع. فقال: الذي بلغك صحيح، كذلك كان الأمر. فقلت له: فلم خصصت يوم السبت دون غيره من الأيام وأيام الأسبوع؟ فقال: نِعم ما سألت. ثم قال لي: بلغني أنّ الله ابتدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة (...) فقلت: والله لأعملنّ على هذا. فتفرغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة الأيام، لا اشتغل بشيء إلا بعبادته تعالى. وأقول إنّه تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة، فإنّي أتفرغ إلى عبادته فيها ولا أمزجها بشغل نفسي،ن فإذا كان يوم السبت أتفرغ لنفسي، وأتحصل لها ما يقوتها باقي الأسبوع (...) وفتح الله لي في ذلك. فقلت له: من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: أنا ولا فخر. قلت له: كذلك وقع لي التعريف. قال: صدقك من عرّفك. ثم قال لي: عن أمرك، يريد المفارقة. قلت له: ذلك إليك. فسلم عليّ سلام محبّ وانصرف. وكان بعض

أصحابي و الجماعة في انتظاري لكونهم كانوا يشتغلون عليّ بـ: (إحياء علوم الدّين) للغزالي رحمه الله. فلماّ فرغت من ركعتي الطواف، وجئت إليهم، قال لي بعضهم وهو نبيل بن خرز ابن خزرون السبتي: رأيناك تكلم رجلا غريبا حسن الوجه وسيما، لا نعرفه في المجاورين. من كان ومتى جاء؟ فسكت ولم أخبرهم بشيء من شأنه، إلا بعض إخواني فإني أخبرتهم بقصته فتعجبوا لذلك].

وقد ذكر الشيخ أنّ أحمد السبتي كان أيضا أحد رجال الأنفاس الستة، لا ينقصون في كل زمان ولا يزيدون، لكل واحد منهم يوم من أيام الخلق الستة، ولهم سلطان على الجهات الستِّ (15:II). وقد توفي السبتي قرونا قبل اجتماعه هذا مع الشيخ، توفي وهو في بداية العشرينات من عمره شابا، وقصته مفصلة في (حلية الأولياء) لأبي النعيم الأصفهاني

وحول الكعبة، لقي الشيخ الأبدال السبعة الذين قال عنهم (7:II-455): [واجتمعت بهؤلاء الأبدال السبعة بحرم مكة خلف حطيم الحنابلة. وجدتهم يركعون هنالك، فسلمت عليهم، وسلموا علينا، وتحدثت معهم؛ فما رأيت فيما رأيت أحسن سمتا منهم ولا أكثر شغلا منهم بالله، ما رأيت مثلهم إلا سقيط الرفوف بن ساقط العرش بقونية، وكان فارسيا]. لكن الحديث مع الشيخ معهم لم يكن في المعرفة حسبما ذكره في (روح القدس)، حيث يقول عنهم (ر:126): [جالستهم بين حطيم الحنابلة وصفة زمزم، وهم خاصة الله حقا، لا يطرفون، عليهم السكينة و الهيبة، لقيتهم وهم في حال المشاهدة، فلم يقع بيني وبينهم مكالمة في المعرفة. ولقد رأيت من سكونهم ما لا يتصور أن يسكنه أحد]. ومن الفضلاء الذين لقيهم الشيخ بالحرم المكي في هذا العام، القاضي عبد الوهاب الأزدي الإسكندراني (مبشرات)، وموسى بن محمد القباب القرطبي، من تلاميذ ابن حرزهم

الفاسي (ت:559) وأحد مؤذني الحرم المكي (I:603/II:262/ IV:96-529) قال الشيخ عنه (IV:96) خلال كلامه على ذكر " لا حول ولا قوة إلا بالله": " فإنّه ما يتجلى لك شيء ليس هو الله فيقول لك أنا الله، فتقول له أنت بالله، إلا انعدم من ساعته إذا لم يكن الله. وما رأيت من شهد هذا المشهد من رجال الله، إلا رجل واحد من أهل قرطبة كان مؤذنا بالحرم المكي، يقال له موسى بن محمد القباب].

وخلال إقامته هذه الأولى بمكة، ظهرت شُهُب سماوية لم يشهد من قبل مثلها، وربط الشيخ حدوثها بأمور أرضية، فقال عنها (II:450): [وجعلها الله من زمان رسول الله ρ رجوما للشياطين. فإنّ الشياطين، وهم كفار الجن، لهم عروج إلى السماء الدنيا، يسترقون السمع، أي ما تقوله الملائكة في السماء و تتحدث بما أوحى الله به فيها. فإذا سلك الشيطان، أرسل الله عليه شهابا رصدا ثاقبا؛ لهذا يعطي ذلك الضوء العظيم الذي تراه ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقا. ورأيت مرة طريقة قد بقي ضوءه ساعة وأزيد من ساعة، وأنا بالطواف. رأيته أنا وجماعة الطائفين بالكعبة وتعجب الناس من ذلك. وما رأينا قط ليلة أكثر منها ذوات أذناب الليل كله إلى أن أصبح، حتى كانت تلك الكواكب لكثرتها وتداخل بعضها على بعض كما يتداخل شرار النار، تحول بين أبصارنا وبين رؤية الكواكب، فقلنا ما هذا إلا أمر عظيم. فبعد قليل، وصل إلينا أنّ اليمن ظهر فيه حادث في ذلك الوقت الذي رأينا هذا، وجاءتهم الريح بتراب شبيه التوتيا كثير، إلى أن عمّ أرضهم وعلا الأرض إلى حدّ الركب، وخاف الناس، وأظلم عليهم الجو، بحيث أن كانوا يمشون في الطرق في النهار بالسُرج، وحال تراكم الغمام بينهم و بين نور الشمس، وكانوا يسمعون في البحر بزبيد دويا عظيما (...) ورأينا في تلك السنة عجائب كثيرة. وفي تلك السنة، حلّ الوباء بالطائف، حتى ما بقي فيها ساكن، حلّ بهم من أوّل رجب إلى أوّل رمضان سنة 599 عن تحقيق. وكان الطاعون الذي نزل بهم

إذا كانت علامتهم في أبدانهم، ما يتجاوزون خمسة أيام حتى يهلك. فمن جاز خمسة أيام لم يهلك. وامتلأت مكة بأهل الطائف، وبقيت ديارهم مفتحة أبوابها، وأقمشتهم ودوابهم في مراعيها؛ فكان الغريب في تلك المدة إذا مرّ بأرضهم، فتناول شيئا من طعامهم أو قماشهم أو دوابهم، إذ لم يكن هناك حافظ يحفظه، أصابه الطاعون من ساعته، وإذا مرّ ولم يتناول شيئا سلم. فحمى الله أموالهم في تلك المدة لمن بقي منهم ولمن ورثهم، وتابوا وورثوا البنات في تلك السنة، وسكنت الفتن التي كانت بينهم. فلما نجاهم الله من ذلك ورفعه عنهم واستمرّ لهم الأمان، عادوا إلى ما كانوا عليه من الإدبار].

وحصلت للشيخ أيضا مرائي وهو بمكة من سنة 599، منها رؤيا قال عنها في الفصوص إنّه لا يراها إلا خاتم الأنبياء المحمدي (فصّ شيث) وهي (I:609) [...فقالρ: " مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى حائطا فأكمله إلا لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة، فلا رسول بعدي ولا نبيّ". فشبّه النبوة بالحائط والأنبياء باللبن التي قام بها هذا الحائط، وهو تشبيه في غاية الحسن، فإنّ مسمّى الحائط هنا المشار إليه لم يصح ظهوره إلا باللبن، فكان ρ خاتم النبيين. فكنت بمكة سنة 599، أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب، وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيء، وأنا أنظر إليها وإلى حسنها. فالتفت إلى الوجه الذي بين الركن اليماني و الشامي وهو إلى الركن الشامي أقرب، فوجدت موضع لبنتين، لبنة فضة ولبنة ذهب ينقص من الحائط في الصفين، في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب و في الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة. فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع تلك اللبنتين، فكنت أنا عين تينك اللبتنين وكمل الحائط، ولم يبق في الكعبة شيء ينقص، وأنا واقف أنظر وأعلم أنّي واقف، وأعلم أنّي عين تينك اللبنتين لا شك في ذلك، وأنهما عين ذاتي. واستيقظت، فشكرت الله تعالى. وقلت متأوّلا: إنّي في الأتباع في صنفي كرسول الله ρ في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممّن

ختم الله الولاية بي. وما ذلك على الله بعزيز. وذكرت حديث النبي ρ في ضربه المثل بالحائط وأنّه تلك اللبنة. فقصصت رؤياي على بعض علماء هذا الشأن بمكة من أهل توزر. فأخبرني بتأويلها بما وقع لي وما سميتُ الرائي من هو. فالله أسأل أن يتمّها عليّ بكرمه، فإنّ الاختصاص الإلهي لا يقبل التحجير و لا الموازنة ولا العمل، وإن ذلك من فضل الله، يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم].

رؤيا أخرى عجيبة رآها هناك ورواها في نصّه التالي (549:III): [ولقد أراني الحق تعالى فيما يراه النائم وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرف بوجودهم، فأنشدونا ببيتين، ثبت علي البيت الواحد ومضى عني الآخر، فكان الذي ثبت على من ذلك:

الوافر

لقد طفنا كما طفتُم سنينا بهذا البيت طرا أجمعينا

وخرج عني البيت الآخر، فتعجبت من ذلك. فقال لي واحد منهم، وتسمّى لي باسم لا أعرف ذلك الاسم ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت له: كم لك منذ مت ؟ فقال لي: بضع وأربعون ألف سنة. فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين. فقال لي: عن أيّ آدم تقول هذا، الأقرب إليك أو غيره؟ فتذكرت حديثا عن رسول الله ρ :" إنّ الله خلق مائة ألف آدم". فقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبني إليه من أولئك. والتاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك. فإنّ العالم لا تصح له رتبة القدم، أي نفي الأولية، لأنّه مفعول الله أوجده عن عدم...].

وفي معراجه الروحاني، يقول الشيخ أنّه حكى واقعته هذه لإدريس U وهو في السماء الرابعة، فأجابه (342:III): [صدق أني نبي الله، ولا أعلم للعالم مدة يقف عندها بجملتها، إلا أنّه بالجملة لم يزل خالقا، ولا يزال دنيا وآخرة، والآجال في المخلوق بانتهاء المدد في الخلق، فالخلق مع الأنفاس يتجدد، فما أعلمناه علمناه، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء].

وفي مكة، التقى الشيخ بعدد كبير من الأولياء القادمين للحج و العمرة أو المجاورين للحرم حتى أنّه اجتمع في يوم واحد على جبل أبي قبيس بسبعين رجلا من طبقة الأفراد كبار الأولياء (201:I).

وفي هذا العام أيضا، جرت بين الشيخ و الكعبة وقائع ذكرها في باب الحج وخلاصتها (700:I-701): [ولقد نظرت يوما إلى الكعبة وهي تسألني الطواف بها، وزمزم يسألني التضلع من مائه، رغبة في الاتصال بالمؤمن سؤال نطق مسموع بالأذن، فخفنا من الحجاب بهما لعظيم مكانتهما من الحق عما نحن عليه من أحوالنا من القرب الإلهي، الذي يليق بذلك الموطن في معرفتنا، فأنشدتهما مخاطبا ومعرفا بما هو الأمر عليه مترجما عن المؤمن الكامل (12 بيتا أوّلها):

السريع

يا كعبة الله ويا زمزمه كم تسألاني الوصل صه ثم مه

وكانت بيني وبين الكعبة في زمان مجاورتي بها مراسلات وتوسلات ومعاتبة دائمة. وقد ذكرت بعض ما كان بيني وبينها من المخاطبات في جزء سميناه: (تاج الرسائل ومنهاج الوسائل)، يحتوي فيما أظن على سبع رسائل أو ثمان من أجل السبعة الأشواط، لكل شوط رسالة مني إلى الصفة الإلهية التي تجلت لي في ذلك الشوط.

ولكن ما علمت تلك الرسائل ولا خاطبتها بها إلاَّ لسبب حادث، وذلك أنّي كنت أفضل عليها نشأتي، وأجعل مكانتها في مجلى الحقائق دون مكانتي، وأعرض عمّا خصّها الله به من علوّ الدرجات. وكان ذلك مني في حقها لغلبة حال غلب عليّ، فلا شك أنّ الحق أراد أن ينّبهني على ما أنا فيه من سكر الحال، فأقامني من مضجعي في ليلة باردة مقمرة فيها رش مطر، فتوضأت وخرجت إلى الطواف بانزعاج شديد، وليس في الطواف أحد سوى شخص واحد فيما أظنّ، فقبلت الحجر وشرعت في الطواف؛ فلما كنت في مقابلة الميزاب من وراء الحجر، نظرت إلى الكعبة فرأيتها فيما تخيل لي قد شمرت أذيالها لتشب عليّ وهي تتوعدني بكلام أسمعه بأذني وهي تقول لي:" تقدّم حتى ترى ما أصنع بك! كم تضع من قدري و ترفع من قدر ابن آدم، وتفضّل العارفين عليّ! وعزة من له العزة لا تركتك تطوف بي "! فرجعت مع نفسي وعلمت أنّ الله يريد تأديبي. فشكرت الله على ذلك وزال جزعي الذي كنت أجده، فارتجلت أبياتا في الحال أخاطبها بها وأستنزلها من ذلك الجرح الذي عاينته منها. فما زلت أثني عليها في تلك الأبيات، وهي تتسع وتنزل بقواعدها على مكانها، وتظهر السرور بما اسمعها، إلى أن عادت إلى حالها كما كانت، وأمّنتني وأشارت إليّ بالطواف. فرميت بنفسي على المستجار وما فيّ مفصل إلا وهو يضطرب من قوة الحال إلى أن سرّي عني، وصالحتها وأودعتها شهادة التوحيد عند تقبيل الحجر؛ فخرجت الشهادة عند تلفّظي بها وأنا أنظر إليها بعيني في صورة سلك، وانفتح في الحجر الأسود مثل الطاق حتى نظرت إلى قعر طول الحجر فرأيته نحو ذراع ، ورأيت الشهادة قد صارت مثل الكعبة واستقرت في قعر الحجر، وانطبق الحجر عليها، وانسدّ ذلك الطاق وانا انظر إليه. فقالت لي: هذه أمانة عندي أرفعها لك يوم القيامة، أشهد لك بها عند الله. هذا قول

الحجر لي وأنا اسمع، فشكرت الله ثم شكرتها على ذلك، وخاطبتها بتلك الرسائل السبع، فزادت بي فرحا وابتهاجا حتى جاءتني منها بشرى على لسان رجل صالح من أهل الكشف ما عنده خبر بما كان بيني وبينها ممّا ذكرته. فقال لي: رأيت البارحة فيما يرى النائم هذه الكعبة وهي تقول لي: يا عبد الواحد، سبحان الله، ما في هذا الحرم من يطوف بي إلا فلان، وسمتك لي باسمك، ما ادري أين مضى الناس ، ثم أقمت لي في النوم وأنت طائف بها وحدك ، لم أر معك في الطواف أحد؛ قال الرائي فقالت لي: أنظر إليه، هل ترى بي طائفا آخر ؟ لا والله ولا تراه ولا أراه أنا. فشكرت الله على هذه البشرى من مثل ذلك الرجل وتذكرت قول رسول الله ρ في الرؤيا الصالحة، يراها الرجل المسلم أو ترى له. وأمّا الأبيات التي استنزلت بها الكعبة فهي هذه (في 19 بيتا) أولها:

المنسرح

بالمستجار استجار قلبي لما أتاه سم الأعادي

وقد ذكر المقّري في « نفح الطيب » أن الشيخ محي الدين قال إنه بلغه وهو في مكّة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلّمت فيه بأمور عظيمة ، فقال : هذه قد جعلها الله تعالى سببا لخير وصل إليّ فلأكافئنّها ! وعقد في نفسه أن يجعل جميع ما اعتمر في رجب لها ! ففعل ذلك .فلما كان الموسم استدل عليه رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده ، فقال : رأيت بالينبع في الليلة التي بت فيها كأن آلافا من الإبل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ، فعجبت من كثرته . ثم سألت : لمن هو ؟ فقيل : هو لمحمد ابن العربي يهديه إلى فلانة ، وسمى تلك المرأة ، ثم قال : وهذا

بعض ما تستحق .فقال الشيخ محي الين ابن العربي : " فلما سمعت الرؤيا واسم المرأة . ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم مني ذلك ، علمت أنه تعريف من جانب الحق . وفهمت من قوله أن هذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ! فذهب الشيخ محي الدين إلى هذه المرأة وقال وذكر لها ما كان من ذلك . وقال لها : اصدقيني ! فقالت : "كنت قاعدة قبالة البيت ، وأنت تطوف ، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت في نفسي : اللّهم إني أشهدك أني قد وهبت له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم الخميس ، وكنت أصومهما وأتصدّق فيهما . فقال الشيخ محي الدين : فعلمت أن الذي وصل مني إليها بعض ما تستحق فإنها سبقت .

الشيخ من مكة إلى الأناضول ودمشق

الوافر

ورثت محمدا فورثتُ كلا ولو غيرا ورثتُ ورثت جزءا
فأقبلت النفوس إليّ عدوا وقد أنشأتها للعين نشأ
فأروينا نفوسا عاطشات فلم تر بعد هذا الشراب ظمأى
(دي: 335)

في العديد من نصوصه كرر الشيخ قول أبي مدين: [من علامات صدق التوجه إلى الله الفرار عن الخلق. ومن علامات صدق الفرار عن الخلق وجود الحق. ومن كمال وجود الحق الرجوع إلى الخلق] (340:IV)، أي الرجوع إلى الخلق بالنصيحة والإرشاد و التربية والدعوة إلى الله على بصيرة. وهذا الرجوع حققه الشيخ وعمره

26 سنة، ثم ازداد توسّعه ليشمل العارفين والشيوخ أنفسهم، لما تحقق بختميته وعمره 35 سنة، ثم اكتمل ليشمل كل الأمّة، رُعاة ورعية، ظاهرا وباطنا، لما بلغ 40سنة بعد اعتلائه أعلى درجات منبر الخلافة المحمدية بمكة كما سبق ذكره.وقد صرّح الشيخ بهذا في العديد من مكتوباته كقوله (658:I): [والله سبحانه قد أمرني على لسان نبيه ρ بالنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم خطابا عامّا. ثم خاطبني على الخصوص من غير واسطة غير مرة بمكة وبدمشق، فقال لي: أنصح عبادي في مبشرة أريتها، فتعيّن عليّ الأمر أكثر ممّا تعيّن على غيري. فالله يجعل ذلك لي من الله عناية و تشريفا لا ابتلاء وتمحيصا].

وفي كتابه (المبشرات)، يذكر الشيخ رؤيا تؤكد عليه ذلك فيقول: [رأيت وأنا بحرم مكة في المنام كأنّ القيامة قد قامت، وكأنّي واقف بين يدي ربي مطرقا خائفا من عتابه إياي من أجل تفريطي، فكان يقول لي جل جلاله: يا عبدي، لا تخف فإني لا أطلب منك عملا إلا أن تنصح عبادي، فانصح عبادي. وكنتُ أرشد الناس إلى الطريق القويم. فلما رأيت الداخل إلى طريق الله عزيزا، تكاسلت وعزمت تلك الليلة أن أشتغل بنفسي وأترك الخلق وما هم عليه. فرأيت هذه الرؤيا، فأصبحت وقعدت للناس أبيّن لهم الطريق الواضح والآفات القاطعة لكل صنف عنه من الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام، فكل قام عليّ وسعى في هلاكي، فنصرني الله عليهم وعصم فضلا منه ورحمة، قال عليه الصلاة و السلام: " الدّين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" ذكره في صحيح مسلم].

وفي مكة عام 600، التقى الشيخ بوالد صدر الدّين القونوي، وهو مجد الدّين إسحاق بن يوسف الرومي، الذي وصفه ابن بيبي في كتابه: (الأوامر العلائية) بـ:

" شـرف الأوتاد"، ووصـفه الخليفـة العباسـي الناصـر في رسـالة بعثهـا للسـلطان السـلجوقي كيكـاوس بـ:" عمـدة العـارفين" (267:A). كـان مجـد الـدين مرشـدا ومستشارا للسلطان غياث الدين كيخسرو، ثم لابنه كيكاوس، الذي أرسله سفيرا للخليفة الناصر ببغداد، طالبا منه الانخراط في نظام الفتوة الذي أسّسه الناصر، بإرشاد الصوفي الشهير شهاب الدّين السهروردي (ت:632). وبذلك أصبح مجد الدّين هو المشرف الروحي على نظام الفتوة الجهادي، وورث منصبه ابنه صدر الدّين. وكان مجد الدين قد هاجر من الأناضول للشام لأسباب سياسية، انتهت باستقرار الحكم لكيخسرو بعد وفاة خصمه أخيه ركن الدين عام 600. فبعث حينئذ دعوة لمرشده مجد الدين، يرجوه الرجوع إليه كمستشار وموجّه. ووافق ذلك اجتماعه بالشيخ في مكة عام 600، فدعا الشيخ إلى مرافقته للأناضول ولبّى الشيخ الدعوة، فسافرا معا برفقة الحبشي، وزاروا رسول الله ρ في المدينة المنورة.

وقد ذكر الشيخ زيارته لرسول الله ρ في الباب 552(193:IV)، في معرفة حال قطب كان منزلة الآية [ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما]النساء 64 ، فقال: [إّذا جاء الظالم إلى الحق المشروع الذي بأيدنا اليوم، فإنّ تجسد له في الصورة المحمدية، فيعلم أنه من أصحاب هذا الذكر، إما في النوم أو في اليقظة، كيف كان. وإن لم يتجسد له، فما هو ذلك الرجل. فإذا تجسد له، فلا يخلو أن يستغفر الله هذا الظالم لنفسه أو لا يستغفر الله. فإن استغفر الله في ذلك الموطن، يذكر النبي ρ بالاستغفار لله في حقه، فيجد الله عند ذلك توابا رحيما. وقد ظلمت نفسي وجئت إلى قبره ρ ، فرأيت الأمر على ما ذكرته، وقضى الله حاجتي وانصرفت، ولم

يكن قصدي في ذلك المجيء إلى الرسول إلا هذا الهجير. وهكذا تلوته عليه ρ في زيارتي إياه عند قبره، فكان القبول وانصرفت، وذلك في سنة إحدى وستمائة].

ومن المدينة المنورة توجه الشيخ مع أصحابه إلى بيت المقدس وخلال طلبه بيت المقدس ذكر لقاءه بأحد أهل الأحوال فقال (المسامرات ج 1 ص 192) [كنت أطلب بيت المقدس فدخل عليّ شاب كالعود، عليه أثر السياحة، وأنا بمسجد بظاهر بيسان، وكان صاحبي عبد الرحمن بن علي اللواتي يعمل لي شغلا بين يدي، فدنا منه، وأخذ السكين من يد عبد الرحمن، فأصلح به نعلا كان له، ثم قال لي: أتكون فقيرا أو تمشي بعدّة؟ فقلت له: يا فقير تراك احتجت إليها، فلو كانت ما يضرك، فقال لي: لما أحتجت وجدتك فأصلحت شأني وأراحني الله من حملها، فكن مثلي واتركها، فإذا احتجت إليها وجدت حاجتك عند مثلك، وتكون بينهما سالم الحال مع الله، ثم خرج مسرعا، فطلبته فلم أره حتى الآن] لكن الشيخ لا يقول بترك الأسباب إذ أن تركها مخالف للحكمة الإلهية وإنما يقول بترك الوقوف معها والغفلة عن خالقها وواضعها تعالى وفي هذا الموضوع يقول:

[إذا كنت يا أخي ممن يجلس مع الله بترك الأسباب، فتحفظ من السؤال، فلا تسأل أحدا، وإياك أن تقتدي بهؤلاء أصحاب الزنابل اليوم، فإنهم من أدنى الناس همّة، وأخسهم قدرا عند الله، وأكذبهم على الله؛ فإما يقين صادق، وإما حرفة فيها عز نفسك ، فإن ذلك خير لك عند الله، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: « لأن يحتزم أحدكم حزمة من حطب على ظهره خير له من أن يسأل رجلا وفي حديث أعطاه او منعه»] (IV : 485).

وقد كان للشيخ ذوق تام في ذلك اليقين الصادق كما يظهر من قوله التالي: [ولقد لطف اله بي في بدء أمري ودخولي إلى هذا الطريق، إذا فرغت نفقتي وبقيت

بلا شيء، سقط عليّ من الهواء وبين يدي قدر ما أشتري به ما أحتاج إليه من القوت، فانفق منه، فإذا فرغ جاءني مثل ذلك من عند الله لكني ما كنت أرمي شخصا، قال تعالى في حق مريم ابنة عمران: [**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله**] (550:IV) .

وقد ذكرالشيخ العديد من الكرامات الحسية الأخرى التي وقعت له مثل سماعه تسبيح الحجر، وسماع نطق الجوارح، فلنستمع لبعض كلامه حولها:

[قد سمعنا بحمد الله في بدء أمرنا تسبيح حجر ونطقه بذكر الله، فنحن زدنا – مع الإمان بالأخبار– الكشف، فقد سمعنا الأحجار تذكر الله رؤية عين بلسان ناطق تسمعه آذاننا منها، وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان، فمن كرامات الصالحين أن يسمعهم الله نطق الأشياء، فلو لم يفدهم ذلك علما، لم يكن ذلك إكراما من الله بهم] (485:II/382-147:I)

ويقول:[فاحذر يا أخي يوما تشهد فيه عليك الجلود والجوارح، وانصف من نفسك، وعامل جوارحك بما تشكرك به عند الله، ولقد رأينا ذلك عيانا في الدنيا في زمان الأحوال التي كنا فيها، أعني نطق الجوارح](V: 475)

ويتكلم عن بعض مشاهدته بعض آيات الرياح فيقول:

[ومما رأيته من آيات الرياح ذوقا من نفسي: جرينا بالريح الشديد من ضحى يومنا إلى غروب الشمس مسيرة عشرين يوما في موج كالجبال، فكيف لو كان البحر فارغا والرياح من روائنا؟ كنا نقطع أكثر من ذلك، ولكن الله أراد أن يرينا آيات كل صبّار شكور](III: 344).

ويذكر مشاهدته أنوار الرياح فيقول:

[أنوار الرياح أنوار عنصرية أخفاها شدّة ظهورها، فغشيت الأبصار عن إدراكها. وما شاهدتها إلا في الحضرة البرزخية، وإن كان الله قد أتحفنا برؤريتها حسّا بمدينة قرطبة يوما واحدا اختصاصا إلهيا، وورثا نبويا محمديا. وهذه النوار الرياحية لها سلطان وقوة على جميع بني آدم إلا أهل الله] (488:II). ويذكر التروحن وتعدد الصور فيقول:

[نشأة الإنسان في الآخرة لا تشبه نشأة الدنيا، وإن اجتمعتا في الأسماء وفي الصورة الشخصية، فإنّ الروحانية على نشأة الروح أغلب من الحسية، وقد ذقناه في هذه الدار مع كثافة هذه النشأة، فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة، وأمّا عامة الناس فيدركون ذلك في المنام] (318:I).

ويذكر رؤيته لفتية الكهف فيقول:

[قال تعالى في أصحاب الكهف يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لواطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا] فإنه صلى الله عليه وسلم لا يملأ مع شجاعته وحماسته رعبا إلا من شيء يهوله، فلو لم ير منهم ما هو أهول مما رآه ليلة إسرائه ما امتلأ رعبا، وقد رأيناهم وما ملئنا رعبا، لأنّا ما شهدنا منهم إلا صور أجسامهم فرأيناهم أمثالنا، فما ينهزم صلى الله عليه وسلم إلا من أمر يريد إعدامه لا عن رؤية أجسامهم. أليسوا أناسي مثله؟](546:III)

ويذكر أيضا مشاهدته للملائكة الحقظة فيقول:

[قال تعالى: [وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون] وقال تعالى: [ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] . وينتج هذا الذكر لصاحبه مشاهدة الحق عند قوله وقبوله له، ومن شاهد الحفظة فمن هذا المقام شهدهم، ولما أشهدنيهم الحق تعالى تعذبت بشهودهم، ولم أتعذب بشهود الحق، فلم أزل أسأل

الله في حجبهم عني فلا أبصرهم ولا أكلمهم، ففعل الله معي ذلك وسترهم عن عيني](188:IV) .

ويذكر شهوده تجسّد الأذان فيقول:

[لما أشهدني الحق الأذان بنفسي، رأيت لكل كلمة من الخير المقيد بالحسّ مدّ البصر في كل كلمة، ولقد أذّنت يوما، فكلما ذكرت كلمة من الأذان كشف الله على بصري، فرأيت مالها مدّ البصر من الخير، فعاينت خيرا عظيما لو رآه الناس العقلاء لذهلوا لكل كلمة، وقيل لي: هذا الذي رأيت ثواب الأذان. فالمؤذنون أفضل جماعة دعت إلى الله عن أمر الله ورسوله](475:IV).

وفي القدس، حيث ألّف الشيخ عدّة رسائل، منها (كتاب الجلالة)، (وكتاب الأزل)، و(كتاب الهو)، وتوجهوا إلى العراق، ووصلوا بغداد عام 601، حيث بقوا 12 يوما وفيها قرأوا كتابه (روح القدس في مناصحة النفس) بحضور الشيخ عبد الوهاب بن علي المشهور بابن سكينة، ومحمد بن محمود الملطي بالإضافة إلى بدر الحبشي محمود بن إسحاق بن يوسف الرومي. وقد ذكر الشيخ في الباب 284 (625:II)، وجود حيوان غريب في البرية التي بين مكة والعراق، يصطاده عرب تلك البرية في يوم واحد منن كل سنة. وكل من أكل لحمه أو مرق لحمه، يطلع آكله أو شارب مرقته على غيوب ما يحدث الله في العالم من الحوادث الجزئية والعامة، ويسمع ويفهم ما تنطق به جميع الحيوانات. وعرب تلك البرية يمنعون كل غريب عنهم من أكله، ليحتفظوا وحدهم بخاصيته. قال الشيخ: [وقد رأيت من رأى من أكل لهم هذا الحيوان وشرب من مرقته، فكانت له هذه الحالة. فسبحان من أخفى علم ما أودعه في بعض مخلوقاته عن بعض مخلوقاته، لا إله إلا هو العليم الحكيم].

وهذا يذكّر بحيوان آخر عجيب تكلم الشيخ عليه في إشارته لمعنى الرصد في كلمة (لبلمرصاد) من سورة الفجر التي خصصّ لها الباب 295 (674:II) حيث يقول: [... الحيوان الذي إذا أكل أعلاه أعطى بالخاصية لمن أكله علم النجوم، وإذا أكل وسطه أعطى علم النبات وإذا أكل عجزه وهو ما يلي ذنبه أعطى علم المياه المغيبة في الأرض، فيعرف إذا أتى أرضا لا ماء فيها على كم ذراع يكون الماء فيها. وهذا الحيوان حية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، لا يوجد إلا بأحواز شلب من غرب الأندلس. وكان قد وقع بها عندنا عبد الله بن عبدون كاتب أمير المسلمين، فقطع رأسها وذنبها بسكين ذي شعبتين في ضربة واحدة، وقسمها ثلاث قطع وكانوا ثلاثة أخوة. فأكل عبد الله أعلاها، فكان في علم القضاء بالنجوم آية، من غير مطالعة كتاب أو توقيف إمام، وأكل أخوه عبد المجيد الوسط منها، فكان آية في علم النبات وخواصه وتركيباته من غير مطالعة كتاب أو توقيف، أخبرني ولده المنجنيقي بذلك بقونية. وأكل الأخ الثالث القطعة الأخيرة التي تلي الذنب، فكان آية في استخراج المياه من جوف الأرض؛ فسبحان من أودع أسراره في خلقه].

وفي بغداد، لا شك أنّ الشيخ زار قبور الصالحين الذين تعج بهم المدينة كعبد القادر الجيلي وغيره. وفي بغداد، اجتمع الشيخ بالصوفي المحدث ابن سكينة (ت:607) الذي قال عنه الشيخ في إجازته للملك المظفر: " أخذت عنه وأخذ عني ". أي أخذا عن بعضهما الحديث الشريف، وسمع ابن سكينة عن الشيخ (روح القدس). فمن مروياته عنه قوله (529:IV): [وصية إلهية فيها لطف، حدثني بها موسى بن محمد القرظي بمكة والضيا عبد الوهاب ابن سكينة ببغداد عند اجتماعي به برباطه، قال: يقول الله: " إذا أحدث عبدي ولم يتوضأ فقد جفاني،

وإذا توضأ ولم يصل فقد جفاني، وإذا صلى ولم يدعني فقد جفاني، وإذا دعاني ولم أجبه فقد جفوته، ولست برب جاف، ولست برب جاف، ولست برب جاف".

ومن بغداد ذهب الشيخ مع رفاقه إلى الموصل والحاكم عليها حينذاك الأمير زنكي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود الذي حكمها منذ 581 . وفي الموصل اجتمع بالشيخ علي بن عبد الله بن جامع وكان يسكن بالمقلي في بستان خارج الموصل، فتلقى الشيخ عنه الخرقة التي لبسها ابن جامع من الخضر بحضور الشيخ عبد الله قضيب البان صاحب الأحوال الروحانية العجيبة وكتب الشيخ لابن جامع أحد أنفس وأمتع كتبه الإلهامية وعنوانه: (التنزلات الموصلية)، في بيان أسرار الوضوء، والصلوات الخمس، ومناسباتها مع السماوات وأنبيائها، ومراتب الناس في درجات الجنان ودركات النيران. وكتب أيضا (كتاب الجمال والجلال) الذي بيّن فيه أنّ لكل آية جمالية آية جلالية تقابلها والعكس. وفي الموصل أيضا، التقى بأحد أصحاب الأحوال الروحية المختلّة، ذكره عنده لعلوم منزل سورة التكوير في الباب 303(17:III) فقال: [علم الوعيد ولماذا يرجع ومن عارض القرآن من أين أتى عليه (...) كالمهذّب ثابت بن عنتر الحلوي، لقيته بالموصل سنة 601، عارض القرآن وسمعته يتلو منه سورا. وكان في مزاجه اختلال، إلا أنّه كان من أزهد الناس وأشرفهم نفسا ومات في تلك السنة].

وفي الموصل أيضا، اجتمع الشيخ بالفقيه المحدّث الصالح أحمد بن مسعود، فأخذ عنه أحاديث وأخبارا أورد بعضها في (محاضرات الأبرار). كما روى عنه الفائدة التالية (490:IV): [أخبرني الزكي شيخنا أحمد بن مسعود بن سداد المقري الموصلي بمدينة الموصل سنة 601، قال رأيت رسول الله ρ، فقلت له: يا رسول

الله، ما تقول في الشطرنج، يعني في اللعب به ؟ قال ρ : حلال – وكان الرائي حنفي المذهب – قال: فقلت: النرد ؟ قال: حرام. قال: قلت: يا رسول الله، ما تقول في الغناء ؟ قال: حلال. قلت: فالشبابة ؟ قال: حرام. قال: قلت: يل رسول الله، أدع لي، فقد مستني الحاجة، أو كما قال ممّا هذا معناه. قال ρ: رزقك الله ألف دينار، كل دينار من أربعة دراهم. واستيقظت، فدعاني الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب رحمه الله في شغل. فلما خرجت من عنده، أمر لي بأربعة ألاف درهم. فما بت إلا و الدراهم عندي كاملة، التي عينّها لي ρ في دعائه. قال: فاعتقدت من تلك الساعة تحليل الشطرنج الذي كنت أعتقد تحريمه وتحريم الشبابة، وكنت أعتقد النقيض في هذين الشيئين].

ويبدو أنّ صلة الشيخ الموصلي بالشيخ تواصلت بعد هذا اللقاء، إذ نجد له ابنتين: أمّ دلال وأمّ رسلان، تحضران لسماع الفتوحات عند الشيخ بدمشق سنتي 636 و 637. كما اجتمع بمحدث آخر أخذ عنه حديث فضل فاتحة الكتاب لمن قرأها ببسملتها في نفَس واحد وهو مسلسل بقَسم " الله العظيم" ، فقال(IV: 495): [...بالله العظيم، لقد حدثني أبو الحسن عن أبي الفتح المعروف والده بالكناري بمدينة الموصل سنة 601] إلى آخر الرواية.

وقضي الشيخ رمضان هذه السنة 601 بالموصل، حيث كان يجتمع به المريدون وأهل العلم، فيستمعون لمكتوباته (كروح القدس) التي سمعها منهم تسعة في آخر أيام رمضان. وفي الموصل أيضا، رأى الشيخ من يعبد العناصر (720:I).

ومن الموصل، واصل الشيخ رحلته عبر الجزيرة ونزل بدنيصير، فلقي رجلين من أهل الله. أولهما عمر الفرقوي، من طبقة رجال النيات الذين يحاسبون أنفسهم على

أنفاسهم وأعمالهم وأقوالهم وخواطرهم، وهم على قلب يونس U، الغالب عليهم الخشية والزهد في الدنيا والحزن. يقول الشيخ إنّه لقي منهم بإشبيلية أبا عبد الله بن المجاهد وابن قسوم، وفي فاس عبد الله بن السماد (213:II). أمّا ثاني الرجلين فهو من الأولياء الرجبيين الذين لا يزيد ولا ينقص عددهم في كل زمان على 40. وسمّوا رجبيين لأن فتحهم الأكبر يقع لهم في شهر رجب من كل سنة. اسم هذا الرجل الذي لقيه هو الخطاري وكان بائع خضار وجزر ، وكان يشهد في كشفه الروافض سيّئي الاعتقاد في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، على شكل خنازير أو كلاب (8:II/ محاضرات الأبرار جـ1).

بعد دنيصير، توجه الشيخ مع رفاقه نحو تركيا، ونزلوا أخيرا في العاصمة السلجوقية ملطية، حيث استقبلهم الملك كيخسرو بحفاوة ملكية بالغة (268:A)، وهناك استقر مجد الدين إسحاق مرشدا للملك. لكن الشيخ واصل رحلاته، فنجده في قونية عام 602، حيث يكتب (رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار)، وكتاب (الأمر بالمحكم المربوط)، الكتابان في بيان آداب المريد، والمشيخة، ومراحل السلوك، ومعراج السالكين... ويكتب أيضا (كتاب العظمة) في بعض أسرار فاتحة الكتاب، وربّما يكون قد أضاف له بعد ذلك بسنوات جُملا، حيث يذكر فيه الباب 383 من الفتوحات الخاص بالفاتحة،، ولا شك أنّ هذا الباب قد كتبه الشيخ بعد عام 602 بسنين.

وفي قونية في هذا العام 602، اجتمع الشيخ بأحد كبار الشيوخ العارفين، وهو أوحد الدّين الكرماني ابن أحد الأمراء السلاسقة ، أصله من كرمان بإيران. وهو تلميذ الشيخ ركن الدين السيجاسي من طريقة أحمد الغزالي (ت:620) أخي أبي حامد الغزالي، وجال في الشرق الأوسط وتركيا. وزار عدة مرات حلب ودمشق.

وفي أواخر عمره، استقر في بغداد (عام 632)، حيث أكرمه الخليفة المستنصر بالله الثاني، وتوفي بها عام 635، مخلفا تلاميذ ومكتوبات، أشهرها باللغة الفارسية رباعيات في الحب الصوفي؛ وتوطدت العلاقة الروحية بين الشيخين، فكان كل منهما يجلّ الآخر ويكنّ له محبة راسخة. وقد تلاقيا مرات أخرى في مصر و سوريا وتطوّع الكرماني مرة للسفر من دمشق إلى ملطية ليأتي للشيخ بكتب لها تركها هناك. كما استأمنه الشيخ على تربية صدر الدين القونوي، كما سياتي ذكره لاحقا. وقد روى الشيخ في الفتوحات (127:I) حكاية عجيبة شهدها الكرماني ونصّها التالي: [حدثّني أوحد الدّين حامد بن أبي فخر الكرماني وفقه الله، قال: كنت أخدم شيخا وأنا شاب، فمرض الشيخ وكان في مغازة وقد أخذه البطن. فلما وصلنا تكريت، قلت له: يا سيدي، اتركني أطلب لك دواءا ممسكا من صاحب مارستان سنجار من السبيل. فلما رأى احتراقي، قال لي: رح إليه. قال: فرحت إلى صاحب السبيل وهو في خيمته جالس ورجاله بين يديه قائمون، والشمعة بين يديه، وكان لا يعرفني ولا أعرفه. فرآني واقفا بين الجماعة. فقام إليّ وأخذ بيدي وأكرمني، وسألني: ما حاجتك ؟ فذكرت له حال الشيخ؛ فاستحضر الدواء، وأعطاني إيّاه، وخرج معي في خدمتي، والخادم بالشمعة بين يديه. فخفت أن يراه الشيخ فيخرج، فحلفت إليه أن يرجع . فرجع، فجئت الشيخ وأعطيته الدواء، وذكرت له كرامة الأمير صاحب السبيل بي. فتبسم الشيخ وقال لي: يا ولدي، إني أشفقت عليك لما رأيت من احتراقك من أجلين فأذنت لك. فلما مشيت، خفت أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك. فتجردت عن هيكلي هذا، ودخلت في هيكل ذلك الأمير، وقعدت في موضعه؛ فلما جئت، أكرمتك، وفعلت معك ما رأيت، ثم عدت إلى هيكلي هذا، ولا حاجة لي في هذا الدواء وما أستعمله].

وفي قونية، اجتمع الشيخ في إحدى مشاهده بمن يقول عنه (14:II): [ومنهم رضي الله عنه – أي الأولياء رجال الأنفاس الذين هم على قلب داود υ رجل واحد يسمّى بمقامه سقيط الرفرف بن ساقط العرش، رأيته بقونية، آيته من كتاب الله: **والنجم إذا هوى** حاله لا يتعداه، شغله بنفسه وبربه، كبير الشأن عظيم الحال، رؤيته مؤثرة في حال من يراه، فيه انكسار، هكذا شاهدته صاحب انكسار وذل، أعجبني صفته، له لسان في المعارف، شديد الحياء]، يقول عنه أيضا (228:III):

[رأيت بقونية في مشهد من المشاهد شخصا إلهيا يقال له سقيط الرفرف بن ساقط العرش، ورأيت بفاس شخصا يوقد في الأتون ممّن سقط وصحبته وانتفع بنا]. وفي باب آخر (456:II) يشبه حاله في الخشوع بالأبدال السبعة الذين لقيهم عند الكعبة ويقول أنّه كان فارسيا.ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو صاحبه الشيخ أوحد الدين الكرماني، والله أعلم.

ومن قونية، شدّ الشيخ رحاله دائما مع حبشي إلى دمشق، حيث يذكر لقاءه بالمجذوب مسعود الحبشي (ت:602)، الذي وصف حاله (522:II/250:I)، في الباب 45، الذي خصصّه للتعريف بالمجاذيب الإلهيين وأحوالهم فقال: [لتعلم أنّ هؤلاء البهاليل، كبهلول، وسعدون من المتقدّمين، وأبي وهب الفاضل وأمثالهم، منهم المسرور ومنهم المحزون، وهم في ذلك بحسب الوارد الأوّل الذي ذهب بعقولهم. فإنّ كان وارد قهر، قبضهم كيعقوب الكوراني، ممتزجا بين القبض والبسط، والغالب عليه البهت، وإن كان وارد لطف بسطهم، رأيت من هذا الصنف جماعة، كأبي الحجاج الغلبِري، وأبي الحسن علي السلاوي]. وقد عانى الشيخ في بدايته من هذا الجذب فقال: [ولقد ذقت هذا المقام، ومرّ عليّ وقت

أؤدّي فيه صلوات الخمس إماما بالجماعة على ما قيل لي، بإتمام الركوع والسجود وجميع أحوال الصلاة من أفعال وأقوال، وأنا في هذا كله لا علم لي بذلك، لا بالجماعة، ولا بالمحل، ولا بالحال، ولا بشيء من عالم الحسّ لشهود غلب عليّ، غبت فيه عني وعن غيري. وأخبرت أني كنت إذا دخل وقت الصلاة، أقيم الصلاة وأصلي بالناس، فكان حالي كالحركات الواقعة من النائم ولا علم لي بذلك، فعلمت أنّ الله حفظ عليّ وقتي، ولم يجر على لساني ذنب، كما فعل بالشبلي في ولهه. لكنه كان الشبلي يُردّ في أوقات الصلوات على ما روى عنه، فلا أدري هل كان يعقل رده أو كان مثل ما كنت فيه، فإنّ الراوي ما فصّل. فلما قيل للجنيد عنه، قال: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان الذنب. وإلا أني كنت في أوقات في حال غيبتي، أشاهد ذاتي في النور الأعمّ والتجلي الأعظم بالعرش العظيم، يُصلى بها وأنا عري عن الحركة بمعزل عن نفسي، وأشاهدها بين يديه راكعة ساجدة، وأنا أعلم أني أنا ذلك الراكع الساجد، كرؤية النائم واليد في ناصيتي؛ وكنت أتعجب من ذلك وأعلم أنّ ذلك ليس غيري ولا هو أنا. ومن هناك، عرفت المكلف والتكليف، والمكلف اسم فاعل واسم مفعول. فقد أبنت لك حالة المأخوذين عنهم من المجانين الإلهيين إبانة ذائق بشهود حاصل].

ومن هؤلاء المجاذيب الذين لقيهم الشيخ في دمشق علي الكردي (ت:622)، ذكره عند وصفه لأحوالهم في الباب 226(622:II). واستجابة لطلب يوسف الكردي — الذي كان خادما لعلي الكردي — كتب شروحا وتعاليق على كلمات ووصايا سمعها يوسف من شيخه علي، وجمعها الشيخ تحت عنوان: (الأجوبة على المسائل اليوسفية).

وفي دمشق، لقي الشيخ أولياء من رجال الأنفاس (II:13-425)؛ منهم رجال الهيبة والجلال، وهم في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون عن الأربعة، كل واحد منهم على قلب أحد أنبياء العرب الأربعة: محمد وشعيب وصالح وهود عليهم الصلاة والسلام. وينظر إليهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، لكل واحد واحد. وهم الذين يمدّون الأوتاد غالبا آيتهم [الله الذي خلق سبع سموا ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن]أطبق العالم الأعلى على علو مراتبهم. أحدهم يعبد الله من حيث نسبه العماء إليه، والثاني يعبده من حيث نسبة العرش إليه، والثالث من حيث نسبة السماء إليه، والرابع من حيث نسبة الأرض إليه. فاجتمع فيهم عبادة العالم كله. قال عنهم:" لقيتهم بدمشق، فعرفت أنهم هم. وقد كنت رأيتهم بالأندلس، ولكن لم أكن أعلم أنّ لهم هذا المقام".

وفي دمشق في هذه السنة 602 يؤلف الشيخ كتبا مهمة منها: (المقنع في إيضاح السهل الممتنع)، يتكلم فيه عن شراب المعرفة وأصحابه وكيفية شربه. وكتاب (النقباء)، أي الأولياء الذين يُشكلون إحدى الدوائر الست الثابتة للولاية، وهي طبقات الأقطاب والأئمة والأوتاد والأبدال والنقباء والنجباء (II:41). ولفظة النقباء تعني في الاصطلاح الصوفي إمّا الرجال الذين هم على قدم آدم υ وعددهم 300 (II:9/ اصطلاحات الصوفية 4)، وإمّا رجال البروج الذين يصفهم الشيخ بقوله (II:7): [وهم إثنا عشر نقيبا في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الإثني عشر برجا، كل نقيب عالم بخاصية كل برج، وبما أودع الله في مقامه من الأسرار والتاثيرات، وما يعطي للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت (...) واعلم أنّ الله قد جعل بأيدي هؤلاء النقباء علوم الشرائع المنزلة، ولهم استخراج

خبايا النفوس وغوائلها، ومعرفة مكرها وخداعها. وأمّا إبليس، فمكشوف عندهم، يعرفون منه ما لا يعرف من نفسه].

وفي دمشق، ألّف الشيخ أيضا كتاب في أسرار الحروف عنوانه (العقد المنظوم في بعض ما تحويه الحروف من الخواص والعلوم).

سياحات الشيخ في الشرق الأوسط

وفي شوال من هذا العام602، زار الشيخ للمرة الثانية مقام الخليل υ بحبرون حيث يؤلف، في يوم الأربعاء الرابع عشر من هذا الشهر، كتاب (اليقين). ثم سافر من فلسطين إلى القاهرة، حيث التقى مرة أخرى بأحمد الحريري (410:I)؛ وهناك صحبه أحد أخصّ تلاميذه وأحبّهم إليه، وهو إسماعيل بن سودكين بن عبد الله أبو الطاهر شمس الدّين النوري (ت: 646)، الذي ولد عام 579 بالقاهرة، وكان أبوه من مماليك السلكان نور الدين محمود زنكي ثم أعتقه، وكان زاهذا مخالط للصوفية. وتربى ابنه إسماعيل مشتغلا بالعلم وسماع الحديث إلى أن اجتمع بالشيخ محي الدين وبعد ذلك انتقل مع أبيه إلى حلب حيث توفي سنة 646 إثر زيارة للقدس.وقد سمع من الشيخ (روح القدس)، وارتبط به روحيا برابطة كلية لا انفصام لها. وكان الشيخ يخصّه بأسرار المعرفة، وكشف له عن مقامه الختمي وآخى بينه وبين رفيقه بدر الحبشي. وهو الذي طلب من الشيخ كتابة (ذخائر الأعلاق)، لشرح ديوانه (ترجمان الأشواق)، وذلك بحلب عام 611. وكان ابن سودكين يتردّد على شيخه في دمشق قادما من حلب، حيث يسمع عليه بعض كتبه سنتي 617 و618، كما سمعها أيضا قي دمشق في سنوات 633،627،626، (195:A). وقد سمع عن الشيخ شروحا لكتبه ومسائل أخرى، نقل بعضها بأمانة في كتاب (وسائل السائل)،

وشرح كتاب (مشاهد الأسرار) وشرح كتاب (التجليات) الذي نجد فيه قصة تبين نوعية الصلة بين الشيخ وابن سودكين، حيث يقول في شرحه لتجلي (نعت الولي): [... ولقد قال لي إمامي وقدوتي إلى الله تعالى ذات يوم: يا ولدي، رأيت البارحة كأني أعطيتك هذه العمامة التي على راسي، وأصبحت على أن أعطيكها، ثم أحببت أن يكون تأويل ذلك ما يقتضيه باطن الرؤيا وحقيقتها، فتركت إيصالها لك ظاهرا يا ولدي، لهذا السر. فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه التربية وإلى هذا المنع الذي هو عطاء. فانظر إلى مقاصد الأكابر في اللباس، كيف يطلبون اللباس الذاتي الذي يكون حلية للنفس دائما أبدا...].

وفي الباب 296 (II:681–682) المخصوص بسورة **الغاشية**، وخلال إشارته للفظة (كيف)، التي تكررّت في أواخرها أربع مرات، يذكر الشيخ ابن سودكين فيقول ما خلاصته: [وفي هذا المنزل العلم بالكيفيات، والتحقق به إنّما هو ذوق. ولقد نبهني الولد العزيز العارف شمس الدّين إسماعيل بن سودكين النوري على أمر كان عندي محققا من غير الوجه الذي نبها عليه هذا الولد، وهو التجلي في الفعل. فوقتا كنت أنفيه بوجه، ووقتا كنت أثبته بوجه يقتضيه ويطلبه التكليف، إذ لا بد للقدرة الحادثة نسبة تتعلق بما كلفت عمله. فلما كان يوم، فاوضني في هذه المسألة الولد إسماعيل المذكور، فقال لي: وأيّ دليل أقوى على نسبة الفعل إلى العبد وإضافته إليه والتجلي فيه، إذ كان من صفته من كون الحق خلق الإنسان على صورته ؟ فلو جرّد عنه الفعل، لما صحّ أن يكون على صورته، ولما قبل التخلق بالأسماء. فلم يقدر أحد أن يعرف ما دخل عليّ من السرور بهذا التنبيه. فقد يستفيد الأستاذ من التلميذ أشياء من مواهب الحق تعالى، لم يقض الله للأستاذ أن ينالها إلا من هذا التلميذ، فالحمد لله الذي استفدنا من أولادنا مثل ما استفاد شيوخنا منا أمورا

كانت أشكلت عليهم]. الحبّ والإجلال بين الشيخ وإسماعيل يظهر أيضا في شعر الشيخ. فمن ذلك ما ذكره في ديوانه (ص: 90) أنّه رأى في المنام إسماعيل ليلة الاثنين 18 جمادى الأولى سنة 626 بظاهر دمشق، وهو ينشده بيتين ما سمعهما قبل ذلك وهما:

الخفيف

أنا في العالم الذي أراكم كمسيح النصارى بين اليهود
فإذا ما رأيتكم نُصب عيني أنا والله في جنان الخلود

وفي أبيات أخر يخاطب الشيخ ابن سودكين قائلا:

الوافر

جزاك الله خيرا من ولي عليم بالخفيّ وبالجليّ
رعاك الله من شخص تعالى عن الأمثال بالنعت العليّ
صدوق الوعد أنزله كتابا فإسماعيل ذو الخُلُق الرّضي

يشير في البيت الخير إلى قول الله تعالى عن إسماعيل υ: [وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا (54)وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا] مريم. لكن مسألة التجلي في الفعل التي تفاوضا فيها، بيّن الشيخ موقفه النهائي منها، بعد معاينة وقعت له بدمشق خمس سنوات قبل وفاته، ذكرها في الباب 121 (204:II) فقال:

[هذه المسألة كانت عندي من أصعب المسائل، وما فتح لي فيها بما هو الأمر عليه على القطع الذي لا أشك علما سوى ليلة تقييدي لهذا الباب في هذه المجلدة، وهي ليلة السبت السادس من رجب الفرد سنة 633، فإنّه لم يكن تتخلص لي إضافة خلق الأعمال لأحد الجانبين، ويعسر عندي الفصل بين الكسب الذي يقول به قوم، وبين الخلق الذي يقول به قوم، فأوقفني الحق بكشف بصري على خلقه المخلوق الأوّل الذي لم يتقدمه مخلوق، إذ لم يكن إلا الله، وقال لي: هل هنا أمر يورث التلبيس و الحيرة ؟ قلت: لا. قال لي: هكذا جميع ما تراه من المحدثات، ما لأحد فيه أثر ولا شيء من الخلق، فأنا الذي أخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب، فتتكونّ عن أمري. خلقتُ النفخَ في عيسى، وخلقت التكوين في الطائر. قلت له: فنفسك إذا خاطبتَ في قولك افعل ولا تفعل. قال لي: إذ طالعتك في أمر، فألزم الأدب، فإنّ الحضرة لا تحتمل المحاققة. قلت له: وهذا عين ما كنّا فيه، ومن يحاقق ومن يتأدّب وأنت خالق الأدب والمحاققة، فإنْ خلقتَ المحاققة، فلا بد من حكمها، وإن، وإن خلقتَ الأدب فلا بدّ من حكمه. قال: هو ذلك، فاستمع إذا قرئ القرآن وأنصت. قلت: ذلك لك، اخلق السمع حتى أسمع، واخلق الإنصات حتى أنصت، وما يخاطبك الآن سوى ما خلقت. فقال لي: ما أخلق إلا ما علمتُ، وما علمتُ إلا ما هو معلوم عليه، فلله الحجة البالغة. وقد أعلمتك هذا فيما سلف فالزمه مشاهدة، فليس سواه ترح خاطرك. ولا تأمن حتى ينقطع التكليف، ولا ينقطع حتى تجوز على الصراط، فحينئذ تكون العبادة من الناس ذاتية، ليست على أمر ونهي يقتضيه وجوب، أو ندب، أو حظر، أو كراهة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل].

قلت، وهذا الموقف هو موقف أهل السنة القائلين بأن لا فاعل إلا الله، وهو وحده الفاعل عند الأسباب لا بالأسباب، والآيات في هذا الموضوع صريحة:
[هل من خالق غير الله] الآية 3: غافر ، [والله خلقكم وما تعلمون] الآية 76: الصافات، [وإليه يرجع الأمر كله] الآية 122:هود.

وفي هذا العام 603، ألّف الشيخ كتاب (منزل المنازل الفهوانية)، الذي أعطى فيه لسور القرآن أسماء تتعلق بأخصّ علوم تلك السور، وصنف فيه السور إلى 19 صنفا حسب فواتحها، ذاكرا أحوال الأولياء المتحققين بها. وهذا كتاب مطابق للباب 22 من الفتوحات.
وفي هذا العام 603، كتب أجوبته المختصرة الأولى على أسئلة الحكيم الترمذي، والتي فصّلها بعد ذلك تفصيلا كاملا في الباب 73 من الفتوحات.
وفي سنة 604، يعود الشيخ إلى الحج، فيجتمع مرة أخرى في الحرم المكي بالمحدّث إمام مقام إبراهيم مكين الدّين أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني (II:376-407) تجاه الركن اليماني الذي فيه الحجر الأسود، فيروي عنه مثلا قول النبي ρ عن المبشرات، وأنها رؤيا المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة. وهناك أيضا، يرى الشيخ في مبشرة رسول الله ρ وهو يقول: [يا مالكي هذا – أو يا ساكني هذا – البيتين مروا من يطوف به أن يصلي عقيب طوافه ركعتين في أيّ وقت كان، فإنّ الله يخلق من صلاته مَلكا يعظم الله – أو يسبّحه الشك مني – إلى يوم القيامة].

وما بين سنتي 605 و608، نفتقد تفاصيل تنقلات الشيخ، فالمراجع لا تذكر سوى وجوده بحلب سنة 606، حيث يسمع جماعة عنه كتابه (التجليات)وفي حلب التقى الشيخ بابن خالص الذي قال عنه المؤرخ ابن العديم (ت:660) في "بغية الطلب في

تاريخ حلب": [أن ابن خالص بن عبد الله الاشبيلي ثم الشقري، قدم حلب وصحب بها محمد بن علي ابن العربي، وتوجّه منها صحبته إلى بلد الروم، وكان شاعرا مُجيدا. ثم نجد الشيخ ببغداد في رمضان من عام 608. ذكر ذلك في الباب 231 في المكر، حيث يقول (530:II):

[ولقد رأيت واقعة وأنا ببغداد سنة 608، قد فتحت أبواب السماء ونزلت خزائن المكر الإلهي مثل المطر العام؛ وسمعت ملكا يقول: ماذا نزل الليلة من المكر ؟ فاستيقظت مرعوبا، ونظرت في السلامة من ذلك، فلم أجدها إلا في العلم بالميزان المشروع .فمن أراد الله به خيرا وعصمه من غوائل المكر، فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله، وهذه حالة المعصوم والمحفوظ. فأمّا إرداف النعم مع المخالفة، فهو موجود اليوم في كثير في المنتمين إلى طريق الله، وعاينت من الممكور بهم خلقا كثيرا لا يحصي عددهم إلا الله وهو أمر عام، وأمّا إبقاء الحال مع سوء الأدب، فهو في أصحاب الهمم،وهم قليلون، على أنا رأينا منهم جماعة بالمغرب وبهذه البلاد (...) نعوذ بالله من الخذلان].

وقد ذكر المؤرخ الدبيثي في كتابه (المختصر) لقاءه بالشيخ في بغداد في هذا العام 608.كما التقى بالمؤرخ ابن النجار تلميذ ابن الدبيثي. وقد قدم الشيخ إلى بغداد مع ركب الحجاج، وقيل أنّه اجتمع فيها، أو في الحج، مع الصوفي الكبير الشهير شهاب الدّين السُّهروردي (ت:632)، مؤلف (عوارف المعارف)، ومستشار الخليفة العباسي الناصر، الذي تعاون معه في تأسيس نظام الفتوة (A: 284-285).وذكر الإمام عبد الله بن سعد اليافعي اليمني (ت:768) في (مرآة الجنان) أنّ الشيخ اجتمع بالسهروردي، فقال: فأطرق كل منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام. فقيل للشيخ: ما تقول في السهروردي ؟ مملوء سنة من فرقه إلى قدمه. وقيل

للسهروردي: ما تقول في محي الدّين ؟ فقال: بحر الحقائق. لكن الشيخ لم يذكر لقاءه هذا، وإنّما ذكر لقاءه بأصحاب السهروردي حيث يقول (609:I):

[فالمشاهدة والكلام لا يجتمعان في غير التجلي البروخي، وهو كان مقام شهاب الدّين عمر السهروردي، الذي مات ببغداد رحمه الله. فإنّه روى لي عنه من أثق بنقله من أصحابه، أنّه قال باجتماع الرؤية والكلام. فمن هنا، علمت أنّ مشهده برزخي لا بدّ من ذلك (...) فإذا كلّمه لم يشهده، وهذا المقام الموسوي ذقته في الموضع الذي ذاقه موسىυ غير أنيّ ذقته في بلّة في الرمل على قدر الكف، وذاقه موسى في حاجته وهي طلبه النار لأهله، ففرحت حيث كان ماء].

وعاد الشيخ إلى ذكر السهروردي في الباب 550 (192:IV) فقاال: [فليس التفاضل أو الفضل في التجلي، وإنّما التفاضل والفضل فيما يعطي هذا المتجلي له من الاستعداد. وعين حصول التجلي عين حصول العلم، لا يعقل بينهما بون (...) وأمّا التجلي الذي يكون معه البقاء والعقل و الالتذاذ والخطاب والقبول، فذلك التجلي الصوري. ومن لم ير غيره، ربّما حكم على التجلي بذلك مطلقا من غير تقييد. والذي ذاق الأمرين فرق ولا بدّ. وبلغني عن الشيخ المسنّ شهاب الدين السهروردي ابن أخي أبي النجيب أنّه يقول بالجمع بين الشهود والكلام، فعلمت مقامه وذوقه عند ذلك. فما أدري هل ارتقى بعد ذلك أم لا. وعلمنا أنّه في مرتبة التخيل، وهو المقام العام الساري في العموم...]. [والظن بالشيخ جميل، فلا بد أنّه يريد التجلي الصوري (213:III)].

وفي بغداد، اجتمع الشيخ أيضا بأصحاب للشيخ عبد القادر الجيلاني (ت:561)، خصوصا عمر البزاز (ت:608) وأبي البدر التماشكي، اللذين رويا له أخبارا عن شيخهما وخليفته أبي مسعود بن الشبل (I:187-201-233-248-522-558-588-

-627-624-392-370-369-368-308-286-223-201-131-130 -90-80-49-19-14:II
.(560:III/637

ومن بغداد، ذهب الشيخ للحج. ويبدو أن زوجته وابنته زينب الرضيعة التحقتا به في مكة مع الركب الشامي. وبعد الحج، يبدو أنّ الشيخ عاد إلى الأناضول والشام (A:269–285)؛ فنجده يتراسل مع الملك كيكاوس سنة 609، الذي خلف أباه كيخسرو في ملطية (547:IV). كما نجده سنة 610 في جبل الفتح ؛ يذكر في كتابه (أوراد الأسبوع) عند ذكره لورد يوم الثلاثاء: [ظهر لي شيخان مهيبان في خلوة في جبل الفتح سنة 610 فقال أحدهما إرو عني إلى كل صادق وإلى كل مريد فائق " رب أدخلني في بحر أحديتك" وقال الآخر: أنقل عني إلى كل من تسبب " رب أكرمني بشهود أنوار قدسك"]؛ لكننا لا نعرف بالضبط أين يقع جبل الفتح هذا، فعديدة هي الجبال التي تسمّى بهذا الاسم. ثم يذهب للعمرة، فيقيم بمكة للمرة الثالثة في رجب وشعبان ورمضان سنة 611، حيث يكتب ديوانه (ترجمان الأشواق). ويعود إلى حلب، فيكتب شرحه ذخائر الأعلاق. ثم يصعد إلى آسيا الصغرى، فيزور حران وقيصرية (15:II). ونجده في سيواس في بداية رمضان من عام 612، فيرى رؤيا تبشّر بانتصار كيكاوس على المسيحين في أنطاكية، ويكاتبه الشيخ ليبشره بها قبل وقوعها. وفي ملطية في عام 613، اجتمع الشيخ بإمام مسجد الصخرة بالقدس، إسماعيل بن محمد بن يوسف الأباذي (ت:656)؛ فسمع عن الشيخ كتابه (تاج الرسائل) وسمع عنه عام 615(روح القدس).

ومكث الشيخ في ملطية مرشدا لكيكاوس ومربيا لجماعة من المريدين، يسمعون عليه كتبه وشروحها نحو ست سنوات، توفي في آخرها رفيقه الوفي الحبشي، ووُلد له فيها ابنه محمد سعد الدّين عام 618. كما تزوّج فيها، حسب بعض المصادر، أمّ صدر الدين القونوي زوجة مجد الدين إسحاق الرومي الذي توفي حوالي عام 615.

وخلال هذه السنوات الست، كان الشيخ يسافر أحيانا من ملطية، فنجده في حلب سنتي 617 و 618 مع مجموعة من مريديه، كما نجده في قونية حيث تجلى له منزل سورة القمر، التي خصصّ لها الباب 330 (IV:110-115)، وشدة الجلال غالبة في آياتها، حيث تكررت فيها الآيات: [فكيف كان عذابي و نذري] والآية [فذوقوا عذابي ونذري] [يوم نحس مستمر] [ذوقوا مسّ سقر] ...الخ وفي أواخرها، ذكر للقدر والقضاء المحتوم الحاكم على الخلائق: إنّا كل شيء خلقناه بقدر وكل كبير وصغير مستطر... وتجلي هذه الآيات في ذات الشيخ جعله يقول: [هذا المنزل أشهدنيه بقونية في ليلة لم يمرّ عليّ أشد منها لنفوذ الحكم وقوته وسلطانه، فحمدت الله على قصوره عليّ في تلك الليلة، ولم يكن حكم تأييد، وإنّما كان حكم وقوع مقدّر. فلما رددت عليّ وقد سقط في يدّي وعلمت ما أنزل الله عليّ،وما قدّره الحق لديّ، وفرقت بين قضائه وقدره في الأشياء، وكتبت به إلى أخ في الله، كان لي رحمه الله، أعرفّه بما جرى، كما جرت العادة بين الإخوان، إذ كان كتابه قد ورد عليّ يطلبني بشرح أحوالي. فصادف ورود هذا الحال]. ثم أورد الشيخ نصّ كتابه لأخيه الذي سمّاه بشهاب الدّين، افتتحه بقصيدة تحتوي على 32 بيتا ثم قال:

[وإنّ وليك لما أراد النهوض في طريقه و النهوض إلى ما كان عليه في تحقيقه، اعترضت لوليّه عقبة كؤود حالت بينه وبين الشهود والبلوغ إلى المقصود، والتحقق بحقائق الوجود، فخفت أن تكون عقبة القضا لما سيفه من المضا، فرأيتها صعبة المرتقى، حائلة بيني وبين ما أريد من اللقاء؛ فوقفت دونها في ليلة لا طلوع لفجرها، ولا أعرف ما في طيها من أمرها. فطلبت حبل الاعتصام والتمسك بالعروة الوثقى، عروة الإسلام، فنوديت أن الزم الطلب ما بقيت. فعلمت أنّي معني بهذا الخطاب

في صورة مثالية متجلية في حضرة خيالية، وأنّ علاقة تدبير الهيكل ما انقطع، وخاطبت وليّي في نظمي ببعض ما وجدت، فإذا نظر وليّي إليها، فليعوّل عليها وليحذر من الأمن من مكر الله، فإنّه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فاسمع هديت إلى ما به على لساني نوديت].

ثم أورد الشيخ قصيدة بديعة في 73 بيتا، قافيتها حرف الرّاء، أي الحرف الأخير من آيات سورة القمر، وأنهى كلامه على هذه الواقعة بقوله عن المرسل إليه: [فسّر بورود كتابي عليه، وأمعن النظر فيه وإليه، فأورثه التفكر فيه علّة كانت سبب رحلته وسرعة نقلته، فما بقي إلا أياما ودرج، وعلى أسنى معراج إلى مقصوده عرج، وشهدت احتضاره بالدار البيضاء، إلى أن قضى، وسافرت من يومي لاستعجال قومي]. فكأنّ الشيخ يلوّح أن صاحبه رحل إلى التحقق بآخر سورة القمر:[♦✓✹☞☼✈ ❼ ♦✓✹☞☼✈ ❼ 54 ❷ ❼ ❶❶ ❶❶ ❶❶

أنها حجلة في صورتها وألوان ريشها. فتعجب الحاضرون من حسن صنعته. فقال لي: ما تقول في هذه الصورة ؟ فقلت له: هي على غاية التمام، إلا أن فيها عيبا خفيا، وكان قد ذكره للحاضرين فيما بينه وبينهم. فقال لي: وما هو، هذه أوزانها صحيحة ؟! قلت له: في رجليها من الطول عن موازنة الصورة قدر عرض شعيرة. فقام وقبل رأسي وقال: بالقصد فعلت ذلك لأجريك. فصدقه الحاضرون وقالوا إنه ذكر ذلك لهم، قبل أن يوقفني عليها. فتعجبت من وقوع البازي عليه وطلبه إياها].

عند زواج الشيخ بأرملة مجد الدين، تكفّل بتربية ابنها الصبي محمد صدر الدين المولود على الراجح عام 607 (270:A). فحمله الشيخ معه لما غادر الأناضول، ونزل إلى الشام ومصر عام 619. وفي مصر، اجتمع الشيخ بأوحد الدين الكرماني، فكلّفه بالتكفل بصدر الدين لمدة معينة (271:A)، وأوصاه به خيرا. فقام الكرماني بالمهمة أحسن قيام، وربّى صدر الدّين حسيّا وروحيا، ورافقه في الحجاز ، ثم في شيراز نحو عامين، وبقي صدر الدين معترفا بذلك، حتى أنّه أوصى أن تفرش سجادة الكرماني في قبره ليُدفن فوقها. ولما استقرّ الشيخ نهائيا في دمشق، التحق به صدر الدين، وبقي في خدمته وصحبته. وكان أقرب مريديه إليه، إلى أن توفي الشيخ، فكان هو وريثه الأكبر مع إسماعيل بن سودكين، حيث أنّهما واصلا وظيفته في إمامة الطريق، ونشر كتب الشيخ خصوصا الفتوحات، وشرح كتبه الأخرى. وكل سلاسل الطريقة الأكبرية تنتهي عند القونوي. وكان القونوي على صلة وثيقة مع كبار شيوخ عصره، خصوصا جلال الدين الرومي (ت:672)، حيث كانا يقطنان معا في قونية يتزاوران ويتذاكران، وكل منها يجلّ الآخر. ولما توفي جلال الدين، كان قد أوصى أن يصلي عليه صدر الدّين، فصلّى عليه. ثم توفي

بعده في نفس السنة. وقد تتلمذ عليه علماء أعلام مثل قطب الدين الشيرازي الذي هو من أشهر شراح الفلسفة الإشرافية التي ظهر بها شهاب الدين السهروردي (ت:587)، ومثل الشاعر الصوفي الشهير فخر الدين الحمداني العراقي مؤلف (اللمعات) بالفارسية. ويعتبر القونوي أهم حلقة تدفقت عبرها المفاهيم والمصطلحات الصوفية الأكبرية إلى الثقافة الأعجمية في تركيا وإيران وأفغانستان والهند والصين.

وكان القونوي أيضا على صلة مع اثنين من كبار تلاميذ نجم الدّين كبرى (ت:618)، وهما سعد الدّين بن حمويه (ت: 650)، الذي لقيه بحلب، ونجم الدين الرازي، الذي لقيه بقونية، واجتمع في مصر بالإمام أبي الحسن علي الشاذلي (ت:656). وكانت مراسلات بينه وبين الفيلسوف نصير الدين الطوسي (ت: 672). وخلّف القونوي كتبا نفيسة، هي امتداد وشروح لكتب الشيخ منها: (مفتاح الغيب)، و(الفكوك على الفصوص)، و(النفحات الإلهية)، و(إعجاز البيان في تأويل أمّ القرآن)، و(شرح صوفي لأحاديث نبوية)... ويكفي في بيان المودة التي كان يكنّها الشيخ لصدر الدّين، أنّه أهدى إليه كتابته الثانية للفتوحات، كما خصّه بالتلقين الخاص المباشر للفصوص (A:332). وقد ورث عنه تأثيره الروحي المربّي، فانتفع به العديد من السالكين الخاصة والعامة، كان منهم الشاعر الممتاز العارف المحقق عفيف الدين التلمساني (ت: 690) منذ صغره، وانجذب عفيف الدين إلى سلوك طريق أهل الله، وتمكّن في العلوم الشرعية واللغوية، وسافر من نواحي تلمسان إلى المشرق طلبا للمعرفة. وفي الأناضول، التقى بصدر الدين، فصحبه وعرفّه صدر الدّين بالشيخ، فجاء به إليه في دمشق عام 634، كما عرّفه – بعد وفاة الشيخ – بعبد الحق بن سبعين في مصر، وهو قادم من المغرب، قاصدا

الحج حوالي سنة 650. ولزم عفيف الدين صحبة ابن سبعين وأصبح صهره (303:A)، وخلف مخلفات من النَفَس العالي و الذوق الرفيع، منها (شرح لفصوص الحكم)، (وشرح لمواقف النفري)، و(شرح لمنازل السائرين للهروي)، وديوان مشهور. وهو والد الشاعر الرقيق المعروف بالشاب الظريف (ت:688)، واسمه شمس الدّين محمد، ووُلد بمصر سنة 661 هـ وله ديوان معروف.

استقرار الشيخ في دمشق

يقول الشيخ في باب الوصايا من الفتوحات (500:IV):

[عليك بكثرة السجود والجماعة. وإن قدرت أن تسكن الشام، فإن رسول الله ρ ثبت عنه أنّه قال:" عليكم بالشام، فإنّها خيرة الله من أرضه، وإليها يجتبي خيرته من عباده "].

طبّق الشيخ هذا الحديث لما باغ عمره 60 سنة، فاستقرّ في دمشق إلى آخر حياته مدة 18 سنة بدءا من عام 620. وتردّد خلالها على حلب، حيث كان له منزل هناك يجتمع فيه مع المريدين والعلماء ذكر منهم الضرير إبراهيم بن سليمان، وهو من دير الرمان من أعمال الخابور، والمحدثيْن شمس الدين محمد بن برقش المعظمي، وبرهان الدين إسماعيل بن محمد الأيدني (40:III).

ومن فقهاء حلب الذين صحبوا الشيخ اثنان مشهوران، أوّلهما كمال الدين بن العديم (ت: 660)، الذي كتب تاريخ حلب، وتولّى فيها القضاء، ثم الوزارة للملك العزيز (ت: 634) وللملك الناصر (ت: 658)، وهو الذي كلفه الشيخ بقراءة (ذخائر الأعلاق) شرح ديوانه (ترجمان الأشواق) على فقهاء حلب، لما أنكر بعضهم معاني غزليات الديوان. وثانيهما نجم الدين محمد بن شاني الموصلي (ت:

631)، الذي ذكره الشيخ في الفتوحات عند ذكره لحال العظمة (III:225/IV:83-241) فقال (IV:83):

[... فكما لا يسع العالم الحق لا يسع العالم أيضا هذا العبد. فهذا سبب شهود ضيق العالم عنه. وما رأيت من تحقق بهذا المقام وشهوده، إلا رجلا بالموصل من أهل حديثه الموصل، كان بهذه المثابة، وأطلعه الحق على أمره، ولم يطلعه على سره فيه. وكان يطلب على من يوضح له حاله، فذكرني له الإمام نجم الدين محمد بن أبي بكر بن شاني الموصلي، المدرس بمدرسة سيف الدين بن علم الدين بحلب في هذا الزمان الذي نحن فيه وهو سنة 628، فطلب الاجتماع بنا. فلما وصل، ذكر نازلته فأوضحتُها له، فسري عنه واستبشر، وخرج لي بحاله لما رآني فهمته. فوجدته قد أخذ من مقام العظمة بحظ وافر (...) ورأيت آخر مثله بإشبيلية].

ومن علماء حلب الذين ذكرهم الشيخ (II:416)، قاضيها الكبير بهاء الدين بن شدّاد (ت:633)،وخليفته القاضي زين الدّين عبد الله بن الشيخ بن عبد الرحمن، المعروف بابن الأستاذ (ت:636)، ذكرهما عند روايته لرؤيا عجيبة تدلّ على تحققه الذوقي بتوحيد الاختيار من الآية: **[وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون]** الأية 70 من القصص. وفي هذه الرؤيا، كانت معه زوجته مريم، التي قال عنها إنّ لها في هذا التوحيد أوفر حظ وأعظم نصيب.

وفي حلب أيضا، تجلّى للشيخ منزل سورة الإخلاص في الدين أي سورة الزّمر التي تكررت فيها مشتقات كلمة الإخلاص كالآية **[ألا لله الدّين الخالص]** خصصّ لها الباب 345 (III:181) الذي يفتتحه قائلا:

البسيط

[لكل شخص من القرآن سورته وسورتي من كتاب الله تنزيل
أتى بها الملأ العلوي يقدمه عند التنزل ميكال وجبريل

(...)

تجلت لنا هذه الصور بمدينة حلب، وقيل لي لما رأيتها: هذه سورة لم يطمثها إنس ولا جان. فرأيت لها ومنها ميلا عظيما إلى جانبي، وقد مُثلت لي في شبه هذا المنزل الذي كنت دخلته قبل ذلك. ثم قيل لي: هي خالصة لك دون المومنين. فلما قيل لي ذلك، فهمت الإشارة، وعلمت أنّها ذاتي، وعين صورتي لا غيري، فإنّه ما لموجود شيء مخلص له ليس لغيره، قديمه وحديثه، إلا ذاته خاصة. فقلت: ها أنا ذا. فعلمت عند ذلك معنى التخليص، وعلمت ما تلي عليّ فيما أنزل عليّ من القرآن عند التلاوة، وذلك أنّه لما نزل الإلهام بتلاوة سورة الإخلاص، رزقت عين الفهم في تسميتها بهذا الاسم دون غيرها من السور، فإنّها كلها نسب الله وصفته].

عندما استقر الشيخ في دمشق كان حاكمها الملك المعظم شرف الدين حتى سنة 624، حيث انتقل الحكم إلى الناصر صلاح الدين داود لمدّة سنتين، وتولى بعده الأشرف الأول مظفر الدين حتى سنة 634، ثم توالى عدد من الملوك ولم يستقر الملك طويلا لأحد منهم. وكان وقت الشيخ في دمشق مقسّما على العبادة، ومجالسة تلاميذه، يربيّهم ويسمعون عليه كتبه، وحضور دروس بعض العلماء خصوصا رجال الحديث، والتأليف، وزيارة بعض الصالحين الأموات والأحياء، وكتابة رسائل لأصحابه وأجوبة عن مسائلهم. وكان الشيخ مستقرا مع أهله في بيت عائلة بني زكي، التي أنجبت كبار قضاة دمشق مدة أجيال، حيث أنّ سبعة منهم تولوا هذا المنصب بين القرنين السادس والسابع الهجري. وكانت هذه العائلة

معروفة بحبّها و نصرتها لشيوخ الطريق والصوفية. ومن رجالها الذي اتصلوا بالشيخ، القاضي زكي الدين طاهر بن زكي (ت:617)، عرف الشيخ قبل استقراره بدمشق وأخيه محيي الدين بن زكي (ت:668)(300:A)، الذي توفي الشيخ في منزله، وغسّله بإعانة شخصين آخرين. وكان منزل الشيخ بقرب المدرسة الرواحية، حذو باب الفراديس شمال دمشق. وبعده الشيخ بنحو 6 قرون، سكن منزله أحد أحفاده الروحيين، وأوّل من طبع الفتوحات، الأمير عبد القادر الجزائري (ت:1300).

ومن العلماء الذين اجتمع الشيخ بهم في دمشق، قضاة المالكية من بني زواوي، الذين قدمت أسرهم الأولى من بجاية، وقيل إنّ الشيخ تزوّج إحدى بناتهم. واجتمع أيضا بالقاضي المحدّث عبد الصمد الحارستاني (ت:614)، فسمع منه صحيح مسلم بمسجد الأمويين، وأجازه إجازة عامة. وأمّا قاضي القضاة شمس الدين الخوي (ت:637)، فقيل عنه إنّه كان يخدم الشيخ خدمة العبيد (295:A)، وقد ذكره الشيخ في الباب 381 المتعلق بسورة آل عمران (508:III)، خلال كلامه على تأويل المرائي المنامية فيقول عن الخيال:[فيريك الإسلام قبّة والقرآن سمنا وعسلا،والقيد ثباتا في الدين، والدين قميصا سابغا وقصيرا درعا ومجولا، ونقيا ودنسا، على حسب ما يكون الرائي أو من يرى له عليه منن الدين. ولقد رأيت لقاضي دمشق عندما وُلي القضاء بدمشق وهو شمس الدين أحمد بن مهذب الدين خليل الخوي، وفقه الله وسدده بملائكته، وعصمه في أحكامه،وقائل يقول في النوم: إنّ الله قد خلع عليك ثوبا نقيا سابغا، فلا تدنّسه ولا تقلصه. واستيقظت وذكرتها له، فالله يجعله ممّن حفظ الوصية الإلهية]. ومن فقهاء دمشق الذين تعرفوا على الشيخ، الفقيه يوسف الكردي، الذي ذكره الشيخ خلال تأكيده على سنية ركعتين قبل صلاة المغرب، فيقول (492:I):[ما رأيت في زماننا من يحافظ عليهما من

الفقهاء، إلا صاحبنا زين الدين يوسف بن إبراهيم الشافعي الكردي، وفقه الله لذلك. وفي هاتين الركعتين قبل صلاة المغرب من الأجر ما لا يعلمه إلاّ الله...].

و منهم أيضا ابن اللهيب الذي ذكره خلال تأكيده على استحباب أن لا ينفصل شعر أو ظفر من الجسد إلا على وضوء، فيقول (IV:445-446): [ولقد دخلت يوما الحمام لغسل طرأ عليّ سحرا، فلقيت فيه نجم الدين أبا المعالي بن اللهيب وكان صاحبي، فاستدعى بالحلاق يحلق رأسه، فصحتُ به: يا أبا المعالي ! فقال لي من فوره قبل أن أتكلم: " إني على طهارة قد فهمت عنك". فتعجبت من حضوره وسرعة فهمه ومراعاته المواطن وقرائن الأحوال، وما يعرفه مني في ذلك، فقلت له: بارك الله فيك، والله ما صحت بك إلا لتكون على طهارة وذكر عند مفارقة شعرك، فدعا لي ثم حلق رأسه].

وهذه القصة تبين كيف كان الشيخ يربّي أصحابه الالتزام بدقائق الآداب الشرعية.

وفي دمشق وحلب، توسعت دائرة تلاميذ الشيخ وخواص أصحابه. فإذا كان عدد من حضر سماع كتبه في فترة سياحاته المشرقية بين عامي 600 و 617 نحو الخمسين، فعددهم في فترة استقراره بسوريا بلغ أزيد من 150، منهم أربعة عشر رجلا كانوا كثيري الملازمة للشيخ، بحيث نجد أسماءهم معا في نحو الثلاثين سماعا، منها واحد في حلب عام 617، والباقي في دمشق عام 633 (A:305-306)، وهم: ابن الشيخ محمد عماد الدين(ت:667)، ورفيق الشيخ الأوّل ابن سودكين، وعبد العزيز الجبّاب، وحسين بن محمد الموصلي، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأنصاري القرطبي (ذكره الشيخ في الفتوحات (II:637)، وعيسى ابن إسحاق الهذباني، ومحمد بن أحمد الميورقي، ويعقوب بن معاذ الوربي، ويونس بن عثمان

الدمشقي، وعاشرهم نصر الله بن أبي العز الشيباني بن الصفّار، الذي حبّس منزله لتدريس الحديث الشريف. والحادي عشر إبراهيم بن عمر القرشي، أحد عدول دمشق ومن أبرز وأحسن خطاطيها، وأمه بنت كبير قضاتها من بني زكي محيي الدين محمد بن علي (ت:599). والثاني عشر علي بن مظفر النشبي (ت:565)، كان من علماء الحديث ومعينا للقاضي صدر الدين البكري في وظيفة الحسبة. والثالث عشر النحوي اللغوي حسين الإربيلي، الذي هاجر من بلده إربيل إلى دمشق. والرابع عشر محمد بن سعد الدين المعظمي صهر الشيخ، وكان قد سمع عنه بملطية عام 615 كتاب (روح القدس)، وبحلب عام 617 و 618 بعض كتبه الأخرى، وبقية سماعات تزيد على 35 سماعا في دمشق، منها نحو 27 سماعا للفتوحات. وقد ذكر الشيخ صهره هذا في كتابه (نتائج الأذكار)، خلال كلامه على ذكر [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] (2) فقال:

[... ولهذا، يكون الحمد لله على من أطلعه الله على سرّ القدر المتحكم في الخلائق، إذا قال به. فإن علم ذلك ولم يقل به، لم يلزمه حجة. وما رأيت هذا المقام لأحد من عباد الله تعالى من أتباع الرسل ذوقا إلا لنا خاصة. ورأيت صهري شمس الدين محمد بن برنقيش يحاذي مقامه هذا المقام ذوقا، ليس بينه وبينه واسطة. ولم أر ذلك لغيره من أتباع الرسل في المتقدم والمتأخر. هكذا شهدته ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة 631. فأخبرته بالعلامات التي أعرفها لصاحب هذا المقام المجاور للمقام الذي ذكرناه ذوقا، فوجدناه كما شهدناه

والعلامة فيه محققة، ففرحت له بذلك، وعلمت أنّ الله تعالى ينقل عبده من حال إلى حال أعلى، لا ينقله إلى أدنى جودا منه وفضلا].

ومن العلماء أصحاب الشيخ في دمشق المذكورة أسماؤهم في العديد من سماعات كتب الشيخ، أيوب بن بدر بن منصور المقري، الذي نسخ عدة كتب للشيخ، ورفيقه إبراهيم بن أحمد القرطبي، وأبو بكر بن محمد البلخي، والواعظ الشهير بدمشق حينذاك أبو بكر بن سليمان الحموي (ت:649)، وابناه أحمد (ت:687) وعبد الواحد (ت:658)، الذي خلف أباه في الوعظ بالمساجد، وابنه محمد بن عبد الواحد. ومنهم أيضا محمد بن يوسف البرزعلي (ت: 636) الذي تولّى الإمامة وتدريس الحديث في دمشق وابنه أحمد. ومنهم أيضا الإخوة الثلاثة أبناء الصَّائغ: عماد الدين (ت:674)، المدّرس بالمدرسة العذورية والمدرسة الخضيرية، وعلاء الدين محمد (ت: 682)، المدرّس بالمدرسة الفتحية، وعز الدين محمد. ومنهم أيضا محمود ابن عبد الله الزنجاني (ت:675)، إمام المدرسة التقوية واحد تلاميذ السهروردي البغدادي، وأحمد بن محمد التكريتي، الذي تولى الخطابة بدمشق خلال خلافة الملك الناصر يوسف (648–658). ومنهم أيضا موسى بن يحي بن محمد القرشي ابن القاضي ابن زكي، ويوسف ابن درباس الحميدي (ت: 690)، ابن أخي ابن سودكين.

ومن كل ما سبق، يتبيّن أنّ أصحاب الشيخ وتلاميذه كانوا من خيرة علماء الشام المحترمين عند الخاص العام.

ومن صالحي دمشق الذين اجتمعوا بالشيخ، يحيي المراكشي الذي ذكره في القصّة التالية (I:267): [... عندنا بدمشق رجل من أهل الفضل والأدب والدين يقال

له يحيي بن الأخفس من أهل مراكش، كان أبوه يدرس العربية بها، فكتب إليّ يوما من منزله بدمشق وأنا بها يقول لي في كتابه: يا وليّ، رأيت رسول الله ρ البارحة بجامع دمشق، وقد نزل بمقصورة الخطابة إلى جانب خزانة المصحف المنسوب إلى عثمان τ، والناس يهرعون إليه ويدخلون عليه يبايعونه. فبقيت واقفا حتى خف الناس، فدخلت عليه وأخذت يده فقال لي: هل تعرف محمدا ؟ قلت له: يا رسول الله، من محمد ؟ فقال ابن العربي. قال: قلت له: نعم أعرفه. فقال له رسول الله ρ: إنا قد أمرناه بأمر، فقل له: يقول لك رسول الله انهض لما أمرت به واصحبه أنت، فإنك تنتفع بصحبته، وقل له: يقول لك رسول الله: امتدح الأنصار ولْيُعَيِّن منهم سعد بن عبادة ولابد. ثم استدعى بحسان بن ثابت، فقال له رسول الله ρ: يا حسان، حفظه بيتا يُوصِلهُ إلى محمد بن العربي، يبني عليه وينسج على منواله في العروض والروي. فقال حسان: يا يحيي خذ إليك، وأنشدني بيتا وهو:

الكامل

شغف السهاد بمقلتي ومزاري فعلى الدموع معوّلي ومشاري

وما زال يردّده عليّ حتى حفظته، ثم قال لي رسول الله ρ: إذا مدح الأنصار، فاكتبه بخط بيّن، واحمله ليلة الخميس إلى تربة هذا الذي تسمونها قبر الست، فستجد عندها شخصا اسمه حامد، فادفع إليه المديح. فلما أخبرني بذلك هذا الرائي وفقه الله، عملت القصيدة من وقتي من غير فكرة ولا روية ولا تثبط، ودفعت القصيدة إليه. فكتب إليّ أنّه لما جاء قبر الست، وصل إليه بعد العشاء الآخرة، قال: فرأيت رجلا عند القبر، فقال لي ابتداء: أنت يحيي الذي جاء من عند فلان وسمّاني. قال، قلت له: نعم. قال: فأين القصيد الذي مدح به الأنصار عن أمر

رسـول الله ρ ؟ فقلـت: هـو ذا عنـدي. فناولتـه إياه، فقـرب مـن الشـمعة ليقـرأ القصيد، فلم أره يخبر بذلك الخط. فقلت له: تأمرني أنشدك إياها ؟ قال: نعم، فأنشدته إياها. وهذا نصّ القصيدة:

قال ابن ثابت الذي فخرت به فقر الكلام ونشأة الأشعار
شغف السهاد بمقلتي ومزاري فعلى الدموع معوّلي ومشاري

وكانت أمّي تنسب إلى الأنصار فقلت:

فلذا جعلت روية الراء التي هي من حروف الردّ والتكرار
فأقول مبتدئا لطاعة أحمد في مدح قوم سادة أبرار
إني امرؤ من جملة الأنصار فإذا مدحتهمو مدحت نجاري

وذكر القصيدة بأبياتها السبعة عشرة.

ويبدو أنّ الشيخ كان أيضا على صلة مع سلطان العلماء الشيخ عز الدّين بن عبد السلام. فقد روى الذّهبي عن شيخه ابن تيمية قوله: [قال لي الشيخ تاج الدّين عبد الرحمن بن إبراهيم الفزازي: كان الشيخ عز الدّين بن عبد السلام شيخنا يرسلني أستعير له المحلى والمجلى (كتابان لابن حزم الأول متن والآخر شرح) من ابن عربي]. (من كتاب المغني لابن قدامة وشرحه – ج1 ص V– دار الكتاب العربي ببيروت 1983–1403).

ومن صالحي دمشق الذين لقيهم الشيخ من وصفه بقوله (IV: 194):

[أخبرني سليمان الدنبلي، وكان عبدا صالحا فيما أحسب، كثير البكاء، وكان له أنس بالله. فقعدت معه بمقصورة الدولعي بزاوية عائشة بجامع دمشق، وجرى بيني

وبينه كلام، فقال لي: يا أخي، لي والله أكثر من خمسين سنة ما حدثتني نفسي بمعصية قط، لله الحمد على ذلك].

وقد حصلت للشيخ في دمشق الكثير من المشاهد والمرائي والمبشرات؛ منها رؤياه لرسول الله ρ وهو يبيّن له أنّ الملأ الأعلى من الملائكة خير من ملإ أفاضل البشر، رآها ليلة الأربعاء 20 ربيع الأوّل عام 624 (المبشرات / 527:I). وفي مبشرة أخرى ليلة 9 جمادى الأولى 629، يرى مبشرة مفادها أن له ألفا من أولاد الروح. وقبلها في 20 ربيع الأول من عام 628، شاهد الحق تعالى يوصيه، فقال عن ذلك (485:IV): [وصية أوصيت بها في مبشرة أريتها، سمعتها من كلام الله تعالى بلا واسطة، في البقعة المباركة التي كلّم فيها موسى υ من بلة على قدر الكف، كلاما لا يكيف ولا يشبه كلام مخلوق، عين الكلام هو عين الفهم من السامع، فممّا فهمت منه:"كن سماء وحي وأرض ينبوع، وجبل تسكين، فإذا تحركت، فلتكن حركة إحياء وسكينة بتحريك عن وحي السماوي"]. وفي رؤيا أخرى يقول عنها الشيخ (المبشرات): [رأيت في النوم كأنّ الله يناديني ويقول لي: يا عبدي، إن أردت أن تكون عندي مقربا مكرما منعما فأكثر من قول: " ربّ أرني أنظر إليك". كرر ذلك عليّ مرات]. وفي مبشرة أخرى يقول (264:II): [ولقد رأيته سبحانه وتعالى في النوم فقال لي: وكلني في أمورك، فوكّلته، فما رأيت إلا عصمة محضة لله الحمد على ذلك، جعلنا الله تعالى من الفقراء إليه به، فإنّ الفقر إليه تعالى هو عين الغنى، لأنّه الغني وأنت به فقير، فأنت الغني به عن العالمين].

وقال أيضا (دي: 261): [رأيت ليلة الجمعة 27 صفر سنة 631 في النوم، كأنّي واقف على قبر دائر وورقه في جدار، كأن للقبر فيها مكتوب على لسان صاحب القبر بكتابة إلهية، بيتان من قصيدة كنت أحفظها لبعظهم وهما:

مجزوء الخفيف

حاسبونا فدققوا قيّدونا فأوثقوا

نظروا في صنيعنا ثم منّوا فأعتقوا

والناس وقوف على القبر يبكون بكاء فرح بالله، لما منّ به على صاحب ذلك القبر، فكنت أقول: لو قال هذا الشاعر مثل ما وقع لي الآن:

مجزوء الخفيف

حاسبونا ما دققوا قيّدونا ما أوثقوا

نظروا في ذنوبنا ثم منّوا فأطلقوا

إنّ ظني وخاطري في إلهي محقق

إنّ من مات محسنا ليس بالنار يُحرق

فاستيقظت فما فرحت بشيء فرحي بهذه المبشرة].

وبعد هذه الرؤيا بشهرين، أي في ليلة الاثنين 28 ربيع الآخر عام 631، رأى الشيخ الحق في النوم وهو ينهاه عن مجالسة ثلاثة: المطاطين والسقاطين. قال: [وأنسيت الثالثة. فكنت أقول له: يا ربّ، وما المطاطون ؟ فقال: الذين يمدّون العالم إلى غير نهاية في الابتداء، وإنّي ابتدأت العالم بالخلق. قلت: و ما السقاطون ؟ فقال: الذين يأتون بسقط الكلام ليضحكوا به الناس وهي من سخط الله، فإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظنّ أن تبلغ به ما بلغت، فيهوي بها في النار سبعين خريفا...] (دي:301).

وفي مبشرة أخرى (دي:361)، يرى الحق تعالى وقد أعطاه كتابه بيمينه، ورآه من الوجه الآخر الذي يعرف الحق، ومن الوجه الذي لا يعلم، فرآه من الاسم الظاهر والباطن معا في صورتين مختلفتين.

ومن ألطف الوقائع التي شهدها الشيخ وهو يكتب في الفصل السابع والعشرين، المتعلق بسماء الدنيا وكوكبه القمر،

من الباب 198 من الفتوحات، المبشرة التي يصفها بقوله (449:III):

[وفي ليلة تقييدي لهذا الفصل، وهي الليلة الرابعة من شهر ربيع الآخر سنة 627، الموافقة ليلة الأربعاء، الذي هو الموفي عشرين شباط، رأيت في الواقعة ظاهر الهوية الإلهية وباطنها شهودا محققا، رأيتها قبل ذلك في مشهد من مشاهدنا، فحصل لي من مشاهدة ذلك من العلم واللذة والابتهاج ما لا يعرفه إلا من ذاقه. فما كان أحسنها من واقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة (...) فما رأيت ولا علمت ولا تخيلت ولا خطر على قلبي صورة ما رأيت في هذه الهوية (...)].

وخلال كتابة الشيخ لهذا الباب 198، المبيّن لمختلف مظاهر ومراتب نَفَسِ الرحمن، كان يكتب أيضا أهمّ كتاب خلفه بعد الفتوحات، وهو (فصوص الحكم). وقد بينّا في كتاب لنا عنوانه : (المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم)، العلاقة الأصلية الخفية بين هذا الكتاب – أي فصوص الحكم – وذلك الباب 198 من الفتوحات، حيث أنّ ترتيب أبواب الفصوص السبعة والعشرين مطابق لمراتب الوجود السبعة والعشرين، كما فصّلها في ذلك الباب. وفي مقدّمه الفصوص يبيّن الشيخ سبب كتابته له فيقول:

[فإنّي رأيت رسول الله ρ في مُبشرة أريتها في العشر الأواخر من محرم سنة 627 بمحروسة دمشق، وبيده ρ كتاب، فقال لي: هذا (كتاب فصوص الحكم) ، خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به فقلت: السمع و الطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منا كما أمرنا. فحققتُ الأمنية، وأخلصتُ النية، وجردتُ القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب، كما حدّه لي رسول الله ρ، من غير زيادة ولا نقصان. وسألت الله تعالى أن يجعلني فيه وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وأن يخصني في جميع ما يرقمه بناني وينطق به لساني وينطوي عليه جناني بالإلقاء السّيوحي، والنفث الروحي، في الروع النفسي، بالتأييد الاعتصامي، حتى أكون مترجما لا متحكما، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس المنزّه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس. وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائي، قد أجاب ندائي. فما ألقي إلا ما يلقي إليّ، ولا أنزل في هذا من المسطور إلا ما ينزل به عليّ، ولست بنبيّ رسول، ولكني وارث، ولآخرتي حارث (...)، ومن الله أرجو أن أكون ممّن أيّد فتأيّد، وقُيِّد بالشرع المحمدي فتقيّد، وحشرنا في زمرته كما جعلنا من أمّته].

وقد لقي هذا الكتاب من العناية عند الدارسين ما لم ينله كتاب آخر للشيخ بعد الفتوحات، فعدد الشروح والتعاليق عليه تزيد على المائة، أوّلها لتلميذه ابن سودكين (ت:646)، ثم شرح لتلميذه ووارث سره صدر الدين القونوي (ت:673 وعنوانه: (الفكوك في أسرار مستندات حكم الفصوص)، ويقول في بدايته:

[كتاب فصوص الحكم من أنفس مختصرات تصانيف شيخنا الإمام الأكمل، قدوة الكمّل هادي الأمة، إمام الأئمة، محي الحق والدين، أبي عبد الله محمد بن علي العربي الطائي رحمه الله وأرضاه به منه، وهو من خواتيم منشآته وأواخر

تنزلاته، ورد من منبع المقام المحمدي، و المشرب الذاتي، و الجمع الأحدي، فجاء مشتملا على زبدة ذوق نبينا صلوات الله عليه في العلم بالله، ومشيرا إلى محتد أذواق أكابر الأولياء والأنبياء المذكورين فيه، ومرشدا كل مستبصر نبيه لخلاصة أذواقهم، ونتائج متعلقات هممهم وأشواقهم، وجوامع محصولاتهم وخواتم كمالاتهم، فهو كالطابع على ما تضمّنه مقام كل منهم، والمنبّه على أصل كل ما انطووا عليه وظهر عنهم].

بعد القونوي، ظهرت شروح للفصوص من تلاميذه مدرسته ، وهم فخر الدين العراقي (ت:688) مؤلف (اللمعات)، وسعد الدين الفرغاني (ت:700)، وعفيف الدين التلمساني (ت:690)، ومؤيد الدين الجندي (ت:700)، الذي يذكر في مقدمة شرحه كيفية أخذه الفصوص عن شيخه القونوي، كما تلقنها القونوي عن الشيخ فيقول: [... شرح لي خطبة الكتاب، وقد أظهر وارد الغيب آياته، ونفخ النَّفَس الرحماني بنفحاته، واستغرق ظاهري وباطني روح نسماته، وفوّح نفائس أسمائه وبعثاته، وتصرف بباطنه الكريم تصرّفا عجيبا حاليا في باطني، وأثر تأثيرا كماليا في راحلي وقاطني، فأفهمني الله من ذلك مضمون الكتاب كله في شرح الخطبة، وألهمني مصون مضمون أسراره عند هذه القرية. فلما تحقق τ من ذلك، وأنّ الأمر الإلهي وقع بموقعة من هنالك، ذكر لي أنّه استشرح شيخنا المصنف τ هذا الكتاب، فشرح له في خطبته لباب ما في الباب لأولى الألباب، وأنّه τ تصرف فيه تصرفا غريبا عرف بذلك مضمون الكتاب...]، ويبدو أن التلقين الخاص لكتاب الفصوص مستمر إلى اليوم عند الأكبريين، وقد يحصل للبعض مباشرة من روحانية كاتبه رضي الله عنه.

ثم ظهر شرح أحد تلاميذ الجندي وهو العلامة الكبير عبد الرزاق القاشاني (730)، وشرح تلميذه داوود القيصري (761)، والسمناني (736)، ثم شروح عبد الرحمن جامي (898) وبالي خليفة الصفوي (960)، ثم الشرح الممتاز لعبد الغني النابلسي (1143)، وشرح لأبواب من الفصوص للأمير عبد القادر الجزائري (1300)، وشرح محمد جعفر الشهاب الدمشقي (1300). واعتنى بشرحه أيضا بعض علماء الشيعة مثل حيدر الآملي (توفي في أواخر القرن الثامن) مؤلف (نص النصوص في شرح الفصوص) وأخيرا الإمام الخميني في تعليقاته على الفصوص.

وقد خصّص الشيخ خلال استقراره بدمشق جزءا كبيرا من وقته للتأليف: فأعطى الصيغة النهائية لكتبه ورسائله السابقة، وهي تعدّ بالعشرات، وجمع جل ما تفرق من أشعاره في ديوان ضخم عنوانه (ديوان المعارف)، وما ديوانه الكبير المطبوع اليوم إلا جزء منه. وألّف كتبا أخرى ككتابه القيّم (كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى)، الذي يقول في آخره: [... واقتصرنا فيه على الأسماء التي خرّجها أبو حامد الغزالي رحمه الله في (كتاب المقصد الأسني)، والحمد لله رب العالمين، وذلك بزاوية الإمام أبي حامد بشمالي جامع دمشق في شهر رمضان 621، إسعافا لمن سألنا في ذلك: وهو صاحبنا الفقيه الإمام شرف الدين أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن سليمان الحموي نوّر الله بصيرته...] ومن كتبه الأخرى التي ألفها خلال هذه الفترة، كتاب (ثواب قضاء الحوائج) (625)، والفهرس (627)، الذي كتبه للقونوي وعمره حينئذك 20سنة، وذكر الشيخ فيه 284 عنوانا من مصنفاته، ثم إجازته لملك دمشق الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل (ت:635) (123:A) (أوّل محرم 632)ن الذي عدّد فيه أزيد من 270 عنوانا من مؤلفاته. وفي 29 صفر 629 (ديسمبر 1231)، انتهى من كتابة موسوعته العظمى (الفتوحات

المكية)، ثم أعاد كتابتها ثانية مع بعض التعديلات في الأسلوب، فانتهى منها عام 636 (حول تصانيف الشيخ R.G).

مكان الصورةالمخطوطة

وفي دمشق سنة630 لقي الشيخ محي الدين عالم الجغرافيا العربي أبو عبد الله زكريا بن محمد القزويني (ت : 682 هـ) الذي يقول في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » أنه اجتمع به وحكى له بعض القصص التي حصلت معه . ففي ذكره لإشبيلية يقول القزويني " ينسب إليها الشيخ الفاضل محمد ابن العربي الملقب بمحي الدين ، رأيته بدمشق سنة ثلاثين وستمائة ، وكان شيخا فاضلا أديبا حكيما شاعرا عارفا زاهدا . سمعت أنه يكتب كراريس فيها أشياء عجيبة . سمعت أنه كتب كتابا في خواص قوارع القرآن " . ثم يُضيف : " ومن حكاياته العجيبة ما حكى أنه كان بمدينة إشبيلية نخلة في بعض طرقاتها ، فمالت إلى نحو الطريق حتى سدّت الطريق على المارين ، فتحدث الناس في قطعها حتى زعموا أن يقطعوها من الغد : قال : فرأيت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة في نومي عند النخلة ، وهي تشكوا إليه وتقول يا رسول الله إن القوم يريدون قطعي لأني منعتهم المرور ! فمسح رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، بيده المباركة النخلة فاستقامت ، فلما أصبحت ذهبت إلى النخلة فوجدتها مستقيمة ، فذكرت أمرها للناس فتعجبوا منها ".

وفي السنتين الأخيرتين من عمره، تجرد الشيخ للمزيد من العبادة، ولسان حال باطنه يتلو سورة النصّر التي خصّص لها الباب 274 (586:II) بعنوان منزل الأجل

المسمّى. وكأنّ بعض خاصة أصحابه فهموا عنه إشارته إلى قرب أنتقالهن فلازموا الاجتماع به والنهّل من فيوضاته، ولسان حاله يقول ما نظمه في مكة قبل ثلاثين سنة، إثر مبشرة شاهد فيها نصيبه الأوفر من الإرث الإبراهيمي المحمدي الحنيفي (723:I) وهو:

مجزوء الرجز

قد جاءني خطاب من عند بغيتي
بأن أقول قولا لأهل ملّتي
اغتنموا وجودي من قبل رحلتي

وأكّد هذا المعنى خلال كتابته لمعاني اسمه تعالى " المميت " في أواخر الفتوحات (325:IV) حيث يقول: [وفي تقييدي هذا الباب في هذه المسألة، سمعت منشدا من زاوية البيت لا أرى له شخصا، لكني اسمع الصوت ولا أدري لمن يخاطب بذلك الكلام وهو:

المجتث

أوص فإنّك رائح لمنزل أنت رابح
فيه لأنّك ممّن له قبول النصائح
قد صاح في جانب الدَّا رِ للمنية صائح
وقد دعاك إليه فلا تجب بالنوائح
وقد أتاك رسول منه بخير المنائح
لقاء ربك فيها وفيه كل المصالح

وقد تحقق الشيخ بالموت المعنوي قبل موته الحسّي حسبما ذكر في الباب 351 المتعلق بسورة الأحزاب خلال إشاراته إلى الآية [تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا] (44) فقال ما ملخصه: [الرجوع الاختياري إلى الله يشكر عليه العبد. فارجع إليه مختارا ولا ترجع إليه مضطرا إذ لا بدّ أن تلقاه كاره كنت أو محبّا، فإنه يلقاك بصفتك قال صلى الله عليه وسلم: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».وقيل لنا كشفا:"من استحى من لقاء الله آنسه الله وأزال خجله"؛ ولما ورد عليّ هذا التعريف الإلهي لم يسعني وجود، بل ضاق عني الوجود ممّا امتلأت من هذا الخطاب حيث جعلني محلا لخطابه وأهّلني لما أهّل له أهل خصوصه. وقد علمنا أنّ لقاء الله لا يكون إلاّ بالموت فاستعجلناه في الحياة الدّنيا فمتنا في عين حياتنا عن جميع تصرّفاتنا وحركاتنا وإراداتنا، فلما ظهر الموت علينا في حياتنا التي لا زوال لها عنّا حيث كنّا، لقينا الله فلقينا، فكان لنا حكم من يلقاه محبّا للقائه. فإذا جاء الموت المعلوم في العامة لم يتغيّر علينا حال ولا زدنا يقينا على ما كنّا عليه، فما ذقنا إلاّ الموتة الأولى، وهي التي متناها في الحياة الدنيا، فوقانا ربّنا عذاب الجحيم فصلا من وبك ذلك هو الفوز العظيم. قال علي رضي الله عنه: «لو كشف عني الغطاء ما ازددت يقينا» فمن رجع إلى الله هذا الرجوع سعد، وما أحسّ بالرجوع الاضطراري، وانزله الملك في مقعد صدق عنده].

وفي ليلة الجمعة 22 ربيع الآخر عام 638 (9نوفمبر 1240)، شخصت عيناه لمقعد صدق عند مليك مقتدر، فالتحق بالرفيق الأعلى الذي ما فارقه ولسانه يردّد: الله الله الله، وسرّه باق في رؤية الحق تعالى في الصورة المحمدية بالعين الأحمدية، صلاة دائمة أبدية. وغسّله ثلاثة من أصحابه: جمال الدين بن عبد الخالق، والقاضي ابن زكي والزاهد الناسك المحدّث عماد الدين عبد الله بن حسن

بن النحاس (ت:654). ودفن في تربة بني زكي، وكانت له جنازة حسنة، حسبما وصفها أبو شامة في كتابه (تراجم رجال القرنين السادس والسابع). وقد شهد هو نفسه جنازة الشيخ، ولم يذكر هو ولا غيره من المؤرخين أو تلاميذ الشيخ أنّ الشيخ مات مقتولا بتدبير بعض الفقهاء، كما يزعمه بعض عوامّ الدمشقيين اليوم.

وبعد وفاة الشيخ بنحو 284 سنة، دخل السلطان التركي سليم الأوّل لدمشق بعد استيلاء جيوشه على مصر والشام، فكان من أوّل أوامره بناء مقام واسع على ضَريح الشيخ في ساحة مسجد أسّسه بجواره، وصلّيت فيه أوّل جمعة بحضور السلطان عام 924هـ (5 فبراير 1518).

ومنذ ذلك اليوم، ومقام الشيخ الأكبر مزار لمحبّيه، يتنفّسون فيه عبير أنفاسه المقدسة التي عمّ أريجها المغارب والمشارق، ويذكرون قوله عن رقدة الميت المحبوب المقرّب (I:530):

[فما أعلاها من رقدة، ليتها إلى الأبد، فنسأل الله تعالى لنا ولإخواننا إذا جاء أجلنا أن يكون المصلي علينا عبدا يكون الحق سمعه وبصره ولسانه، لنا ولإخواننا ولأولادنا وآبائنا وأهالينا ومعارفنا وجميع المسلمين من الجن والإنس آمين بعزته وكرمه].

أثر الشيخ

أثر الشيخ في ميدان المعارف الصوفية لا يضاهيه اثر صوفي آخر في العالم الإسلامي. ويمكن تلخيص هذا الأثر في محاور ثلاثة:

♦ المحور الأول: سلاسل طريقته الأكبرية – أو الحاتمية – الخاصة، التي بقيت محصورة في أوساط ضيّقة بالنسبة لكُبرى الطرق الأخرى. وذلك أنّ المنخرط فيها

ينبغي أن يكون على مستوى رفيع من حيث الالتزام الشرعي، والأدب الخلقي، والاستعداد للإدراك العرفاني العالي. وحول سلاسلها، يمكن الرجوع إلى المراجع التالية:

- (رسالة في الطرق الصوفية) لأبي علي حسن العجمي أتمها عام: 1073، وتشتمل على أربعين طريقة منها الحاتمية. واختصرها أبو سالم العياشي (ت:1090)، في رحلته " ماء الموائد "، وذكر فيها أن شيخه صفي الدين أحمد القشاشي المدني (ت: 1071) تلقن عن الشيخ الأكبر كتابه الفصوص في إحدى مرآئيه له. ثم اختصرها بعده أبو عبد الله محمد بن المدني كَنون الفاسي.

- (ثبت إيقاظ القوابل) لعالم المدينة البرهان إبراهيم الكوراني، ذكر فيه سنده في كتب الشيخ، وفرغ منه عام 1077.

- (رسالة في الطريقة) الحاتمية، ورسالة (النور المظهر في طريقة سيدي الشيخ الأكبر)، لأحمد بن سليمان الأروادي الشافعي، المتوفى في طرابلس الشام في حدود 1275. وهو من أكبر خلفاء الشيخ خالد النقشبندي، دفين دمشق. وقد تلقى الحاتمية على الشيخ على جكشي البولاقي بمصر.

- كتاب (عقد الجوهر الثمين) وكتاب (إتحاف الأصفياء) للشيخ مرتضى الزبيدي (ت: 1205) ذكر فيها سنده في الحاتمية.

- كتاب (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين) لمحمد بن السنوسي (ت:1276).

- كتاب (جامع الأصول) للشيخ أحمد بن مصطفى بن عبد الرحمن الكمشخانوي (ت:1311) الذي أخذ الأكبرية عن أحمد بن سليمان الأروادي المذكور سابقا، وخلفه بعده الشيخ جوده إبراهيم المصري (ت:1344)، وقام بالطريقة بعده نجله عيسى جوده.

- كتاب (فهرس الفهارس) للشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، ذكر فيه أسانيده في كتب ومرويات الشيخ الأكبر عند ترجمته له في باب الحاء تحت رقم:133.

- كتاب عثمان يحيي "Histoire et classification de l' oeuvre d' Ibn Arabi "، ذكر في أواخره بعض أسانيد روايات كتب الشيخ وطريقته، ونقل سلسلة المشابكة من كتاب (صلة الخلف) للروداني، وهي تبدأ من مؤلفه وتنتهي بابن عربي.

- (الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن العربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده) الفصل الثاني عشر بعنوان " الطريقة الأكبرية" للشيخ أبي الوفاء التفتازاني.

♦ المحور الثاني: وهو أوسع بكثير من الأوّل، وهو انتشار كتب الشيخ في جلّ الأوساط الصوفية، في كل أنحاء العالم، وعلى رأسها (الفتوحات) و(الفصوص). فهي أهم المراجع للثقافة الصوفية، لأنّها جمعت خلاصة كل ما كتبه سابقوه، وزاد عليهم الكثير كيفا وكمّا. وكل المؤلفين في التصوف الذين جاءوا بعده لم يزيدوا عليه مسائل ذات أهمية كبيرة. وحتى كتب الشيخ عبد الكريم الجيلي رغم أصالتها وعمقها، وكتب غيره من أقطاب التصوف المتأخرين، لها مرجعيات مباشرة أو غير مباشرة، تصريحا أو تلويحا، في كتب الشيخ الأكبر. فتعاليمه مبثوثة في كتب الطرق الكبرى بفروعها الكثيرة، خصوصا الشاذلية، والخلوتية، والنقشبندية، والتجانية، والقادرية، والإدريسية... والملاحظ في هذا القرن، الاهتمام الجاد المتزايد للمثقفين من مسلمين وغيرهم في الغرب والشرق بالشيخ الأكبر وكتبه، لما يجدون فيها من وسع المعرفة، وشمولية الرحمة والحب، وعالمية المفاهيم، مع أصالتها الكاملة في القرآن والسنة المحمدية.

♦ المحور الثالث: وهو الأهمّ، وهو اثر الشيخ السلوكي التربوي العرفاني. فلروحانية الشيخ الأكبر حضور وإمداد في طرق التربية والترقية عبر الأجيال إلى اليوم: خصوصا مع ذوي الاستعداد والتوجه العالي. وقد صرّح بذلك بعض شيوخها، لنذكر منهم على سبيل المثال:

– العارفة ست العجم بنت النفيس (ت بعد:684)، شارحُهُ كتاب الشيخ (مشاهد الأسرار)، وذكرت في بدايته حوارها مع الشيخ الأكبر أمام ملإ من الأنبياء في مشاهدة لها...

– العلامة المحدث أبا عبد الله محمد الصغير بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت: 1134)، الذي ذكر في كتابه (المنح البادية في الأسانيد العالية) أنّه أخذ عن روحانية الشيخ الأكبر.

– شيخ الطريقتين القادرية والنقشبندية، العلامة الشهير عبد الغني النابلسي (ت: 1143)، كما يظهر من كتبه الكثيرة المشحونة بالحقائق الأكبرية، وكان من أكبر المدافعين عن الشيخ الأكبر في وقته.

– شيخ الخلوتية بمصر محمود الكردي (ت: 1195)، في رسالة له، ذكر أنّ سبب تأليفه لها أنّه رأى الشيخ محيي الدين يُعطيه مفتاحا، ويقول له: افتح الخزانة. فاستيقظ وعي تدور على لسانه: ذكر هذه الواقعة النبهاني في كتابه (جامع كرامات الأولياء) في ترجمته له. ومحمود الكردي هو شيخ أحمد التجاني، مؤسّس الطريقة التجانية (ت:1230). وقد أخذ الكردي الطريق عن المحدث الكبير محمد بن سالم الحفناوي الأزهري (ت:1181)، الذي كان من كبار خلفاء الشيخ الشهير، محيي الطريقة الخلوتية مصطفى البكري (ت: 1162)، الذي يعتبر من أعظم حلقات الإشعاع الأكبري، وله عشرات التآليف المشحونة بالمعارف الأكبرية التي درس

كتبها على الشيخ عبد الغني النابلسي. ومن خلفائه في المشرب الأكبري، تلميذه الشيخ الشهير محمد بن عبد الكريم السمان (ت: 1189)، الذي انتشرت طريقته في السودان واليمن والشام وغيرها من بلاد الشرق. ومن خلفاء الحفناوي أيضا، الشيخ امحمد بن عبد الرحمن الجرجري الجزائري (ت:1208)، ناشر الطريقة الرحمانية الخلوتية في الجزائر وتونس.

- الأمير عبد القادر الجزائري (ت: 1300)، الدرقاوي الشاذلي طريقة وسلوكا، والمتعمق في التحقق بالمعارف الأكبرية ذوقا، كما يظهر في كتابه (المواقف)، وقد ذكر فيه مشاهده الروحية مع الشيخ (خصوصا الموقف رقم 372)، وهو أول من طبع الفتوحات المكية.

- الشيخ إبراهيم العطار الدمشقي، الذي ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي (ت:911) في رسالته " تنبيه الغبي بتبرئة ابن العربي"، وكذلك في ثبت له مطبوع بالشام (أتمه عام 1320)، روايته الفتوحات عن والده محمود العطار، وصبيحة ختمها أخبره أنّه رأى الشيخ محيي الدين في العالم الروحاني، وأذنه في روايتها عنه " من فهرس الفهارس" للكتاني رقم:62.

وقد ذكر الشيخ إحدى وقائعه الكاشفة عن وظيفته الروحية في التربة حتى خارج دائرة أصحابه المباشرين، فقال (431:III): [وفي ليلة تقييدي هذا الوجه...(أي كلامه عن العرش والكرسي، في الفصل الثاني من الباب 371، المتعلق بسورة الرعد)، أراني الحق في واقعتي رجلا ربع القامة فيه شقرة، فقعد بين يدي وهو ساكت، فقال لي الحق: هذا عبد من عبادنا أفِدْه ليكون هذا في ميزانك. فقلت له: من هو؟ فقال لي: هذا أبو العباس بن جودي من ساكني البشرّات، وأنا إذا

ذاك في دمشق. فقلت له: يا رب، وكيف يستفيد مني، وأين أنا منه ؟ فقال لي: قل فإنّه يستفيد منك، فكما أريتك إياه أريته إياك، فهو الآن كما تراه فخاطبه يسمع منك، ويقول هو مثل ما تقول أنت. يقول أُرِيتُ رجلا بالشام يقال له محمد بن العربي وسماني، أفادني أمراً لم يكن عندي فهو أستاذي. فقلت له: يا أبا العباس، ما الأمر؟ قال: كنت أجتهد في الطلب وأنصب وأبذل جهدي، فلما كشف لي، علمت أني مطلوب، فاسترحت من ذلك الكدّ. فقلت له: يا أخي، من كان خيرا منك وأوصل بالحق وأتم في الشهود وأكشف للأمر قيل له:[**وقل ربّ زدني علما**] فأين الراحة في دار التكليف ؟! ما فهمت ما قيل لك ! قولك علمت أني مطلوب، ولم تدر بماذا نعم، أنت مطلوب بما كنت عليه من الاجتهاد والجد. وما هذه الدار دار راحة. فإذا فرغت من أمر أنت فيه، فانصب في أمر يأتيك في كل نفَس. فأين الفراغ؟ فشكرني على ما ذكرته به. فانظر عناية الله بنا وبه].

ويقول أيضا (80:IV): [ولقد رأيت من فتح الله عليه بصحبتي، واستفاد أحوالا وعلوما وخرق عوائد، أعطاه الله ذلك من حسن معاملته مع الله. وأخبرني أنه ما استفاد شيئا مما هو عليه إلا مني، وأنا لا علم لي بذلك، إنمّا أدعو إلى الله والله يعلم من يجيب].

مواقف الناس من الشيخ

تضاربت مواقف الناس من الشيخ. وقد ذكر عثمان يحيي في بداية كتابه حول تصانيف الشيخ عددا كبيرا من فتاوي العلماء المنكرين عليه و المدافعين عنه. وقد لخّص الشيخ أحمد زروق (ت:899) – وهو أحد أعلام شيوخ الشاذلية – في كتابه (قواعد التصوف) – القاعدة 85 – هذه المواقف فقال: [وسئل شيخنا أبو عبد

الله القوري وأنا أسمع، فقيل له: ما تقول قي ابن عربي ؟ فقال: أعرف بكل فن من أهل كل فن. قيل له: ما سألناك عن هذا؟ قال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية. قيل له: فما ترجح ؟ قال: التسليم. قلت: لأنّ في التكفير خطرا، وتعظيمه ربّما عاد على صاحبه بالضرر من جهة اتباع السامع مبهماته وموهماته والله أعلم].

وقد ذكر الشيخ أن ختم الولاية المحمدية – يعني نفسه – : " قد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سرّه من العلم به" (49:II). ولكنه ذكر أيضا في إحدى مبشراته أنّ عدد أبنائه الروحيين – أي خلفائه – قد يبلغ الألف (كتاب المبشرات).

وبالفعل، ما من زمن إلا ونجد فيه عشاقا للشيخ يقابلهم منكرون. وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني (ت:973) في بداية كتابه (اليواقيت والجواهر)، جماعة من أكابر العلماء الذين كانوا يعظمون الشيخ، ويحضّون على قراءة كتبه. منهم – على سبيل المثال – المحدث الكبير، الفقيه الأصولي، اللغوي الشهير، مجد الدين أبو طاهر الفيروزأبادي (ت:817) الذي قال:

[والذي أقوله وأتحققه وأدين الله تعالى به أنّ الشيخ محي الدين كان شيخ الطريقة حالا وعلما، وإمام التحقيق حقيقة ورسما، ومحي علوم العارفين فعلا واسما، وإذا تغلغل فكر المرء في طرف من مجده، غرقت فيه خواطره ، لأنّه بحر لا تكّدره الدلاء، وسحاب لا يتقاصى عنه الأنواء، كانت دعواته تخرق السبع الطباق، وتغترف بركاته فتملأ الآفاق، وهو يقينا فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظني ما أنصفته:

البسيط

وما عليّ إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظن الجهل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن أقامه حجة للدين برهانا
إنّ الذي قلت بعضّ من مناقبه ما زدت إلا لعلي زدت نقصانا

قال: وأما كتبه τ، فهي البحار الزواخر التي ما وضع الواضعون مثلها. ومن خصائصها، ما واظب أحد على مطالعتها إلا وتصدر لحل المشكلات في الدين ومعضلات مسائله، وهذا الشأن لا يوجد في كتب غيره أبدا].

ويقول الأستاذ عبد القادر أحمد عطاء في مقدمته لكتاب الشيخ الذي عنوانه (العبادلة)، المنشور عام 1389هـ، ما خلاصته:

[أثار جمع من متأخري الحنابلة، الثائرات، حول كلمات مجازية للشيخ الأكبر، فطعنوا عليه. وانبرى كثير من العلماء للدفاع عنه، دفاعا قائما على أصول الشريعة السمحة، فأقاموا الحق في نصابه، ومنهم:

1 – الشيخ جلال الدين السيوطي في كتابه (براءة ابن العربي من طعن الغبي)

2 – الشيخ صلاح الدين العشاقي في كتابه (مفتاح الوجود الأشهر، في توجيه كلام الشيخ الأكبر).

3 – الشيخ عمر أفندي في كتابه: (الفتح المبين في رد اعتراض المعترضين على محي الدين).

4 – ملا كاتب جلبي في كتابه (ميزان الحق في اختيار الأحق).

5 –الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه(اليواقيت والجواهر، في عقائد الأكابر)، وكتابه: (تنبيه الأغبياء على قطرة من بحار علوم الأولياء).

6 – الشيخ صاوي عبد الله أفندي شارح المثنوي في كتابه: (مرآة الأصفياء).

7 – الشيخ مجد الدين الفيروزأبادي صاحب القاموس في كتابه (الاغتباط).

8 – الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه (الفتاوي الحديثية)، وفي كتابه: (الانتصار لأئمة الأمصار)، وفي جوابه عن سؤال رفعه إليه تلميذه شمس الدين السخاوي عن الشيخ الأكبر، قال: [وأما حضرة الشيخ، فهو البحر الموّاج الذي لا ساحل له، ولا يُسمع لموجه غطيط، بل كلامه صهباء في لجة عمياء، الحاتمي لا نعت يضبطه، ولا مقام ولا حال يعيّنه، فمن قال إن له نعتا، فليس له علم به].

9 – الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه: (الرد المتين، على منتقص العارف محيي الدين).

10 – الولي محمد بن محمد في رسالته: (إثبات خاتم الأولياء).

11- جوكس زادة توفيق أفندي في كتابه: (اللوائح القدسية)،

12 – الشيخ ملا عبد الرحمن الجامي مؤلف: (نفحات الأنس) وشارح الفصوص؛ ذكر فصلا مستقلا في علو مكانة الشيخ الأكبر. وكذلك جل شرّاح الفصوص الذين يزيد عددهم على .150

13 – الشيخ إسماعيل حقي، مؤلف تفسير (روح البيان)، في كتابه (الخطاب).

14 – ما ذكره المقري في (النفح الطيب)، واليافعي في (مرآة الجنان)، وغيرهم من عشرات أعلام العلماء وأئمة الدين الذين ترجموا للشيخ، أو أصدروا فتاوي تتعلق به، كقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، في شرح كتاب (الروض): [و الحق أن طائفة ابن عربي كلهم أخيار، وكلامهم جار على اصطلاحهم كسائر الصوفية،وهو

حقيقة عندهم في مرادهم ، وإن افتقر عند غيرهم إلى التأويل... فاعتقادهم بمعناه اعتقاد بمعنى صحيح. وقد نص على ولاية ابن عربي جماعة عارفون علماء بالله].

وهناك أئمة عارضوه بادئ الرأي، ثم كانوا منصفين، فرجعوا، وأنزلوه منزلته الرفيعة التي يستحقها، مثل سراج الدين البلقيني، وعز الدين بن عبد السلام، وتقي الدين السبكي، الذي قال: [كان الشيخ محيي الدّين آية من آيات الله، وإن الفضل في زمانه، رمى بمقاليده إليه].

ونختم بقول أحد كبار العلماء الدعاة المعاصرين ومن أعلام الفكر الإسلامي المعاصر. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (باطن الإثم) وهو:

[خذوا يا هؤلاء من ابن العربي وصاياه، واتركوا له فتوحاته. واقرؤوا من كتبه (روح القدس في محاسبة النفس)، الكتاب الذي يكشف عن عيوب المسلمين و ما يختبئ خلف مظاهرهم الطنّانة الرنانة من النقائص والأمراض الخطيرة، ومظاهر الرياء و السمعة، وحب الدنيا، وحب الرئاسة، ودعوا له أحواله وشطحاته، وما لا تفهمون من أقواله. حتى إذا ذابت من نفوسكم غوائل الدنيا وأمراضها، فلم تعودوا تتدثرون بعصبية باطلة، ولم يعد من فرق عندكم بين الدنيا إذا أقبلت أو أدبرت، وبين من يكيل لكم عبارات المديح، ومن يرميكم بسهام القدح والتجريح، حان لكم حينئذ أن تدخلوا في هذا الباب الثاني، وأن ترتعوا في هذا الميدان الخطير].

وأما موقف جلّ أولياء الله وشيوخ الطريق، فقد عبرّ عنه أحدهم وهو إمام الطريقة الخلوتية الشيخ مصطفى البكري (ت:1162) القائل:

الكامل

[بالحاتمي الخاتمي كنز الغنى ياربّ أوصل حبلنا بحباله

بدر لدى جوّ السماء مكمّل وسواه في التحقيق مثل هلاله]

والله أعلم.

ونختم هذا الفصل بمبشرتين ذكرهما الشيخ في كتاب المبشرات:

الأولى: [رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامت، وقد ماج الناس، فسمعت قراءة القرآن في عليين. فقلت: من هؤلاء الذين يقرؤون القرآن في مثل هذا الوقت ولا خوف عليهم ؟ فقيل لي: هم حملة القرآن. فقلت: وأنا منهم ؟ فأدلي لي سلم، فرقيت به إلى غرفة في عليين، فيها كبار وصغار، يقرؤون على رسول الله إبراهيم الخليل υ. فقعدت بين يديه، وافتتحت أقرأ القرآن آمنا، لا أعرف خوفا ولا هولا ولا حسابا، ولا أدري ما هم الناس فيه من الكرب في الحشر. قال النبي ρ: " أهل القرآن هم أهل الله وخاصته". وقال تعالى: [وهم في الغرفا آمنون] .

و المبشرة الثانية خلاصتها أنّ الله تعالى أشهده أنّه سيُشفِّعه في كل من أدركه بصره يوم القيامة، فيسوقهم معه إلى الجنة. وقد ذكر هذا أيضا في الفتوحات (I:616-617)، خلال كلامه على الحلم والرحمة التي في قلوب الأولياء، فيقول: [من فتوة أهل هذا الطريق ومعرفتهم بالنفوس أنهم إذا كانوا يوم القيامة، وظهر ما لهم من الجاه عند الله، خاف منهم من آذاهم هنا في الدنيا. فأوّل ما يشفعون به يوم القيامة فيمن آذاهم قبل المؤاخذة. وهذا نصّ أبي يزيد البسطامي وهو مذهبنا. فإنّ الذين أحسنوا إليهم يكفيهم عين إحسانهم، فهم بإحسانهم شفعاء أنفسهم عند الله بما قدّموا من خير في حق هذا الولي (...) فيسأل الله تعالى أن يغفر ويعفو عمن سمع بذكره فسبّه أو ذمّه أو أثنى عليه خيرا. وهذا ذقته من نفسي، وأعطانيه ربي بحمد الله، ووعدني بالشفاعة يوم القيامة فيمن أدركه بصري، ممّن أعرف ومن لا أعرف، وعيّن لي هذا المشهد حتى عاينته ذوقا صحيحا لا شك فيه].

واسأل الله عز وجل أن يدخل كل من قرأ هذا الكتاب في هذه النظرة المحمدية، التي تسوق إلى الجنة : [وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة]، حيث سماع

خطاب الحق: [سلام قولا من رب رحيم] [وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر].

جدول خلاصة لأبرز

حوادث تاريخية	حوادث سيرة الشيخ	الموقع	عمر الشيخ التاريخ
- بداية حصار جيوش الموحدين لمرسية بعد انهزام جيش حاكمها ابن مردنيش. حصار يدوم 7 سنوات	- مولد الشيخ ليلة الاثنين بضعة أشهر قبل وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد عام 561	مرسية (الأندلس)	0 17 رمضان 1165/560
- موت ابن مردنيش	- يبدأ الصبي محمد في تعلم		

المحاصر بمرسية ودخول مرسية تحت حكم الموحدين و في القاهرة صلاح الدين الأيوبي يلغي الخلافة الفاطمية.	القرآن ومبادىء اللغة العربية ويلهو مع أبناء الأمراء وقادة الجيش.	مرسية	7 1171/567
– استقرار الحكم لأبي يعقوب يوسف الذي يحقق أعمالا عمرانية كبرى بإشبيلية	– والد الشيخ مع أسرته يستقر في إشبيلية ويعمل مسؤولا في الجيش الموحدي ومقربا من ديوان الخليفة أبي يعقوب يوسف.	إشبيلية	8 1172/568
صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر سنة 570 ثم يحكم دمشق	– الصبي محيي الدين يمرض ويشرف على الموت ثم فجأة يشفى عند قراءة والده عليه سورة يس. وذلك خلال سنوات حفظه للقرآن وتعلمه العربية ومبادىء الفقه.	إشبيلية	12 1176/572

	– فجأة في المسجد، يقع للشيخ جذب رباني يزجّ به في خلوة بمقبرة في إشبيلية يتم له فيها الفتح الكبير	إشبيلية	14 1178/574
– بداية خلافة الخليفة العباسي الناصر.	– اجتماعه بابن رشد الذي يعجب من فتح الشيخ الصبي، ويحاوره في مسالة المعاد الجسماني.	قرطبة	15 1180/575
	– الشيخ يتجرد لتعلم قراءات		19-15 579-575

	القرآن وعلومه، مع التخصّص في علـــوم الحـــديث النبـــوي الشريف	إشبيلية وقرطبة	1184-1180
– بداية خلافة يعقوب أبي يوسف المنصور إثر وفاة والده. وكان عالما محدّثا حمل الناس على مذهب الظاهرية .	– الشيخ يدخل طريق السلوك بعد فترة قصيرة وهنت خلالها فتوحاته، فيبدأ صحبة الشيوخ، أولهـم أبـو العبـاس العـربي. ويتجـرد الشـيخ نهائيـا للطريـق والعلـم، ويلتقـى أول مـرة مـع الخضر υ	إشبيلية	22-20 1184/580 1186/582
صلاح الدين يسترجع القدس من الصليبين.	– الشـيخ يواصـل رياضـاته الروحيـــة في الخلـــوات و السـياحات وصـحبة الشـيوخ والأوليـاء ويواصـل طلبـه لعلـوم الحديث والفقه والقرآن.	الأندلس	23 1187/583

– الحـــرب الصـــليبية الثالثة. – بربروس يستولي على قونية – الموحـــدون يوقّعـــون هدنة مع المسيحين – مقتـــل فيلســـوف الإشـــراق الســـهروردي	– الشيخ يصحب خلال هذه السنوات عددا كبيرا من الأولياء أصحاب ابن العريف وابن المجاهد وأبي مدين وغيرهم. وتتسارع الفتوحات القرآنيـة علـى الشـيخ ومشـاهده الروحيـة مـع عيسى ثم موسى ثم هود وداود وإبراهيم ومحمد علـيهم السـلام – ثم تـتم لـه مشـاهدة جميـع الأنبيـاء في صـعيد واحـد، ثم مشـاهدة ثانيـة لجميع الأنبياء والأولياء وأتباعهم من آدم إلى محمد ρ، وما أن بلغ الشيخ 26 سنة، إلا وقد	وقرطبة إشبيلية	23-26 1187/583 -586 1190

بحلب عام 1191/587.	أصبح شيخا كاملا مكمّلا، وبدأ المريدون يلتفون حوله.		
– وفاة صلاح الدين الأيوبي 589 (1193) – وفاة الشيخ أبي مدين بضاحية تلمسان عام 589.	– الشيخ يكتب للموروري كتاب (التدبيرات الإلهية). – الشيخ يشهد حوادث حياته المستقبلية مفصلة وهو على ساحل البحر بالجزيرة الخضراء. – في سبتة، يتابع الشيخ دروسا في الحديث عند ابن طريف تلميذ أبي الربيع المالقي.	الأندلس والمغرب	29-26 1193/589
– المسيحيون يهاجمون منطقة إشبيلية.	– يسافر الشيخ من المغرب إلى تلمسان، ومنها إلى تونس، حيث ينزل عند شيخين من خلفاء أبي مدين: ابن خميس الكناني وعبد العزيز المهدوي. كما يلتقي بابن ابن قسّي، ويجتمع للمرة الثانية مع الخضر U، ويشاهد أرض الحقيقة في أرض العبودة الواسعة من سورة العنكبوت ويتم له الرسوخ في الإرث المحمدي. ثم يعود إلى الأندلس ويؤلف كتاب المشاهد القدسية ، ويلتقي بالخضر للمرة الثالثة، ويتوفى أبوه ثم أمه .	المغرب العربي	30 1194/590

	– أثر عودته من تونس، توفي علي والد الشيخ، وبعده تتوفى والدته نور؛ ويؤلف كتابه: (مشاهد الأسرار القدسية). ويواصل سياحاته، فيجتمع في إحداها بضواحي روطة على ساحل البحر المحيط بالخضر للمرة الثالثة مع وزير القطب	إشبيلية	30 1194/590
– انتصار الموحدين على المسيحيين في معركة الأرك.	– الشيخ يزوّج في فاس أختيه أم السعد وفاطمة أو العلاء. وتتوالى فتوحاته في منزل الأنوار من سورة ص ويتنبأ بنصر المسلمين على المسيحيين في معركة الأرك بالأندلس من سورة الفتح. ويسمع من محمد التميمي الحديث وكتابه حول أولياء فاس.	فاس	31 1195/591
– يعقوب المنصور على أبواب مدريد.	– الشيخ يأخذ الحديث على أحمد بين محمد العربي من نسل القاضي إمام المالكية ابن العربي (ت: 543). – الشيخ يأخذ خرقة الطريق من عبد الرحمن بن علي القسطلاني.	إشبيلية	32 1196/592

– هدنة عشر سنوات بين	– الشيخ يزوج أختيه في فاس . – الشيخ يشهد مواقف يوم القيامة، وتتوالي عليه الفتوح، فيصبح نورا كله	فاس	35-33 1196/593 1198/595

يعقوب المنصور وألفونس الثامن	كالوجه بلا قفا، وهو إمام بمسجد التميمي الذي يلبسه الخرقة.ويكتب الشيخ (كتاب الإسرا)، الذي يصف فيه معراجه. ويجتمع بقطب الزمان الأشل القبائلي، مع كبار شيوخ الطريق في فاس، الذين يعترفون له بالتقدم والمشيخة. وتتوج إقامته في فاس بكشفه ورسوخه عمّا بشّر به عام 586، وهو أنّه هو خاتم الولاية المحمدية الخاصة. كما أن عيسى υ هو ختم الولاية العامة عند نزوله آخر الزمان وقت الإمام المهدي، الذي هو خاتم أقطاب الأئمة الخلفاء من آل البيت. ويكتب الشيخ في الموضوع: عنقاء مغرب. ويلتقي برفيقه الوفي بدر الحبشي.		
– وفاة يعقوب المنصور وتولي ابنه يوسف. –وفاة ابنرشد. – الملك العادل يحكم دمشق	– الشيخ يجتمع بالبدل محمد بن أشرف الرندي برنده وبالشيخ عبد الله الشكاز بغرناطة ويحضر جنازة ابن رشد بقرطبة عند الإتيان برفاته من مراكش ويودّع الشيخ شيوخه واصحابه في إشبيلية وابن سيدبون في مرسية – وهو من خلفاء أبي مدين – وفي المرية خلال 11 يوما من رمضان، يكتب كتابه الهام: (مواقع النجوم) لرفيقه الدائم بدر الحبشي.	الأندلس	35 1198/595 1199

– وفاة العلامة ابن الجوزي.	– الشيخ يقوم بآخر سياحاته في المغرب، ويودّع أصحابه، منهم شيخه الكومي بسلا.	المغرب العربي	37 1200/597 1201

– مجاعة مهلكة في مصر. – زلزال في سوريا. – فيضان الوادي الكبير بإشبيلية.	وينال مقام القرية خلال توجهه لمراكش في شهر محرم، وفي مراكش، يجتمع بالولي أحمد السبتي، والصالح محمد المراكشي . ويشهد عرش الرحمن، حوله أرواح الصالحين، منهم محمد الحصار الفاسي، فيُؤمر الشيخ بحمله معه للمشرق. ويعود الشيخ لفاس، ويحمله معه بصحبة بدر الحبشي إلى تلمسان، ثم بجاية حيث يبشّر الشيخ بنيله إمامة العلم في أسرار الحروف والنجوم .		
	في تونس يقيم عند الشيخ عبد العزيز المهدوي، ويُؤتى له في المشاهدة بلوح من كنز الكعبة. ثم يغادر الشيخ المغرب العربي نهائيا، متوجها إلى مصر بقصد الحج.	تونس	38 1201/598

	– يقيم الشيخ خلال رمضان في القاهرة مع صاحبيه القديمين الأخوين محمد الخياط وأحمد الحريري. ثم يزور مقام إبراهيم υ بحبرون. ثم ينزل في القدس لزيارة المسجد الأقصى، ويتوجه للمدينة حيث يزور رسول الله ρ . ثم يذهب للحج وفي مكة، يعتلي في مشاهدة	القاهرة فلسطين المدينة مكة	38 1202/598

	برزخية منبر كمال الخلافة المحمدية المخصوصة بالختم المحمدي.		
	– يشرع الشيخ في كتابة موسوعته العظمى (الفتوحات المكية) بعد لقائه البرزخي بالروح القرآني للإنسان الكامل عند الكعبة، والذي يسمّيه (الفتى الفائت). ويحضر دروس الحديث خصوصا من جامع الترمذي، على إمام مقام إبراهيم أبي شجاع بن رستم، والد الفتاة العارفة النظام، ملهمة ديوان (ترجمان الأشواق).	حرم الكعبة	38 1202/598
الملك العادل ينخرط في نظام الفتوة الذي أسسه شيخ صوفية بغداد السهروردي مع الخليفة الناصر.	– الشيخ يأخذ الخرقة من يونس بن يحيي الهاشمي. ويشهد نفسه في رؤيا على شكل لبنتين من الذهب والفضة، في ختام أعلى حائط الكعبة، وهي كلها لبنات ذهب وفضة. – وخلال قراءة أصحابه معه كتاب (الإحياء) للغزالي، يجتمع الشيخ خلال طوافه بروحانية متجسدة لأحمد السبتي ابن هارون الرشيد. ويصحبه مؤذن الحرم موسى القرطبي. وفي 12 جمادى الأولى، يذهب للطائف لزيارة ضريح عبد الله بن عباس، ويكتب رسالة حلية الأبدال)، ويكتب أيضا (مشكاة الأنوار) في الأحاديث القدسية.	الكعبة الطائف	39 599 1203/1202

– الصليبيون يستولون على القسطنطينية والإفرنج يهاجمون حماه	– في ربيع الأوّل، يكتب (روح القدس)، ويسمعها منه 17 من أصحابه، منهم بدر الحبشي، ومجد الدّين الرومي، أبو صدر	مكة	400 600 1204/1203

ويسترجعون صيدا.	الدين القونوي. - يكتب تاج الرسائل بعد واقعة له مع الكعبة، فيسمعه بدر الحبشي ومجد الدين في 24 ذي الحجة. وبعد الحج يتجه الشيخ معهما للمدينة لزيارة رسول الله ρ.	المدينة	
	- يؤلف في القدس كتبا منها (الجلالة)، (الأزل)، (الألف) (الباء) (الهو)...	القدس	41 1204/601
	- في بغداد، يجتمع بالمحدث ابن سكينة، الذي يسمع عنه (روح القدس)، ويتوجه إلى الموصل حيث يكتب (التنزلات الموصلية)ن في أسرار الطهارة والصلاة، ويسمع الحديث من أحمد بن مسعود الموصلي، ويأخذ الخرقة للمرة الرابعة من علي بن جامع، تلميذ قضيب البان. ولبسها ابن جامع من يد الخضر υ. - وفي 29 رمضانن يُسمع الشيخ كتاب (روح القدس) لتسعة من أصحابه، منهم الحبشي، ومجد الدين الرومي. - وفي أواخر السنة، يتوجه معهما نحو الأناضول.	بغداد و الموصل	41 601 1205/1204

- جينكيزخان مع جيوش المغول يصل إلى النهر الأصفر.	- يكتب (رسالة الأنوار، وكتاب العظمة)، في بعض أسرار حروف فاتحة الكتاب، وكتاب الأمر المحكم المربوط، في شروط الطريق وآدابه. وفي صفر، يجتمع	قونية	42 1205/602

	بالشيخ أوحد الدين الكرماني. - يلتقي بالمجذوب مسعود الحبشي. - يكتب كتاب (النقباء)، وكتاب (العقد)، وكتاب (المقنع). - في شوال يزور مقام إبراهيم ويكتب رسالة(اليقين).	دمشق حبرون	
	- لقاؤه بتلميذه العارف ابن سودكين، الذي يسمع منه مع عشرة آخرين، منهم الحبشي وأحمد الحريري، كتاب (روح القدس)، في 19 شعبان. - الشيخ يكتب كتاب (منزل المنازل الفهوانية)، الذي يصنف فيه سور القرآن إلى 19 صنفا، حسب فواتحها. ويكتب أجوبة مختصرة على أسئلة الحكيم الترمذي، في كتاب (ختم الأولياء): 157 سؤالا.	القاهرة	43 1207/603
- الخليفة الناصر يرسل الشيخ السهروردي في مهمة لدمشق	الشيخ يحج مرة أخرى، ويجتمع مرة أخرى بالإمام المحدث أبي شجاع بن رستم، والد النظام.	مكة	44 1208/604
- الملك الظاهر يعيد تشييد قلعة حلب	- قراءة لكتابه (التجليات) في حلب، وهو كتاب في بعض مشاهد آيات لسورة البقرة - سماع " لصحيح مسلم " من أبي الحسن البجائي (شوال)	سوريا و العراق	46 1209/606

- في منتصف صفر عام 609، المسيحيون ينتصرون على جيش	- يجتمع في بغداد بالمؤرخ الدبيثي (ت:637)، حيث يقضي شهر رمضان من عام 608.	العراق و الشام	50-48 610-608 1214/1212

محمد الناصر المحمدي في واقعة العقاب بالأندلس.	– مراسلات بينه وبين الملك السلجوقي كيكاوس. – في حلب، ابن سودكين يسمع شرح الشيخ لكتابه (التجليات).		
	– يعتمر الشيخ بمكة في رجب وشعبان ورمضان، ويكتب ديوان (ترجمان الأشواق). ثم يذهب إلى حلب ويكتب شرحه للديوان بعنوان (ذخائر الأعلاق).	مكة والشام	51 1214/611 1215
– موت الظاهر في حلب، وقدوم الحرب الصليبية الخامسة.	– في مبشرة، يرى الشيخ في رمضان انتصار تلميذه الملك كيكاوس على المسيحيين بأنطاكية، ويكتب له يبشره بذلك.	سيواس وملطية	52 1216/612
– الصليبيون يستولون على دمياط، والمغول يجتاحون فارس، وكابول. ثم فشل الحرب الصليبية الخامسة و المسلمون يستعيدون دمياط. – وفي عام 618، يتوفى الصوفي الكبير نجم الدين كبرى	يقضي الشيخ مدة في ملطية بصحبة كيكاوس وجماعة من المريدين، يسمعون منه كتبه. ويتزوج أرملة صاحبه مجد الدين الرومي، ويتكفل بتربية ابنه صدر الدين القونوي، ويولد له ابنه الأصغر محمد سعد الدين. ويتوفى رفيقه بدر الحبشي. وفي حلب، يلتف حوله 14 من المريدين، يلازمون سماع كتبه، مثل كتاب (القربة)، وكتاب (الميم والواو والنون)، وكتاب (العظمة)وغيرها.	ملطية و حلب	59-53 619-613 1222-1216

– فريدريك الثاني يغزو إفريقيا، ويهجّر مسلمي صقلية. – وفاة الخلفية الناصر (622) – وفاة جنكيزخان (624) وناصر	– يستقر الشيخ نهائيا في دمشق عام 620، حيث يتجرد للعبادة وتربية المريدين الذي يجتمعون عنده لسماع كتبه، ووضع الصيغة النهائية لتآليفه	دمشق وحلب	77-60 637-620 12139-1223

داود سلطان دمشق - وفي عـــام 262، الكامـــل والأشرف، يحاصران دمشق، والكامل يسلم القدس لفريدريك الثاني، والأشرف يملك دمشق. - عام 627، وفاة الشاعر الصوفي فريد الدين العطار. - عام 628، المغول يجتاحون إيران. - عام 632، وفاة شيخ بغداد السهروردي مؤلف (عوارف المعارف)، ووفاة شاعر الصوفية عمر بن الفارض. - عام 633 سقوط قرطبة - عام 635 موت الأشرف و الكامل يحاصر دمشق ثم يموت، والجواد يملك دمشق. - عام 636 سقوط مرسية - عام 637، الملك الصالح إسماعيل يملك دمشق.	الكثيرة الضخمة، خصوصا تفسيره الكبير الذي وصل فيه لأواخر سورة الكهف، وعنوانه (الجمع و التفصيل)، وجمع جل قصائده في ديوان ضخم (ديوان المعارف)، وألف كتبا أخرى أهمها (فصوص الحكم)، في محرم 627، والفهرس للقونوي، ذكر فيه 248 كتابا له. - وفي صفر 629، أكمل كتابة الأولى (للفتوحات) التي بدأها بمكة عام 600. - وفي عام 630، التقى بالجغرافي القزويني، مؤلف (آثار البلاد). - وفي عام 632، يعيد الشيخ كتابه (الفتوحات)، ليتمها عام 636، وفي محرم من عام 632، يكتب إجازة للمظفر، ملك دمشق، ذكر فيها نحو 270 كتابا له.		
	- في 10ربيع الأول تلميذه أيوب بن بدر المقري يسمع عنه كتابه (التنزلات الموصلية). - في 22 ربيع الثاني يتوفى الشيخ ويدفن في تربة بني زكي الذين خدموه وأنزلوه عندهم طيلة مقامه في دمشق.	دمشق	78 1240/638

فهرست

الفصل الأوّل: أسرة الشيخ

والد الشيخ مع رجال صالحين.....
أمّ الشيخ مع نساء صالحات.....
عمّ الشيخ وخالاه.....
شقيقتا الشيخ.....
ذكر سبعين ألف مرة (لا إله إلا الله) يعتق من النار.....
مكانة المرأة عند الشيخ – زوجة الشيخ وأولاده.....
الشيخ مع الحبّ والجمال الإلهي.....

الفصل الثاني: التكوين القرآني والشرعي والعلمي للشيخ ومواقفه من مختلف الطوائف

طفولة الشيخ وحفظه القرآن.....
الشيخ والقرآن.....
الشيخ في بعض المشاهد القرآنية.....
الشيخ مع السيرة النبوية والحديث الشريف والفقه.....
تكوين الشيخ اللغوي والأدبي.....
الشيخ والشعر.....
الشيخ وعلم الكلام.....
الشيخ والعقائد.....
الشيخ والحكمة والفلسفة.....

الشيخ مع الخلفاء الراشدين وآل البيت.....
الشيخ والحكام.....

الفصل الثالث: التكوين الصوفي للشيخ

بعض صوفية الأندلس قبل الشيخ.....
مواقف الشيخ من الشيوخ السابقين.....
بدايات الشيخ في الطريق: معارج المعرفة.....
بداية صحبة الشيخ للشيوخ.....
الميراث الأنبيائي للشيخ.....
الشيخ مع أبي العباس أحمد الخضر υ وخرقة الطريق.....
الشيخ مع ابن مسرة وابن برجان وابن قسيّ.....
الشيخ ومدرسة ابن العريف.....
الشيخ ومدرسة ابن المجاهد.....
الشيخ في مدرسة أبي مدين.....

الفصل الرابع: سياحات الشيخ في المغرب الإسلامي

أوّل سياحات الشيخ في المغرب الأقصى.....
الشيخ في أوّل زيارة لتونس ونيله الإرث المحمدي.....
الشيخ في فاس لأول مرة.....
إقامة الشيخ بفاس سنتي 593 – 594 ونيله مقام الختمية.....
الشيخ في مقام الختم المحمدي الخاص.....

سياحات الشيخ الأخيرة في المغرب العربي ونيله مقام القربة.....
الشيخ من مراكش إلى تونس ومصر وفلسطين.....

الفصل الخامس: الشيخ في المشرق

الشيخ في الكعبة.....
الشيخ من مكة إلى الأناضول ودمشق.....
سياحات الشيخ في الشرق الأوسط.....
استقرار الشيخ في دمشق.....
أثر الشيخ.....
مواقف الناس من الشيخ.....